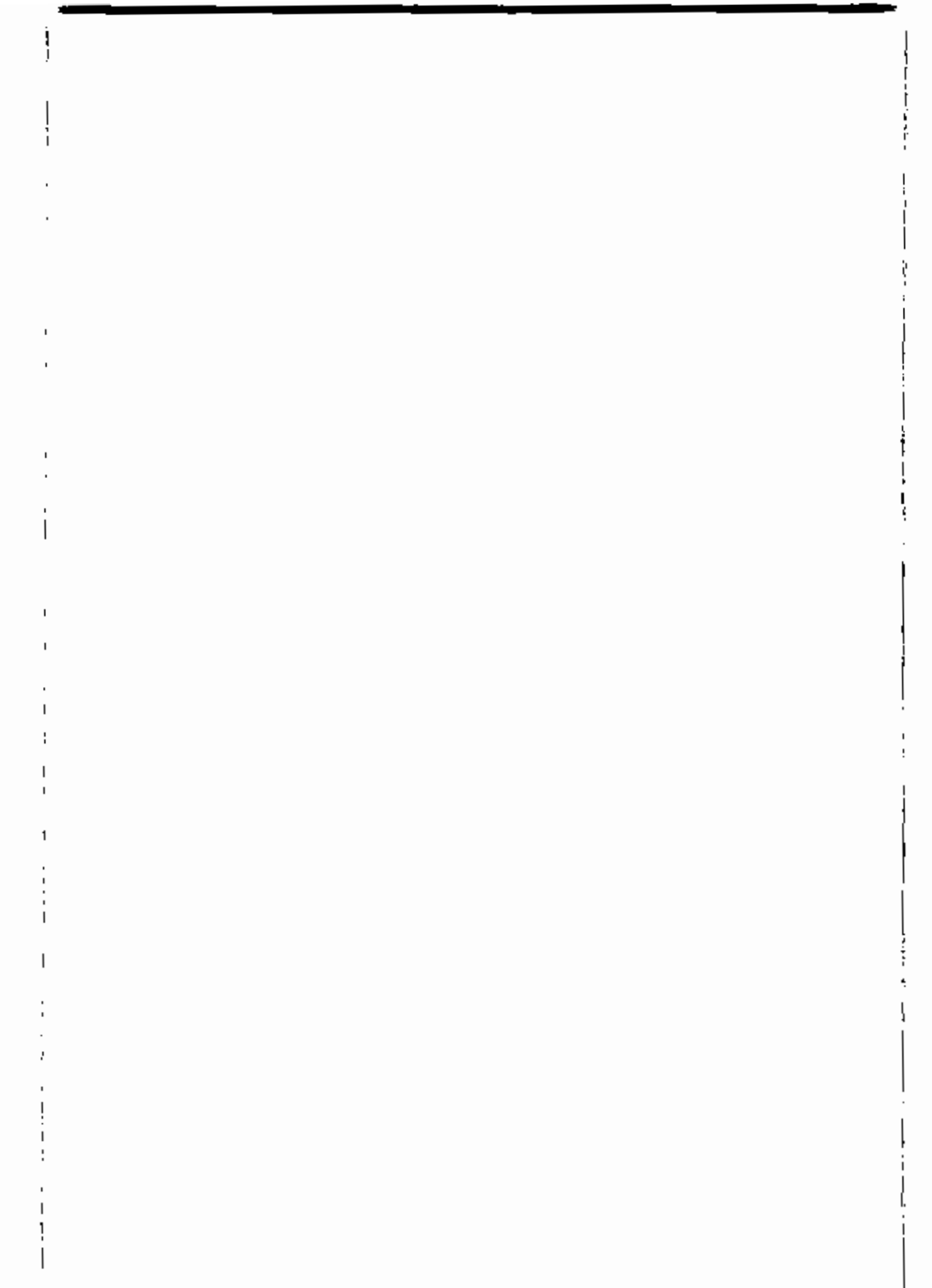


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مجلة كلية الآداب

المجلد الأربعون

العام الجامعي ١٩٩٣/٩٢



تصطو « مجلة كلية الآداب » وإصداراتنا محكمة عن
كلية الآداب بجامعة الاسكندرية وتقدم مخطوطات البحوث
مكتوبة على آلة الكتابة من ثلاث نسخ . ويجب ألا يزيد عدد
صفحات البحث عن ثمان وأربعين صفحة مع القطع المتوسط
مكتوبة على آلة الكتابة.

تقدم البحوث وتكون جميع المراسلات باسم :

الأستاذ الدكتور محمد عبده معجوب

وكيل كلية الآداب للدراسات العليا والبحوث ورئيس تحرير مجلة كلية الآداب

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الشاطبي - الاسكندرية

جمهورية مصر العربية



مجلة كلية الآداب مجلس التحرير

رئيس مجلس الإدارة

الأستاذ الدكتور فتحى محمد أبو عيانه

رئيس التحرير

الأستاذ الدكتور محمد عبده محبوب

مدير التحرير

الأستاذ الدكتور محمد بيومى مهران

أعضاء مجلس التحرير

أ.د. سعد زغلول عبد الحميد

أ.د. سلمى محمود جبر

أ.د. عبد الرحمن محمد العيسوى

أ.د. عثمان سليمان موافى

أ.د. عزيزة سعيد محمود

أ.د. غريب سيد أحمد

أ.د. محمد عبد المحر نصر

أ.د. محمد محمد حلمى هليل

أ.د. محمد محمود السروجى

أ.د. نادية محمود عبد الله

السيدة / تسيى إبراهيم عبد الغنى (سكرتيرة المجلس)

1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
38
39
40
41
42
43
44
45
46
47
48
49
50
51
52
53
54
55
56
57
58
59
60
61
62
63
64
65
66
67
68
69
70
71
72
73
74
75
76
77
78
79
80
81
82
83
84
85
86
87
88
89
90
91
92
93
94
95
96
97
98
99
100
101
102
103
104
105
106
107
108
109
110
111
112
113
114
115
116
117
118
119
120
121
122
123
124
125
126
127
128
129
130
131
132
133
134
135
136
137
138
139
140
141
142
143
144
145
146
147
148
149
150
151
152
153
154
155
156
157
158
159
160
161
162
163
164
165
166
167
168
169
170
171
172
173
174
175
176
177
178
179
180
181
182
183
184
185
186
187
188
189
190
191
192
193
194
195
196
197
198
199
200
201
202
203
204
205
206
207
208
209
210
211
212
213
214
215
216
217
218
219
220
221
222
223
224
225
226
227
228
229
230
231
232
233
234
235
236
237
238
239
240
241
242
243
244
245
246
247
248
249
250
251
252
253
254
255
256
257
258
259
260
261
262
263
264
265
266
267
268
269
270
271
272
273
274
275
276
277
278
279
280
281
282
283
284
285
286
287
288
289
290
291
292
293
294
295
296
297
298
299
300
301
302
303
304
305
306
307
308
309
310
311
312
313
314
315
316
317
318
319
320
321
322
323
324
325
326
327
328
329
330
331
332
333
334
335
336
337
338
339
340
341
342
343
344
345
346
347
348
349
350
351
352
353
354
355
356
357
358
359
360
361
362
363
364
365
366
367
368
369
370
371
372
373
374
375
376
377
378
379
380
381
382
383
384
385
386
387
388
389
390
391
392
393
394
395
396
397
398
399
400
401
402
403
404
405
406
407
408
409
410
411
412
413
414
415
416
417
418
419
420
421
422
423
424
425
426
427
428
429
430
431
432
433
434
435
436
437
438
439
440
441
442
443
444
445
446
447
448
449
450
451
452
453
454
455
456
457
458
459
460
461
462
463
464
465
466
467
468
469
470
471
472
473
474
475
476
477
478
479
480
481
482
483
484
485
486
487
488
489
490
491
492
493
494
495
496
497
498
499
500
501
502
503
504
505
506
507
508
509
510
511
512
513
514
515
516
517
518
519
520
521
522
523
524
525
526
527
528
529
530
531
532
533
534
535
536
537
538
539
540
541
542
543
544
545
546
547
548
549
550
551
552
553
554
555
556
557
558
559
560
561
562
563
564
565
566
567
568
569
570
571
572
573
574
575
576
577
578
579
580
581
582
583
584
585
586
587
588
589
590
591
592
593
594
595
596
597
598
599
600
601
602
603
604
605
606
607
608
609
610
611
612
613
614
615
616
617
618
619
620
621
622
623
624
625
626
627
628
629
630
631
632
633
634
635
636
637
638
639
640
641
642
643
644
645
646
647
648
649
650
651
652
653
654
655
656
657
658
659
660
661
662
663
664
665
666
667
668
669
670
671
672
673
674
675
676
677
678
679
680
681
682
683
684
685
686
687
688
689
690
691
692
693
694
695
696
697
698
699
700
701
702
703
704
705
706
707
708
709
710
711
712
713
714
715
716
717
718
719
720
721
722
723
724
725
726
727
728
729
730
731
732
733
734
735
736
737
738
739
740
741
742
743
744
745
746
747
748
749
750
751
752
753
754
755
756
757
758
759
760
761
762
763
764
765
766
767
768
769
770
771
772
773
774
775
776
777
778
779
780
781
782
783
784
785
786
787
788
789
790
791
792
793
794
795
796
797
798
799
800
801
802
803
804
805
806
807
808
809
810
811
812
813
814
815
816
817
818
819
820
821
822
823
824
825
826
827
828
829
830
831
832
833
834
835
836
837
838
839
840
841
842
843
844
845
846
847
848
849
850
851
852
853
854
855
856
857
858
859
860
861
862
863
864
865
866
867
868
869
870
871
872
873
874
875
876
877
878
879
880
881
882
883
884
885
886
887
888
889
890
891
892
893
894
895
896
897
898
899
900
901
902
903
904
905
906
907
908
909
910
911
912
913
914
915
916
917
918
919
920
921
922
923
924
925
926
927
928
929
930
931
932
933
934
935
936
937
938
939
940
941
942
943
944
945
946
947
948
949
950
951
952
953
954
955
956
957
958
959
960
961
962
963
964
965
966
967
968
969
970
971
972
973
974
975
976
977
978
979
980
981
982
983
984
985
986
987
988
989
990
991
992
993
994
995
996
997
998
999
1000

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
تقديم للأستاذ الدكتور / فتحى محمد أبو عيانه عميد الكلية سبحات فكر فى محراب الأدب	
الانتماء فى الشعر العربى القديم	١
نظام القضاء عند العرب والفرس	٣٧
الأدوات الإشارية فى العربية	٧٧
الصراع العثمانى المملوكى فى مصر ونتائجه	١١١
آثار محمد على بدرب البهارات المصرى	١٣٣
التاريخ الكمى	٢٢١
بنو قفراجين ودرهم فى تاريخ الدولة الحفصية	٢٥٥
ولاية العهد كمدخل طبيعى للحكم فى دول الخليج	٣٩٥
	٣٤٩

الأسس الإنسانية للحضارة العربية

٤٠٩

السيد محمد بدرى

علم النفس والتربية

٤٢٧

عبد الرحمن محمد العيسوى

Dickens's Hard Times ; A Plea For The Imagination

Nur Sherif

Communist Nightmares in Louis Awad's Novel

Amira Hassan Nowaira

تقديم

يسرني أن أقدم لجمهور الباحثين وطلاب العلم العدد الأربعين من مجلة كلية الآداب التي تحرص على انتظام صدورها وإتاحة الفرصة للباحثين لينشروا بحوثهم ودراساتهم بها ، وتعكس البحوث المنشورة تنوع التخصصات بالكلية والتي تتكامل في نهاية الأمر لتعبر عن بنائها الأكاديمي ورسالتها السامية في نشر العلم والمعرفة وخدمة المجتمع . إضافة الى ذلك فإن هيئة تحرير المجلة - والتي تضم نخبة من أساتذة الكلية - تسير على درب الرواد السابقين وتطمح خطاهم حرصا على مستوى النشر في المجلة وقيمتها العلمية.

وقد جاء هذا العدد شاملا لثلاثة عشر بحثا في الدراسات والبحوث اللغوية والعلوم الانسانية ، منها ثلاثة بحوث في مجال اللغة العربية وهي لأدوات الإشارية ، وسبحات فكر في حجاب الأدب ، والانتقاء في الشعر العربي القديم.

وحظي علم التاريخ والآثار والحضارة بسنة بحوث عن : التاريخ الكمي ، وبنو قراجين ودرهم في تاريخ الدولة الحفصية ، والصراع العثماني المملوكي ، وآثار محمد علي بدرب البهارات ، ثم الأسس الانسانية للحضارة الاسلامية ، ونظام القضاء عند العرب والفرس . كما نضمن هذا العدد بحثا في علم السياسة عن ولاية العهد كمدخل للحكم في قطر ، وبحثا آخر في علم النفس والتنمية ، كما اشتمل أيضا على بحثين في الأدب الانجليزي.

ومن نافلة القول أن المجلة العلمية هي المجال الرئيسي لعرض البحوث والدراسات العلمية الجادة في المؤسسات التعليمية العليا ، ومن هنا جاء حرص هيئة التحرير على التدقيق في اختيار الأبحاث والالتزام بالتحكيم المحايد من قبل محكمين متخصصين يحددون مدى صلاحية البحث للنشر في المجلة وفق شروط النشر في الدوريات العلمية المحكمة.

وفي ضوء تزايد عدد أعضاء هيئة التدريس والباحثين في الأقسام

الأكاديمية والمعاهد العليا بالكلية ، وما اكتسبته المجلة من سمعة علمية متميزة ، فقد نزايد الطلب على النشر فيها . وإزاء ذلك تتجه الدية الى اصدار المجلة مرتين فى العام لتصبح نصف سنوية وتشجيع بعض الأقسام الأكاديمية على اصدارها ، والأمل معقود على تضافر جهود أعضاء هيئة التدريس والباحثين لإخراج هذه الفكرة الى حيز الوجود ، مواكبة للتطور فى البحوث والنشر العلمى وتأهيلا لمفهوم التواصل العلمى الجاد فى مجالات التخصص المتعددة التى تميز الكلية وتحدد ملامح شخصيتها الأكاديمية بين كليات الجامعة .

وعلى عن القول أن المجلة ترحب بنشر أبحاث أعضاء هيئة التدريس الشبان فى مجالات اللغة والطوم الاجتماعية والمعارف المرتبطة بهما . وإذا كانت الجامعات المتقدمة تقاس بارتفاع مخرجات التطيم والبحث العلمى بها ، فان ذلك لن يتحقق الا من خلال تعميق البحث وتحديث أساليبه وإيجاد السبل الملائمة للنشر فى الدوريات العلمية ومنها مجلة الكلية - وهى مجلة جميع أعضاء هيئة التدريس والباحثين ومرآة تقدمهم ومقياس عطائهم فى تخصصاتهم المتنوعة والمتكاملة فى آن معا .

وأرد فى النهاية أن أنوه بالجهد الكبير الذى بذلته هيئة تحرير المجلة وخاصة الأستاذ الدكتور محمد عبده محجوب وكيل الكلية للدراسات العليا والبحوث وكذلك زملاء الأفاضل الذين أسهموا ببحوثهم المتميزة فى هذا العدد سواد من أبناء الكلية أو من الكليات الأخرى فى مصر والوطن العربى .

وعلى الله قصد السبيل ، وهو الموفق والمستعان

دكتور / فتحى محمد أبو عيانه

أستاذ الجغرافيا البشرية

رعميد كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

سبحات فكر في محراب الأدب :

للدكتور مصطفى الصاوي الجويني

في محيطنا العربي والإسلامي أجواء وأهواء تتعمد الخلط في المفاهيم الأدبية ومن أجل التصحيح للتحديات الأدبية يكون سؤالنا : ما الأدب ؟

إنه فن لغوي ويكتسب الأدب هويته من اللغة التي كتب بها . فهو أدب عربي إذا كانت لغته العربية وهو تركي إذا كانت لغته التركية ، وهو فرنسي لأن لغته الفرنسية وهكذا .

ولهذا يشيع في كتب التاريخ الأدبي علي المستوى العالمي مصطلح (الأدب القومي) أدب قومي إنجليزي أو فارسي أو ألماني أو أسباني .

ويذهب بعض الباحثين في نظرية الأدب إلي أن الأنواع الأدبية في عصر ما تمثل مرحلة التطور اللغوي التي بلغها هذا العصر ثم هم بعد ذلك يدمجون تاريخ الأدب القومي ، في الأدب المقارن ، والنقد الأدبي ، بحيث يكون الجميع وحدة أدبية متكاملة .

ولقد تعدد المناهج في الدرس الأدبي . بين المنهج التاريخي الذي يربط الأدب بالسياسة ويجعله تابعاً لها فيرتقي بالاستقرار السياسي . وينحط بالاضطراب السياسي ، ومعظم دروسنا الأدبي يتبع هذا المنهج ويصدد فيه عن أحكام عامة خاطئة .

ومنهج ثان يرمي في دراسة الأدب نوع الثقافة التي ينتمي إليها سواء كانت لاتينية أو كانت سكسونية أو شرقية أو هندية .

والمنهج الثالث يرجع لدرس الأدب دراسة بيئية يرصد عوامل الطبيعة والفكر وعقائد ومزاج وسلوك مبدعها وانعكاس ذلك كله في الأدب ، أي رصد

أثر البيئة في هذا الكائن الحي الإنساني وغير هذا منهج يدرس الأدب تبعاً لأجناس أصحابه ، ساميين أو حاميين هنود أو أوروبيين سلاقيين أو صفالية .

ومنهج يقيم الدرس على أساس من المذاهب الأدبية ، كلاسيكية أو رومانسية أو واقعية إلى ما هنالك من مناهج لغوية أو نفسية أو اجتماعية . ولقد يجمع الباحث الأدبي بين كل تلك المناهج . هنا يسمى المنهج تكاملياً .

وإذا كان منهج درسا للأدب العربي في معظمه منهجاً يصنف الأدب إلى عصور سياسية فإننا نخطئ لذلك في فهمنا للمضمون الأدبي العام للأنواع الأدبية وهو الذي لجمته مسداه الخيال والعاطفة والذي قلبه إلى المضمون الصحيح للأدب أوائل القرن العشرين عميد الأدب العربي طه حسين .

عمد هو وزملاؤه في كتاب التوجيه الأدبي وهو مقرر تاريخ الأدب على طلاب التوجيهية المناظرة للثانوية العامة الآن .

فجعل مضمون الأدب يشمل كل المعارف ، تاريخية وجغرافية وفلسفية واجتماعية وعلمية .

والذين المضمون عندهم يشمل المعارف العلمية بأسلوب فني يقنع العقل ويمتدح الوجدان وتابع في هذا مؤرخي الأدب من الأوروبيين حالياً ومجدداً تجديد الجاحظ في منتصف القرن الثالث الهجري للأديب حين قال (هو الذي يأخذ من كل ثقافة بطرف) بما يعني موسوعية الأديب الثقافية التي يعكسها مضمون أدبه الموسوعي . وبعد الجاحظ في هذا الباب مثلاً لمؤرخ الأدب المنظر والمطبق معاً .

وفي رحلة الأدب العربي متابعاً للإسلام من أقصى شرق الدنيا إلى مغربها كانت العربية هي الأدب ويقدم كتاب يتيمة الدهر للثعالبي صورة لهذا

مليار مسلم لغاتهم بعدد لغات الدنيا ويتنوعون في أصول الأنساب والتاريخ القومي والثقافة والفن والعادات والتقاليد والسلوك ويعكس الفلكلور وأدابهم ذلك كله ومثلنا هنا أندونيسيا فمسلموها مائة مليون وخمسون ولغتها الأندونيسية وحسبنا في هذه اللوحة في فرق ما بين العربية والآداب الإسلامية وبعد الدين والسياسة صنفان متميزان في الأدب العربي الجاهلي وتلمحه في صدر الإسلام أولاً والآداب يواكب الدعوة الإسلامية في حربها لوثنية العرب وسياستهم. وتلمحه ثانياً فيما حدث في السقيفة قبل اختيار أبي بكر خليفة للمسلمين وحكاه ابن قتيبة في كتابه (الإمامة والسياسة) وتلمحه ثالثاً فيما جاء عن الخلفاء الراشدين من أقوال ومكاتبات وأفعال هي مزيج من أدب ودين وسياسة وتلمحه بقوة في الفتنة الكبرى علي عهد عثمان ثم في النزاع بين علي ومعاوية والخوارج فإذا جاء عهد بني أمية وجدت أدب الأحزاب من شيعة وزيدية وخوارج وأمويين ثم في العصر العباسي تنشأ ظاهرة الشعبية وهي وإن بدت في ظاهرها طعنًا في العربية ولكنها في حقيقتها كانت صراعاً بين حضارتي الفرس والعرب ، وديانتي المجوس والإسلام .

وفي هذا العصر العباسي تحكم أقصى المشرق دولة البويهيين الشيعية ودولة السلاجقة السنية وفي مقر الخليفة العباسي يسيطر المعتزلة حيناً علي المأمون بينما في القرن الرابع تنشأ إمارة حلب الشيعية ويحكمها سيف دولة بن حمدان وفي القرن الخامس ينتقل الفاطميون من المغرب إلي مصر وينشئون فيها دولة الفاطميين التي تطوع الأدب لفكرها العقدي في نظرية المثل والمثول القائلة بأن ما يجري علي الأرض هو مثل المثول أعلي يجري في العالم العلوي . ثم ينول الحكم إلي الأيوبيين الذين أخذوا المذهب السني الأشعري يمازجه التصوف الإسلامي والعالم الإسلامي اليوم تتوزعه مذاهب أهل السنة من حنبلية وأشعرية ومن وهابية وشيعة ومتصوفة وزيدية ومعتزلة وخوارج . ثم لهذا

الأدب في القرن الخامس الهجري . ويضيف العماد الأصفهاني تصويراً للأدب العربي في بيئات الدنيا في القرن السابع الهجري في كتابه (فريدة القصر وخريدة العصر) .

ومع أن الغلبة كانت للغة العربية على الفارسية فإن الأدب كان يزاوج العربية والفارسية في نصوص من كتاب الثعالبي (البيتعة) . ومن نصوص أخرى في كتاب (جذائق السحر وبقائق الشعر) لرشيد الدين الطواط من رجال القرن السادس الهجري بل إن في الأدب الفارسي نوعاً أدبياً هو الملمعات وهو فن شعري يبدأ ببيت في الفارسية يكمله ثان معني ووزناً بالعربية وعلى هذا تتوالي أبيات الملمعة ووجد من المبدعين من يزاوج بين العربية والفارسية مثل الثعالبي والكاتب الشاعر مهيار الديلمي الشاعر وأبو الفتح البستي الكاتب الشاعر ورشيد الدين الطواط الكاتب الشاعر .

ونعلم من التاريخ أن اللغة العربية حلت في الحديث والكتابة محل اللغات القومية لأهل فارس والهند والشام ومصر وأسبانيا وصقلية وكريت وبل وصارت بعض اللغات في البلاد الإسلامية تكتب بحروف عربية مثل الفارسية والأردية والتركية قديماً .

ومن السهل أن نسهل أن زمان الأدب العربي المعروف في شبه جزيرة العرب مهد العربية هو سبعة قرون ونصف ثم اتساع في أقصى المشرق الآسيوي وفي مصر والشام والمغرب العربي وأسيانيا وجزيرتي صقلية وكريت . وطبعاً بدت لغات غير الأدب العربي في البلاد المفتوحة ولكن يقل عن عمره في شبه الجزيرة العربية الآن .

أما مساحة العالم الإسلامي فهي بقدر مساحة قارات المعمورة . كانت نسب التوزيع السكاني فيها تختلف مع الزمان وإن بافت احصائياتها اليوم

التيار الديني الهادر في الأدب العربي لعوامل أخرى قامت دعوة الأدب الإسلامي تفرد لها حديثاً يلي .

إشكاليات الأدب الإسلامي

أولاً : فرغنا من مفهوم الأدب قديماً وحديثاً .

ثانياً : هل هو أدب إسلامي بلغة واحدة أم أداب إسلامية بلغات الترك والفرس وماليزيا والهند والصين وباكستان ؟

ثالثاً : هل الأدب الإسلامي مضمون بلا شكل واحد يسمى أدباً والأدب عنصراه اللغة والمعنى فحين تتعدد اللغات لا يبقى إلا المضمون ؟

رابعاً : هل يصبح الأدب العربي أدباً إسلامياً أم أن الأدب الإسلامي يكون عربياً وما الذي يفرق بينهما ؟

خامساً : الأدب الإسلامي يرتبط بمساحة الدنيا كلها ففي كل القارات مسلمون كما أن زمانه يمتد إلي خمسة عشر قرناً ويرتبط بتاريخ كل بيئة وأحداث وعادات مجتمعاتها ومزاج ونوق كل منها .

سادساً : إشكالية المذاهب الدينية المتعددة في البيئات الإسلامية بين شيعة وأهل ظاهر ومعتزلة وأشعرية ومتصوفة وخوارج .

ثامناً : هل يكون حل هذه الإشكاليات بأن يكون هناك أدب إسلامي مقارن لا أدب إسلامي قومي .

فرق ما بين إسلامي وعربي :

ينحصر الأدب العربي أساساً في شبه الجزيرة العربية وفي العراق ومصر والشام والمغرب ، أما مساحة العالم الإسلامي فعلي امتداد قارات الدنيا

ولغاته وتتعدد بتعدد لغات الدنيا . وإذن فالفارق بينهما علي مستويات من التاريخ واللغة والجغرافيا . وإذا كان مفهوم الأدب أنه فن لغوي فإن عنصراً من عناصر الأدب الإسلامي وهو اللغة غير متوفر لأن الآداب الإسلامية قد تتفق أو تختلف في المضامين ولكن في الشكل طبعاً هي مختلفة لأن اللغات عربية وإنجليزية وفارسية وتركية وأردية ... الخ . والأدب العربي إنما سمي كذلك لأن جانب اللغة والشكل يسير وفق نظم وأساليب عربية ، والمضمون ينبع من البيئة العربية . وقد يتأثر المضمون بمؤثرات أجنبية ولكن الطابع الغالب ينبع من بيئة العرب وعاداتهم وتقاليدهم ، ومن ثم فهذه إشكالية عريضة . فيجرح أو يعدل تبعاً لسلوكه وسيرة حياته ومن هنا نجد أنه إن توافرت عناصره الإسلامية شكلاً ومضموناً لابد من شرائط في الأديب المبدع ، وإذن فنحن أمام ثلاثة التزامات .

١ - التزامات إسلامية تخص الشكل .

٢ - التزامات إسلامية تخص المضمون .

٣ - التزامات إسلامية تخص الأديب .

مفهوم الموافقة والمخالفة :

ينبغي أن نعرض للأدب الديني الذي يدخل في حيز الأدب الإسلامي مثل أدب الجهاد ومبادئ الرسول صلى الله عليه وسلم وتتضح الصورة ينبغي إدراك الأدب المخالف مثل الشعراء الإلحاد والمجون ولهذا نجد المتصوفة استخدموا استخداماً رمزياً مفهوم المخالفة كالفرل بالأنثي والمنكر والخمرات كلها لديهم رموز في شعر الحب الإلهي وحتى في الفرل الأباحي مثل شعر عمر بن أبي ربيعة الذي تأثر جداً بالعبارة القرآنية من معاني الدين .

الغزل في الشعر العربي الحديث :

حتى في الغزل نجد المعاني الإسلامية من مثل حرمة سفك الدماء في الأشهر الحرام وكظم الفيض والرضا بالكتاب والمقدرة والدعاء للمحب والرضا بما صدر عنه والتعني من الله إلا يسعد المحبوب كما يسعد المحب وكلها معاني من الإيثار لا الأثرة ويقول أحمد شوقي :

ريم علي القابع بين اليان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم
جذبتها وكتمت أسهم في كبدي يا وبي جنبك بالسهم المصيب رمي
لما رنا حدثنسي النفس قائلة جرح الأحبة عشي غير ذي ألم
ياناعس الطرف لأذلت الهوي أبدا أسهدت مضناك في حفظ الهوي فتم

وإذا ما انتقلنا إلى فن حركة النقائض في العصر الأموي صرعت القيم والمثل الإسلامية وإذا أضفنا إليها الشعر المذبح للأسرة الأموية الحاكمة ثم شعر الأحزاب السياسية لوجدنا إلى أي حد كان الإبداع يسير في اتجاه معاكس للقيم الدينية والخلقية .

رواد الأدب الإسلامي :

وفي البداية كانت هناك دعوات إلى أدب إسلامي من أبرز أعلامها :

١ - الشيخ أمين الخولي في شعره أن يدرس القرآن كتاب العربية الأكبر علي أنه نص أدبي للمسلمين والمسيحيين .

٢ - محمد خلف الله أحمد في كتابه دراسات في الأدب الإسلامي وماضيه من نماذج لموضوعات الأدب الإسلامي مثل أدب الجهاد في سبيل الله كما عرض لحركات في الفكر الإسلامي مثل الزهد عند أبي العتاهية

والتصوف في الإحياء للغزالي والمثنوي لجلال الدين الرومي وترجم لشخصية عربية الحجاج بن يوسف الثقفي من منظور نفسي مائتة الترجمة للحجاج والتحليل لخطابته كذلك تعرض للمنهج النفسي للدرس البلاغي والنقدي عند عبد القاهر الجرجاني الذي جعل كتابه الدلائل معظمه بناء العبارة وكتابة أسرار البلاغة في التثنية النفسية للعبارة . ثم من موضوعات الأدب الإسلامي دراسات تدخل في علم النفس مثل الانكفاء لابن الجوزي وما يدخل في مجال التربية مثل أنباء نجباء الأبناء لابن ظفر الصقلي أما سيد قطب ففي كتابه التاريخ فكر ومنهج وأي أن الأدب الإسلامي لدى المسلم المعالي ينبغي أن يصدر عن علاقة بين الأديب والكون فيكون له تصور يشمل العقيدة والخلق والسياسة والاقتصاد والتاريخ والفن وشغل بالتخطيط بهذه الفكرة أكثر مما شغل بالجانب الأدبي منها .

إن فإن فكرة إسلامية الأدب أكثر تحدياً ووضوح ومصادفة للمنهج الأدبي المعاصر هي ما نجده عند الشيخ أمين الخولي . أما أستاذنا محمد خلف الله أحمد فقد فهم الأدب فهماً سليماً علي أنه المعارف الانسانية والنقط هذه المعارف من التراث العربي أو الشرقي أي أن عنايته كانت بالمضمون الإسلامي أكثر من الجانب الفني .

أما سيد قطب فقد كان معه حين تحدث عن الأدب الإسلامي أنه جزئية في تاريخ المسلمين ولم يخطط لهذا الأدب لكنه رأى أن الأديب المسلم يتفاعل بحبوبة مع هذا الكون المحيط به مستكشفاً لأسراره معمراً لهذا الكون .

المضمون الإسلامي

في رحاب قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من نكر وأنثي وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير »

نركن مطمئنين إلى العبودية للإله الواحد خالق هذا الكون واللجوء إلى الأب الواحد والام الواحدة آدم وحواء إلا أن هدف الإنسانية التعارف وعمارة الكون ولا تفاضل إلا بطاعة الله في الأرض والصلاح وعلي هذا نحاسب يوم القيامة وإن في رحاب الوجدانية نبسط القول في الأدب الإسلامي في إطار الأدب الإبداعي الديني يدخل فيه الأدب الملتزم بالمضامين الدينية هو داخل فيه أصلاً ولكن ما الموقف بالنسبة لشعر الألقاء وشعر الخلاعة وشعر أمية بن أبي الصلت وشعر النصرانية للويس شيخو وماوقع من حوار أو قيل من نقد سياسي أو اجتماعي وما نشأ من مراسلات بين الخلفاء والوزراء والقادة ، والولاة وكما قلت سابقاً فإن التراث التاريخي والجغرافي والتراث الديني كله ثم بعده التراث الإلهي كل هذا يلون نسيج الأدب الإسلامي وإن يصبح جانباً كبيراً من أدبنا العربي هو المتأثر بالأدب الإسلام ثم يضاف إليه أدب أمم مثل ماليزيا والهند وتركيا وإيران .

الأدب والدين في عصر بلى أمية (الإبداع) :

ينعكس على شعر الأحزاب السياسية وعلي الشعر العذري .

من مضامين الأدب الإسلامي :

القضايا الإسلامية من المضامين الحية التي تدخل مفهوم الأدب الإسلامي مثلاً ماحدث في السقيفة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم من حوار وصخب وماحدث في فتنة عثمان وماحدث في التحكيم بين علي ومعاوية والحوار والأدب الدائر بين الشيعة والخوارج ثم الأدب الذي دار بين الأحزاب السياسية في العصر الأموي وقضية الشعورية في العصر العباسي واضطهاد العباسيين للعلويين والأمويين في العصر العباسي . ومن الأدب الإسلامي أدب الوعظ نجده عند الزهاد في البيان والتبيين وفي حلية الأولياء لأبي نعيم وفي

أقوال الصوفية وفي مواعظ وحكم ابن عطاء الله السكندري وفي المدهش لابن الجوزي وفي أطواق الذهب للزمخشري وفي مقامات الزمخشري ... الخ .

فن الحوار والمناظرة قد دارت بين الفرق الإسلامية بعضهم وبعض من جانب وبعضهم وبعض أصحاب الديانات الأخرى من جانب آخر هذا إلي جانب المناظرات اللغوية والنحوية والفقهية والأدبية ... الخ وكلها علوم العربية التي هي لغة الدين الإسلامي .

أركان الإسلام والأدب . علي أننا نعتقد من الأركان (الصوم - الصلاة - الزكاة ...) ويندر مثل قول أحمد شوقي في العصر الحديث :

(حرمان مشروع أرتأديب بالجوع ، وخشوع لله وخضوع) .

الدين والسياسة

لأن الإسلام دين ودنيا فقد كان حكم الرسول علي الصلاة والسلام ثم الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين ، كل ماحدث من أحداث وماصدر من مراسلات كلها يمتزج فيها الدين بالسياسة هذه خطبة أبو بكر الصديق حين مبايعته خليفة للمسلمين :

(يا أيها الناس وليت عليكم واست بخيركم فان رأيتموني علي حق فاعينوني وإن رأيتموني علي باطل فقوموني ، القوي فيكم ضعيف عندي حتي أخذ الحق والضعيف فيكم قوي عندي حتي أخذ الحق له)

من مصادر الخطب والرسائل في الجاهلية والإسلام كتاباً مجهرة رسالة العرب وجمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت ، ونموذج من الرسائل ما بعث به الصحابيان (معاذ بن جبل وأبو عبيدة بن الجراح) حين ولايته الخلافة ينصحان له ويقولان أنهم يعرفان فيه الدين ، ويأمرونه بالعدل ويتذكر يوم

الحساب وأن يعلم أنهما صدرا عن صدق له ومحبة وقد ردا عليهما عمر مؤكداً
مضمون ما نصحناه به مؤكداً علي أنه يعرف صدق نصحناهما ويطلب إليها
مداومة الكتابة والنصيحة . وتمتزج في الرسالة عواطف الإخاء والدين وأدب
السياسة وكلها من منابع إسلامية وارتبط الدين بالسياسة ارتباطاً وثيقاً في
التاريخ الإسلامي فكان البويعيون في أقصى المشرق وهم شيعة والسلجقة
وهم سنة وقبل ذلك كانت خلافة علي بالكوفة ثم الأحزاب السياسية في عصر
بني أمية ثم نجد في بلاط سيف الدولة الحمداني في القرن الرابع الحاكم
للشيعة وفي القرن الخامس كان الفاطميون في المغرب ثم في مصر ونعلم أنه
في القرن السادس كان حكام مكة من الشيعة ونشير هنا إلي علي بن وهاس
أمير مكة الذي مدحه الزمخشري .

حركة الشعبية وصورها الجاحظ واتخذت الأدب بعامه والشعر بخاصة
فظهرها للتعبير عنها وهي في جوهرها صراع بين حضارتي الفرس والعرب
وبين ديانتي الإسلام والمجوسية .

صقر قریش (عبد الرحمن الداخل)

أسس صقر قریش عبد الرحمن الداخل وهو من سلالة بني أمية دولة
للعرب في القرن الثاني للهجرة في أسبانيا وقد تداولت عليها مذاهب الاعتزال
والمذهب المالكي والشافعي والشيعة وانتهى الأمر باندماج مذمعي مائك
والشافعي الفقهيين ولا ننسى أن الفلسفة والتصوف هنا كانت تبرق حيناً
وتخفت حيناً .

أدب مصر الفاطمية :

محورية نظرية المثل والممثل فكل ما في العالم السفلي ممثل لمثال في
العالم العلوي وهذه النظرية اعتنقتها دولة الفاطمية ودارت عليها سياستها

وعقيدتها أدبها وفلسفتها .

المصادر

أولاً : مصادر الأدب الإسلامي قديماً :

- ١ - الأمة والسياسة لابن قتيبة .
- ٢ - البيان والتبيين (والحيوان) للجاحظ لما فيه من مناظرات وخطب .
- ٣ - رسائل وخطب الخلفاء الراشدين .
- ٤ - (أدب الدنيا والدين) للماوردي وكتاب (تهذيب الأخلاق) لابن مسكويه .
- ٥ - (المقاييسات) لأبي حيان الترحيدي .
- ٦ - المقالات الإسلامية للأشعري .
- ٧ - الفصل في الملل والنحل للشهرستاني ، و (الفرق بين الفرق) للبغدادي ، و (الانتصار) لابن الخياط المعتزلي .
- ٨ - كتاب التاريخ مثل (السيرة) لابن هشام ، وطبقات بن سعد وتاريخ الطبري واملسعودي .
- ٩ - كتب المتصوفة ، سيرهم وأقوالهم وأشعارهم .

فى الأدب الإسلامى (كتب الترجمة) :

تعني كتب الترجمة الإسلامية بترجمة مفسري النص القرآني مثل طبقات المفسرين للسيوطي الداودي وكتب طبقات القراء وكتب طبقات الحفاظ للمحدثين وكتب الصحابة وكتاب حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني وكتب نقد سلوك المحدثين مثل ميزان الاعتدال لشمس الدين الذهبي ولسان الميزان لابن حجر العسقلاني.

ثانياً : مصادر الأدب الإسلامى حديثاً :

- ١ - (الشعر الإسلامى عند شوقي) لماهر حسن فهمي .
- ٢ - (أصداء الدين في الشعر العربي) سعد الدين الجيزاوي .
- ٣ - دراسة شعراء مسلمين وأدباء ذوي اتجاه إسلامي (عمري حافظ) شعر أحمد محرم عبد الله شمس الدين جوده السحار . علي باكثير . مقالات الشيخ محمد عبده . دراسات طه حسين (علي هامش السيرة) و (الشيخان).
- في الادب الإسلامى يحدد الوشاء مفهوماً للظرف والظرفاء في كتابه الموشى ويهدف به إلي اعطاء نموذج للشخصية في سلوكها وهيئتها ومعرفتها.
- الزمخشري من منظور أدبي إسلامي تطبيقاً لفكرة الأدب الإسلامى :
- ١ - الشعر في ديوانه الذي يترجم للزمخشري وعصره .
- ٢ - السير الذاتية (مقامات الزمخشري) .
- ٣ - الترجمة (مقدمة الأدب) .
- ٤ - الرقائق (أطواق الذهب - الكلم النوابع - النصائح الصغار) .
- ٥ - الأمثال
- ٦ - المحاضرات (ربيع الأبرار) .
- ٧ - الأساليب الأدبية (أساس البلاغة) .

الفن الإسلامي

العامل الديني في الفن الإسلامي

الدين هو المحرك الأساسي للفنان الإسلامي بدءاً من بناء المسجد بصورته الأولى البسيطة ضمن في الوسط تحيط به جنيات مسقوفة ثم تطور إلى أروقة ومحاريب وأواوين ومئذنة واحدة فمآذن متعددة ثم الميضة للوضوء بناغورة متوسطة في ضمن المسجد والحق بعدئذ بالمسجد مدارس لتحفيظ القرآن والحق بالكتاليب المستقلة عن المساجد أسبلة مياه الشرب . شرب الأديمين كما الحق أحواض داخل المساجد تشرب منها الدواب وبنيت الأضرحة والتباب للأولياء والصالحين وأضيقت إليها مساجد كذلك من الأبنية الإسلامية المارستانات لعلاج المرضى والربط والزوايا والتكايا لإقامة المتصوفة والزاهدين أما القلاع والحصون فبنيت للدفاع عن الحصون والجهاد دفاعاً عن دين الله والمسلمين ومن المباني الإسلامي كذلك الحمامات العامة حمامات للنساء وأخرى للرجال ولعب الخط العربي بألوانه ونسيانه دوراً ما فاستخدمها الآيات القرآنية الجدران بالمساجد وزينت بزخارف النبات والأشكال الهندسية للمباني الإسلامية وكان للفنون الزخرفية دورها في الأعمال الحسينية في المنابر وتكة المقرئ وكروسي المصحف كذلك كتبت المصاحف بأنواع الخط العربي الجميل وحليت بأنواع الجلد المزخرف وكان لتحريم الصور شأن في تحديد أشكال الحيوان والبعد عن رسم صورة الكائن علي حقيقتها ومن هنا ترتبط معاني التوحيد وعبادة الله الخالق والرحمة وطلب العلم والجهاد والنظافة التي هي من الإيمان .. الخ من معان بالفن الإسلامي كذلك كان التحريم لاختلاط الرجل بالمرأة أثر في بناء أجنحة في القصور أحد المباني تستقل به الحرم ويسمي الحرمك والثاني يستقل به الرجال ويسمي السلامك والحج هو الركن الخامس

من أركان الإسلام تحرك به وجدان ومشاعر الفنان موسيقياً أو مقنياً يجلو
بالجمال في القديم وهو في رحلة الحج واختلف البعض ولون الشوق في بداية
الرحلة إلى مكة وزيارة الروضة بالمدينة عنها حين العودة ومايقام له من توزيع
عند السفر ومثل ملاقاته عند العودة فمن نماذج الفسحة الرقيقة تزواج شعر
شوقي إلى عرفات وموسيقى السنباطي وأداء أم كلثوم .. وإن جمال الاحساس
لايختلف في القصصي عنه في العامية ولدينا أن أحمد رامي قمة في القصصي
كما هو قمة في العامية ونموذج تزواج الموسيقى الرقيقة للسنباطي والأداء
الراقي لأسمهان والعامية في أغنية عليك صلاة الله وسلامه شفاعة ياجد
الحسين ثم هناك المواويل الدينية حول المساجد الكبرى كالبوصيري والسيد
البدوي والحسين والسيدة زينب وفئة المداحين للرسول لهم دور في توديع
واستقبال الحجيج واستقبال الحجيج يسمونه الملاقاة . ومثاله أغنية لأحمد عبد
القادر في شبابه .

وتصميم المسجد مراعي في خلفيته العامل الديني فعدخل مسجد
الغوري ضيق مظلم كظلمة القبر أو عسر المحشر ثم بأحجة المسجد حيث فج
التوديع يرمز إلى حسن جزاء المؤمنين .

الأغنية الدينية (الإيقاع الإسلامي)

شجع علي إزدهارها ما في القرآن من موسيقى ومافي الأذان علي
اختلاف المؤدين له من نغم ثم تتركز الأغاني الدينية في المدايح النبوية . وفي
التلبية للحج وفي تكبيرات العيد وفي التسابيح والأذكار والأدعية والتواضيع
وفي عمليات الحج والمحمل . وفي عودة وسفر الحجاج وفي استقبال رمضان
وتوديعه ثم ظهرت أخيراً موسيقى وأغاني دينية تصاحب الفيلم السينمائي
الإسلامي أو المسلسل التلفزيوني الديني أو التمثيلية الدينية الإذاعية وني

الأناسيد الدينية باستقبال العام الهجري أو المولد النبوي ... الخ

أنواع أدبية

أدب الجهاد :

وتمثل في الأدب الذي واكب الدعوة الإسلامية ثم من بعد شعر الفتوح ثم أدب الحروب الصليبية في العصور الوسطى والتي سجلها ابن أبي شامة كتابه الزيل علي الروضتين .

الشعر الفلسفي :

الشعر التنسفي الإسلامي مثلاً قصيدة الروح لابن سينا والشعر الذي ترجمه عن محمد اقبال الدكتور عبد الوهاب عزام .

الأدب التعليمي :

نجد في العلوم العربية منظومات ابن معطي في النحو والفية ابن مالك ومثلثات تطرب في اللغة وفي البلاغة البديعيات . ومنها بديعية بن معطي ومنظومة السيوطي وكذلك في العلوم الإسلامية مثل الشاطبية في القراءات وتسمي التيسير ثم منظومات تاريخية مثل أرجوزة بن المعتز ومنظومات في علم الحديث شرح الألفية (علم الدين العراقي) منظومة في علوم الحديث (السيوطي) مقصورة بن مريد في اللغة ويذكر الجاحظ في كتابه الحيوان أن ليس بن المعتمر مزوجة عدتها مئات الايات في علم الكلام .

أدب الرحلة في الحديث النبوي :

إلي الأمصار الإسلامية في الحجاز واليمن والشام والعراق ومصر والمغرب والاندلس يتذاكر العلم ويقابل العلماء أحاديثهم بعضها ببعض موثقين

لها ويتعرضون لأحوال البلاد الإسلامية سياسياً وتاريخياً وجغرافياً وعلمياً
وهكذا يربطهم الحديث النبوي برباط الأخوة الإسلامية .

أدب التجربة الدينية :

قديماً ألف الإمام أبو حامد الغزالي كتابه المنقذ من الضلال عن رحلته
من الحيرة إلى الاطمئنان وفي العصر الحاضر ما كتبه أنيس منصور ومصطفى
محمود « رحلتي من الشك إلى الإيمان » وشعر صالح جودت الإسلامي .

الإذاعة والتلفاز والصحافة :

استحدث في عصرنا الحاضر الإذاعة والتلفاز ومنها نشهد أو نسمع
التمثيلات وأدب الحديث وأدب المناظرة أو الندوات أما في الحافة فهناك
الخاطرة أو المقال والرسالة ففي الإذاعة أو التلفاز نقد للكتب ثم فن أو أدب
التعريف بالكتب في وسائل الإعلام .

فن المقالة :

ويتمثل في الرسائل قديماً وحديثاً مقالات عباس محمود العقاد التي
تضمنها كتبه الإسلامية ومصطفى صادق الرافعي (وحي القلم) وأحمد أمين في
فيض الخاطر وأحمد حسن الزيات من وحي الرشالة ومقالات خالد محمد خالد
مثل كتابه لكي لا تحرثوا في البحر .

تجارب أدبية معاصرة

تلقتي أولاً في ميدان أدب الأطفال بعمل كتبه عبد التواب يوسف
وحاول فيه أن يصور سيرة النبي من خلال حكاية الطير والنبات والحيوان
والجماد .

والعمل الثاني قصص الحيوان (لأحمد بهجت) الذي أسقط عليها مشكلات اجتماعية معاصرة وأشاع فيها من خلفه روحه وظرفه الشيء الكثير وكذلك له كتاب سرور ومقروء ويصفها صاحبها بأنها لا رواية لأن أحداثها تبدأ منذ سكرات الموت إلى ساعة الحساب ويلقي كل من حساب أو عقاب ويمزج فيها بين خياله الفني والواقع الإسلامي .

أدب الحج :

إن ماثيره رحلة الحج من مشاعر إسلامية وأشواق دينية ووجدانات صادقة مجردة تمتزج فيها إن صبح التعبير الإحساس بالدين والدنيا . والكتب التي تتعرض لمثل هذا الموضوع فيها من التاريخ والذكريات وأدب الرحلات والفقه الإسلامي والشوق للأماكن المقدسة منها الكتاب المعاصر هو كتاب ليك اللهم ليك تأليف محمد كامل حنة - كتاب في منزل الرحي لهيكل - كتاب الديواني وكتاب طلع البدر علينا لأبيس منصور - الرحلة الحجازية لمحمد لبيب البتانوني والرحلات الحجازية في جزيئين للواء إبراهيم رفعت .

وقديماً مثل رحلة العبري وابن رشيد وناصر بن خسرو في القرن الخامس الهجري وترجمت من الفارسية إلى العربية ومحمد بن عبد السلام الدرعي .

ومن كتب الرحلات الدينية أيضاً كتاب شكيب أرسلان الارقسامات اللطاف وخواطير الحج حين المطاف ثم إلى هذا رحلة بن جبير وكتاب التبر المسبوك فيما حج من الخلفاء والملوك - للمقرئ حقه جمال الشيال - ورحلة بن بطرطة .

وفي الأدب الديني الأندلسي عن رحلة الحج إلى بيت المقدس حكايات (كانتريي) للشاعر الانجليزي (تشوسر) في القرن الثامن عشر الميلادي أي بعد ما ألف أدب الحج الإسلامي اثني عشر قرناً .

الأدب المعاصر :

ويتمثل في عفة التناول في الهجاء والسخرية من الظالم والظالمين بداية من شعر الهجاء ومروراً بكتاب البخلاء - ورسالة الربيع والتدوير للجاحظ وأخبار الحمقي والمغفلين لابن الجوزي ورسالة الغفران - والصاهل - والشامج لأبي العلاء المعري (الفاشوش في أحكام قراقوش) لابن معاتي .

أدب الدعاء :

وهو نوع من أنواع الأدب الإسلامي ومنه متفرقات في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي ، والتي استخرجها النووي وسمها الأذكار النبوية - هذا إلى أدعية الصحابة والتابعين ونهج البلاغة للشيخ الرضي أدعية منسوبة لعلي بن أبي طالب . وللصوفية أذكار وأدعية وأوراد .

القصة

بعد الخبر والمثل والمقامة ضرورياً من القصة العربية . ولقد تهدف المقالة إلى مغزي ديني أو أخلاقي أو اجتماعي . وكذلك نجد الحال فيما ترجم ابن المقفع من كتاب كليله ودمنة الذي يهدف إلى وعظ الملوك .

ومن المقام حكايات المنام أو مقامات الوهرائي أو ماسمي بالمرائي وهي رؤية صادقة للرسول صلى الله عليه وسلم عند الرائي من شراح الحديث ممن تفقهوا في شرح الحديث وتحليله .

قد تكون المقامة للتصوير الاجتماعي مثل مقامات الحريري وديبع الزمان الهمداني وقد تكون بسيرة ذاتية مثل مقامات الزمخشري وابن نافيا البغدادي .

تنمو القصة في الأدب العربي منمي أخلاقياً أو دينياً مثلما نجده في كتاب المكافأة لابن المداية أو الفرج بعد الشدة للتوفي في قصص البخلاء وأيضاً للخطيب البغدادي والإسرائيليات في التفسير القصصي للقرآن لكن جانب الخلق والدين من أهدافها وفيما ألف من قصص للقرآن في الإسلام أو الجاهلية نجد الخلق العربي في الجاهلية يدعو إلى مكارم الأخلاق وفي قصص الجاهلية عن أيام العرب دليل على ذلك وقل مثل ذلك فيما أثر من أمثال العرب .

الهدف الديني في قصص نشوار المحاضرة للتنويعي . واضح كذلك فيما يحكي من سير المتصوفة (طبقات الصوفية) للشعراني - وفي أخبار الصالحين مثل حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني أو في تراجم طبقات الصحابة ونموذج لهذا نجده في رياض الصالحين لليافعي .

وفي الرواية الإسلامية تتوقف عند عاملين (علي هامش السيرة) لطف حسين و (وإسلامه) لعللي أحمد باكثير ورواية محمد الدين معه لعبد الحميد جودة السحار في نحو عشرين جزء .

المسرح

الصراع في الإسلام والمسيحية :

تقوم فكرة الصراع في الدراما اليونانية علي أساس أن الصراع بين البشر والآلهة تصور فيه انتصار الآلهة فهنا جبرية الآلهة بصرف النظر عن دوافع هذا الصراع والهدف من الدراما اليونانية التطهيرية في المسيحية المسيح يتحمل أوزارهم وخطاياهم وكفر عنهم بالصلب .

أما في الإسلام فالمتقابلات كالليل والنهار والسماء والأرض والظلمة والنور .. الخ ويهيمن عليها الإله ، الجبار وعلي مدي تاريخ البشرية كان رسل الله وأتباعهم الموحدين هم جند الإيمان وخصومهم هم حزب الشيطان هم المشركون.

وتكلف الله بنصر المسلمين وهذه جبرية الخاتمة في الإسلام أن الغلبة في النهاية لله وجنده والهزيمة في النهاية للشيطان وحزبه بل الإنسان نفسه في صراع مع نفسه . « وما أبرئ نفسي أن النفس لأمارة بالسوء » . وأسلحة الصراع قد تكون معنوية من الصبر والحلم وكظم الغيظ والثبات علي المبدأ والتوكل علي الله والإيمان بالغيب ... الخ .

وكما تكفل الله بنصرة الإسلام وكل الأديان في جوهرها هي عند الله الإسلام.

كذلك ضمن حماية المؤمن ضد الشيطان فإنه لا سلطان للشيطان علي عباد الله . ومن المسرح الإسلامي المعاصر في مصر (مأساة العلاج) لصالح عبد الصبور والتي أبان فيها أن ثمن الحرية هي أغلي ما يملكه الإنسان وجوده ولباكثر أيضاً مسرحية (فاوس المسلم) أو (فاوست الجديد) الذي ينهي

صراعه مع الشيطان إلى العودة مع الله لا أن ينتحر كما ألفها (جوته) لباكتير
مسيرة (سر احكام بأمر الله يكشف عن تصوفه) وفي المسرح الإسلامي
أيضاً (الحسن) ثائراً والحسين ثائراً . لعبد الرحمن الشرقاوي . ولقد هزمت
الشرقاوي مأساة أهل البيت الذين تعرضوا لمحنة القتل ممن يزعمون الإسلام
أما الحكيم فله مسرحية (أهل الكهف) وتكبر حول الحب والزمن وشخصية
الناهر بيبوس الحاكم المملوكي . وله مسرحية محمد وفيها تتغلب معجزة النبي
علي التكليف المسرحي فيفلت من يد توليق الحكيم إلا في موضوعين تألق فيهما
لأنهما يختلفان عن بقية المسرحية لأن فيها خيال . أما غيرهما فبناء حوار
من أحداث التاريخ . وأتوال الرسول صلى الله عليه وسلم .

المعلقات والمسرح :

أودع الفنان العربي كل مواهبه التي توجز طاقته الفنية في فنون النحت
والتصوير والموسيقى والإيقاع الحركي - أودع كل ذلك الشعر . ومن ثم فأنني
مع رأي الدكتور فخري قسطنطين الذي حاورت يوماً في شكل ومضمون المعلقات
الجاهلية ورأي فيها مسرحية المونودراما مثلاً معلقة « امرئ القيس » وهو في
حال ضعف وشيخوخة يريد أن يثار لمقتل أبيه ولا ناصر أو معين فيشحن نفسه
بطاقات معنوية يستخدمها من تنكارات الشباب ومغامرات القوة والفتوة .

شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم

الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يتجدد به الزمان والمكان والإنسان .
وهو موضوع يتناول ما أحدثه الإسلام من تحرير شخصية الإنسان وكذلك
ما أحدثه الإسلام من تغيير في المكان بخاصة في شبه الجزيرة العربية وفي
البلاد الإسلامية بعامة . ثم حديث عن قيمة الإيمان في الإسلام وورانا مع
العبادات من صلاة وزكاة وصوم وحج ومعاملات .

كانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى الذي يستلهم روح
الجهاد ضد الاستعمار ثم هو مجال النقاش العقلي بروح المنطق العلمي مع
المستشرقين مثلما نجده في كتاب (حياة محمد) للدكتور محمد حسن هيكل
باشا .

المدائح النبوية :

في الأدب القديم كانت قصيدة كعب بن زهير « البردة » هي موضع
الشرح والتعليق والمعارضات :

بانت سعاد قلبي اليوم متبول متيم أثرها لم يفد مكبول
والدكتور زكي مبارك دراسة في المدائح النبوية ومن أشهرها معارضات
البردة والمديح النبوي شعر البوصيري :

أمن تذكر جيران يذي سلم فرجت دمعاً جري من مقلة بدم
والدكتور أحمد النجار دراسة عن موضوع المدح النبوي وإذا كانت
قصيدة الكعب غير متساوية الجودة الفنية فإن همزية البوصير متساوية فناً
ومطلعها :

كيف ترقى رقيق الأنبياء بأسماء ما طاولتها اسمك

وللبارودي وشوقي وحافظ وأحمد محرم وكثير غيرهم معارضات للبردة
والدكتور علي قاعود دراسة في جزئين عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم
ومدائحه في الشعر الحديث من ١٨٨٢ - ١٩٨٥ وكذلك لانتور السلوسي جامعة
الاسكندرية (المدائح النبوية في أشعار أهل الأندلس ولا تنسى البديعيات التي
تضفي المديح النبوي بالمديح والمعارف الأخرى . ويكفي هذا الإشارة سريعاً
إلى شعر شوقي وعمرية حافظ واللياذة الإسلامية لأحمد محرم والديوان

الصوفي لحنود حسن اسماعيل والمدافع النبوية للبارودي (الكواكب الدرية في هديج خبر البيرية) .

منظور معاصر لدى الغربيين وبعض المفكرين العرب والمصريين :

يقول دكتور مصطفى محمود في كتابه (محمد صلي الله عليه وسلم) أن الغرب وفي هذا العصر المادي وقد غرته انتصاراته المادية العلمية وتطبيقاته لما خلفه أهل الحضارات الأخرى لا يؤمن بالغيبيات والجوانب الروحية فهو يهزأ بالدين والسلوك الديني ومن ثم فإن بعض من نظروا إلي الرسول محمد صلي الله عليه وسلم ومعجزته أنه نبي وإن كان من نوعنا البشري . وهم ينظرون إليه علي أنه مصلح اجتماعي أو بطل أو عظيم أو رسول للحرية أو محرر طبقة البلوريتاريا في عصره ... الخ (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي) .

محمد في كتب الغرب :

ألف فولتير مسرحية محمد وأسقط فيها علي الرسول الكريم وعلي الإسلام ما كان يتعاه ويأخذه علي الكنيسة ورجالها وكان من الجبن والتناقض بحيث طعن في نبي الإسلام وبالإسلام وبما رآه في المسيحية ورجالها وتخوف من العقاب والمؤاخذة في عصر كان التمرد علي كل قديم هو الطابع الغالب ويوصم بالجمود من لم يتمرد ولكن كان هدف ووسيلة فولتير لم تخف علي نقاد عصره فهذا نابليون الكبير يقول : فولتير إنك ظلمت شخصية كريمة عظيمة ليست هذه صفاته التي افتريتها عليه وإذن فمسرحية محمد صورة لعصر وشخصية صاحبها أو مؤلفها .

وإذا كان فولتير في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي يصور بمسرحية محمد صورة العصر الذي يتمرد علي كل قديم ويراه جموداً . فإن

الفيلسوف توماس كادلل في القرن التاسع عشر يمثل روح العقل الذي يبحث عن أصول الحضارة الأوربية فينصف العرب والإسلام الذي أقام حضارة بانخة في أسبانيا سطعت بشمسها علي الغرب ومن ثم فإن كادلل يرى في شخصية الرسول محمد أحد الأبطال الأفاض في التاريخ والذي امتد يده بالإصلاح الاجتماعي في عصره والعصور من بعده .

وكتاب^١ العظماء مائة أعظمهم محمد^٢ تأليف مايكل هارت ولا تعرف هويته الدينية أيهودي أم مسيحي أم ملحد ولكنه من علماء القضاء الأمريكيين وجد في معظمة محمد أنه سلك عملياً ما دعا إليه نظرياً وغير العالم بما دعا إليه وسلكه وكان هو المثال .

سيرة الرسول صلي الله عليه وسلم هي عند فولتير في فرنسا مظهر لإسقاط التمرد علي الكنيسة وفي إنجلترا في القرن التاسع عشر هي عند كادلل رمز الإصلاح الاجتماعي ثم عند مايكل هارت الآن في عصر القضاء تمثل السلوك العملي للمبدأ النظري وإشاعة ذلك في المجتمعات كلها دون هدف ذاتي . ولقد خجل كاتبنا المسرحي الكبير حينما قرأ قصة فولتير التمثيلية (محمد) خجل أن يكون كاتبها معبوداً من أصحاب الفكر الحر . فقد سب فيها النبي صلي الله عليه وسلم سباً قبيحاً وهو يقول في ذلك منذ ذلك الحين فولتير عند متهم ولم أبرئه أبداً ولم أعده أبداً من أولئك العظام الذين عاشوا بالفكر وحده والفكر وحده .

واهتزت صورة رسو بشدة في عين الحكيم حين وجده يتناول بالنقد أعمال فولتير التمثيلية فلم يراه يدافع عن الرسول ما ألصق به من كذب فتخلي بذلك عن موضوعين النقد بسبب التعصب الديني وشخصية الرسول صلي الله عليه وسلم تخلب لب الحكيم منذ ريق الصبا فهو لا يفتأ يردد : (عقيدتي دائماً

شخصية النبي لها أثر كبير) وأول ما يورث وجدانه بشرية الرسول ولهذا تصدر قوله : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي) كتابه محمد الذي جعله سيرة حوارية تبعد عن الخيال وتهاويل الفن . وتلتزم بالمصادر والأحاديث المؤثرة أيداً.

استخلص الحكيم ما حدث بالفعل . وما قيل بالفعل .

وكان الوقائع التاريخية والأقوال الحقيقية ترسم بنفسها الصورة ويقول في ذلك : (كل ما صنعت هو الصب والصياغة في هذا الإطار الفني البسيط ، شأن الصانع الحذر) .

النقد الأدبي الإسلامي

وفد شاعر من تميم علي الرسول صلي الله عليه وسلم فقال : (اعطني يا محمد فإن مدحي دين وذمي شين) . فقال الرسول عليه السلام : (كذبت ، ذاك الله) أي الذي يزين ويشين هو الله ، والرسول يعني أن الله حين يمدح أو يذم فمدحه زين وذمه شين لأنه بحق يمدح الله ويذم بينما الشاعر يمدح عن غرض وعن نوي . وراجع قصة الخطيئة والبرقان بن بدر في كتاب (العمدة لابن رشيق) إذا تلقي القصة ضوء تفسيرياً علي حديث الرسول صلي الله عليه وسلم . لأن الخطيئة مدح البرقان حيث أعطاه فرض الشاعر لأن البرقان منعه عطائه .

النقد الديني في العصر الإسلامي ، وأعني (صدر الإسلام) :

نقد الرسول والصحابة للشعر (راجع العمدة لابن رشيق) لاستخلاص القيم والمثل الإسلامية ثم أن هناك نقداً آخر من جانب الإسلام حذف فيه ما يتصل بسبب الإسلام والرسول والصحابة وهناك محاسبة من جانب عمر

رضي الله عنه للشعراء كالخطبة الذي خرج عن قيم الإسلام الخلقية . هناك مبحث عن المذاهب الإسلامية الأدبية يتعسف حين تعتبر أن الكلاسيكية والرومانتيكية ... الخ هي مذاهب أدبية إسلامية في حين أنها نبت أجنبي نشأ في تربية أفكار وفلسفات وظروف اجتماعية غير عربية ولا إسلامية .

هناك أيضاً خصوصية النص القرآني باعتبار أنه نوع أدبي فريد هو (القرآن) لا شعر ولا نثر وهو في الوقت ذاته مسموع ومكتوب أما الحديث النبوي فهو وسيلة لتفسير النص القرآني ثم هو في الوقت ذاته غرض للدرس الأدبي والنقدي فرادي الحديث تطبيق عليه قواعد نقد خاصة به وكذلك تطبيق قواعد النقد الأدبي على نصوص الأدب والأحاديث .

في كل آداب الدنيا لا يوجد ولا في نصوصها الدينية سماوية أو غير سماوية هذا الشكل الفريد للحديث النبوي الشريف الذي يضم شطرين أحدهما سلسلة الإسناد والآخر فن الحديث النبوي .

علم النص الديني :

في دراسة نص ديني كالقرآن لابد لنا من تصور أطراف فيه :

أولاً: الله سبحانه وتعالى منزل القرآن .

ثانياً: جبريل الذي نزل بالوحي وثبته في صدر الرسول صلى الله عليه وسلم ، موحياً به إليه ومعلماً إياه ما تلقاه من ربه .

ثالثاً: الرسول محمد صلى الله عليه وسلم المنزل عليه القرآن والذي الخطاب في القرآن موجه إليه وإلي أمته .

رابعاً: أمة محمد في حياته وبعد وفاته والخطاب هنا لأمة محمد زمن البعثة ثم فيما يمتد بعدئذ من أجيال وأزمان باعتبار أن الإسلام آخر الأديان

وكل طرف من هذه الأطراف يستلزم من المفسر ثقافة خاصة به أولاً وعامة ثانياً .

أزمة الخطاب في القرآن منذ آدم فرمان الأنبياء بعده ، ثم التوقف عند زمان الرسول والامتداد إلي نهاية البشرية ومن هنا هذه القاعدة القرآنية الأصولية التي تقول (ليست العبرة بخصوص السبب ولكن العبرة بعموم اللفظ).

جماليات الشكل القرآني :

في القرآن يمازج الحوار المنطوق باللسان بنجوي النفس أو حديثها الذي يوافق الكلام المنطوق وهذا نهج مميز للحوار القرآني فمثلاً في سورة الأنبياء، يجري الجدل بين إبراهيم وقومه إذ يقول : (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عابدون . قالوا وجدنا أبائنا لها عابدين) إلي أن يقول في سورة الأنبياء (وتالك لأكيدين أصدنامكم إذ تولوا مذهبين) فواضح أنه لم يعانهم بنيتهم ولكنه حديث النفس . وفي سورة يوسف : تقول امرأة العزيز للنسوة التي أعدت لهن فانيبتها (فذاالكن الذي لمتني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجن ولكونن من الصاغرين) .

فهذا من نجوي النفس فليس مما يتفق وحياء المرأة بأن تصرح برغبتها في شخص أو اشتهاؤها له . (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) نجوي نفسها تصله بكلامها المنطوق (ولئن لم يفعل ما أمره ليسجن) لتلف وغبتها في صورة من هو منهم . ولقد تتسار أو تتصارع النسوة حين يجتمعون معاً فيما لا يصرحن به إذا اختلطن بغيرهم وكذلك يفعل الرجال .

الرمز في القرآن :

وهو في القرآن يتعدى أسلوب الكناية الماكوف في الدرس البلاغي

العربي - في سورة (ص) معادل موضوعي فيما احتكم الخصمان من الملائكة في قضية (أن هذا أخي له تسعة وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها؟ وغرني في الخطاب . وكان حكم داود لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلي نعاجه) فهم داود أن الله قد قفقه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأثاب (. وكذلك الرؤيا في قصة يوسف . وصنيع الخضر ثم تلويكه لصنيعه الذي ظاهره يعجب ويذهل .

التعبير الفني في القرآن :

ينادي مفسر إسلامي مصري به في قوة هو (ابن النقيب) فيري في كتابه (الفوائد المشوق إلي علوم القرآن) والذي نسب إلي بين قيم الجوزية . فيري أن في القرآن من فنون الأدب (الوصف) والفضل والمديح والفخر والهجاء .

الجمال القرآني واختلاف الرأي الإسلامي :

دع عنك ما تخالف فيه المتكلمون من آيات الصفات ولكن ماذا يقول منكرو المجازوفية التعبير في هذا التشكيل الفني لمشهد من مشاهد يوم القيامة (ياأيها الناس اتقوا ربكم أن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم تسأل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) ولا وليد ولا رضاع ولا حمل ولا وضع ولا شكر ولكنه حول الموقف المهييب .

توصل الأصوليون الفقهاء إلي نتائج أسلوبية كان محورها النص القرآني من مثل ما تنازعت العبارة المجاز أو التخصيص فالتخصيص أولي فضربوا لذلك مثلاً الآية التي تتحدث عن أحقية الزوج في إرث نصف ماتملكه زوجته المتوفاه وقالوا هي زوجة للرجل حتي بعد وفاته وإن لم يستطع وضأها فإنه

لايستطيع ذلك حيال حياتها وقت الحيض وفي الصيام .

من خصائص الحوار القرآني :

قلنا بأن من الحوار ما يكون مرجعاً للرسول عليه الصلاة والسلام ويبدو أنه خاص لكنه في الواقع عام . وهناك من الحوار ما هو خاص حقيقة مثل قوله سبحانه (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله تبتغي مرضاة أزواجك) والعبرة هنا ليست بخصص السبب لكن بعموم اللفظ . فما يوجه للرسول أمراً ونهياً هو في الواقع خطاب للمسلمين عامة لأن الرسول هو مبلغ الرسالة إلي أمة الإسلام وإن ما هو خالص فعلاً أو خاص ظاهراً لا فعلاً كلاهما يتجه إلي العموم وإن فلتعارض بين ما هو خاص حقيقة وما هو خاص ظاهرياً .

قد يخاطب الله رسوله الذي أدبه ورياه فأحسن أدبه وتربيته . بقوله : (يا أيها النبي اتق الله) والرسول خير من يتقي الله . ولكنه خطاب للمؤمنين عامة . ويقول سبحانه (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء) وهو خطاب للمسلمين لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يطلق أحد من أمهات المؤمنين .

ويقول تعالى (ولا تنظر إلي ما تمننا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا) والرسول لم تكن الدنيا همه ولو أراد الله لمتع بهما لم يمتع به أحداً . ولكنه خطاب لعامة المسلمين وهكذا نجد من الحوار ما هو خاص الظاهر ولكنه حقيقياً يقصد به العموم .

التفسير العملي للقرآن :

وهو ينحصر فيما كان يفسر به الرسول عليه الصلاة والسلام ثم أبو بكر وعمر وعلي وعثمان وأهل أشهر ما كان يفسر به القرآن عملياً علي يد علي بن أبي طالب الذي شهد له بأنه أقضي الصحابة .

الإرادة الفاعلة :

إن أرقى ذروة أدبية يرقاها القرآن هو تحريكه للوجدان فإذا ما حرك
الإرادة الفاعلة فهذا ما نجده في القرآن والحديث .

القيم والأشخاص في القرآن :

والقيم والمبادئ في الإسلام مطلقة لا ترتبط بالأشخاص تحيا حياتهم
وتموت بموتهم . لقوله سبحانه (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب
ولكن البر من أتقى) وفي غزوة أحد حين أشيع أن الرسول قد قتل أراد بعض
المسلمين النكوص عن الاستمرار في القتال فكان قوله سبحانه الذي ظل يردد
سنين في حياة الرسول (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل فإن
مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا
وسيجزى الله الشاكرين) .

وإنما القيم تتجسم فيمن يترجمها سلوكه . ومن هنا يكون الملتزم بالقيمة
مثالاً : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) .

الالتزام الأدبي الإسلامي باعتباره داعية :

ولقد حرمت البيئة الإسلامية تجسيم شخصية الرسول عليه الصلاة
والسلام والصحابة لأنه يخاف من اسقاطات الممثل الذاتية في سلوكه اليومي
وانعكاسها على شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة وهي اشكالية
لها خطرها .

الأطر والدين :

الأطر النقدية تستعصي على شخصية الرسول حين معالجتها فنياً
يمكن للأدب الإسلامي أن يكون ويمارس نشاطه في مجالات الأدب العربي بلغته

العربية وأدب الأمم الإسلامية بلغاتها الإسلامية وإن كان مجال عمله في أدب الأمم الإسلامية سيقصر أكثر على المضمون لأن الترجمة عن تلك الأدب إن نجحت تستنسخ أطيافاً عن الشكل الأدبي لا روحه .

نقد القرآن والحديث :

حركة نقد القرآن شكلاً وموضوعاً للنقد عليه وهذا قيار ثم تيار آخر للدفاع عنه يتمثل في كتب الإعجاز فيما يتصل بنص الحديث فلأنه لم يكن مدوناً بحيث تصح نسبته إلي قائله وإنما كان مروياً فمن هذا العناية بنقد رواية الحديث بالبحث في سيرهم وتعد ذيلهم بعدئذ أو تجريحهم . ومن هنا يتسم الحديث في الأسب الإسلامي أنه بجانب نقد السند ينقد الرواه للحديث فيتوقف عند مؤلفه ومألف في أدب الدنيا أن النقد ينصب على النقد نفسه أو على صاحبه لا على الرواية ومحور النقد الإسلامي القرآن والسنة .

١ - مثل مباحث الإنجاز ومادار من موازنة بين القرآن وبين كلام البشر عند الباقلاني أو المباحث البلاغية في القرآن والحديث أو ما ألف من كتب . علم الكلام مثل تفسيرية القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار فهنا رد على المطاعن في مضمون القرآن وشكله بعد أن هاجمه الطاعنون وأمثلة من هذا نجدها في كتب الجاحظ وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ... الخ . أما في الحديث فكتب الجرح والتعديل نقد لسلك راوي الحديث . في كتب المصطلحات نقد للرواية نفسها أو للراوين ومن هنا فمراتب الحديث صحيح وحسن وضعيف وشاذ بالمعنى النقدي العام ولكن وظيفتها لا الحكم أو التوجيه أو إعادة تجربة الأديب المبدع أو التفسير وكتب التفسير غاياتها التفسير للنص القرآني .

الأدب الإسلامي المقارن

ويمكن جمع مادته من الإسرائيليات المبثوثة في كتب التفسير وفي كتب الفرق والمقالات الدينية وتنتمي تلك الماثورات إلى مصادر منها التوراة والإنجيل وأساطير اليهود والنصارى وديانات المجوس والوثنية ... الخ .

ولعله يمكن التماس تلك المواد في صورة مواظ نجدها في مثل كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني والفلكور لكلا من الشيعة وأهل السنة . يحفل بهذه المادة الغنية من مزيج المعتقدات والأديان والأساطير .

أنواع رائعة من الأدب الإسلامي في الأدب الفارسي :

س مرغ - لغريد الدين العطار و (مثنوي مولوي) « للرومي » مزيج من النص الديني والإبداع الشعري والقصص والتفسير لهذا كله .

(رباعيات الخيام) تصور في الكون والحياة و (كشف المحجوب) « للهجويري » في التصوف و (بوستان وكستان) « لسعدي الشرازي » في الأخلاقيات .

وكان القرآن والحديث والرسول وسيرته أثرها في « جوته » وفي أدباء روسيا « بوشكسين » و « لسيرمانتوف » و « تولستوي » و « أنطوان بنيه » . وفي شعراء الترويانور بأسيانيا . وفي الكوميديا الإلهية لدانتي في إيطاليا وفي ألف ليلة وليلة في فرنسا ويحيى بن يقظان . وتمثلت في (روينسون كرونويا) إنجلترا ولقد تأثر جوته في الديوان الشرقي للمؤلف الفارسي لروح الإسلام والشرق شكلا ومضمونا وجاءت فصول ديوانه على نمط فارسي (عشق ناله) (سفر نامه) (خدائنامه) وفيها الوجدان الإسلامي الحار الهارب من برودة العاطفة الجامدة في الغرب المادي

أما أدباء روسيا فلقد بهرتهم معاني الفضيلة في القرآن واستوفتهم
سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام بخاصة أحداث الهجرة وكانت حافزاً
للأدباء الروس في إحياء خوصيتهم .

الرأي في الأدب الإسلامي :

مجلد الرأي الدرس الإسلامي فحسب للقرآن والسنة هو باللغة العربية
درس أدبي إسلامي وباللغات الأخرى درس أدبي إسلامي مقارن وحين يكتب
مانقل إلى الأربية أو التركية وينقل ما كتب من القرآن والحديث إلى الماليزية
والاندونيسية كل أولئك يكون في حيز الأدب الإسلامي المقارن .

رأي أخير : والذي أراه دراسة أداب الأمم الإسلامية من منظور علي
النفس الاجتماعي لنقترب منهم ولنرقى بعدئذ إلى مرحلة الدرس الأدبي المقارن
ماعدًا ذلك فدعائي بلا دليل وشعارات خطابية لا معني لها .

خاتمة البحث

أن الدين عند الله الإسلام . أي الأديان كلها من مشكاة واحدة . الله هو المصدر . وهذا القرآن دستور الإسلام بلسان عربي مبين (إنا أنزلناه قرآناً عربياً) فإلي أن تتعرف علي آداب الأمم الإسلامية من منظور علم النفس الاجتماعي وإلي أن تتقارب فكراً ووجداناً وتوحد ألسنتنا العربية إلي حين تلك الغاية نفتح بالآدب العربي في جهة وبالآدب الإسلامي المقارن في جهة أخرى .

"الانتماء في الشعر العربي القديم"

الدكتور مرزوق بن صيخان بن تنباك

الانتماء في الشعر العربي القديم

كانت للعرب في الجاهلية وفي الإسلام مآثر ولها انتماء أصيل في أنسابها والتزام قوي في دلالات تلك الأنساب وما يترتب عليها من علاقات اجتماعية حصيلتها النهائية تعميق الولاء الكامل إلى تلك الأنساب والفخر بها وما يذكره العرب المنتمون من صور الأحداث التي تبعث في نفوسهم قوة الذكر الطيب وتكرر العلاقات الاجتماعية وتجعل الشاعر يفخر بنسبه . وسوف يتحدث هذا البحث عن الانتماء في الشعر بشئ من التوسع أخذاً الشاهد الذي يخدم ظاهرة الانتماء ويقررها ويفخر به . وسيفحص البحث دلالة الانتماء الاجتماعية وقوته في ذاكرة الأجيال وما يترتب عليه من قيم معنوية وما يبعث في النفوس من ضروب الكرامة والشمس . وقد كان محور انتماء العربي ومركز فخره قائماً على ثقته بنفسه واعتزازه بعراقة النسب الذي ينتمي إليه . ولهذا السبب جعلت العرب الأنساب أساس التكوين الاجتماعي والسياسي وربطت بين صلة الرجل بنسبه وقوة انتمائه إلى هذا النسب ومشاركته لكل الذين يجتمعون معه فيما يزعم أنه مرجعية النقاء الأجداد والآباء الذين ينتمون إليهم جميعاً فاهتمت كل قبيلة من قبائل الجزيرة العربية في الجاهلية وفي الإسلام أيضاً بتحديد الروابط بين أبنائها وحرصت ألا تترك في روابطها النظرية وهنا أو ضعفاً يخل في عملية الانتماء الذي تعدد بالغ الأهمية لكل فرد في القبيلة مهما كانت صلته بها . فقامت نظرية الأنساب عندهم المقام الأول وقد أشار الأستاذ الدكتور إحسان النص في مقدمة كتابه القيم العصبية وأثرها في الشعر الأموي إلى اهتمام الأمة العربية بأنسابها قائلاً (١) : « لا نكاد نعرف أمة من الأمم عنت بأنسابها عناية الأمة العربية بها، ولا نعرف أمة عاش ماضيها في حاضرها . وكان له الأثر الفعال في توجيه حياتها الاجتماعية والسياسية والأدبية . كالأمة العربية . آية ذلك كثرة ما محصيه

(١) العصبية القبلية ، ص ١٢ .

المراجع من المؤلفات التي تنازلت أنساب العرب وترجمت لمشاهير علماء النسب .
وقد صدق الصديق كله فإن العرب جعلت من علم النسب بناء اجتماعياً
وتكويناً ديموغرافياً كاملاً وأقامت على أساس هذا التكوين صلات سياسية
ونشأت تكتلات بشرية عظيمة غيرت واقع الدول والممالك في الإسلام ، وأقامت
الحروب والأيام في الجاهلية على مبدأ قناعتها بروابط النسب وصلته بعبائهم
وانتماء كل فرد فيهم إلى هذه الرابطة إنتماء جعله يتخذ المواقف الحادة في بعض
الأحيان على ألا تهتز قناعته بصحة ما يعتقد أو يختل انتماؤه الذي بناه خيال
خصب تتشابه به الحقيقة وشبه الحقيقة . وليس غرض هذا البحث مناقشة حقيقة
الأنساب ولا الحديث عن الآراء حولها ومدى القناعة بصحتها أو عدم ذلك .

لأن ذلك أمر متجدد منذ الجاهلية حتى العصر الحاضر وربما المستقبل .
والحديث عنه يخضع لتصورات اجتماعية وتقاليد وأعراف نشأت عند العرب
واعتمدت معارف علمية ونظرية اتفق عليها رأيهم وأكدها فهمهم لوظيفة
الأنساب ، وقناعتهم بمدلولها والانتماء إليها .

وأصبحت عامل اتصال متفق عليه . فجاء الشعر يعبر عن الانتماء عند
الشاعر ويشرح رؤيته الخاصة وقناعته بما يعتقد سواء كان اعتقاده صواباً تدعمه
الأدلة والبراهين أو كان خطأً وتنظيراً لا أساس له من الصحة لأن المعول في رأي
الشاعر على ما يظنه ويعتقده وليس على ماهية الحقيقة إلا أنه من المناسب
الإشارة في هذا الصدد إلى دراستين علميتين حديثتين عن الأنساب لخصتا
تلخيصاً غير مخل مجمل نظرية النسب عند العرب منذ محمد ابن الكلبي وإليه
هشام إلى آخر ما كتبه أعلام المشرقين في العصر الحاضر فأجملت الدراستان
الرؤية الشمولية العامة لما صدر عن النسابين من آراء حقيقية أو يشوبها الخيال
في تشكيل النسب العربي وما يدعيه النسابون ويعتقده العرب . إحدى هاتين
الدراستين تاريخية علمية جمعت وأحصت وناقشت ما يقوله علماء الأنساب من
وجهة النظر التاريخية وفي بحث نشر في مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة (فؤاد

الأول) المجلد الرابع عشر الجزء الأول مايو سنة ١٩٥٢ م للأستاذ عبد الوهاب حمودة ، واحتلت الصفحات من ١١٩ إلى ١٥٠ من ذلك الجزء .

أما الدراسة الأخرى فأدبية راقية الأسلوب واعيّة الإحاطة في شمولية النسب ونظريته قامت على استقراء غير متعجل لفهوم العرب للنسب واستقراء مثله لآراء القدماء من النسابين العرب والمحدثين من المستشرقين وقد جاءت هذه الدراسة في مستهل كتاب قيم للأستاذ الدكتور إحسان النص وهو « العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي » ، فناقشت جوانب الأخذ والترك فيما يراه العرب ويعتقدونه من الأنساب وناقشت رأي المستشرقين وحققت فيما يدعيه النسابون وما يرفضونه وفي هاتين الدراستين ما يسلط الأضواء الكاشفة على نظرية النسب عند العرب ومدلوله وقيام العلاقات والوشائج المترتبة عليه في نظرهم .

وفي الإشارة إلى هاتين الدراستين ما يعني عن تكرار الآراء حول الأنساب . وما قبل عنها نظرياً . ويدفع إلى أن يعدد الباحث إلى الموضوع الأساسي وهو الفخر والانتماء في الشعر وعند الشعراء خاصة الذين يتعاملون ذهنيّاً مع دلائل النسب النظرية بغض النظر عما يمكن أن يكون قد ادّعاه العلماء أو حققوه في الواقع من صحة أو خطأ . والانتماء والفخر به موضوع قريب الصلة بالنسب ووثيق الارتباط به والعرب أمة يبعثها حب المجد والتطلع إليه وإلى القول به وترتفع بأنعالها وتشيد بأمجادها وتبالغ كل المبالغة إذا حققت مكسباً معنوياً أو أرغمت خصماً عنيداً ولكنها أيضاً تلوم المقصر ولا تهمل في حال الضعف أو الانكسار . وقد لام بعض الشعراء قومه عندما لم يحسنوا في الحرب وانهزموا فيها فزعم أنهم لم يجعلوا له حجة بالفخر أو الإشادة . فقال (١) :

ولما رأيت الخيل زوراً كأنها جداول زرع خليت فامسبطرت

(١) الحسانة . ج ١ ، ص ١٥٧ .

مجاشت إني لنفس أول مرة وودت على مكروهاها فاستقرت
 ظلت كاني للرماح درة أقاتل عن أبناء جرم وفرت
 ولو أن قومي أنطقني رماحهم نطقن ولكن الرماح أجرت
 وهو كناية أوضح من الصراحة تقدر اللوم لقومه ولا تجاملهم أو تعتذر عنهم
 عندما قصروا في موقف الحرب وخانتهم الشجاعة ، فما كان من شاعر القبيلة إلا
 أن أعلن رأيه وأنب قومه ووصفهم بأنهم أسكتوه وقطعوا لسانه ، وألصقوا عنقه
 بالأرض بفعلهم وجبنهم .

وقال مثل ذلك أيضاً شاعر آخر رأى فعل قومه فلم يرضه ولى صبرهم فلم
 يحمد لهم وكان هو واحداً منهم فلم يتحمل الأعذار لنفسه وقومه في موقف أخزاه
 فعلهم ولكنه لامهم على تقصيرهم ومدح خصومهم وذكر صبرهم - أي الخصوم -
 وحسن بلاتهم فقال (١) :

وكنا حسبا كل بيضاء شعبة ليالي لاقينا صداً وحميرا
 قلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ببعض أبت عيدانه أن تكسرا
 سقيناهم كأساً سقرنا يثلسها ولكنهم كانوا على الموت أصيرا
 فقد صبر خصوم الشاعر على الموت فكسبوا المعركة ولم يصبر هو وقومه
 فخسروها فلم يمنعه ذلك من لوم قومه ونفسه وذكر ما فعل خصومه والثناء عليهم
 بما هم أهله . ولم يجد نفسه وقومه كذباً ويدعي زوراً عندما عجزت أفعالهم عن
 تجميعهم .

إن فخر الشعر العربي وانتماء قرينان لا يفرقان ولا يذهب بهما بعيداً عن
 أمجاد القبيلة والأسرة والأبأ . وإن علو ثم يتبع ذلك الانتماء العام للقبيلة فيفخر
 بها ويمجد قرياتها ويذكر أفعالها معتزلاً بما يرثه من أمجاد وما يدافع
 عنه من أحساب القبيلة في حال الشمول للانتماء العام الذي يعد مبداناً واسعاً

(١) الحماسة ، ج ١ ، ص ١٥٦

للفقه الشعر ومصدراً غنياً يستمد منه قوة شاعريته فينتطق بأمجاده وآبائه وأسلابه وينطق بأيام قبيلته وغزواتها وينتمي في كل موقف يوجب عليه حق الانتماء فيذكر في مقاطع شعره جانب الفخر في موقف من المواقف ويذكر في موقف آخر صلاته الشخصية وانتماءه الذاتي الذي ينظر إليه على أنه كينونته وجزء من شخصيته لا يستطيع الاستغناء عنها ولا ينحصر انتماؤه في العلاقات الاجتماعية المحدودة في الحاضر ولكنه يتجاوز به إلى الماضي كله فيضعه بين يديه ويشكل منه صورة حاضرة الذي يريد رسمه للناس على الشكل الذي يرضيه وتطمئن به نفسه فلا يقلق منه ولا يخزي به ، وقد جاء الانتماء في اللغة بمعنى الارتفاع إلى النسب المطلوب الذي يحرص الإنسان على التعلق به والارتقاء إليه ليرتفع مكانه ويعلو شأنه فقال القاموس في مادة « نَمَى » (١) « نَمِيَ إِلَى أَبِيهِ عَزْوَتُهُ وَنَسَبَتُهُ ، وَانْتَمَى هُوَ إِلَيْهِ ، انْتَسَبَ وَفُلَانٌ يَنْسَبُ إِلَى حَسَبٍ وَنَتَمَى ، يَرْتَفِعُ إِلَيْهِ وَانْتَمَى فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ إِذَا ارْتَفَعَ إِلَيْهِ فِي النَّسَبِ وَفَنَاهُ جَدُّهُ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ وَنَسَبَهُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ « فَنَانِي إِلَى الْعَلِيَا كُلِّ سَيْمِدَعٍ » وَكُلُّ ارْتِفَاعٍ ، انْتَمَى » . هَذَا هُوَ مَعْنَى الْكَلِمَةِ اللَّغَوِيَّةِ وَقَدْ اتَّخَذْتُهَا الْعَرَبُ وَجَعَلْتُهَا أَهَمَّ أَسْبَابِ الْإِثْمَاءِ وَالرَّفْعَةِ وَالرَّقِي إِلَى مَدَارِجِ الْكَرَمِ وَالنَّسَبِ وَالْحَسَبِ وَعَمَدَتْ إِلَى الرِّجَالِ الْكَرَامِ فِي سُلْسَلَةِ أَنْسَابِهَا فَخَلَدَتْهُمْ وَانْتَمَتْ إِلَيْهِمْ وَأَلْحَتْ عَلَى انْتِمَانِهَا فِي كُلِّ طَرَفٍ الْإِثْمَاءِ الْأَوَّلِ الْإِثْمَاءَ إِلَى الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ مِنْ سُلْسَلَةِ النَّسَبِ الْقَرِيبِ ، وَالْآخِرِ الْإِثْمَاءَ إِلَى الْجَدِّ كُلِّهِ أَوْ الْقَبِيلَةِ وَشَاهِدُ الْمَثَلِ الْأَوَّلِ قَوْلُ خُفَّاءِ بْنِ نُدْبَةَ (٢) :

أَنَمِي إِلَى مَجْدِ أَجْدَادٍ لَهُمْ عَدَدٌ مَلَلَيْنِ لَوْطَةٍ لَحَقَ أَزْوَالُ
وَمِثْلُ الثَّانِي قَوْلُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ (٣) :

(١) اللسان ، مادة « نَمَى »

(٢) شعر خُفَّاءِ بْنِ نُدْبَةَ ، ص ٩٢ .

(٣) ديوان أَمْرِئِ الْقَيْسِ ، ص ٣١٩ .

وكنة قومي ملوك البلاد فأني إليهم إذا ما انتحيت
كرام المقاري حسان الرجوة فلن يفضحون إذا ما اعتزيت
وكذلك يقول أنيف بن حكم النيهاني (١) :
لهم عجز بالحزن فالرمل فاللوى

وقد جاوزت حبي جديس وعالها
دعوا لنزار وانتينا لسطى كأمد الشرى إقدامها ونزالها
فقد ذكر كل شاعر في الشعر أصالة الانتماء وفخر به وارتفع بشخصه إلى
ماضٍ يادخ في المجد والنسب يرى أنه يعينه على ما يريد من أسماع الآخرين فخرو
ومجده ثم الإقرار له بما يدعي . وقد جاء من شعر امرئ القيس بيت آخر في
المعنى نفسه ، يقول فيه (٢) :

إني امرؤ من خير كندة لست من اشرارها
من خيرها نسباً إذا تسمي إلي أخيارها
وأوضح ذو الرمة انتماء في نسبه وفخره بجذمي معدن وعدنان ليعيد
مطلب النفس إلى قوة الانتماء التي يزعم أنه يتكئ عليها ويحرز مجدها فيحقق
في الانتماء إلى هذين الجذمين قوة معتوية تدفعه للفخر ، فقال (٣) :

أنا بن معدٍ وابن عدنان أنتمي إلى من له في العزٍ وردٍ ومصدر
فكأثر بقومه ورفع انتماءه إلى معد وعدنان ليقيم رابطة الانتماء مع كل
من ينتمي إلى معد وعدنان ، وقد فسر ما يريد من هذا الانتماء في بيت جاء في
القصيدة مبيناً المراد مما يزعم (٤) :

إذا ما تمضرتنا فما الناس غيرنا ونضعف أضعافاً ولا تنمضر

(١) الحماسة ، ج ١ ، ص ١٧١ .

(٢) ديوان امرئ القيس ، ص ٣١٩ .

(٣) ديوان ذي الرمة ، ج ٢ ، ص ٦٥٣ .

(٤) ديوان ذي الرمة ، ج ٢ ، ص ٦٥ .

والثقب العبدى يجد من ميررات المدح لأبي قابوس سبباً يجعل المدوح محتاجاً إلى أن ينسى بمجده إلى الماضي الذي يقرر الشاعر أنه حق له وهو قمين به فيؤكد مرة تلو أخرى فيقول فيه (١) :

فإن أبا قابوس عندي بلاؤه جزاء بنعمى لا يحل كنودها
وجدت زناد الصالحين فمينه قديماً كما بذ النجوم سعورها
ومدح حسان بن ثابت رجلاً ويعزو فخره إلى شرف محتده لا يخزى بانتثائه
ولا يتضام بذكر أبائه وأجداده فيقول (٢) :

بيدي أغر إذا انتمى لم يخزه نسب القصار سميدع مقدم
ثم يأتي انتساء الشاعر إلى ما هو أبعد من أبائه ونسبه فيتنمى أو يدعي
الانتساء إلى المحاد قبلي كبير أو المحادات قبلية كبرى تربط بينها علاقات من
الأحلاف والصلات التي يتخيل العرب أنها عامل مرحد . وقد انتمى نصر بن
سيار إلى قيس عيلان وإلى خندف وفخر بهما وعزا نفسه إليهما جميعاً قائلاً (٣) :

أنا ابن خندف تنميني قبائلها للصالحات وعمي قيس عيلاناً
ولا بد أن الشاعر الذي يفخر بانتثائه ويعدد أباءه وأحلافه ومن يظن أن له
بهم رابطة اجتماعية أو قرابة نسب سيبالغ في المدح ويحشد ما يستطيع حتى
يظهر أمام السامعين في مظهر المدافع عن أحساب القبيلة وأنسابها وما يتعلق بها
وسرعان ما يفضب لها إذا نالها حميم أو نالها عداوة قوم لا يمتون إليها بصلة
القرابة والدم وهي الصلة التي تزعم كل قبيلة أنها متحققة بين أفرادها عن طريق
النسب المشترك وقد جد الشعراء في تأصيل أنسابهم وانتثائهم وأعلنوا روابط هذه
الانتثاءات والأنساب وجعلوا الشعر شاهداً على ما لهم من أسباب القرابة كما أشار

(١) شعر الثقب العبدى . ص ٢٣ .

(٢) ديوان حسان بن ثابت . ص ٤٢ .

(٣) جمهرة ابن حزم . ص ١٠ .

إلى ذلك سلامة بن جندل في قوله (١) :

إلى نيم حماة الشجر نسبهم وكل ذي حسب لي الناس منسوب

ومثله قول جميل بن معمر إذ يقول (٢) :

أنا جميل في السام من معد في الذروة العليا - والركن الأشد

ويقول حسان بن ثابت إنه أصيل النسب صالح الانتماء إلى الفرع الأشم من

الأزد الفحطانية :

إما سألت فإننا معشر لحجب الأزد نسبنا الماء غسان

ومدح سراقه البارقي أحد أبطال قبيلته بارق فيجدها مناسبة أن يذكر فخره

بهذا الرجل وذكره بنسب قومه بارق التي ينتمي إليها فيقول فيه (٣) :

وكان له في ذروة الحمي منصب وليس كمن عضّ القرا بالمشاعب

ولا خامل فيهم إذا ما نسبته ولكنه من بارق في الذوائب

وكلما تردد ذكر الشاعر للنسب برزت أمامه علاقات القرابة ومرجيات الانتماء

التي تجعله ابناً بارقاً لقبيلته معتداً بانتصانه كل الاعتداد مشيداً بها كل الإشادة

بأخذ الأقرب فيذكره ويحدد علاقته به وقرابته منه ثم يأخذ الأبعد قليلاً فيذكره

إما مستثيراً له بالنسب أو ذاكراً ما يمت به من صلة كما يقول أوس بن حجر (٤) :

وخندف أقرب بأنسابهم ولكننا أهل بيت كثر

ومثله عند الطفيل الفزري في قوله (٥) :

إلى اليوم لم نحدث إليكم وسيلة ولم نجدوها عندنا بالنسب

(١) ديوان سلامة بن جندل ، ص ١١٦ .

(٢) ديوان جميل بن معمر العنزي ، ص ١٦٧ .

(٣) ديوان سراقه البارقي ، ص ٨٧ .

(٤) ديوان حجر بن عدي ، ص ٢٩ .

(٥) ديوان الطفيل الفزري ، ص ٣٥ .

أو في مثل قوله في بيت آخر (١) :

إلى كل فرع من ذؤابة طى إذا نسبت أو قيل من ينسب

وجريز الخطفى يذكر نسبه ويرفع إنتماء إلى فرعين من قبائل قيم ذات
السيادة والمروءة والمجد المؤثر فيفخر على خصمه ويقمعه بما لا يستطيع دفعه
ويتغلب بالإنتماء البعيد على ما يدعي الخصم من تواضع مكانة أبيه فيقول (٢) :

أنا ابن فرعي بني زيد إذا نسبوا هل ينكر المصطفى أو ينكر القمر

إن الفخر بقراءة النسب والحديث عنه في العقل العربي يتسع في خيال
الشعراء ويملا مساحات كبيرة من وجدانهم وإذا تكللوا عنه وعن القرابة التي
تربطهم به أخذت العلاقة بعداً ذهنيّاً في لغة الشعر حيث تسيطر فكرة الاتصال
الذي لا يمكن قطع أواصره من العلاقات الضرورية في عمق التاريخ الاجتماعي
والتكوين القبلي والذي قامت عليه القبيلة وارتبطت به وجعلته نسبها الذي لا
تفرط فيه ولا تقبل عنه بدلاً وقلما يتغلب الشاعر عن تأكيد الصلات الأولى في
بداية العهد الذي يحدده للنسب والفخر به والارتقاء إليه وهو يحمل في ذهنه
دلالة خاصة ومفهوماً واضح الرؤية بين المعالم فيجسد الإنتماء العريق ويشكله
بدوائر ذات أبعاد متداخلة سهلة الاتصال فيستطيع الشاعر أن يحصر نفسه في
حال إلى أصغر تلك الدوائر وهي بؤرتها ومركز الانتشار فيها ويستطيع من جانب
آخر أن يتسع في الإنتماء إلى الإطار الشامل للنسب البعيد ، ولذا وجدنا من
الشعراء من يأخذ إنتماءه بالتدرج كالأب الأول والمجد القريب ومنهم من يرتفع
ويدوم فوق النسب البعيد ثم يقع حيث يرى أن ذلك يناسب الحديث الذي يعرضه
من صلات القريب والإنتماء وتكون الأجناس الكبرى للقبائل موضوعاً للفخر
والذكر الجليل عندما يريد الشاعر أن يتحدث عن مجمل الأمجاد التي يفخر بها

(١) ديوان الطفيل الغنوي ، ص ٤٧ .

(٢) ديوان جرير ، ص ٢١٥ .

أو يرتفع إليها في وجدان مستمعيه الذين يطربون لترديد شعره ويشاركونه معنى فخره ويجمعهم توصله في النسب البعيد فيحطي لنفسه المدى الذي يخدم غرضه من المدح إن كان مادحاً ، فيما يقول أو يخفف انغلاق المعنى إن كان في تردد هواه ذلك الانغلاق فيبدأ بما يريد عرضه من صور الفخر والانتفاء فإذا كان الفخر بالشخص ، وجد طريقاً إلى هذا المراد فقال كما يقول المثقب العبدى (١) :

أنا بيتي من معد في الذرى ولي الهامة والفرع الأشم

أو يمدح غيره بما يحققه لنفسه كما في قوله (٢) :

هجري عائدني نسبياً تم للمنذر إذ جلى الخمر

وكذلك يعتمد إلى الارتقاء في سلم النسب البعيد عند الضرورة حتى يعرف الناس هواه من الانتساب ويجمع إليه القبيل الكبير فيشاركه الفخر ويتعاطف معه نسباً وينهض لعونه حمية كما في مثل قوله قيس بن الخطيم (٣) :

ويوم بعث أسلمتنا سيوفنا إلى نسب في جلم غسان ثاقب

ويتلاعب الشاعر بقدرته على وضع اللغة التي يعيد لها رونق الجمال في بناء الصلة والقربة فلا يضطرب ولكنه يعلن الحد الأدنى من القبول الذي يرضيه عن نفسه في مدحه ويرضى عشيرته ويهيئ القبول نسبياً فيجمع بين فخره بنفسه وانتعائه لقومه كما تصور لنا الأبيات الآتية من شعر هببة بن الخشرم العذري إذ يقول (٤) :

إني من قضاة من يكدها أكده وهي مني في أمان

ولست بشاعر السفاسف فيهم ولكن مدره الحرب العوان

(١) شعر المثقب العبدى ، ص ٤٦ .

(٢) شعر المثقب العبدى ، ص ١٦ .

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٣٤ .

(٤) شعر هببة بن الخشرم ، ص ١٣٤ .

سأهجو من هجاهم من سواهم وأعرض منهم عمن هجاني
وعبيد بن عبد العزى السلمي يجمع المحاداً كاملاً لقبائل اليمن في بيت
واحد من الشعر لا يزيد عليه حتى يحقق المطلب الأدنى من أهميته انتصائه إلى
هذا الجذم فيعدد فضل قبائل اليمن على غيرها وسيادتها في الجاهلية وملوكها
مثل النعمان ويدخل نفسه في الذكر لما يريد أن يقول ، فيذكر من النسب الذي
جعله مرجع الفضل ويزعج ما يشاء له خياله من الصلات فيعلنها للناس
قائلاً (١) :

قبائل من غسان تسمو بعامر إذا انتسب والأزد بعد الجوامع
أدان لنا النعمان قيساً وخندقا أذان ولم ينح ربيعة ممانع
ويأخذ عبيد بن الأبرص في مباشرة المعنى من الانتصاء ويفسر رأيه الذي
يرد به على خصمه بلفظ ناهية زاجرة تحمل مقتضيات التهديد المباشر محلولة من
قسوة العقوبة وتسلط الذات فيقول (٢) :

إذهب إليك فإني من بني أسد أهل القباب وأهل الجرد والنادي
نجمع في شطر بيت واحد مقومات السيادة كلها عند العرب وهي القوة
فعبر عنها بالقباب والشجاعة وشدة المراس ، والفروسية وأشار إليها بالجرد الجياد ،
والكثرة والكرم والبذل والعطاء ، وأشار إلى كل ما يجمع المروءة بالنادي حتى يفهم
المقصود من الفخر .

والأفوه الأودي شاعر يعتز بانتصائه إلى اليمن ومذبح وهي لهزمة من
لهازمها وقمة من قمم السيادة فيها فيذكرها ويعرض بخصرمتها مع العدنانية
الجذم الثاني للعرب ويذكر سنن الفضل الذي لحبه بني مذبح ويقابل ذلك بما لدى
نزار فيقول (٣) :

(١) قصائد جاهلية ، ص ١٢٤ .

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص ، ص ٤٩ .

(٣) ديوان الأفوه الأودي ، ص ١٣ .

سنة أورثنا مذبح قبل ان ينسب للناس نزار

والاشارة هنا واعية لمواد تاريخي ومرجعية مدرجة فهو يذكر قدم مذبح وعراقتها في التاريخ ومجدها المؤئل وماضيها في القديم البعيد قبل أن يوجد شيء اسمه نزار . ونزار محدث في الوجود التاريخي فهو لا يرقى إلى المكانة التي لليمن ولا يصل إلى العمق التاريخي الذي ينتمي إليها وقد عرفه كيف يستغل وأقع المفهوم العام عند السامع فيمجد قومه بماضيهم ويشير في البيت نفسه إلى قرب عهد النزارية في الوجود والتكوين . إن انتماء الشاعر واصراره على تحديد مكانه من الهرم الاجتماعي غرض مراد لذاته ووسيلة يحقق فيها معنى الذات التي يتحدث عنها فلا يبعد عن ضروراتها الطبيعية وتكوينها الذي يحرص على بقائه مستمراً في وجدان الناس بحبيه وبعيشه ولا يغفل مكانه الشخصي من نقطة الضوء المنعكس على ذاته وعلاقته بالأحداث من حوله فلا يضعف قوته ولا تذهب شخصيته يقول الأفوه الأودي (١) :

وأخذ حقي من رجال أعزة ولو كرمت أعراقهم والمناسب

إن المعنى الذي عرضه الأفوه الأودي في بيته يدل على الاعتداد بالشخصية الفردية وبعد الأنا الذاتي مؤثراً قادراً على الاستمرار والحياة وبحسب القوة في حساب التأثير فإذا استطاع صد الأقوياء القادرين وأهل النسب العالي الرفيع وصرفهم بقوته عن ظلمه أو الاستهانة بحقه كان فخوراً بنفسه مستعداً للمواجهة مع الواقع الاجتماعي الذي يقيس موضع الإنسان بمقياس قدرته وتأثيره . وشاهد آخر على ما نقول يرد في بيتين لأبيه بن أبي الصلت يأخذان جدلية الخصومة في الذات ويدفعان الحمل عنه ويبعدان الاستخذاء منه فيقول (٢) :

فإذا تسألني عني لبينى وعن نسي أخبرك اليقينا

(١) ديوان الأفوه الأودي ص ٧ .

(٢) ديوان أمية بن أبي الصلت ، ص ٢٩٧ .

ودعنى به يكنى إِياد إليه تنسبني لو تعلمينا
ويستزيد من تقرير الحديث عن قدم محتده وصلابة معدنه فهو القديم
الباقى والمستمر الحي في أذهان الناس الذي لا ينسوته . وماذاك إلا لامتثاته إلى
أبعد الأنساب والأجداد فيذكر نسبه كما يجب أن يذكر ، فيقول (١) :

جدي قسي إذا انتسبت ومنصور بحق ويقدم القدم
وعامر بن جزيْن الطائي يعزز مكانه ويحدد منزله في قومه ويزعم أنه
وسط فيهم منسوب إليهم لا يختل في فضله ولا يطلب أحد فيه عيباً وكأنه ينفي
شبهات الدعاوى التي توجه إليه فيقول (٢) :

إنني غير الذي زعموا واسط في طي نسبنا
ويعدح الأعشى الكبير بني عجل ويذكرهم بخصلتين الأولى النسب القريب
الداني من الشاعر طبعاً والأخرى المجد القديم المؤثر الثابت ومدحه للقوم يستعيد
لنفسه فهو القادر عليه لا يتفك عنه ولا يبعد منه فيقول في ذلك (٣) :

فأبلغ بني عجل رسولاً وأنتم ذوو نسب دان ومجد مؤثر
وطرفه بن العبد يحاول ما حاول الشعراء مثله فينسب بمدحه إلى ذؤابه
المجد القبلي ويضعه حيث السمر والارتقاء المعنوي فيقول فيه (٤) :

من بني بكر إذا ما نسبوا وبني تغلب ضرابي اليهم
وكثير عزة عرف بمدحه بني أمية وحيه لهم وحن أشعاره التي ساقها فيها
يسوق من وصف مكارم القوم ومحامدهم وما يضيف عليهم من حسن الشاء إن
في أخلاقهم أو في أفعالهم وحتى انتماءاتهم يحسن وصفها ويعطي شعره صوة

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت . ص ٢٩٧ .

(٢) قصائد جاهلية نادرة . ص ١٨٢ .

(٣) ديوان الأعشى . ص ٥ ٤ .

(٤) ديوان طرفه بن العبد . ص ١٩١ .

ساعة وساعة السماع والمدة الحديث إذ كل ما يصف وهو مدح بني أمية يعبر عن حرارة العاطفة وحسب الشعور ، ويتجاوز مدحه إياهم مواقف الولاء لآل البيت التي عرفت عنه . وقد مدح بشر بن مروان وأحسن نسبته وانتسابه فقال فيه (١) :

بطاحي له نسب مصفى وأخلاق لها عرض وطول

هذه الاخلاق ذات العرض والطول امتنعت إلى النسب المصفى البطاحي الذي تفخر به فرش وتجمعه مصغر اعتزازها عندما يتسب بعض قبائلها إلى بطحاء مكة لا ظواهرها .

ومدح سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان بلحمة مشبهة لما مدح بشراً به فقرر النسب والانتماء والإرث في المجد البعيد لتستقيم عناصر الفضل له ويقوم الأداء الصحيح بالاستدلال على مروءة المدوح وفضله بتحقيق الصلة بينه وبين البعد النسبي م ، مصغر المجد في رأي الشاعر فقال فيه (٢) :

إذكر سعيداً ؛ خلأت سيقن له ميراث والده والعرق منتسب

يا ابن الأكارم والمحمود سعيهم وابن الذي عرقت في قتله العرب

ولا أدري كيف وفق كثير إلى لطف هذا المعنى على الرغم معارضة الواقع لمعتقدات العرب فيما حدث . وقتل عثمان رضي الله عنه عقوبة نزلت بالعرب . إلا أن الطراقة جاءت في زحزحة دلالتها في رأيه لصالح مدحوه وهو أمر لا يخفى لطفه وحسن تأنيده لمعناه وتغييره ليكون مدحاً ويصبح ثناء ويصلح ذكراً جليلاً فنجح ووفق إلى التخلص المناسب .

والشاعر قادر على أن يصنع هذا الصنيع ويغير النظر ويحسن الأمر فيحسن أو يُقَيِّحهُ فيقبح ولا ريب أن بلاغة الشعر غالبية على الأئدة مؤثرة في الأكباب وحسبنا شاهد بذلك أن الرسول كان أول المتأثرين ببلاغة العرب وإخراجهم

(١) ديوان كثير ، ص ١٢ .

(٢) ديوان كثير عزة ، ص ٢٧١ .

للمعنى من مدلوله إلى ما يمكن قبله ، وقد نسب له قوله : « إن من البيان لسحرا » عندما سمع حديثاً حاول صاحبه تغيير ما قرأ في الألياب وخلص من خطأ المخالفة في قوله الأول ومعناه السابق إلى قول آخر ومعنى مجانب (١) .

وليس الانتفاء في لغة الشعر وعند الشعراء مستمراً على التعميم والشمولية للأسباب العليا والقبائل ذات الانتشار الواسع ولكنه يأخذ ضمن أطر التكرين الشامل في ذكر البيوتات الضخمة في القبيلة ويعطي لها قياً اجتماعية خاصة ويوفر في الحديث عنها أمجاداً لها في إطار التكرين العام الشامل الذي لا يتغير في صورة التركيبة الأسرية ولكنها تأخذ جانب البعد النسبي في تحديد بيوتات العرب حتى لو كانت القبيلة كلها مشاركة في المجد لا تقصر عنه ولا تتعد منه . وهذا ذو الرمة يخص بيوت قميم ويذكر فضلها ويسمي الفصائل العليا ذات الشرف والسيادة فيها وهو بذلك يعطي وجهاً آخر من وجوه الحمد لقرمه ولا يعد تقصيراً ولا نقصاً في البيوت الأخرى والقبائل التي تنتمي إليها تلك البيوت المذكورة فيقول (٢) :

بعد النسابون إلى قميم بيوت العز أربعة كبارا

يعدون الرياب لها وعمرا وسعدا ثم حظلة الخيارا

وكذلك يفعل الأخطل فعل ذي الرمة في قومه تغلب فيصف بطونا منها بالفضل عليها ويذكرها بما هي أهل من الحمد ولا يغضب من ذلك أحد أو يستهجنه مادام الفخر والذكر الحسن شيء متحقق لهؤلاء الذين يذكروهم ويشني عليهم خاصة بعد أن يتحدث عن عموم القبيلة ثم يخص بطونا منها وقد ذكر في هذه الأبيات بطونا من تغلب بل أشهر بطونها الذين يتنازعون السيادة فيها

(١) انظر الحديث عن قصته «ص» مع عمرو بن الأثم والذوقان بن بدر في حديث مشهور مستفيض في هذا الجانب في شعر عمرو بن الأثم ، ص ٦٥ .

(٢) ديوان ذي الرمة ، ج ٢ ، ص ١٣٧٧ .

ظعائن إماً من هلال ذؤابة هجان وإماً من سرة الأرقام
إذا بحثت أنسابهن لسائل دعون عيگیا أو بجیر بن سالم

نخلص إلى علاقة مطردة بين الانتماء البعيد العالوي في سلسلة النسب والإرث الخاص للبيوت ذات الشرف والسيادة في القبيلة كلها وما يحرص عليه المادح من صور التكامل في جانبي التعبير عن العلاقات والولاء والانتماء في كينونة العربي وذات نفسه وهو لا يبعد عن محور الارتكاز في ما يدعيه لقومه إن كان الحديث عن قومه أو لمتوجهه إن كان الحديث مدحاً وذكراً وفضلاً يريد تحقيقه وإظهاره للناس . وقد صار الشعر منذ عصره القديمة نموذجاً للادعاء وتحقيق الانتماء وبناء جسور الربط بين البطن والأفخاذ والعشائر الضاربة في أعماق الفهم البعيد إذ يحصل بينهم روابط تتأصل وتقوي كل مقام شاعر بإحيائها أو مصالح مشتركة تعيد إلى الأذهان أهمية القرى والاتصال فيحسن الشاعر احتياها واستغلالها لصالح مرتف من المواقف حتى يكيف الظروف الملائمة ويلاً فراغ الواقع بالنسب ويضفي على الروابط القوة طابع القرابة وليس ثمة قرابة أقوى من الانتماء إلى جد مشترك يقر بأبوتة كل الذين يخاطبهم الشعراء بلغة التقرير والاعتراف بالصلة القريبة فيحسن العرض لما يريد اقناع الآخرين به ويعيد فيه ثم يأخذه عنه شاعر آخر وراوٍ غيره فيعيد فيه ويزيد من حيثياته ويباعد في تصوراته لقيام الانتماء ثم دمج المتفق عليه عندهم في هيكل الكتلة العصبية التي يقوم عليها بناء الوحدة الكاملة للخلايا الاجتماعية الصغيرة ويعاد إلى هذه الخلايا فتشكل كتلاً أكبر حجماً وأكثر عدداً ويبقى الشاعر يضع في شعره عوامل التقارب والاتصال فيما يفوه به من الشعر أو يتحدث فيه من القرى وقد نظر السابون في علائق النسب في القديم من الزمن وفي الحديث منه فأخذ الشعراء

عنهم الاسماء والاتساب ودلالاتها ومخروها لتشكيل التحالفات القبلية وصلاتها القديمة فعزوها في الشعر في هذا المجال فاستدل السابون والمؤرخون على العصبية بدلالات الشعر القديم ومايزعم الشاعر فيما يذكر من نسب وانتماء فقالوا (١) : إن عدنان وهو أحد الجذمين الكبيرين الذين انقسم عليهما العرب في نظرية الاتساب منذ بدأت لم يذكر في التاريخ القديم ولم يشر إليه القدماء من مؤرخي اليونان والرومان والعهد القديم وإنما ورد ذكره في بيتين من الشعر الجاهلي أحدهما منسوب للبيد العامري وهو شاعر أدرك الإسلام وعاش فيه دهرًا وذلك قوله :

فإن لم تجد من دون عدنان ولدًا ودون معد فلتزعك العراذل
والآخر للعباس بن مرداس وهو شاعر أدرك الإسلام وشارك في أحداثه وكان من قواده البارزين وقد ذكر عدنان بقوله :

وعك بن عدنان الذين تلعبوا بمذبح حتى طردوا كل مطرد
فصار الشعر أقوى دلالة في إثبات النسب . بل إن نزار كما تذكر كتب الأقدمين لم يرد له ذكر في مآثور العرب الجاهلي إلا في بيت واحد لبشر بن أبي خازم (٢) . وهو أيضاً من عاش قبيل البعثة بفترة قصيرة إذ يقول :

مضى أسلاف حتى نزلنا بأرض قد تحامتها نزار

وقد أصبح نزار والنزارية في القرن الأول من الإسلام أكبر الأحملاف ومع فجر الإسلام وماتلى من تغيير ديموغرافي كبير قويت الفكرة ونشطت في خلق حجم معقول لتشابه الأواصر والأنساب فوجد بالضرورة الانتماء والإحساس به وبدأ بأخذ مساره في وجدان القبائل العربية وعلى السنة شعرائها فأوردت التصانيد الطوال كما هائلًا من الشعر الذي يعرض هذا البحث جزءًا منه ينبض في قوة الفخر

(١) انظر العصبية القبلية وأثرها في شعر بن أمية . ص ٣٨

(٢) انظر العصبية القبلية . ص ٤١

والانساب ويعلن مكان الفخر بالأباء في قمة الصدارة الاجتماعية والمعنوية ووردت فيه أسماء الأجداد والأحلاف التي كونت العصبية الكبرى في الإسلام مثل العدنانية والمضرة أو النزارية والقيسية وخندف والنقحطانية وغيرها مما حفل الشعر بذكره والحديث عنه والانتماء إليه والفخر به .

ذكر الأبناء خاصة ،

قبل الانتماء البعيد في النسب لابد أن يكون الشاعر قد حقق انتماء الخاص وفخر بحريته هو دون غيره واعتزى بأبائه الأقربين وحدد ممكن قوته في قومه أو في الذين سيتعرض لهم في شعره إما مادحاً أو قاذحاً . وما الانتماء البعيد إلا خطوات سبقها الصعود في درجات هرم النسب الذاتي حتى استقرت في قمة الهرم الأعلى ، وبناء النسب يقوم على التدرج الموضوعي ويجعل التكوين الأقرب أوضح المعالم في تشكيلة الانتماء الشامل كله وفي النسب القريب تكون السيادة في القبيلة وفي المجتمع ولما تأتي ارجحالية أو ابتدائية حتى وإن وجد من الرجال من يبدأ يضع لنفسه مجداً حادثاً ويرتفع السيادة بنفسه وشرف ذاته إلا أنه لا يكون له في الفخر مثلما يكون لأهل المجد المؤثر ولا أدل على ذلك من تسمية من هنا شأنه « نبيته » وهو معنى يدل على بروزه دون امتداد جذور تاريخية بعيدة . أما الشرف الموروث والمجد المؤثر فهو الأظهر عند العرب وقد سماوا من يرث السيادة من بيوتات العرب وعدوها وذكرها رجالها (١) . وفخر عامر بن الطفيل بأنه جمع لحسين ورائة المجد عن الأبناء وملكة السيادة والقيادة في نفسه وفي طبيعة تكوينه الذاتي وقدراته المكتسبة لا ورائة متفاداة إليه فقال (٢) :

فباني وإن كنت ابن فارس عامر وفي السر منها والصريح المهذب
فما سودتني عامر عن ورائة أبى الله أن أسمر بأب ولا أب

(١) الكامل ، ج ١ ص ٧٨ .

(٢) ديوان عامر بن الطفيل ، ٢٨ .

ولكنني أحصي حماها وأتقى أذاها وأرمي من رماها بمقنب
ومن الطبيعي أن يكون الفخر بالانتحاء القريب أولى من المدح بالانتحاء
البعيد ولم يغفل الشعراء عن ذلك ولم يخلوا الشعر من هذه الظاهرة فقد مدح
كثير عزة في القرابة واحتذاء الأبناء فضل الآباء فقال فيمن مدح (١) :

جنى لأبي حفص ذرى المجد والد بني دونه للبانين صروب
فهذا على بنيان هناك بيتني بناء وكل منجب ولجيب
وجد أبيه قد ينافى على البناء بناء ، وكل شب وهو أديب
فأنت على مناجهم تقتدي بهم أمامك ماسدوا وأنت عقيب
فأصبحت تحذو من أهلك كما حلأ أبوك أباء فعله فتصيب
وأمسيت قلبا نابتا في أرومة كما في الأروم النابتات قلوب
وأنت الملقى من هنا ثم من هنا ومن هاهنا والسعد حين تزوب
وجاء قول أبي نواس مشابه في المراد من النسب القريب والرشائج الأولى
فقال يمدح أيضاً (٢) :

إن من ساد ثم ساد أبوه قبله ثم قبل ذلك جده
وقد لجأ عباس بن مرداس في احتجاجه المشهور على تفضيل النبي (ص)
لبعض أنداده عليه في العطية فقارن أباء بآباء الذين فضلوا عليه وجعل أباء
مثلهم أو خيرا منهم واتمس إلى مرداس أبيه وعرض بالآخرين وبأبائهم قائلاً (٣) :

أجعل نهبي ونهب العبيد بين عينية والأقرع
فما كان حصن ولا حابس يفوقان مدراس في مجمع
إن فخر الرجل بأبيه هو الجملي الواضح في هذين البيتين وغيره كثير عند

(١) ديوان كثير ، ص ١٦٧ .

(٢) ديوان أبي نواس ، ص ٤ . وانظر خزائن الأدب ، ج ١ ، ص ٣٧ .

(٣) ديوان عباس بن مرداس ، ص

الشعراء الذين يجعلون الفخر الأول للأبوة القريبة والانتساب إليها فيقول
جرير في ممدوحه (١) :

فيا ابن الأكرمين إذا نسبتم وفي الأثرين إن حسب العديد
ويقول عن ممدوح آخر (٢) :

وقد وجلوك أكرمهم جنوداً إذا نسبوا أثبتهم مقاماً

ولا يقتصر الفخر والانتساب إلى الأباء والأجداد من الأصحاب دون الانتساب
والفخر بالأم وذكرها في مجال المدح والفخر فنسب الرجل إلى أمه ويدح باسمها
وذكرت مع أبيه وجمع بينهما بل قدم نسب الأم على نسب الأب في بعض الشواهد
كما في مدح جرير لعمر بن عبد العزيز الخليفة العادل إذ يقول (٣) :

إلى الفاروق ينتسب ابن ليلى ومروان الذي رفع العبادا

لأن جد عمر بن عبد العزيز لأمه هو عمر الفاروق وأبوه عبد العزيز بن
مروان الذي كان هو الآخر يدح بأمه ليلى كناية حتى عرف الشعراء عنه حبه لذلك
فاكثروا مدحه ونسبوه إلى أمه ليلى كما جاء في قول نصيب (٤) :

يقول فيحسن القول ابن ليلى ويفعل فوق أحسن ما يقول

ومدحوا كثير عزة وذكر أمه وانتساباً إليها في مثل قوله أيضاً (٥) :

ولولا الله ثم ندى ابن ليلى وأني في نوالك ذوارتغاب

ونازعني إلى مدح ابن ليلى قوافيها منازعة الطراب

(١) ديوان جرير ، ص ٢٩١ .

(٢) ديوان جرير ، ص ٢٢٤ .

(٣) ديوان جرير ص ١١٨ .

(٤) ديوان نصيب بن رباح

(٥) ديوان كثير ، ص ٢٧٩ .

وقال فيه أيضاً (١) :

إليك ابن ليلي تمتطي العيس صحتي ترامي بنا من مبركين المناقل
تلفيها دون ابن ليلي وشفاها سهاد السرى والسبب المتاحل
وأنت ابن ليلي خير قومك مشهدا إذا ما اخأزت بالعيط العوامل
ومدح القطامي أسماء بن خارجة وأكثر في مناتحه له من ذكر انسابه إلى
أجداده وأبائه الآخرين وخص أمه بالذكر وصرح باسمها مادحاً فقال (٢) :

مفداة بنت الحصن أمك فانتسب إلى النسب الرابي الربيع الدعائم
وكذلك يمدح بني دارم ويذكر فضلهم واتسابهم إلى الأبوين فيقول (٣) :
وماضٍ منسوباً أبوه وأمه إلى دارم ألا يكون لهاشم
وقد قرن الشعراء ذكر الأب والأم على حد سواء في ملاحقة الاتساء والفخر
به كما جاء في قول كثير (٤) :

أتزعم أنني من كنانة والدي وما لي من أم هناك ولا أب
وكذلك يفعل عمر بن أبي ربيعة فيذكر الأم وأبائها وأعمامها ومن ينتمي
إليهم من أقربائها فيقول (٥) :

أبو أمها أو في فريش بدمه وأعمامها إما نسبت ثقيف
ويفخر عترة بانتحانه إلى سيفه ورمحه وجواده ويضع آلات حربه وعدة
قتاله موضع الأم والأب له ويعزو فخره بهم كنا يفخر الرجل ذو الجذ بنسبه من كلا

(١) ديوان كثير . ص ٢٩٣ .

(٢) ديوان القطامي . ص ٧١ .

(٣) ديوان القطامي . ص ١٧٩ .

(٤) ديوان كثير . ص ٢٣٥ .

(٥) ديوان عمر بن أبي ربيعة . ص ١٣٦ .

جانيه (١) :

جوادي نسبي وأبي وأمي حامي والسنن إذا انتسبنا
وقد استمر الشعر في ذكر الأنساب على ألسنة الشعراء يدحون بالنسب
العالي الرفيع ويفخرون بما يجلب الفخر لهم من صور الاقتراب إلى المجد القلبي
الباذخ فيخص الشاعر نفسه بنسب قريب من الأباء والأجداد والعشيرة القريبة وقد
يرتفع في مكان آخر إلى جذم القبيلة البعيد كل البعد عنه وماذا لك إلا لما يريد هو
من الانتساب وما يعتمد عليه مراد الشاعر فيما يذكر من الشعر مدلاً على
شعوره بالانتماء وحاجته إليه ولا سيما إذا ذكر الفخر والتعدي لأجداد القبيلة كما
يقول الأعشى (٢) :

ونحن أناس عودنا عود نبعة إذا انتسب الحيان بكر وتغلب
ويقول في موضع آخر في المعنى نفسه (٣) :
ألسنا نحن أكرم إن نسبنا وأضرب بالمهنة الصفاح
أو يمجّد نفسه ويخص أهله ويؤكد القرابة والصلة فيمن يريد أن ينتمي
إليهم من الأفخاذ أو البطون والقبائل كما يقول حسان بن ثابت (٤) :
وسطت نسبتي الذوائب منهم كل دار فيها أب لي عظيم
ويفخر النخعي بنفسه وذكره ويصف شهرته ومعرفة الناس له وارتفاعه في
الحافقين فيقول (٥) :

إن يعرفوني فمعروف لذي بصر أو ينسوني فعالي الذكر مشهور

(١) ديوان عنترة ، ص ١٧٦ .

(٢) ديوان الأعشى ، ص ٢٥٣ .

(٣) ديوان الأعشى ، ص ٣٩٧ .

(٤) ديوان حسان بن ثابت ، ص ٤٣٤ .

(٥) ديوان الراعي النخعي ، ص ١٤٣ .

ومدحون بتقارب الانساب وصلة الانتماء المباشرة غير البعيدة لما في ذلك من الانصهار في أهداف مشتركة كل منها يحقق أغراض الشاعر ويخدم الجماعة التي تتصل به في النسب القريب فيكون تفاعله مع ذلك أقوى وأكرم كما في شعر ساعدة بن جؤية إذ يقول (١) :

متقارب أنسابهم وأعره توقي بمثلهم الظلام وترهب

ويشرح الشاعر ما يحس به الذين لا ينالون شرف النسب عندما تذكر الأنساب فيقلق الذين لا نصيب لهم فيها ويخشون المعرة ويخافون عقابيل الانتساب . أما الشاعر الواصل من انتمائته وعلو محتده وفضل نسبه في الملأ فلا يساوره ذلك القلق ولا يخشاه وقد عبر ساعدة ابن جؤية عن هذا الالهاجس بقوله (٢) :

ولا نسب سمعت به قلالي أخاطله أميم ولا خليل

تهر واثق بفضل انتمائته ألا يقلق من الذكر في الناس إذ لا يعيبه أحد ولا يخشى من أحد مهما بلغت العداوة والشحناء . فانتماؤه حصن يقيه وبقي عرضه وبعد به عن اللوم .

فلا يشعر بغضاضة الانتماء أمام الناس ولا يخزي عندما يذكر مجد الأباء والأجداد . ولا يلجأ الشاعر إلى التحقيق في انتمائته إلا حين يفخر بمجده ويكاثر بعنده ويعتد بأصالته ونسبه وفضائل نفسه ويدعي ما يجب أن يعرفه الناس له فيحشد لذلك ما يستطيع من الشواهد والأفعال ويحتفي بذلك أيما احتفاء ويجتهد أيما اجتهد حتى لا ينكر عليه ولا يكذب فيما يزعم وعندئذ يتحقق الفرض من الفخر والانتماء بالافترار بما يدعي .

(١) ديوان الهذليين ج ١ ص ١٨٤

(٢) ديوان الهذليين ج ١ ص ٢١٣

معركة الانتماء ،

مادام الحديث عن النسب والانتماء قد أخذ جوانب كثيرة مما سلف من الصفحات في هذا البحث وعرض مبررات النسب وقيمتها عند العرب واهتمامهم بأنسابهم وما يفخر به كل منهم عندما ينازل أقرانه في معركة الانتماء الواسع للقبائل الكبيرة والعشائر التي تلقى جزءاً من المهابة على أنسابها وأحسابها .

فإن هذه القيمة المعنوية للنسب ستولد الرغبة لدى الناس كافة بأن ينتموا إلى الأنساب التي لها شأن في المجتمع القبلي وتتعلقوا ببعض العشائر والبطون ذات الشرف والسيادة بالخلف أو الاتحاد معهم ويشاركونهم أنسابهم فيقر لهم ذلك ولا ينكره أحد عليهم حتى يحدث الهجاء ويشور الجدل بين القبائل ويدخل الشعراء في الحلبة حمية لقبيلة ضد أخرى وتشب نار الهجاء بين الحيين أو بين الشاعرين عند ذاك تشتد معركة الأنساب ويقوى أوارها وتلتحم الكلمات فتشور النخوة ويعود الشعراء يتبعون الأنساب ويبحث كل شاعر عما يمكن أن يجده من أقوال في انتماء خصه الشاعر الآخر أو القبيلة التي يهجوها أو يخلق ما لم يسمع بمثله فيظهره في الناس ويجعل الطعن في الانتماء والتشكيك في الانتساب أقوى حججه لكسب المعركة ضد خصه، فصارت معركة الأنساب والانتماء إلى البطون والعشائر من أشد المعارك الهجائية التي بدأت منذ بدأت الحرب بين المدينة ومكة في أول العهد الإسلامي وقويت الاختلافات في الأنساب وتشابكت معارف العرب ثم انتهت بانتصار الإسلام فكف الهجاء وكفت معه الرغبة في الطعن في انتماء الناس فيما يدعون وصدقوا ما يدعيه المرء من انتماء حتى روى الأثر : « الناس مؤمنون على أنسابهم » . وعندما خرجت العرب إلى الأمصار وأسلم من سكانها من ليس من العرب ظهرت إلى الوجود عملية الولاء أو الإلحاق بالنسب سواء كان ذلك على مستوى الأفراد أو الجماعات ليخلطوا من أسلم من غير العرب في بنية المجتمع الجديد وتباحوا لهم فرصة الاندماج في التكوينات الاجتماعية الكبرى وأهمها القبيلة التي لم يعرف العرب أقرب منها شكلاً لقيام تكتلات جديدة تناسب

الاتساع الهائل لانتشار العرب في البلاد المفتوحة وحاجتهم إلى تكوينات كبرى في الإسلام على أساس فهم العرب الأول لطبيعة التكوين الاجتماعي والأخلاق ، فاتسع الخلاف في الانساب عندما حاولت كل قبيلة أن تضم إلى جانبها من تستطيع ضمه من القبائل الأخرى أو المرالي والأخلاف، إما بدعوى أن الجد الأعلى للقبائل هذه كلها واحد أو بدعوى الاخلاف والمصالح المشتركة. وأي مكان الأمر فقد توسعت حرب الانساب في لغة الشعر ووجد الشعراء سوقاً رائجة للهجاء وللهجوم على خصومهم فبدأوا بما يضعف قوة الخصم وانتحاء إلى أصله وصار بعض موضوعات الهجاء هو نفي ما يزعم الشاعر لنفسه من نسب إذ يقوم خصمه بتكذيبه فيما يدعي ونفيه من القبيلة التي ينتمي إليها فيرد الشاعر الآخر عليه بمثل قوله .

وقد أخذ الشعراء بالانكار على بعض المدعين للانساب ونفروا أن يكون انتماءهم حقيقة وهذا بشر بن علقم الطائي ينفي أن تكون قبيلة عاملة ذات نسب في قبائل قضاة ويثبت نسب كلب وبهراء والقبائل القضاعية الأخرى ويجعل عاملة لانسب لها . والسبب أن عاملة قد أعانت كلباً وبهراً عليهم وهاجتهم على أنها وكلب من جذم واحد ونسب أكيد فحاول أن يكذب هذا النسب ويضعف الانتماء فقال (١) :

أعامل ما بال الحنا تقذفونه	من الغرر مسدى بالقرواني وملحما
تلوذ بقوم لست منهم وتعترني	إليهم ولم تعصم من الذل معصما
فبيلةً بقت وقل عديدها	وذلت فما كتمت تفيشون مغنما
وما أنت من أصل فتأمل نصرة	فأيقن وما أيقنت حتى تفهما
وتعلم أن لست إلى أصل معشر	وأن لكم ثدياً أجداً مصرماً
وما أنت من كلب وبهراء فانسب	ولا الذين فاقعد يا ابن مصان مرغما

(١) نضاه جاهلية . ص ١٨٨ .

فتتبع ذكر القبائل وشرح بنفي قبيلة الشاعر عامله من كل حسب ونسب
ويهرج انتصاحها فخطأها فيما تعتقد حتى يسلب منها شرعية مرقفها مع القبائل
التي تعتقد أنها منها فتعينها ونتيجة ذلك تضعف صلتها فيضعف تحمسها
للحرب مع تلك القبائل ضد قبيلته .

وحسان بن ثابت شن حرباً مبكرة في الإسلام على القبائل التي رفضت
الانقياد والطاعة للدين الجديد وكانت ثقيف أشد المحاربين له وانضمت إلى قيس
وادعت الانتساب إليها واجتمعت معها على الحرب فما كان من حسان إلا أن بدأ
بخلخله الانتساء وهز القناعة لدى هؤلاء وأكد أن ثقيفاً لا صحة لانتسابها إلى
قيس بل لا صحة لانتسابها إلى معد فقال (١) :

وخلوا معدا وانتسابا إليهم بهم عنكم حقاً ثناء ومزحل
وقول السفاه واقصدوا لأبيكم ثقيف فإن القصد في ذاك أجمل
فإنكم إن ترغبوا لا يكن لكم عن أصلكم في جثم قيس معول
وما لكم في خندف من ولادة ولا في قديم الخير مجد مؤئل

ويصول مرة أخرى على بنفي عوف بن عوف وينفي اتصالهم بقريش
ويعدهم من أحلافها ويزعم أن قريشاً هي التي تنكز نسبتهم وصلتهم وتعزوم
إلى نسب العبيد واللزم فقال فيهم (٢) :

سائل قريشاً وأحلافها متى كان عوف لها ينسب
أقني ما مضى نسب ثابت فيعلم أم دعوة تكذب
فإن قريشاً ستفسيكم إلى نسب غيره أثقب
إلى جثم قين لثيم العرر ق عرقوب والده أصهب

ونفى حسان أيضاً نسب الوليد بن المغيرة من قريش وهجاه وتبع أصله

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ص ٤٢ .

(٢) ديوان حسان بن ثابت ، ص ١١٨ .

حتى رأى أنه قد أخله وأبعده من النسب الذي عليه يقاتل والقبيلة التي من أجلها يحارب فقال (١) :

حتى تنسب قريش أو تحصل فمالك في أرومتها تصاب
نفتك بنو هصيص عن أبيها لشجع حيث تشرق العباب
وأنت ابن المغيرة عبد شمرل قد اندب جبل عاتقك الوطاب
إذا عد الأطايب من قريش تلاقى دون نسبتكم كلاب

ومثل ذلك في شعر حسان كثير كثرة مفرطة وهو دليل على قوة إدراكه لأهمية أصره النسب وتيام الحرب على ما تظنه القبيلة من قرابة ووشائج صلات يوجب عليها أن تعين شركاءها في النسب ولهذا عمد حسان وغيره من الشعراء إلى التشكيك في أنساب أعدائهم حتى يضعفوا عامل الولاء ويضعف بضغفه العون والصمود في الحرب إلى جانب القبائل التي يوهن الشاعر صلتها في النسب ويدعي أن انتماها خطأ ولا حقيقة له في الواقع . كان حسان من فرسان هذا المنهج في هجومه على أعدائه فكثر من الهجاء بالنسب الوضع والعلاقات غير المثينة وشكك فيما يزعم أعداؤه من صلات القرى فيما بينهم وهو في كل ما يدعي محارب صنديد بلسانه وقدرته على تصوير الرهن في تلك الانتماءات والاحلاف . وقد أخذ جرير منهج حسان وهجم هجمات متكررة على خصومه مبيناً زيف الانتماء والنسب الذي يدعيه خصمه عمر بن لجأ التيمي فعمد إلى شمل تيم فشتته وأضعف انتماءها إلى تيم وقال فيها (٢) :

أتطلب سابق الحلبات تيم تقدم في المواطن إذ تجاري
صريحاً لم تلد أبويه تيم ولم ينسب لأخت بني خدار
وقد علمت تيم أن تبها بعيد حين ينسب من نزار

(١) ديوان حسان بن ثابت . ص ١١٤ .

(٢) ديوان جرير . ص ٢٥٢ .

وقد هجاهم وأقذع في هجائهم فقال (١) :

ما بين تيم واسماعيل من نسب إلا القرابة بين الزنج والروم
إن أين تيم لمنسوب لوالده داني القرابة من حام ويحموم
وعروة بن الورد يدعي أن نهلاً غير مكافئة لانتصاب أبيه إليها وأن
مشاركة والده لها قد عرضه لضعة النسب وقد كان حياً ماجداً في غيرها من
القبائل كما يقول (٢) :

لا تلم شيخي فما أزرى به غير أن شارك نهلاً في النسب
كان في قيس حمياً ماجداً فأتت نهدي على ذاك الحسب
ويقول أيضاً :

ماهي من عار إخال علمته سوى أن أخوالي إذا نسبوا نهدي
وهجا ذر الرمة بني امرئ القيس وأسرف في هجائهم وأطال في تنقيح
أفعالهم ثم تدرج إلى أنسابهم فنفاهم من كل نسب وأسقط انتسابهم من العرب
وجعلهم ملحقين بالانتساب معلقين كما تعلق في العسيب العصاعص كما يقول
فيهم :

توصل منها بامرئ القيس نسبة كما نبط في طول العسيب العصاعص
ويقول أيضاً :

تبين نسبة المرثي لؤمها كما بينت لي الأدم العوار
إذا تسبوا إلى العلماء قالوا أولاك أذل من حصب الجمار
وفي مقابل تشذيب الانتساب ونفي الهجائن لها وتقليلهم من شأن من
يتعرض لهجائهم وطعته في نسب كان هناك من يجمع الناس ويستكثر منهم
ويتزيد بعدد قومه ويضفي نسبه على كل من يريد أن ينضم إليه حتى يبلغ

(١) ديوان جرير ، ص ٢٦ .

(٢) ديوان عروة بن الورد ، ص ١٣ .

ببعضهم الحرص على سعة أنسابهم وحشر الناس فيها أن يدخلوا الأعاجم ومن لا
يمت إلى العرب برابطة مما جعل الشاعر يتهمكم فيمن هذا صنيعه ويقول فيه (١):

زعمتم بأن الهند أولاد خندف وبينكم قرى بين البرابر
وديلم من حمل بن ضبة باسل ويرجان من أولاد عمرو بن عامر
فقد صار كل الناس أولاد واحد وصاروا سواء في أصول العناصر

وقد يقر الشاعر نسب القبيلة التي ينتمي إليها خصمه إلا أنه يعدد نفي
خصمه خاصة من ذاك النسب مكذباً صلته بالقبيلة أو قرابته من أبيائه لأن صفاته
ليست كصفاتهم مثلما زعم جرير في نسب سراقه البارقى حين هجاءه ، وفي خصمه
اللدود الفرزدق فقال : إن ادعاء سراقه إلى شذو زور وكذب وأن في ملامح الفرزدق
ما ينفي انتماءه إلى أبيائه ويقربه من غيرهم بالشبه فقال في الأول (٢) :

وإذا انتسبت إلى شذو تدعي قالوا : ادعاء أبي سراقه زور
ويقول في الثاني (٣) :

يبين في وجه الفرزدق لؤمه والأم منسوب قفا حين أدبرا
وقد عمد ذو الرمة الشاعر إلى هجاء الأعور الكلبي في نسبه القريب
وانتمائه لآله وأنكر ما يدعي من النسب وباعد بينه وبين قبيلته وأختى عليه حتى
جعل صلتها فيها كصلة الحيتان بالجلس فقال يهجو (٤) :

وجدتك من كلب إذا ما نسبتها بمنزلة الحيتان من ولد الضب
وأخذ جرير قصب السبق إلى ذلك في أكثر هجائه وشعره الذي يبين فيه

(١) العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٣٤٢ .

(٢) ديوان جرير ، ص ٣٦٨ .

(٣) ديوان جرير ، ص ٤٨١ .

(٤) ديوان ذي الرمة ، ج ٣ ، ص ١٧٧٣ .

سخطه وتدرته على أن ينفي من شاء من كرامة النسب الذي يدعيه فيقول في
عمر بن لجأ (١) :

أنت ابن برزة منسوبا إلى لجأ عبد العصرة والعيدان تعتصر
ويهجو الراعي النميري عدي بن الرقاع فينفي أن تعرف قضاة له نسا أو
تقر له انتساء وكذلك نزار إذ يجاذب قضاة النسب إلى اليمن مرة وإلى نزار أخرى
فسهل عليه أن ينفيه من كلا الحيين حتى لا يبقى له أمل في الانتساء إلى أحد
فيقول (٢) :

تأبى قضاة أن ترضى دعاوتكم وابنا نزار فأنتم بيضة البلد
كل هذه الأمثلة على ما فيها من حدة هجاء الشاعر وعدوانه على خصمه
ومحاولة تكذيبه في أعز ما يملك وما ينتمي إليه وهو النسب الغالي بين دلالات
خاصة في الذهن العربي وعند الشاعر الذي يلجأ إلى الهجاء وسيلة انتقام فيحدد
نقاط الضعف فيمن يريد أن ينقض عليه ثم يهاجمه في النقطة التي يراها أقرب
إلى أضعاف مقاومته والتصدي لهزمته . والنسب القريب هو أول لبنات البناء الذي
يهدمه الشاعر ويهجر به وإذا استطاع أن يصيب من يريد الهجوم عليه فهو عندئذ
استطاع أن ينهض بجزء من مسئولية الكفاح ويخطر الخطرات الأخرى في سبيل
الدفاع إن كان في موقف الدفاع حتى يضعف خصمه أمام هجومه . والنسب
وسائل هجوم مناسب تصيب في الصميم وتهز قناعات الناس بما يدعون من انتساء
إلى القبائل أو الأبناء وقد اتخذ الشعراء من الأعراف الاجتماعية وسائل يبالغون بها
كما يعتقد العرب من صلات يؤمنون بها ويقدمونها ولا يشكون بصحتها أو
يقلون مناقشتها . حتى يحرك الغضب لسان الشاعر ويثيره سبب من أسباب
الخلافا فيصول صولة الموتر ويثار من خصمه وينتقم منه بأن يدنس نسيبه ويبعده

(١) ديوان جرير ، ص ٢١٣ .

(٢) ديوان الراعي النميري ، ص ٢٠٣ .

من الشرف المطلوب . أو يشور مفاخرأ بنسبه وحسيه من الأبا . والأجداد فيعند من ذلك ما لا يحصى من صور المبالغة والتعالي . ويزعم أن أبااه كرام فرسان أجواد ويحصر كل خصال المروءة والمجد فيهم ويرقفها عليهم وما هو إلا أحد فروع ذلك المجد الأشم نيشني ويزيد من الشاء . ويزين ما يقول وما يفعل فلا يشعر بما يضيف على نفسه وعنصره من صور المبالغة مادام الحديث عن نفسه أو نسبه أو فخراً بقبيلته كل ذلك مقبول في مذهب الشعر وعند الشعراء .

- جمهرة أنساب العرب :
- تأليف : علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي
- لمحقق : عبد السلام هارون
- الطبعة : الرابعة ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م .
- الناشر : دار المعارف بمصر .
- خزانة الأدب ولب لياب لسان العرب
- تأليف : عبد القادر بن عمر البغلاوي
- لمحقق : عبد السلام هارون
- الطبعة : الثانية
- الناشر : الهيئة المصرية للكتاب
- ديوان الأعشى ، ميخوف بن قيس
- لمحقق : محمد محمد حسين
- التاريخ : ١٩٧٤ م
- الناشر : دار النهضة العربية للطباعة والنشر
- ديوان الأقبوه الأرودي ، (مجموعة الطرائف الأدبية) :
- لمحقق : عبد العزيز الميمني
- الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ديوان أمية بن أبي الصلت
- لمحقق : بهجة عبد الغفور الحديشي
- التاريخ : ١٩٧٥ .
- الناشر : وزارة الاعلام ، بغداد
- ديوان امرئ القيس :
- تأليف : محمد أبو الفضل إبراهيم
- الطبعة : الرابعة .

- الناشر : دار المعارف بمصر .
ديوان أوس بن حجر :
تحقيق : محمد يوسف نجم
الطبعة : الثالثة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .
الناشر : دار صادر ، بيروت
ديوان جرير :
تحقيق : نعمان محمد طه
الناشر : دار المعارف بمصر .
وينظر الديوان نفسه طبعة صادر
ديوان جميل بن معمر العذري
تحقيق : حسين نصار
الطبعة : الثانية ١٩٦٧ م
الناشر : مكتبة مصر بالقاهرة
ديوان حسان بن ثابت
تحقيق : سيد حنفي حسنين
التاريخ : ١٩٧٤ م
الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب .
ديوان الراعي النميري :
تحقيق : راينهرت فايرت
الطبعة : الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨٠ م
الناشر : دار فرائس ، بيروت .
ديوان ذي الرمة
تحقيق : عبد القلوس أبو صالح
التاريخ : ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

- الناشر : مؤسسة الإيمان ، بيروت .
- ديوان سراقفة البارقي .
- لحقيق : حسين نصار
- التاريخ : ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م
- الناشر : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ديوان سلامة بن جندل
- لحقيق : فخر الدين قباوة
- الطبعة : الأولى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م .
- الناشر : المكتبة العربية - حلب
- ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي :
- لحقيق : سليمان جبال
- الناشر : مطبعة المدني .
- ديوان طرفة بن العبد
- لحقيق : درة الخطيب ولفي الصقال
- التاريخ : ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م
- الناشر : مجمع اللغة العربية بدمشق
- ديوان الطفيل الغنوي
- لحقيق محمد عبد القادر أحمد للطبعة الأولى ١٩٦٨ م
- الناشر : دار الكتاب الجديد .
- ديوان عامر بن الطفيل :
- نشر : كرم البستاني
- التاريخ : ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .
- الناشر : دار صادر ، بيروت
- ديوان عباس بن مرداس :

- تحقيق : عبد الله عيد الرحيم عسيلان
 الناشر : دار المريح الرياض
 التاريخ : ١٩٧٨ م
 ديوان عبيد بن الأبرص
 تحقيق : حسين نصار
 الطبعة الأولى ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م
 الناشر : مكتبة مصطفى الباني الحلبي ، مصر
 ديوان عمرو بن الورد :
 تحقيق : كرم البستاني
 التاريخ : ١٩٥٣ م
 الناشر : مكتبة صادر ، بيروت .
 ديوان عمر بن أبي ربيعة
 تحقيق : الهيئة المصرية العامة للكتاب .
 التاريخ : ١٩٧٨ م
 الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب
 ديوان عنبرة
 تحقيق : كرم البستاني
 الناشر : دار بيروت للطباعة والنشر ، انظر تحقيق عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي .
 ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق : ابراهيم السامرائي وأحمد مطلوب .
 الطبعة : الأولى ، ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م
 الناشر : مطبعة العاني ، بغداد .
 ديوان قيس بن الخطيم
 تحقيق : ناصر الدين الأسد

- الطبعة : الثانية ، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م
 الناشر : دار صادر ، بيروت .
 ديوان كشير عزة
 تحقيق : إحسان عباس
 التاريخ : ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م
 الناشر : دار الثقافة ، بيروت .
 ديوان القسطل
 تحقيق : ابراهيم السامرائي وأحمد مطلوب
 الطبعة : الأولى ، ١٩٦٠ م
 الناشر : دار الثقافة ، بيروت .
 ديوان أبي نواس
 تحقيق : محمود كامل حديد .
 التاريخ : ١٩٥٦ .
 الناشر : المكتبة التجارية الكبرى القاهرة
 ديوان الهذليين
 تحقيق : أحمد الزين ، ومحمود أبو الرقاء
 التاريخ : ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م
 الناشر : دار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة .
 شرح ديوان الحماسة
 تأليف : أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي
 تحقيق : أحمد أمين وعبد السلام هارون
 الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م
 الناشر : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
 شعر الأختل

- محقق : فخر الدين قباوة
الطبعة : الثانية ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م
الناشر : دار الأفاق الجديدة ، بيروت .
شعر خفاف بن ندبة
محقق : نوري حمودي القيسي
التاريخ : ١٩٦٧ م
الناشر : مطبعة المعارف ، بغداد
شعر المثقب العبيدي
محقق : محمد حسن آل ياسين
الطبعة : ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م
الناشر : مطبعة المعارف ، بغداد .
شعر هدية بن الحشرم العذري
محقق : يحيى الجبوري
التاريخ : ١٩٧٦ م
الناشر : وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق
قصائد جاهلية نادرة
محقق : يحيى الجبوري
الطبعة : الأولى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
الناشر : مؤسسة الرسالة ، بيروت .
العقد الفريد :
تأليف أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي
محقق : أحمد أمين وأحمد الزين ، وإبراهيم الأبياري .
التاريخ : ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م .
الناشر : لجنة التأليف والترجمة والنشر .

الكامل :

تأليف : محمد بن يزيد البرد .

تحقيق : محمد أحمد الدالي .

الطبعة : الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

الناشر : مؤسسة الرسالة ، بيروت .

لسان العرب المحيط

تأليف محمد بن منظور

الناشر : يوسف خياط

نظام القضاء عند العرب والفرس

الدكتور

مجدى عبد المنعم عجمية

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

نظام القضاء

عند العرب والفرس

لقد كان العرب في العصر الجاهلي يمثلون إلى بعض العادات والتقاليد التي فرضتها عليهم البيئة الصحراوية ، والقوانين الاجتماعية التي نقلوها عن الدول المتحضرة ، وكان شيخ القبيلة يقوم بالفصل والحكم في الأمور القضائية التي تنشأ نتيجة النزاع بين أفراد القبيلة أو بين قبيلة وأخرى ، وكان لقبيلة قريش الزعامة القضائية والنظر في المظالم بين قبائل الجزيرة العربية .

أما في العصر الإسلامي فقد اختلف الأمر عما كان قبل الإسلام نظراً لما جاء به الدين الإسلامي الحنيف من تعاليم دينية وقوانين شرعية وحدت بين المسلمين وألزمت كل مسلم بها وعدم مخالفتها .

وكان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم القاضي الأعلى للمسلمين أجمعين ينظر في المظالم ويبيد فيها بسديد رأيه فيعتل الناس لأوامره وقضائه ثم خلفه علي نهجه « أبو بكر الصديق » رضي الله عنه فكان يباشر بنفسه « رضي الله عنه » وذلك لأهمية القضاء في الفصل والحكم في النزاع القائم بين الناس فكان القضاء من اختصاصات الخليفة أو يخضع لإشرافه علي أقل تقدير ويعبر عن ذلك « ابن خلدون » في تعريفه للقضاء وأهميته فيقول : « أما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات جسماً للدعوى وقطعاً للنزاع إلا أنه بالأحكام الشرعية المتفقاة من الكتاب والسنة فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجاً في عمومها وكان الخلفاء الأولون يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلون القضاء إلي من سواهم (١) » .

(١) ابن خلدون المقدمة ص ٢٢٠ ، ط بيروت ١٩٠٠

ويعتبر « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه « أول من فوض أمر القضاء إلى من يثق في آرائه وعقيدته وسنته من الصحابة حيث ولي « أبا الدرداء » بالمدينة وعين شريحاً بالبصرة و « أبا موسى الأشعري » بالكوفة وكتب إليه كتابه المشهور المستوفي لأحكام القضاء وشروط التقليد يقول فيه : « أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا ولي إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، وأس بين الناس في وجهك وعدك ومجلسك حتي لا يطمع شريف في خيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . البيئة علي من ادعي واليعين علي من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً ، ولا يمتنع قضاء قضيتة أمس فراجعت اليوم فيه عتلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلي الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التعادي في الباطل . الغهم انهم فيما يتلجج في مسدرك مما ليس في كتاب الله تعالى ولا سنة نبيه . ثم اعرف الأمثال والأشياء ، وتقس الأمور بنظائرها واجعل لمن ادعي حقاً غائباً أو بيئة أمدأ ينتهي إليه ، فمن أحضر بيئة أخذت له بحقه وإلا استحللت القضاء عليه فإن ذلك أنقي للشك وأجلي للعمي ، والمسلمون عدول بعضهم علي بعض إلا مجلوداً في حد ، أو مجري عليه شهادة زور ، أو ظليماً في نسب أو ولاء ، فإن الله عفا عن الإيمان ودرأ بالبيئات وإياك والقلق والضجر والتأنف بالخصوم فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذكر ، والسلام . (١)

كما عين « عمر » رواتب للقضاة فكان أول من عين رواتب للقضاة ،

(١) الماردي : الأحكام السلطانية : ص ٨ ط التوفيقية - ابن خلدون : ص ٢٢٦ - ابن قتيبة : عين الأخبار : ص ٦٦ ج ١ برواية أخرى ط دار الكتب ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٥ م.

وأسس لهم دوائر مخصصة منفصلة عن الدوائر التنفيذية وأطلق عليهم «حكام الشرع» . (١)

ونلاحظ بذلك أن الحكومة الإسلامية منذ عهد «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه أخذت تهتم بتنظيم القضاء وتضمن بالفصل بين القضاء والسلطة التنفيذية ، فكان القضاة يشعرون بالاستقلال التام في إصدار الأحكام ، فالكل أمامهم سواء لافرق بين حاكم ولا محكوم وساعدهم علي هذا الخلفاء أنفسهم الذين كانوا يثبتون دائماً خضوعهم لأحكام الشريعة وسلطان القانون . (٢)

وكان من الشروط الواجبة فيمن يتولي القضاء أن يكون رجلاً بالغاً ، عاقلاً قادراً علي الصحيح ، حراً وليس عبداً ، مسلماً وليس كافراً ، عادلاً ليس ظالماً ، سليم السمع والبصر عالماً بالأحكام الشرعية (٣) ، وكان الخلفاء يعينون القضاة ويكلفونهم بأعمالهم وفق رؤيتهم للأمور فعندما تكثر أعمال الخلفاء يفوضون كثيراً من أمور القضاء إلي القاضي ، وإن قلت أعمالهم نظروا في أمور القضاء معونة للقاضي حتي يستتب الأمن والأمان في جميع ربوع البلاد وفي هذا المعني يقول «ابن خلدون» : « وإنما كانوا يقلدون القضاء لغيرهم وإن كان مما يتعلق بهم لقيامهم بالسياسة العامة وكثرة أشغالهم من الجهاد والفتوحات وسد الثغور وحماية البيضة ولم يكن ذلك مما يقوم به غيرهم لعظم العناية واستحقوا القضاء في الواقعات بين الناس واستخلفوا فيه من يقوم به تخفيفاً علي أنفسهم وكانوا مع ذلك إنما يقلدونه أهل عصبيتهم بالنسب أو الولاء ولا يقلدونه لمن بعد عنهم في ذلك » . (٤)

(١) سيد أمير علي مختصر تاريخ العرب والتمدين الإسلامي من ٥٤ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ م « نقله إلي العربية رياض رافت »

(٢) سيد أمير علي من ٥٥ .

(٣) انظر الماوردي الأحكام السلطانية من ٧٢ . ٧٣

(٤) ابن خلدون من ٣٢١

وفي عصر الخلفاء الأولين كان عمل القاضي مقصوراً على الفصل بين الخصوم ، ثم شرع هذا العمل يزداد تدريجياً ، في سبب اشتغال الخلفاء بالسياسة العامة للبلاد إلى أن استقر الأمر على تكليف القاضي المتولي منصب القضاء بأمور أخرى إلى جانب الفصل بين الخصوم مثل النظر في أموال المحجوز عليهم ، وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الأيتام بالاكفاء ، والنظر في مصالح الطرقات والأبنية ، وتصفح أحوال الشهود والأمناء والنواب واستيفاء شروط العلم والخبرة منهم ليثق فيما يكل إليهم من أعمال ، والتسوية في أحكام القضاء بين القوي والضعيف وبين الشريف والمشروف . (١)

وعلا نفوذ القضاة في العصر الأموي حيث كان لهم الحق في تعيين وکلانهم، وكان يفصل في مشاكل طوائف غير المسلمين حكام من طوائفهم أو رؤسائهم الدينيين ، أما في العصر العباسي فقد توسع الخلفاء العباسيون في النظام القضائي وتأثر القضاء بالسياسة حيث أحاط الخلفاء أنفسهم بهالة دينية وأكسبوا أعمالهم صبغة شرعية ويتضح ذلك جلياً في خطبة الخليفة «المنصور» ببغداد حيث قال : « أيها الناس ، إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده ، وأنا خازنه علي فينه ، أعمل بمشيئته ، وأقسمه بإرادته ، وأعطيه بإذنه ، قد جعلني الله عليه قفلاً ، إذا شاء أن يفتحني لأعطياتكم وقسم فينكم وأرزاقكم فتحني ، وإذا شاء أن يقفلني أقفلني ، فارغبوا إلي الله أيها الناس وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم فيه من فضله ما أعلمكم به في كتابه إذ يقول تبارك وتعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » أن يوفقني للصواب

(١) انظر : النويري : الأحكام السلطانية : ص ٧٨ ، ٧٩ - ابن خلدون : ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

وسددني للرشاد ، وبلغمني الرأفة بكم والإحسان إليكم ، وافتحني لأعطيائكم ،
وتقسم أرواقكم بالعدل عليكم إنه سميع قريب » . (١)

وبذلك استطاع الخلفاء العباسيون أن يحكموا سيطرتهم علي القضاء
وأن يخضعوا القوانين لما يرونه في صالح سياستهم وتثبيت دعائم ملكهم، وهي
نفس الطريقة التي كان يتبعها ملوك « آل سان » وساشير إليها في الصفحات
التالية .

وبهذا المنطق جعل الخلفاء القضاة يسيرون في أحكامهم القضائية وفق
مصالحهم وأهوائهم السياسية وكان علي الرعية الامتثال لأوامر القضاة لأنهم
يعتبرون أن الخلفاء العباسيين مفوضون في حكمهم من قبل الله « عز وجل »
نتيجة لما نشره بين الناس بأنهم من آل النبي « صلي الله عليه وسلم » ويرتدون
بروته خليفة بعد آخر . (٢)

لذلك كان الخلفاء العباسيون يشرفون علي أمور القضاء ويتدخلون في
شئون القضاة فخرج القاضي من سلطان الوالي وصار تعيين القضاة أو
إقرارهم في أعمالهم من قبل الخلفاء .

ويعتبر « أبو جعفر المنصور » أول من ولي القضاء علي الأقاليم
والأمصار ومازال أمرهم كذلك حتي في العصور التي ضعف فيها الخلفاء
العباسيون، فعندما تولي المستكفي الخلافة أمر الشهود فأقر بعضهم، وأسقط
بعضهم فامتثل القضاة لأوامره . (٣)

(١) الطبري : تاريخ : ص ٨٩ ، ٩٠ ج ٨ حوادث سنة ١٥٨ هـ ط دار المعارف ١٢٨٦ هـ -
١٩٦٦ م.

(٢) ر - ليفي R. Levy : تراث فارس : ص ٩٧ « الترجمة العربية » ط عيسى الطبري
١٩٥٩ م.

(٣) ادم متر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ ج ١ « الترجمة
العربية لأب رويد » ط دار المعارف ١٢٨١ هـ - ١٩٦٧ م.

وكان الخلقاء ينظرون في المظالم التي تعرض عليهم ويوقعون فيها . ما يرونه صائباً ويحقق العدالة بين الناس ، ومن أمثلة ذلك :

توقيع « أبي جعفر المنصور » إلى قوم تظلموا من عاملهم : « لا ينال عهدي الظالمون » . (١)

وقع المهدي في قصة متظلمين شكوا بعض عماله « لو كان عيسى عاملكم قدناه إلى الحق كما يقاد الجمل الخشوش » . (٢)

وهو بذلك يؤكد اهتمامه وحرصه بالالفين علي محاسبة العمال المقصرين لتحقيق العدالة حتي ولو كان من العاملين ابنه « عيسى » .

وقع في قصة رجل حبس في دم « لكم في القصاص حياة يا أولي الألباب » . (٣)

وكان الرشيد قد وقع في قصة رجل من البرامكة كان يظهر الطاعة إلى أن علا أمره فأظهر المعصية فكتب في محاكمته « أنبت الطاعة وحصدت المعصية » . (٤)

وقع المأمون في قصة متظلم من أبي عيسى أخيه : « فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » . (٥)

(١) ابن عبد ربه : العقد الفرید : ص ٢١٢ ج ٤ ط بيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفرید : ص ٢١٢ ج ٤ .

(٣) ابن عبد ربه : تلخیص : ص ٢١٢ ج ٤ .

(٤) نلس المصدر ونلس الصفحة .

(٥) نلس المصدر : ص ٢١٥ .

كما اهتم الخلفاء بإدارة القضاء في جميع أنحاء الإمبراطورية الإسلامية فكان في كل حاضرة قاض يتولى الأمور القضائية فيها نائباً عن قاضي المدينة أو الإقليم ، وكان جميع القضاة في المدن والأقاليم والأمصار يتلقون أوامرهم من قاضي بغداد الأكبر المسمى « قاضي القضاة » الذي كان رئيساً لجميع قضاة الأقاليم والأمصار والدول التابعة للخلافة العباسية ويعتبر « أبو يوسف » قاضي « غارون الرشيد » أول من لقب بلقب « قاضي القضاة »^(١)

ولما كان لكل قاض حرية التصرف في إقليمه وفق رؤيته واجتهاده في الفقه والشرع والدين كان من واجب الخلفاء والحكام متابعة تحركات القضاة بأعمالهم وأحوالهم ، فيقرون العلماء والزهاد والأمناء منهم ، ويستبدلون بمن يشكون في أمره آخر أصلح منه ، وكان علي الحاكم إغداق القاضي بالمال والشد من أزره حتي لا يخون نماء المسلمين فيحافظ علي هيئة العدالة ورونتها ولا يسود البلاء إلا العدل والحق ، لأن نوام الملك والسلطان بدوام الحق والعدل.^(٢)

وقد أدى هذا إلي بروز رجال في القضاء عرفوا بحسن سيرتهم وعدلهم المطلق في وظائفهم والإنصاف والشفقة علي خلق الله ، فضرب المثل بحسن سنتهم ومن هؤلاء الفضلاء « سيبويه بن عبد العزيز البخاري » الذي لم يظلم أحداً مثقال ذرة ، و« مخلد بن عمر » ، « عامر بن عمر » ، و« سعيد بن خلف البلخي » الذي سن الكثير من الأعمال الجليلة في القضاء فكانت من العدل بحيث ضرب به المثل في العدل والإنصاف ، ومن هذه الأعمال وضعه لنظام عسس المياه ، وتقسيم الماء بالعدل بين القوي والضعيف^(٣) ومثلهم أيضاً « أبو

(١) سيد أمير علي : ص ٣٦٣ .

(٢) نظام الملك : سياست نامه . ص ٢٨ ط شيفر باريس ١٨٩٦ .

(٣) أبو بكر الترشخي : تاريخ بخارا . ص ٢٠٢ . طهران

ذر محمد بن يوسف البخاري» الذي تعرض لكثير من الاحتقارات في قبول الرشوة خفية ، أو بأي وسيلة أخرى ، ولكنه تمسك بمبادئه وخلقه ولم يرس إلى نفسه بقبولها فكان مثلاً رائعاً للقاضي العادل المنصف

وكان « أبو الفضل بن محمد بن أحمد الموقفي » يعمم العدل والإنصاف في بخاري ولم تؤخذ عليه ذرة عيب ولم يكن له مثل في عصره في العلم والزهد^(١) وغيرهم الكثير من القضاة الأجلاء الذين ضربوا أروع المثل في إنصاف العدل وإحقاق الحق .

هذا وقد انتشرت دواوين القضاء في العصر العباسي ، حيث خصص ديوان للقضاء في بغداد سمي « ديوان المظالم » وهو أشبه بوزارة العدل في يومنا هذا .^(٢)

وخصص كذلك ديوان للقضاء في كل ولاية أو دولة تابعة للخلافة العباسية، فقد كان في النظام الإداري للدولة السامانية ديوان مخصص للقضاء وسمي « ديوان القضاء » لإجراء أحكام الشرع ، وبقي العمل في هذا الديوان في عصر الغزنويين ، والسلاجقة والخوارزمشاهيين ، وحتى عهد المغول .^(٣)

وكان من الأعمال المتعلقة بالنظام القضائي الإسلامي « النظر في المظالم » . ويعتبر هذا العمل من الأعمال المهمة المرتبطة بأعمال القضاة تقويماً لها وفصلاً في أحكامها و « هو قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة » .^(٤)

(١) أبو بكر القرشي : تاريخ بخارا : ص ٤ .

(٢) سعيد نفيسي : تاريخ تمدن ساماني : ص ٢٢٢ ج ١ ط تهران ١٣٢٩ .

(٣) حسن بيرنيا : تاريخ إيران : از آمازتا انقراض سامانيان : ص ٢٥٠ ط الغيام .

(٤) المازدي : الأحكام السلطانية : ص ٨٦ .

فبلغ هذا العمل من الأهمية القدر العظيم بحيث كان يشرف عليه بل ويقوم به الخلفاء أنفسهم حرصاً على مصالح العباد واستقرار الأمن في البلاد ويعرف « ابن خلدون » هذه الوظيفة موضحاً أهميتها فيقول : « ... وهي وظيفة معتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المتعدي وكأنه يعضي ما عجز القضاء غيرهم عن امضائه ويكون نظره في البيئات والتقارير واعتماد الامارات والقرائن وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستخلاف الشهود وذلك أوسع من نظر القاضي » . (١)

ونظراً لرفعة هذا العمل القضائي تولاه الخلفاء الاولون وباشروه بانفسهم، ولما كثرت أعمال الخلفاء فيما تلا من عصور ولم يجنوا وقتاً للنظر في المظالم وكلوا هذا العمل لمن يتوخون فيه جلال القدر ، ونفاذ الأمر، وعظمة الهيبة، وظهور العفة ، وقلة الطمع ، وكثرة الورع لما يحتاج إليه الناظر في المظالم لأداء هذا العمل من سطوة الحماية وثبت القضاء (٢) مثلاً فعل «عمر» - رضي الله عنه - مع قضية « أبي رديس » ، و« المأمون » مع « يحيى بن أكنم » و« المعتصم » مع « أحمد بن أبي داود » . (٣)

ثم عاد الخلفاء لمباشرة هذا العمل - النظر في المظالم - في بعض فترات العصر الأموي فقد لاح ظهور هذا العمل مرة ثانية في عهد « عبد الملك بن مروان » الذي كان أول من أقرد يوماً لتصفح مشاكل المتظلمين فإذا رأي مشكلة أو قضية تحتاج إلى حكم منفذ أصدر أوامره إلى قاضيه «أبي رديس»

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٢٢

(٢) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٨٦

(٣) ابن خلدون : ص ٢٢٢ .

لإنفاذ أحكامه في حضور الخليفة فكان الخليفة « عبد الملك » هو الأمر بقاضيه «أبورديس» هو المباشر . (١)

ثم ندب الخليفة « عمر بن عبد العزيز » نفسه للنظر في المظالم فكان أول خليفة يجلس للمظالم من بني أمية ، ورأى في ذلك سنن الخلفاء الراشدين العادلة، فرد مظالم بني أمية إلى أهلها اتقاء له سبحانه وتعالى ويوم القيامة، ثم جلس للنظر في المظالم بعض من خلفاء بني العباس فكان الخليفة المهدي أول من جلس للمظالم من الخلفاء العباسيين ثم الخليفة الهادي ثم الخليفة « الرشيد » ثم الخليفة « المأمون » ، وكان الخليفة المهدي آخر من جلس للنظر في المظالم من خلفاء بني العباس . (٢)

هذا وقد خصص ديوان لمباشرة أعمال النظر في المظالم ، وكان يسمى «ديوان النظر في المظالم» . وكان يرأس الجلسة في مجلس النظر في المظالم الخليفة أو من ينوب عنه وكان يحضر في هذا المجلس قاضي القضاة، والحاجب ورؤساء النواوين (٣) ، بالإضافة إلى خمسة أصناف لا يستغني عنهم هذا المجلس وهم الحماة والأعوان ، والقضاة والحكام والفقهاء ، والكتاب، والشهود. (٤)

وكان للنظر في المظالم النظر في جميع الأمور المتعلقة بالولاية والأمراء والعمال ورؤساء الأعمال ، وأحوال الرعية .

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية : ص ٨٧ .

(٢) الماوردي : الأحكام السلطانية : ص ٨٧ .

(٣) سيد أمير علي : ص ٣١٢ .

(٤) الماوردي : الأحكام السلطانية : ص ٨٩ .

حيث كان ينظر في أحوال الولاة وتعسفهم في معاملة الرعية ، وفي أجور العمال ومطابقة ذلك بالقوانين المشرعة ، وفي كتاب الدواوين ، وفي تظلمات العمال من نقص أرزاقهم ، في رد القسور ، ومشارفة الوقوف ، وتنفيذ ماوقف عليه القضاة من أحكام لم تنفذ ، فيما عجز عنه مال الحسبة في مصالح العامة ، ومراعاة العبادات الظاهرة كالجمع والأعياد والحج والجهاد ، وفي أحوال المتشاجرين وأمور المتنازعين . (١)

وقد ساعدت هذه المجالس علي تنفيذ جميع قرارات القضاة علي جميع فئات الشعب دون استثناء واستتباب الأمن والعدل في جميع أنحاء البلاد ، وقد ساعد علي ذلك الخلفاء أنفسهم إذ رأينا منهم من لا يتكبر علي المثل أمام القاضي أو يرفض مخاصمة الرعية له أمام القضاء بصورة علنية ، ولعل أبرز مثال علي ذلك في العصر العباسي الخليفة « المأمون » الذي قبل مخاصمة رجل له عند القاضي « يحيى بن أكلم » ، ولما كانت جلسات القاضي للحكم علنية رغب « المأمون » أن يقضي القاضي بينهما في دار الخلافة ، فرفض القاضي وأمر بفتح الباب لدخول عامة الناس ليصبح مجلس القضاء ثم نادي المنادي وأخذ رقا ع المخاصمة ثم قضى القاضي بين الخليفة وخصمه . (٢)

وعلاوة علي عمل القضاة ، والنظر في المظالم اتصل بالنظام القضائي وظيفة أخرى لا تقل أهمية عنهما في إقرار الأمن والأمان في البلاد ألا وهي « الحسبة » وهي وظيفة دينية تقضي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الناس ، وكان علي من يتولي هذا المنصب أن يحث الناس ويحملهم علي مراعاة المصالح العامة مثل المنع من مضايقة الناس في الطرقات ومراعاة آداب

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ٨٩ : ص ٩٢

(٢) البيهقي الحاسن والمسائي ص ٤٣٢ ط شتالي

الطريق، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل والحكم علي أهل المبايعة المتداعية والأهله للسقوط بدهنها قبل إتهيارها ، وإزالة مايتوقع من الضرر علي السابلة والضرب علي أيدي المعلمين في المكاتب لضربهم الصبيان المتعلمين، وكان له النظر والحكم فيما يصل إلي عمله من هذه الأمور السالف ذكرها بالإضافة إلي امضائه للأحكام في الدعاوي المتعلقة بالغش والتدليس في المعاش ، وفي المكايل والأوزان وحمل المعاملين علي الانصاف وغير ذلك من الأمور العامة والسهلة أغراضها مما يقتضه القضاء عن النظر والبت في شأنها .

وبذلك كان القائم بأعمال الحسبة يخدم منصب القضاء فيكون معاوناً للقاضي ومساعداً له لما ينظر ويحكم فيه من أمور عامة متعلقة بالقضاء ويقتضه القضاء عن النظر فيها ، ولما يقوم به من حمل الناس علي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . (١)

وكان من الواجب تعيين « محتسب » في كل مدينة وكل ولاية ، ليقوم بمراقبة الأوزان والأسعار ، ويعرف مقدار البيع والشراء ، ويراقب البضائع - التي يؤولي بها من الأطراف لتباع في الأسواق - حماية لها من الغش ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر حفاظاً للأمن بين جميع فئات الشعب . (٢)

وكان ينبغي علي الحاكم مؤازرة المحتسب ومساعدته ، لأن مهمته تعتبر ركيزة من ركائز السلطان ، فلا يضيق علي الفقراء ، ولا يترك التجار يبيعون وفق أهوائهم فيزيجون الأسعار ويقسطون في الميزان ، فيعم الفساد وتعطل أحكام الشريعة في جميع أنحاء البلاد . (٣) ولذلك كانت لاتستند هذه الوظيفة إلا

(١) ابن خلدون : ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ - انظر الماوردي : الأحكام السلطانية : ص ٢٧٠ وما بعدها .

(٢) نظام الملك : سياست نامه : ص ٤١ .

(٣) نظام الملك : سياست نامه : ص ٤١ .

لمن يوثق في أمانته ودينه من الخاصة الملكية كما تم تأسيس ديوان مخصص للأعمال المتعلقة بالحسبة سمي « ديوان الحسبة » . (١)

وعلى الرغم من أن جميع القوانين والأحكام الصادرة في النظام القضائي الإسلامي كان مصدر التشريع فيها كتاب الله وسنة رسول الله ، إلا أننا نلاحظ أن النظام المتبع في تطبيق هذه الأحكام كان مصدر التقليد فيه النظام الإداري الفارسي الذي انتقل إلى الإدارة الإسلامية عبر التأثيرات الفارسية في نظم الحكومة الإسلامية .

فالفرس أمة عريقة عرفت القضاء منذ عهد بعيد وتمسك ملوكها بالقضاء إلى أبعد الحدود لأن العدل والحق من الأسس التي قامت عليها الإمبراطورية الفارسية منذ أقدم العصور وعلى مر الزمان ، وينقل صاحب « عيون الأخبار » نصاً عن كتاب « الأئين » يتضح فيه دقة حكام الفرس في تطبيق العدالة بين الناس يقول فيه « ينبغي للحاكم أن يعرف القضاء الحق العدل والقضاء العدل غير الحق والقضاء الصق غير العدل ويقايس بتثبت وبروية ويحفظ من الشبهة » (٢).

ثم يعلق « ابن قتيبة » على هذا النص مفصلاً لمعناه فيقول : « والقضاء الحق العدل عندهم قتل النفس بالنفس ، والقضاء العدل غير الحق قتل الحر بالعبد ، والقضاء الحق غير العدل الدية على العاقلة » . (٣)

ويتضح في ذلك اهتمام الفرس بتنفيذ القضاء العادل بين جميع فئات الشعب.

(١) سعيد تقيسي : تاريخ تمدن ساماني : ص ٢٢٢ .

(٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار : ص ٦٢ ج ١ ط دار الكتب ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٥ م .

(٣) ابن قتيبة : عيون الأخبار : ص ٦٢ ج ١ .

فقد احتلت العدالة أهمية خاصة في إيران القديمة ، وكان الشاهنشاه - ملك الملوك - يتولى بنفسه الإشراف علي جميع درجات القضاء منذ العهد الأشكاني ، وكان يعين القضاة في جميع الولايات ليتولوا بحث الحقوق وإصدار الأحكام المدنية المناسبة فيها ، أما الحكم في الأمور السياسية ومخالفات الأمن فكان نوطاً بالملك فقط ، وأحياناً كان يحكم ولاية الولايات في المخالفات السياسية بتفويض من الملك ، وبلغ اهتمام الشاهنشاه بالقضاء مداه حتي كان يتابع القضاة في إصدار الأحكام ولم يتوان في محاكمة القضاة المنحرفين بتقصي العقوبة ومنتهي القسوة حرصاً علي تطبيق العدالة بين جميع طبقات المجتمع الإيراني القديم .

وفي العصر الساساني أولي الملوك للقضاء اهتماماً كبيراً ورعاية فائقة ، فكانوا يحرصون علي العدل ، متمسكين بالحق ، ويهتمون بالقضاء تحقيقاً للعدالة بين جميع طبقات الشعب ولدوام ملكهم وبقاء إمبراطوريتهم فكانوا يجلسون للنظر في المظالم بأنفسهم منذ عهد « أردشير بن بابك » مؤسس العدل في العصر الساساني ، الذي كان يجلس للمظالم فيرد الحقوق إلي أصحابها ويصلح بين الرعية . (١)

وكان ابنه « سابور » متمسكاً بالعدل مثله ، ويستمع إلي المظالم ولا يفلق باب العدل علي متظلم . (٢)

وبلغ حرص ملوك الفرس علي العدل مداه بحيث كانوا يوصون أبنائهم بالحرص علي العدل والتمسك به في حكمهم ليندم سلطانهم ، ومما يروي في

(١) حسن بيرنيا : تاريخ إيران : ص ١١٩ .

(٢) فردوسي : شاهنامه : ص ١٩٨٧ ج ٧ طبريز - تهران ١٣١٣ هـ - ١٩٣٤ م .

(٣) فردوسي : شاهنامه : ص ٢٠٠٤ ج ٧ .

ذلك أن « هرمز بن سابور بن أردشير » عندما شعر بدنو أجله استدعى ولده « بهرام » وأوصاه بالحرص علي تطبيق العدالة والسماع إلي المتظلمين ، والصفح عن المسيئين . (١)

ويعتبر « أنوشروان » الحاكم العادل من أبرز ملوك آل ساسان تمسكاً بالعدالة والحق حتي لقب « العادل » وكان ينفذ أحكام القانون علي نفسه مثل سائر الرعية ، وكان قد أذن في الناس إذناً عاماً فلما حضروا حثهم علي التمسك بالعدل وعدم قبول الظلم ، لأن أساس ملكه العدل فلا يمنعهم عنه هيئة التاج والتخت ، ولا ينصرفون عنه إلا وحاجتهم ملضية ، وحقوقهم مرعية لأنه لا سعادة له إلا بمناصرة المظلومين وفك حاجة المكروبين . (٢)

وعموماً كان ملوك العصر الساساني أشد حرصاً وأكثر تماسكاً بالعدل والحق في ممالكهم حتي كان الملك يستقر معتظياً جواده فوق موضع مرتفع أثناء التحقيق في المظالم ليتابع شكاوي الناس ويحقق فيها بنفسه فيقطع الفرصة علي كل ظالم يحول بين المتظلم والدخول إلي بلاط الملكة . (٣)

هذا وكان الملوك الساسانيون يجلسون للنظر في المظالم مرتين كل عام أحدهما في عيد النوروز والآخر في عيد المهرجان فيحضر جميع الناس وجميع الفئات ولا يحجب أحد عن الملك في هذين اليومين ، وكل من له شكوي يعرضها علي الملك فينظر فيها ويتنصر للمظلوم من الظالم . (٤)

(١) فردوسي : شاهنامه : ص ٢٠١١ ج ٧ .

(٢) فردوسي : شاهنامه : ص ٢٢٢٥ ج ٥ بروخيم - تهران ١٣١٤ هـ - ١٩٣٥ م

(٣) نظام الملك : سياست نامه : ص ١٠ - حسن بيوتيا : تاريخ إيران : ص ٢٤٧ .

(٤) كروستشن : إيران في عهد الساسانيين : الترجمة العربية : يحيى الخشاب : ص ٢٨٧ -

الترجمة الفارسية : إيران در زمان ساسانیان رشيد ياسمي : ص ٢٠٩ - حسن بيوتيا :

تاريخ إيران : ص ٢٤٧

هذا ويخبرنا كتاب « تنوير » عن نوعين من أنواع السنن المتبعة عند ملوك
 الفرس في أحكامهم القضائية ، وهما سنة الأولين ويقصد بها المبادئ الدينية
 الأصلية القديمة في دين « زردشت » ، وسنة الآخرين ويقصد بها المبادئ التي
 يجري العمل بها كما يشير إلي حرص الملك علي الاجتهاد في محو الظلم ونشر
 العدل لأن الظلم مذموم والعدل محمود في كل العصور يقول : « اعلم أن السنة
 نوعان . سنة الأولين وسنة الآخرين ، فاما سنة الأولين فهي العدل ، وقد درست
 معالم طريق العدل إلي حد أنك لو وصفت رجلاً في عهدنا هذا بأنه عادل لحمله
 الجهل علي العجب واستصعاب الأمر ، وأما سنة الآخرين فهي الجور فقد
 استباح الناس إلي الظلم إلي حد أنهم لا يتحولون عن سبيله الضارة إلي
 سعة التي يحصلون عليها بتفضيل العدل . بل أنه لو أحدث المحدثون عدلاً
 لقليل : « ليس هذا لانقاً بهذه الزمان » ، ولهذا لم يبق للعدل ذكر ولا آثار ولو
 نقض الملك شيئاً من ظلم القوم الذي لا يصلح لعهدنا وزماننا لقليل : إن هذا
 الذي نقضه الملك ونظم قديم وقاعدة من قواعد الأولين ، ويجب أن تعلم الحقيقة ،
 يجب الاجتهاد لتجمل آثار ظلم الأولين والآخرين ، فالجدير بالاعتبار عندنا أن
 الظلم غير محمود في « جميع العهود سواء منها القديم والجديد وسواء أقام به
 الأولون أم الآخرون .

وإن هذا الملك مسلط علي الظلم وإن الدين حليفه وأنه قادر علي القضاء
 علي أسباب الجور ومحقها . (١)

وكان ملوك الفرس يوقعون علي المظالم التي تعرض عليهم بعد النظر
 فيها ومن أمثلة ذلك : أن رجلاً رفع إلي « كسري بن قباد » رقعة يخبره فيها أن

(١) كتاب تنوير أقدم نص عن النظم الفارسية قبل الإسلام « نقله اللغة العربية يحيى الخشاب :
 من ٣٠ ، ٣١ ط مصر ١٩٥٤ .

جماعة من بطانته قد فسدت نياتهم وخيبت ضمانتهم منهم فلان وفلان ، فوقع أسفل كتابه « إنما أملك ظاهر الأجسام لا النيات ، وأحكم بالعدل لا بالهوى ، وأقنص عن الأعمال لا عن السرائر » ^(١) ووقع « أنوشروان » في قصة رجل تظلم : « لا يتبغي للملك الظلم ، ومن عنده يلتزم العدل ولا البخل ، ومن عنده يتوقع الجود . » ^(٢)

ولم يتكبر الملك علي هذا الرجل ولم يرفض مظلمته بل أمر بإحضاره وقعد منه بين يدي « المريد » كي يقضي بينهما .

كما وقع « أنوشروان » أيضاً في قصة محبوبس : « من ركب مانهي عته حيل بينه وبين ما يشتهي » . ^(٣)

ولم يقتصر النظام القضائي في العصر الساساني علي نظر الملوك في المظالم فحسب بل كان الملوك الساسانيون علي رأس الجهاز القضائي ويعينون القضاة علي الأقاليم والكور والولايات ، وكان للقضاة منزلة معززة محترمة ، وكانوا يختارون ممن تتوافر فيه العدالة والخبرة من بين رجال الدين لما كان لهم من خبرة وإطلاع بأصول التقاضي ، أو من أسر النخباء الأشراف التي كان لها حق التحكيم والتوسط في المرافعات ، ومن المحتمل أن تكون طبقة الأشراف هي التي كانت تصدر الأحكام . ^(٤)

(١) ابن عبد ربه : العقد الفرید : ص ٢٢٢ ج ٤ ط بيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٣ م .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفرید : ص ٢٢٣ ج ٤ .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفرید : ص ٢٢٣ ج ٤ .

(٤) سعيد نفيسي : تاريخ تمدن ساساني : ص ٢٥ - انظر : حسن بيرنيا : تاريخ إيران :

وكانت السلطة القضائية محصورة في أيدي رجال الدين ، وكان القضاة يلقبون « داوران » و«كلاهم » دستوران » والمرايذة والهرابذة يصدران الأحكام القضائية وكان الرئيس الأعلى للقضاة هو قاضي الدولة ويسمى «شهردانور» أو «داور داوران» .

وكان من بين القضاة من يشرف علي العادات والتقاليد ويلقب « الآيين بد » وكان يقوم علي القضاء في كل مجورة أو إقليم أحد القضاة الروحانيين وكانت مهمته مراقبة تنفيذ العدالة وسير القانون في جميع الاعمال حتي في سلوك السلطات المدنية العليا في الإقليم .

ويعتبر « سرو شورز داريك » أي القاضي الروحاني و « دستور همدان » من كبار الموظفين الذين كان لهم سلطة قضائية في كل إقليم ، وكان «الدهقان » المرجع في كل كورة وكل إقليم وكان يحقق في القضايا ويفصل فيها أحياناً ، وكان هناك قاض خاص يعقد الصلح يسمى « شاهريشت » وقاض خاص بالقضاء العسكري يسمى « سپاه دانور » . (١)

هذا وكانت المحاكم القضائية المختلفة منتشرة في المدن والأقاليم وكانت تتكون من قضاة مختلفي الدرجات وشهود يستدعون في الجلسات وحد القانون القضائي مدة استدعاء الشهود ، ومدة المرافعات بحيث لا تطال المرافعات، وقيد ثروة المتخاصمين بحيث لا يتعرقل سير القضايا ، وصرح بالظعن في حكم القاضي والتظلم منه إذا قدم قضية مشكوك فيها علي أنها صحيحة، أو قضية صحيحة علي أنها مشكوك في صحتها لمصلحت الخاصة. (٢)

(١) كريستنسن : الترجمة العربية : يحيى الفشاب : ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ - الترجمة الفارسية :

رشيد ياسمي : ص ٢٠٨ ، ٢٠٩

(٢) كريستنسن : الترجمة العربية : يحيى الفشاب : ص ٢٨٩ - الترجمة الفارسية : رشيد

ياسمي : ص ٢١١

وخصص ديوان لتنفيذ أحكام القضاء سمي « ديوان الجزاء العادل » (١)

ويعد أن استعرضنا تطور النظام القضائي عند العرب من مجالسهم القبلية القضائية قبل الإسلام وحتى وجود نظام قضائي مقنن له دواوين خاصة به وله قضاة يشرفون عليه وموظفون وعاملون يراعون تطبيق التشريعات القانونية الإسلامية علاوة على اهتمام الخلفاء المسلمين منذ عصر صدر الإسلام وحتى نهاية العصر العباسي بتطبيق قواعد التشريع القضائي في المجتمع الإسلامي ثم انتقلنا إلى متابعة النظام القضائي عند الفرس قبل الإسلام في العصر الأشكاني ثم العصر الساساني ووضحنا اهتمام ملوك الفرس بالعدالة في معالكتهم وحرصهم على تكوين النظام القضائي العادل في جميع معالكتهم نلاحظ وجود كثير من التأثيرات القضائية الفارسية في النظام القضائي للدولة الإسلامية وإن لم تكن هذه التأثيرات في القوانين الإسلامية التي كان مصدرها القرآن الكريم والسنة المحمدية الشريفة فإننا نراها في الأسلوب والنظام المتبع لتطبيق الشرائع والقوانين الإسلامية فقد اهتم الخلفاء المسلمين بالقضاء وتنفيذ الأحكام الشرعية بين جميع الأجناس البشرية التي دخلت الإسلام لا تفرقة بين عربي أو أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وتطبيق أحكام القانون على الصغير والكبير والقوي والضعيف والغني والفقير ، ولم يتوان الخلفاء في خضوعهم للقوانين امتثالاً للأحكام العادلة وتطبيقها على أنفسهم مثل سائر الرعية ، وكانوا ينظرون في المظالم بأنفسهم ويردون الحقوق إلى أصحابها فكانوا مثل ملوك الفرس الذين اهتموا بتطبيق العدالة بين جميع طبقات الشعب الإيراني وكانوا ينظرون في المظالم بأنفسهم ويجتمعون مرتين كل عام بجميع فئات الشعب في مجال عام لبحث الأمور القانونية والمشاكل

(١) حسن بيرنيا : تاريخ إيران : ص ٢٤٢

القضائية ، ولم يتوان أحدهم في إثبات خصوصية التوازن العدالة وتطبيقها علي نفسه مثل عامة الناس .

هذا وقد حرص الخلفاء العباسيون علي أن يمزجوا بين الدين وتدبيرهم لأمر الدولة فصاغوا القوانين المناسبة لذلك فما زالوا يذكرون الرعاية بعلو نسبهم إلي آل البيت ، وأنهم القائمين علي حماية الدين والسنة فلا يصح لأحد أن يعارضهم في شئ لأنهم يحكمون وفقاً للعناية الإلهية ، ولعل هذه الفكرة وهي فكرة التفويض الإلهي كانت معروفة عند الفرس قبل الإسلام حيث كان ملوك آل ساسان يسيطرون علي طبقات الشعب المختلفة بنسج وصياغة القوانين الملائمة لتثبيت دعائم ملكهم من الزرادشتية ، وفي ذلك يقول ليفي "Levey" :

« وكان من الطبيعي أن العباسيين - نظراً للأصول التي كانوا ينتسبون إليها اعتبروا امبراطوريتهم استمراراً لامبراطورية الساسانيين كما اعتبروا مكانهم منها مطابقاً تعام المطابقة لمكان الساسانيين من امبراطوريتهم ، وكان الفارق الرئيسي بين العباسيين والساسانيين أن الإسلام أصبح دين الدولة بدلاً من الزردشتية وأن العباسيين كانوا علي رأس الإسلام كما كان ملوك الفرس رؤساء للدين الزردشتي من قبل ، وكان خليفة بغداد يدعي بحامي المؤمنين الفيور وحارس السنة وذلك علي العكس من الأمويين الذين يصورهم مؤرخو العصر العباسي بصورة رجال ماديين متعلقين بالدنيا غير متدينين ، ولم يتوان أحد من العباسيين عن التذكير بأنه من آل النبي وأنه يلبس بردة النبي التي ورثها عنه ، وقد صيغت قوانين الإسلام لتلائم حاجات الدولة وتم الجمع بين العقيدة والملك ووضعاً علي نفس القاعدة التي كانت عليها في إيران أيام الساسانيين وهي التي كثر ثناء الفريوسي عليها في كتابه الشاهنامه » . (١)

(١) ر . ليفي : تراث فارس : ص ٩٧ .

وقد بالغ الخلفاء العباسيون في تقليدهم للملك الساسانيين عندما حجبوا أنفسهم من الرعية وأحاطوا أنفسهم برهبة روحية ، واستعانوا بقوة عسكرية تنفذ أحكامهم القضائية المطلقة علي غرار ما كان يفعل ملوك إيران الذين كانوا يتخفون من الجلادين رمزاً للسلطة المطلقة يشهرونها علي طبقات الشعب .

ويؤكد « ليفي » هذه الفكرة مستنداً إلي قول « جيبون Gibbon » حيث يقول : « ولقد كان من بين الساسانيين من جعلوا من أنفسهم أشباهاً لله "God Like" في صورههم المنقوشة علي نقودهم ، وكذلك كان من بين العباسيين من ادعي أمجاداً إلهية أو من اعترف له بمثل هذه الأمجاد . وقد حاول هؤلاء أن يحيطوا أنفسهم بجو تشيع فيه الرهبة المنبعثة عن الإكبار تلك التي يقول عنها « جيبون » "Gibbon" : « أن البعد والغموض هما اللذان يستطيعان الإبقاء عليها في نفوس الناس أمام قوة وهمية لا حقيقة لها إلا في خيالهم » . وقد اتصلوا إلي ذلك باتباع الوسائل التي لجأ إليها الساسانيون من قبل فآخفوا أنفسهم عن أعين الناس مستخدمين إلي جانب الأستار وغيرها من الأدوات عدداً كبيراً من الحراس ورجال البلاط ليحولوا بين الناس وبين الوصول إلي رؤسائهم وهو أمر كان العرب يعتبرونه حقاً لهم . وكان أشد من بيعت العرب من بين أتباع الخليفة حرسه الخاص الذي كان يضم بينه رجالاً أو بضعة رجال ينفذون أوامره في الحال ويدون مناقشة مهما كانت قسوة هذه الأوامر ... وقد كان الجلاذ رمز السلطة المطلقة التي كان يشهرها الملك الإيراني علي أرواح رعاياه ، وقد ادعي العباسيون أيضاً الحق لأنفسهم في ممارسة هذه السلطة المطلقة ، وقد اعترف الناس لهم بهذا الحق علي أي حال وكان الحكم بالإعدام ينفذ بالقرب من دار القضاء » . (١)

(١) ر . ليفي : تراث فارس : ص ٩٨ .

واقرب دليل علي تطبيق الأحكام المطلقة للخلفاء العباسيين ما ذكره «الطبري» من إرسال الخليفة « المنصور » اثنين من مواليه لقتل رجل يدعي «فضل بن عمران» - وكان قد جعله كاتباً لابنه «جعفر» وولاه أمره - بسبب وشاية حقيرة « لأم عبيد الله » حاضنة « جعفر » حيث أوامت إلي الخليفة أن قضياً يعيث بابه جعفر فضرباً عنقه دون أن يعرض لهما أحد علي الرغم من أن «قضياً هذا كان رجلاً عفيفاً ديناً وأبراً مما رمي به » وعندما علم «جعفر» بذلك قال : لسويد - وهو أحد مواليه - ما يقول أمير المؤمنين في قتل رجل عفيف دين مسلم بلا جرم ولا جناية قال « سويد » : هو أمير المؤمنين يفعل ما يشاء ، وهو أعلم بما يصنع . (١)

وكذلك كان يتولي أمور القضاء في جميع الدويلات والأمصار الإسلامية قضاة يعينون من قبل الخليفة بعد أن يتحري الدقة في اختيارهم وتوافر الشروط فيهم وكان هؤلاء القضاة يقومون بأعباء أعمالهم في إصدار الأحكام المناسبة في القضايا المعروضة عليهم مثل قضاة الفرس الذين كانوا يعينون من قبل الملك الفارسي بعد أن يراعي توافر شروط الاختيار فيهم ، وكانوا يبحثون ويفصلون في أمور الرعية ومشكلاتهم في كل إقليم من أقاليم الدولة الفارسية .

وصار وجه الشبه كبيراً بين القاضي عند المسلمين والمريد عند الفرس في ممارسة القضاء ، كنظام الفصل في النزاع والخصومات بين الناس مع اختلاف مصادر التشريع القضائي فعند المسلمين القرآن والحديث والاجتهاد بالرأي بينما كانت الزرادشتية مصدر التشريع عند الإيرانيين فكلاهما يربط بين الدين والدنيا ، وفي ذلك يقول ليفي R. Levey : « وهناك مثال ثابت

(١) الطبري : تاريخ : ص ١٠٠ ج ٨ حوادث سنة ١٥٨ هـ .

لربط الوثيق بين أمور الدين وأمور الدنيا يتجلى في تصور المسلمين للقاضي، فهو أولاً رجل عالم بالقرآن والحديث ولكن وظيفته هي أن يحكم بين الناس في دور القضاء حتي ولو كانت هذه الدور تنظر في قضايا مدنية ، وأن وجه الشبه لواقع بينه وبين السيد الذي كان يمارس القضاء في ظل الدين الزرادشتي»^(١)

ولم يقف التأثير الفارسي في النظام القضائي الإسلامي عند هذا الحد بل تصاعد حتي كان النظام المتبع في عرض القضية أمام لجنة القضاء في النوبة الإسلامية هو نفس الأسلوب المتبع في عرض القضايا الفارسية بما فيه من قضاة مختلفي الدرجات للنظر في القضايا والتشاور فيها ، وشهود يستمع لأقوالهم ، وتكوين لأحداث القضايا والأحكام الصادرة فيها ، وحق التظلم من الأحكام المشكوك في صحتها .

وإذا كان النظام القضائي الإسلامي اشتمل علي وظيفة لمن يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويراعي مصالح المسلمين وسمي صاحب هذه الوظيفة « المحتسب » فقد كان من بين الوظائف القضائية في عصر الدولة الساسانية من يقوم بمتابعة العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية والسلوك العام في أقاليم وقرى الدولة الفارسية وكان يسمى « الأيين بد » ومن يشرف علي القيم الروحية مثل القاضي « سروشوردايك » ... فكل العاملين ذو غرض واحد في كلا النظامين الإسلامي والفارسي وتثبيت العقيدة والعادات والتقاليد الحميدة والحرص علي مصالح الرعية .

وكان يشرف علي أعمال القضاة في جميع أنحاء البلاد الإسلامية قاضي بغداد « قاضي القضاة » مثلما كان يشرف علي أعمال القضاة في

(١) ر . ليفي R. Levey : تراث فارس : ص ٩٨ .

جميع أنحاء الأقاليم الساسانية « شهر دادور » أو « دادور دادوران » وكان لتنظيم القضائي ديوان خاص مستقل بذاته تجري فيه جميع الأعمال المتعلقة بالقضاء في الدولة الإسلامية مثلما كان للنظام القضائي ديوان خاص تنفذ فيه أحكام القضاء في الدولة الفارسية .

ويؤكد « ليفي » " R. Levey " : هذا التشابه الكبير في الوظائف القضائية عند العرب والفرس فيقول : « ونحن إذا صرفنا النظر عن المؤهلات التي كان ينبغي توفرها في هؤلاء العمال وجدنا أنهم يشبهون بعض الموظفين الذين كانت تتألف منهم الإدارة المدنية عند ملوك الفرس » . (١)

ومما لا شك فيه أن هذا التأثير الفارسي في نظام القضاء الإسلامي قد أدى إلى دخول بعض الألفاظ الفارسية التي كانت مستعملة في نظام القضاء الساساني إلى اللغة العربية لتستخدم في نظام القضاء الإسلامي وإن عريبها العرب أو ترجموها إلى العربية . فقد أشرت سابقاً إلى التشابه الكبير بين الوظائف القضائية عند الفرس وعند المسلمين وإن كان المسلمون استخدموا المصطلحات العربية فهذا لا يمنع أنهم ترجموا مسمي هذه الوظائف الفارسية إلى اللغة العربية أو أنهم نقلوا أسلوب الإدارة الفارسية ووضعوا له مسمي عربي، ولعل هذا يرجع إلى الحس الإسلامي الواعي حتي لا يظن محدودي التفكير أن القضاء الإسلامي هو نفس القضاء الساساني في قوانينه وتشريعاته ووظائفه وإدارته ، خلافاً هنا من بيان واضح يفرق بين النظام الإداري وبين التشريعات والقوانين المستعملة في الحكم بين الرعية . ومن الكلمات التي استعملت في نظام القضاء الإسلامي ، وكان لها أصل فارسي كلمة « ديوان » .

(١) ليفي : تراث فارس : ص ٩٩ .

أما عن أصل كلمة « ديوان » فهناك اختلاف في أصلها فقليل أن أصل الكلمة عربي وفي ذلك يقول النحاس : « والمعروف في لغة العرب أن الديوان الأصل الذي يرجع إليه ويعمل بما فيه ومنه قول ابن العباس إذا سألتموني عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر ديوان العرب ، ويقال دونته أي أثبته وإليه يعمل كلام « سيبويه » . (١)

واجتمعت كثير من الآراء علي أنها فارسية لوجهين : « أحدهما أن كسري اطلع ذات يوم علي كتاب ديوانه فأراهم يحسبون مع أنفسهم فقال ديوانه أي مجانيين فسمي موضعهم بهذا الاسم ثم حذفت الهاء عند كثرة الاستعمال تخفيفاً للاسم فقليل « ديوان » .

والثاني أن الديوان بالفارسية اسم الشياطين فسمي الكتاب باسمهم لحذفهم بالأمور وقررتهم علي الجلي والخفي وجمعهم لما شذ وتفرق ، ثم سمي مكان جلوسهم باسمهم فقليل ديوان . (٢)

ويؤكد المستشرقون هذا الأصل الفارسي لكلمة ديوان فيذكر « ريتشارد فراي » « R. Frye » أن كلمة ديوان فارسية الأصل ثم دخلت الأرمينية والسريانية في العصر الفارسي الأوسط .

وقد تطور معناها الإداري فبعد أن كانت تستخدم في التسجيلات المالية اتسع معناها الاصطلاحي أخيراً فشمل جميع الإدارات وأصبح يعني إدارة

(١) القلشندي : صبح الأعشي : ص ٨٩ - ٩٠ ج ١ ط دار الكتب ١٣٣١ هـ - ١٩١٣ م.

(٢) الماوردي : الأحكام السلطانية : ص ٢٢٦ - ابن خلدون : المقدمة : ص ٢٤٣ ج ١ - برواية

أخرى ... انظر : ابن قتيبة : عيون الأخبار : ص ٥٠ - تبريزي : برهان قاطع : ص ٢١٣

مادة «ديوان» الشيخ مصطفى المنقي : لسان العجم : ص ٤٤١ مادة «ديوان» - ديوانه .

F. Steningass : P. B. D. P. 555 - Liban 1944.

الوزارة^(١) وتعتبر من الكلمات الإدارية الإيرانية القديمة التي دخلت في الإدارة الإسلامية^(٢).

ويقول ر. ليفي "R. Levey" : ومن المعروف أن «ديوان» نفسها مشتقة من الفارسية^(٣).

ويقول بارتولد : « وقد بدأ تأثير إيران يظهر منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب » (١٣ - ٢٣ هـ / ٦٢٤ - ٦٤٤ م) فأنشئت دواوين للكتابة والحساب ولعل كلمة ديوان التي تدل علي معنى Chancellerie أخذت من اللغة الفارسية^(٤).

وتوفيقاً بين هذه الآراء نرجح أن كلمة « ديوان » فارسية ، وعرفها العرب قبل الإسلام نتيجة لعلاقتهم بالفرس ، ولكنهم لم يستعملوها في شئونهم الإدارية إلا بعد الإسلام عندما اتسعت النواة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فأشار عليه بعض مرآزية الفرس بتنظيم الدواوين ، وكان ديوان القضاء من بين النظم الإدارية التي أنشئت في المجتمع الإسلامي .

نضيف إلي ذلك ورود كثير من المصطلحات الفارسية التي استعملت في دواوين القضاء الإسلامية مثل « الأراج » أعراب أوراء ومعناه بالفارسية المنقول لأنه ينقل إليه من القانون ما علي إنسان ويثبت فيه ما يؤديه دفعة بعده أخرى إلي أن يستوفي ما عليه .

(١) R. N. Frye : The Golden Age of Persia, P. 106 - London 1977.

(٢) R. N. Frye : The Golden Age of Persia : P. 152.

(٣) ر. ليفي R. Levey : تراث فارس والعرب (الترجمة العربية : محمد ككافي) : ص ٩٤.

(٤) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية : الترجمة العربية لحمة طاهر : ص ٢٥ ط دار المعارف بمصر ١٩٤٢ م.

« الرزنامج » تفسيره كتاب اليوم لأنه يكتب فيه مايجري كل يوم من الخراج أو نفقة أو غير ذلك .

« التاريخ » قيل لفظة فارسية ومعناه النظام لأنه كسواد يعمل للعقد لعدة أبواب يحتاج إلي علم وأنا أظن أنه تلعيل من الأرواج نقول تاريخاً لأن التاريخ يعمل للعقد شبيهاً بالأرواج فإن ماثبتت تحت كل اسم من دفعات القبض يكون مصفوقاً ليسهل عقده بالحساب وهكذا يعمل التاريخ.

« السجل » أيضاً المحضر يعقده القاضي بفصل القضاء يقال سجل الحاكم لفلان بكذا تسجيلاً . (١)

وتعتبر كلمة « دستور » من الالفاظ الفارسية التي كانت مستعملة في النظام القضائي الساساني ثم انتقلت إلي اللغة العربية بين مصطلحات النظام القضائي الإسلامي .

فقد جاءت هذه اللفظة بين المصطلحات الفارسية القضائية بمعنى نائب القاضي أو الوظائف التشريعية . (٢)

وجاءت في « برهان قاطع » بفتح الأول علي وزن « مستور » بمعنى الوزير وصاحب السلطة ، والرخصة والإجازة ، والقاعدة والقانون . (٣)

وجاءت عند « استانفس » " Dastur " بمعنى رخصة أو إجازة أو الوزير الأول . (٤) وهي نفس المعاني التي وردت في « برهان قاطع » وذكرناها سابقاً .

(١) الخوارزمي : ملطابع العلوم : ص ٣٧ ، ٣٩ .

(٢) كريسستن : الترجمة العربية : يحيى الخشاب : ص ٢٨٦ - الترجمة الفارسية : رشيد ياسمي : ٢٠٩ ، ص ٤١٦ .

(٣) محمد حسين بن خلف تبريزي متخلص به برهان : برهان قاطع : ص ٥٢٥ ، ٥٢٦ ج ١ مادة

« دستور » .

(٤) مادة « دست » F. Steingass : Persian - English Dictionary : P. 525 .

ووردت كلمة « دستور » بضم الأول في اللغة العربية بمعنى الوزير والوزير صاحب القول المعتمد . (١)

وجاءت أيضاً عند "Stingass" دستور "Dustur" بضم الدال بمعنى القانون الحاكم ، أو عضو مجلس الحكومة ، وعظيم القوم . (٢)

وكذلك وردت في الشاهنامه بمعنى القانون والوزير والمقدم في دين زردشت . (٣) ويقول البعض بأن لفظة « دستور » بضم الأول معربة وهي في الحقيقة ليست عربية النطق . (٤)

وبهذا تكون لفظة « دستور » فارسية اللفظ والمعنى ودخلت العربية بين المصطلحات الإدارية في النظام القضائي الإسلامي وما زالت مستعملة حتي الآن .

وهذه الكلمات المعربة أو الفارسية التي دخلت نظام القضاء الإسلامي تدل على التأثير الفارسي ، ولو لم يكن كذلك ما احتجج إلي معرب أو دخيل إلي اللغة العربية من المصطلحات الفارسية في دواوين القضاء الإسلامية .

وهكذا يتضح جلياً التأثير الفارسي في النظام القضائي الإسلامي فقد اتفق النظام القضائي الإسلامي مع النظام القضائي الساساني في نظر الحكام في النظام ، ووجود طبقة من القضاة للتحكيم والفصل في قضايا

(١) برهان : برهان قاطع : ص ٥٢٦ ج ١ مادة « دس » .

(٢) مادة « دس » . F. Steinges : Persion - English Dictionary : P. 525 .

(٣) الفريديسي : الشاهنامه : الترجمة العربية : ص ٢٤٢ ج ٢ دار الكتب المصرية ١٣٥٠ هـ - ١٩٣٢ م .

(٤) برهان : برهان قاطع : ص ٥٢٦ ج ١ مادة « دس » .

الرعية يرأسهم قاضي القضاة ، وفئة من رجال الدين يشغلون وظائف تخدم القضاء بنشر الوعي وتثبيت العقائد والمحافظة علي مصالح الرعية ، وتأسيس ديوان مخصص للقضاء ، ولم يتفق قضاء الإسلام مع قضاء « آل ساسان » في مصدر التشريع ، فالقضاء الإسلامي مصدر التشريع فيه الكتاب والسنة بينما القضاء الساساني مصدر التشريع فيه لنصوص « الأستا » ...

فقد اتفق النظام القضائي الإسلامي مع النظام القضائي الساساني شكلاً دون مضمون وهيئة بغير قانون ... فيحق لنا القول إن النظام الإداري للقضاء الإسلامي تأثر بأسلوب إدارة نظام القضاء الفارسي .

المصادر والمراجع العربية

- (١) حمزة طاهر : تاريخ الحضارة الإسلامية : بارتولد « الترجمة العربية » ط. دار المعارف بمصر ، ١٩٤٢ م .
- (٢) ابن خلدون : المقدمة ، ط. بيروت ، ١٩٠٠ .
- (٣) الخوازمي : مفاتيح العلوم ، ط. الشرق ، ١٣٤٢ .
- (٤) سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي « الترجمة العربية » ، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- (٥) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ط. دار المعارف ، ١٢٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .
- (٦) ابن عبد ربه ك العقد الفريد ، ط. بيروت ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
- (٧) ابن قتيبة : عيون الأخبار ، ط. دار الكتب ، ١٣٤٣ هـ .
- (٨) الفلقشندي : صبح الأعشي ، ط. دار الكتب ،
- (٩) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ط. الترفيقية .
- (١٠) محمد عبد الهادي أبو ريدة : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع « الترجمة العربية » ، ط. بيروت ، ١٢٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .
- (١١) محمد كفافى وآخرون : تراث فارس ، أرثر ليفي ، الترجمة العربية ، ط. عيسى الحلبي ، ١٩٥٩ م .
- (١٢) يحيى الخشاب : إيران في عهد الساسانيين « كريستنسن » : الترجمة العربية ، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- كتاب تنسر أقدم نص عن النظم الفارسية قبل الإسلام، الترجمة العربية ، ط. مصر ، ١٩٥٤ م .

المصادر والمراجع الفارسية

- (١٣) أبو بكر النرشخي : تاريخ بخارا ، ط. تهران .
(١٤) تبريزي : برهان قاطع ، ط. انتشارات خردنما .
(١٥) حسن بيرنيا: تاريخ إيران از آغاز تا انقراض ساسانيان ، ط. الخيام .
(١٦) رشيد ياسمي : الترجمة الفارسية لكتاب كريستسن «إيران در زمان ساسانيان» ، ط. تهران مهرماه ، ١٣١٧ هـ .
(١٧) سعيد نفيس : تاريخ تمدن ساساني ، ط. تهران ، ١٣٣١ هـ .
(١٨) فردوسي : شاهنامه فردوسي ، ط. بروخيم - تهران ١٣١٣ هـ - ١٩٣٤ م.
(١٩) نظام الملك : سياست نامه ، ط. شيفر باريس ، ١٨٩١ م.

المصادر والمراجع التركية

- (٢٠) الشيخ مصطفى أفندي : لسان العجم ، ط. قسطنطينية ، ١١٥٥ هـ .

المصادر والمراجع الاوربية

- (21) Frye : R. N. The Golden Age of Persia , London, 1977 & Teingass. F. Liban, 1944.

الأدوات الإشاريّة في العربيّة

بقلم الدكتور / عبدالله بن حمد بن عبدالله الدايل
أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية
بكلية المعلمين بالرياض

مقدمة

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، أما بعد :
فإن الإشارة ظاهرة لغوية عامة تشترك فيها اللغات الإنسانية جميعها ؛ إذ
يتفنى الناطقون عن إعادة الأسماء بواسطة استعمالهم للأبوات الإشارية .
واستخدام الأبوات الإشارية في اللغة العربية يتفق مع ما تشتم به اللغة
عربية من ميل إلى الإيجاز ، فضلاً عن التخلص من التكرار الذي يصاحب إعادة
أسماء .

والإشارة في العربية تشمل نوعين من الأسماء - كما يراه الباحث - هما :
أسماء الإشارة ، والضمائر ؛ بيد أن بعض المحدثين كبر جشتراسر يذكر مع
نك المصنفين كثيراً من الصيغ التي يظن أنها أدوات إشارية ؛ إذ يعدّ مع أسماء
شارة والضمائر ما يأتي :

الأسماء الموصولة ، و « ذو » التي بمعنى صاحب ، و « إذ » الظرفية الزمانية ،
أشاكلها ، و « أل » التعريف ، وأسماء الاستفهام (١) .

ويتفق فاضل مصطفى الساقى مع برجشتراسر في أن « أل » يمكن عدّها من
أدوات الإشارة ؛ لأنها تستخدم بمعنى هذا ، أو هذه في بعض الأحيان ؛ يقول فاضل
مصطفى الساقى : « (أل) يمكن اعتبارها من العناصر الإشارية أيضاً ؛ لأنها قد
تستخدم بمعنى (هذا ، أو هذه) حين نقول : (أسافر إلى بغداد اليوم) بمعنى (في هذا
يوم) ... » (٢) .

(١) انظر برجشتراسر ، التطور النحوي للغة العربية ، أخرجه : رمضان عبدالنواب ، القاهرة ، مكتبة
الحاجي ، والرياض ، دار الرقاعي ، ١٩٨٢م ، ص ٨٣ ، ص ٨٦ .

(٢) فاضل مصطفى الساقى ، أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة ، القاهرة ، الناشر
مكتبة الحاجي ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٧م ، ص ٢٤٤ .

وفي رأبي أن إسقاط هذه الأدوات من باب الإشارة أولى ؛ لأنها ليست إشارات في الحقيقة ، وإنما تحمل معنى الدلالة عليها ؛ إذ لو سلمنا بأن تلك الأدوات إشارية لأدنى ذلك إلى أن نعد كل ظاهرة من ظواهر العربية إشارة ، ثم إن «آل» التعريف وإن حملت معنى الإشارة فإنها تحملها في حدود ضيقة جداً على نحو ما مثل ، الساقى ؛ لأن الأصل في «آل» أن ترد للتعريف الجنسي ، أو العهدي كما ه مشهور (١).

وقد عني النحاة بدراسة موضوع «الإشارة» بين أنهم لا يعالجونه تحت عنوان «الإشارة» بل يعالجونه تحت بابين كلاهما مستقل عن الآخر هما : الضمائر ، وأسماء الإشارة . وأكثر ما يتناولون هذين الصنفين في بابين كبيرين هما : "باب البناء (تقسيم الإعراب)" و "باب المعرفة" . ولم يوضّحوا تضمن هذين البابين للإشارة كانوا يدرسونهما من ضمن المعارف ، وأنهما من الميثقات لشبههما بالحروف . وفي أثناء جمعي لمادة البحث تكشف لي أن ما قاله النحاة في درسم لأساء الإشارة يقل بكثير عما قالوه في درسم للضمائر ، ولعل هذا ناشىء من الضمائر تفوق أسماء الإشارة في كثرة الصيغ ، وتنوعها ، وتشعب الآراء ، وكث الخلافات النحوية فيها ؛ الأمر الذي جعل بحث الضمائر يطول ويستطيل في كتب ومهما يكن من أمر ؛ فهذا البحث المتواضع ينقسم إلى فصلين : الفصل الأول يتضمن الحديث عن أسماء الإشارة ، والثاني جعلته في الضمائر . وحصرت الباب في هذين الفصلين ؛ لشمولهما الأدوات الإشارية وفق ما أراه . أمّا الخاتمة فدوّ فيها النتائج التي توصلت إليها ، ثم شغعت ذلك بمحتويات البحث ، وبش للمراجع ، وما توفيقى إلّا بالله عليه تركّلت وإليه أنيب .

(١) انظر سيبويه ، الكتاب ، القاهرة ، الطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ، ط١ ، ١٣١٦ هـ ، ١ / ١ .

الفصل الأول

أسماء الإشارة

كان سيبيويه يصف أسماء الإشارة بـ « الأسماء المُبَهِّمَة » رغم وضوحها في ذهنه بمصطلح « أسماء الإشارة » يقول في أثناء حديثه عن المعرفة : « فالمعرفة قسمة أشياء : الأسماء التي هي أعلام خاصة ، والمضاف إلى المعرفة ... ، والألف واللام ، والأسماء المبهمة ، والإضمار » (١) .

ثم فصل الكلام عنها بقوله : « وأما الأسماء المُبَهِّمَة فنصو : هَذَا ، وَهَؤُلَاءِ ، هَؤَآنِ ، وَهَآئِانِ ، وَتِلْكَ ، وَذَآئِكَ ، وَتَآنِكَ ، وَأُولَئِكَ ، وما أشبه ذلك » (٢) .

ووصفه لها بالمبهمة - كما يبدو - مأخوذ من الإبهام وهو الإغلاق ، أو الاستبهام ؛ قال السهيلي : « تسميتهم هذه الأسماء المُبَهِّمَة مأخوذة من " أبهمتُ الباب " إذا غلقتهُ ، و استبهم عليّ الجواب " أي استغلق . وكذلك هذه الأسماء إنما وضعت في الأصل لما استبهم على التكلم اسمه ، أو أراد هو إبهامه على بعض المخاطبين دون بعض ، فاكتمى بالإشارة إليه ، أو كانت الإشارة إليه أبين من اسمه عند المخاطب » (٣) مهما يكن من أمر! فقد حذا كثيرون من النحاة حذو سيبيويه من حيث وصفه لها الأسماء المبهمة ومنهم المبرد! إذ يقول : « وعن الأسماء المبهمة وهي التي

(١) سيويه ، الكتاب (برلاق) ، ٢١٩/١ .

(٢) المرجع السابق ، ٢٢٠/١ .

- ولجحد وصفه لأسماء الإشارة بالأسماء المبهمة في مواضع أخرى من الكتاب . انظر الكتاب ، ٢٢١/١ ، ٢٢٣ ، ٢٥٦ ، ١٠٤/٢ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ .

(٣) السهيلي ، نتائج الفكر ، تحقيق محمد إبراهيم البنا ، الرياض ، دار الرياض للنشر والتوزيع .

١٩٨٤ م ، ص ٢٢٧ .

تقع للإشارة ، ولا تخص شيئاً دون شيء وهي : هذا ، وهذاك ، وأولئك ، وهؤلاء ، ونحوه ، (١) .

وتبعه الزجاج (٢) ، وابن السراج (٣) ، وابن الخشاب (٤) ، والانباري (٥) ، وغيرهم وقد اكتفى أولئك النحاة بوصفها ، وورد صيغها دون أن يتطرقوا لحدّها . ومن وضّح لاسم الإشارة حدّاً ابن الحاجب ! إذ يقول : « اسم الإشارة ما وضّح لمشار إليه » (٦) . وأدق منه قول الرضي الأسترايادي في تعريفه لاسم الإشارة : « ما وضّح لمشار إليه به » (٧) وذلك لما فيه من التقييد الذي يُخرج لفظ المشار إليه من الحدّ . وبعضهم كالسيوطي لم يحدّه ، لأنه « محصور بالحدّ فاستغنى عن الحدّ » (٨) . فاسم الإشارة في نظر السيوطي لا يحتاج إلى الحدّ ، لأن صيغته بدلالاته المختلفة معروفة . وما يكن من أمر ! فإننا نخلص من تعريف ابن الحاجب والرضي

-
- (١) الميرد ، المقتضب ، تحقيق محمد عبدالحق عظيمه ، بيروت ، عالم الكتب ، (بلا تاريخ) ، ١٨٩/٣ .
(٢) انظر أبو إسحاق الزجاج ، ما ينصرف وما لا ينصرف ، تحقيق هدى محمود قراعة ، القاهرة ، مطب الأهرام التجارية ، ١٩٧١ م ص ٧٩ .
(٣) انظر ابن السراج ، الأصول في النحو ، تحقيق عبدالحسين الفتلي ، بغداد ، مطبعة سلم الأعظمي ، ١٩٧٣ م ، ١٣١/٢ .
(٤) انظر ابن الخشاب ، المرجل في شرح الجمل ، تحقيق علي حيدر ، دمشق ، (بلا نشر) ، ١٩٧٢ م ص ٣٠١ .
(٥) انظر أبو البركات الأنباري ، أسرار العربية ، تحقيق محمد بهجت البطار ، دمشق ، مطبعة الترقى ، ١٩٥٧ م ، ص ٣٤١ .
(٦) الرضي الأسترايادي ، شرح الرضي على الكافية لابن الحاجب ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط ١٩٨٢ م ، ٢٩/٢ .
(٧) المرجع السابق ، ٤/٢ .
(٨) السيوطي ، معجم الهوامع شرح جمع الجوامع ، تحقيق عبدالحال سالم مكرم ، وعبد السلام حارون ، الكويت ، دار البحوث العلمية ، ١٩٧٥ م ، ٢٥٨/١ .

لي أن اسم الإشارة ما دلُّ على مُسمًى وإشارة إلى ذلك المُسمًى . فهو اسم يُفَعِّلُ
سماءً بواسطة إشارة حسيَّة ، أو معنويَّة . ومعنى هذا أن هذه الأسماء تقع على كلِّ
شيء لكونها مبهمه .

أنواع اسم الإشارة ما يلي :

« ذاء » للمفرد المذكر ، و« ذيه » للمفرد المؤنث ، و« ذَانِ وَذَيْنِ » للمثنى المذكر ، و
« تَانِ وَتَيْنِ » للمثنى المؤنث ، و« أولام » للجمع بنوعيه ، و« هُنا » ، و« هُنَّ » للمكان (١) .
وتلحق « هاء » التنبيه بمعظم هذه الأسماء كثيراً تقول : هَذَا ، وَلِهَذَا ، وَهَؤُلَاءِ ،
نحو ذلك (٢) . وهذه الهاء تكون في صدر هذه الأسماء ، وقد بيَّن السَّهيلي (٣)
٥٨٧هـ) السبب الذي من أجله دخلت هاء التنبيه على هذه الأسماء ، وهو قوله : «
أما دخول « ها » التي للتنبيه على هذه الأسماء ، فلأن المخاطب يحتاج إلى تنبيهه
على الاسم الذي يُشير به إليه : لأنَّ للإشارة قرائن حال يحتاج إلى أن ينظر إليها ،
بالتكلُّم كأنه أمرُّ له بالالتفات إلى المشار إليه أو مُنبِّه له ؛ فلذلك اختص هذا
لوطن بالتنبيه ... فكان التنبيه في أول الكلام أولى بهذا الموطن ؛ لأنَّ بمنزلة
لأمر الذي له صدرُ الكلام » (٣) ومعنى ذلك أن لهذه الهاء غرضاً دلاليّاً كإداة النداء أو
التنبيه .

وقد تنفصل « هاء » التنبيه عن اسم الإشارة بالضمير نحو : هَا أَنَاذَا ، وَهَا
نَحْنُ أُولَامِ ، أشار إلى ذلك سيبويه : إذ يقول : « وكذلك هَا أَنَاذَا ، وَهَا نَحْنُ أُولَامِ ،
هَـ هُوَ ذَاكَ ... وزعم الخليل أن « هاء » هنا هي التي مع « ذاء » إذا قلت : هَذَا ، وإنما
رادوا أن يقولوا : هَذَا أنت ، ولكنهم جعلوا « أنت » بين « هاء » و« ذاء » وأرادوا أن
قولوا : أَنَا هَذَا ، وَهَذَا أَنَا ، فَقَدِّمُوا « هاء » وصارت « أَنَا » بينهما ... » (٤) .

(١) انظر في أسماء الإشارة : الكتاب (بولاق) ، ٢٢٠/١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٣٧٩ ، ٤٢/٢ ، ١٠٤ ،
والمقتضب ، ١٨٩/٣ ، وما يتصرف وما لا يتصرف ، ٧٩ ، والأصول في النحو ، ١٣١/٢ ، وغيرها .

(٢) انظر الكتاب (بولاق) ، ٣٧٩/١ ، والمقتضب ، ٢٧٥/٣ ، والأصول في النحو ، ١٣١/٢ .

(٣) السَّهيلي ، نتائج الفكر في النحو ، ص ٢٢٩ .

(٤) الكتاب (بولاق) ، ٣٧٩/١ .

وتلحق كاف الخطاب المرفوعة (١) بهذه الأسماء فتكون الصيغة للبعيد ، قال
 سيبويه : « ذَاكَ بِمَنْزِلَةِ هَذَا ، إِلَّا أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ : ذَاكَ فَإِنَّمَا تُنْبِئُهُ إِلَى شَيْءٍ مُتَرَاخٍ » (٢) .
 وتزاد اللام في بعض الصيغ . لتوكيد الاسم وتكثيره ، فكثيراً ما يقال : تِلْكَ ،
 وَذَلِكَ مثلاً ، قال الزجاج : « وأكثر دلام العرب » ذَلِكَ ، فتزاد اللام توكيداً وتكثيراً
 للاسم « (٣) وربما أراد الزجاج من « وله هذا أن اللام التي تصحب بعض أسماء
 الإشارة تجعل الاسم يفيد التعظيم أحياناً .
 مراتب أسماء الإشارة :

واختلف النحاة في مراتب أسماء الإشارة فذهب بعضهم إلى أن لها مرتبتين :
 قُرْبَى ، وَبُعْدَى . فما تجرُّ عن الكاف والهم نحو : « ذَا » فهو للقريب ، وما صاحب
 الكاف بلا لام أو بلام نحو : « ذَاكَ » ، و « ذَلِكَ » فهو للبعيد ، وهو الظاهر من كلام
 المتقدمين على حد قول ابن مالك (٤) .

ودهب آخرون إلى أن لها ثلاث مراتب : قُرْبَى ، وَوَسْطَى ، وَبُعْدَى . فما تجرُّ
 عن الكاف واللام للقريب ، ، وما صاحب الكاف وحدها للوسط ، وما صاحب الكاف واللام
 للبعيد ، وجعل أصحّاب هذا الرأي تشديد النون في المثني قائماً مقام اللام في
 الدلالة على البعد . ومن أصحاب هذا الرأي ابن الحاجب (٥) ، وابن عصفور (٦) .

(١) الراجع في « كانه » الخطاب التي تتصل بأسماء الإشارة ونحوها أنها حرف . واستدل سيبويه على
 حرفيتها بأنها مثل الكاف في أسماء الأفعال ، وفي أَرْبَعًا . والذي يدل على أنها حرف أن أسماء
 الإشارة معارف فلا تضاف . ينظر الكتاب (بولاق) ، ١٢٥/١ ، ٣٠٤/٢ .

(٢) الكتاب (بولاق) ، ٢٥٦/١ .

(٣) ما ينصرف وما لا ينصرف ، ص ٧٩ .

(٤) انظر ابن عقيل ، شرح التسهيل (المساعد في تسهيل القوائد) ، تحقيق محمد كامل بركات ،
 دمشق ، مطبعة دار الفكر ، ١٩٨٠ ، ١٨٥/١ .

(٥) انظر شرح الرضي على الكافية ، ٣٣/٢ ، ٣٤ .

(٦) انظر ابن عصفور الأشبيلي ، شرح جمل الزجاجي ، تحقيق صاحب أبي جناح ، بغداد ، مؤسسة دار
 الكتب للطباعة والنشر ، ١٩٨٠ ، ٢٠١/١ .

والذي أميل إليه هو قول من قال : إنه ليس لأسماء الإشارة إلا مرتبتان يؤكد
 لك أن ترك اللام من هذه الأسماء هو لغة بني تميم ، واستعمال الكاف مع اللام هو
 لغة أهل العجاز ، ومن رجع ذلك ابن مالك : إذ ذكر أنه لا تفاوت بينهما في البعد ،
 وإنما هما لغتان . ولذلك يتواردان في رتبة واحدة (١) . أي أن بني تميم يقولون :
 ذَاكَ ، وَذَاكَمَّا ، وَذَاكُمُ ، وَتِيكُمَا ، وَتِيكُنْ ، أما أهل العجاز فيقولون : ذَلِكُ ، وَتِلْكَ ...
 الخ.

ومن رجع أنه ليس لاسم الإشارة سوى مرتبتين المرادي مستدلاً على ذلك بما
 يلي مُلْحَظاً من كلامه :

١ - أن التعبير بـ « ذَلِكُ » عن مضمون كلام على أثر انقضائه شائع في القرآن
 وغيره ، ولا واسطة بين النطقين .

٢ - أن القرآن ليس فيه إشارة فيما يتعلق بصيغة المفرد إلا بمجرد عن اللام والكاف
 معاً ، أو مصاحب لهما معاً ويفهم من رأى المرادي هذا أن القرآن أثر إحدى
 اللغتين على الأخرى فاستعمل لغة أهل العجاز « ذَلِكُ » بدلاً من لغة بني تميم
 « ذَاكَ » . وهذا يدل على أنه لا تفاوت بينهما في البعد .

٣ - أنه لو كانت مراتب الإشارة ثلاثاً لم يكتف في التثنية والجمع بلفظين : لأن في
 ذاك رجوعاً عن سبيل الأفراد (٢) .

نخلص مما سبق إلى أنه ليس لاسم الإشارة غير مرتبتين : قُربى ، وبُعْدى ؛ لأن
 القُربَ والبعد أمران نصبيان في أسماء الإشارة ، وليست هناك مرتبة وسطى
 بينهما ؛ بمعنى أن القرب قد يكون حقيقياً أو حكيمياً ، والامر نفسه في البعد وليس
 هناك منزلة وسطى بينهما ؛ لأنها ستتأثر بهما .

(١) انظر شرح التسهيل ، ١٨٥/١ .

(٢) انظر المرادي ، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك ، تحقيق عبدالرحمن علي سليمان ،
 مصر ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ط ٢ ، (بلا تاريخ) ، ١٩٣/١ ، ١٩٤ .

وهكاف الخطاب، التي تلحق بأسماء الإشارة تفتح مع المذكر وتكسر
 المؤنث، وتتغير بمسب أحوال المخاطب (١) على هذا النحو : « ذَاكَ ، ذَاكَمَا ، ذَاكَ
 ذَاكَ ، ذَاكَنَّ ، ذَانِكَ ، ذَانِكُمَا ، ذَانِكُمْ ، ذَانِكِ ، ذَانِكُنَّ ، تِلْكَ ، تِلْكَ
 تِلْكَ ، تِلْكَمَا ، تِلْكَمَا ، تِلْكَمَا ، أُولَئِكَ ، أُولَئِكُمَا ، أُولَئِكُمْ ، أُولَئِكِ ، أُولَئِكُنَّ .
 ويجوز أن تُجْعَلَ مخاطبة الجماعة على لفظ الجنس ، أو مخاطبة واحداً
 الجماعة فيكون الكلام له ، والمعنى يرجع إليهم (٢) كقوله عز وجل : « ذَلِكَ لَأُثْنِيَ
 تَعْلَمُوا » (٣) ولم يقل ذَلِكَ ؛ لأن المخاطب النبي صلى الله عليه وسلم .
 وأسماء الإشارة ضرب من المعارف ، قال سيبويه متحدثاً عنها : « وإنما صارت
 معرفة ؛ لأنها صارت أسماء إشارة إلى الشيء دون سائر أمته » (٤) .
 ومعنى هذا أن هذه الأدوات يشير بها الشخص إلى شيء مخصوص وقد تارة
 الإشارة إلى ذلك الشيء باليد أو اللمظ أو اللسان أو غير ذلك مما تدل عليه قر
 الحال .

واسم الإشارة « ذَا » يُشْتَاوِيهِ للمفرد المذكر القريب، وذكر السهيلي أن « الذ
 رُخِصَتْ بمعنى الإشارة ؛ لأنها من طرف اللسان ، فإشارة اللسان وثيقة الصلة بـ
 الحرق ؛ قال السهيلي : « وَخِصَّتْ الذال بهذا المعنى (يعني معنى الإشارة) ؛ لا
 من طرف اللسان ، والاسم المُبْهَم مَشار إليه ، فالمتكلم يشير نحوه بلحظه أو بي
 ويشير مع ذلك بلسانه ؛ لأن الجوارح خدَم القلب ، فإذا ذهب القلب إلى شيء ذ
 معقولاً ذهب الجوارح نحوه ذلك الشيء ذهاباً محسوساً ، والعمدة في الإشارة في
 المرطن على اللسان ، ولا يمكن إشارة اللسان إلا بعرف يكون مخرجه من عَذْبَةِ اللد

(١) انظر القضب ، ٢٧٥/٣ ، وما ينصرف وما لا ينصرف ، ص ٧٩ ، والأصول في النحو ، ١/٢ ، ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) انظر القضب ، ٢٧٦/٢ ، والأصول في النحو ، ١/٢ ، ١٣٢ .

(٣) سورة القصص ، الآية ٦٤ .

(٤) سيبويه ، ص ١٠٠ .

التي هي آلة الإشارة دون سائر أجزائه ، فليس إلا الذال أو الشاء ، فلما الشاء
فمهموسة رخوة ، فالجهر أو الشديد من الحروف أولى منها للبيان ، والذال
مجهورة فخصت بالإشارة إلى المذكر ، (١)

أما اسم الإشارة الخاص بالمفرد المؤنث ففيه لغات كثيرة (٢) أشهرها استعلاء :
ذو ، وذئ ، وتاء ، وتي . ويلاحظ أن هذه اللغات تبدأ بتاء ، أو بذال ، وينتهي أكثرها
بكسرة ، أو ياء ؛ وذلك مما يناسب الإشارة إلى المؤنث ، ونبت السهيلي على أن
« التاء » خصت بالإشارة إلى المؤنث ؛ ليمسها ، وضعف المؤنث ؛ ولأنها قد ثبتت
علامة للتانيث في غير هذا الباب ، وأشار إلى أن المؤنث شُرِك مع المذكر في الذال
بيد أنه قد فرق بينهما بجعل الكسرة أو الياء في آخر المؤنث (٣) . وسأبين رأبي
في تلك التعليقات التي أوردتها السهيلي في اختصاص كل اسم إشارة بصاحبه في
آخر هذا البحث .

(١) نتائج الفكر ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٢) ذكره سيويه من لغاته ذو ، وذئ ، وذهي ، وذو . انظر الكتاب (بيلان) ، ٤٤/٢ ، ٢٩٥ ، و
«تاء» لم يرجع السابق ، ٢/٢ ، وأنه شارح الفصل على لغتين فيه أيضاً هما تي ، وتي . انظر
ابن عدس ، شرح القفل ، بيروت ، عام الكتب ، (التاريخ) ، ١٣١/٣ ، وأشار السروحي إلى
أنه يقال : ذو ، وتذ بالكسر باحتلاس ، وذهي ، رهي بإشباع الكسر ، وذات بالبناء على الضم .
انظر هـ النواصع ، ٢٥٧/١ ، ٢٥٩ ، ٢١٢ .

(٣) انظر في الفكر في البحر ، ٢٠٠ .

الفصل الثاني

الضمائر

الضمير والمضمر مصطلحان بصريان ، يقابلهما عند الكوفيين الكناية الكني (١) ، والمصطلحان الأولان هما المشهوران . وقد وضع بعض النحاة للضمير تعريفات وأوصافاً فممن عرفه ابن الحاجب إذ يقول : « والمضمر ما وُضِعَ لمتكلم ، أو مخاطب ، أو غائب تقدم ذكره لفظاً أو معنى أو حكماً » (٢) . وشبه الرضي على أن هذا من الحاجب يجب أن يُقَيَّد فيقال : « ما وُضِعَ لمتكلم به ، أو لمخاطب به أي للمتكلم بهذا اللفظ الموضوع والمخاطب به » (٣)

ومن تعريفي ابن الحاجب والرضي يتبين أن الضمير عبارة عن أداة إشارية يشار بها إلى المتكلم ، أو المخاطب ، أو الغائب ، وأن الضمير يغني عن تكرار الاسم

(١) انظر معجم الهوامع ، ١٩٤/١ .

(٢) شرح الرضي على الكافية ، ٣/٢ ، ويعني ابن الحاجب بقوله : « تقدم ذكره لفظاً » أمرين : الأول : ما تقدم لفظاً لتحقيقاً نحو : ضرب زيد غلامه ، والثاني : ما تقدم في اللفظ تقديرية نحو : ضرب غلامه زيد ، فزيد متقدم في اللفظ تقديراً لكونه فاعلاً .

أما التقدم المعنوي فتوعان : الأول : أن يسبق الضمير لفظاً متضمن للمفسر على أن يكمل المفسر جزء مدلول ذلك اللفظ كقوله تعالى : « أَعِدُّوا لَهُ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » (سورة المائدة ، آية ١) أي العبد أقرب للتقوى . والثاني : أن يدل سياق الكلام على المفسر التزاماً لا تنصفاً كقوله وحل : « وَلَا يَرْثُ وَكِيلٌ وَاحِدٌ مِنْهُمَا السُّلُوسُ » (سورة النساء ، آية ١١) : لأنه لما ساق الكلام في ذكر الميراث لزم ذلك السياق أن يكون هناك مورث فجرى الضمير عليه من حيث المعنى .

وأما التقدم الحُكْمِي فهو الذي يتصل في ضمير الشأن أو القصة أو الحديث : لأنه إما ج به من غير أن يتقدم ذكره قصداً لتعظيم القصة بذكرها مبهمة ليعظم وقعها في النفس ثم تفسر فيكون ذلك أبلغ . انظر شرح الرضي على الكافية ، ٤/٢ ، بتصرف

(٣) شرح الرضي على الكافية ، ٤/٢ .

لظاهر! لذا فالغرض منه الاختصار ومن ثم - كما يبدو - سَعَى بالضمير ! لأنه
بإشارة عن الاسم الذي تم إحصاءه استغناءً عن لفظة الظاهر (١).

والضمان نوعان : متصل وهو « ما لا ينفك عن اتصاله بكلمة » (٢) ومنفصل
هو « ما جرى مجرى المظهر في استبداده » (٣) والمتصل قسمان : بارز ، ومستتر
بالباز « ما لفظ به » (٤) والمستتر « ما ثوى كالذي في زيد ضرب » (٥).

ويشير المتكلم إلى نفسه بـ « أنا » ، و « نحن » ، و « إياي » ، و « إيانا » ،
وهي ضمان منفصلة ، وبـ « التاء » المضمومة في نحو فَعَلْتُ ، و « نا » في نحو
فَعَلْنَا ، وبـ « الياء » في نحو أَكْرَمْتَنِي وهي ضمان متصلة .

أما المخاطب فيشار إليه بـ « أنت » ، و « أنت » ، و « أنتما » ، و « أنتم » ، و
« أنتن » ، و « إياك » ، و « إياك » ، و « إياكسما » ، و « إياكن » ، وهي
ضمان منفصلة . وبـ « التاء » المفتوحة في نحو فَعَلْتَ ، والمكسورة في نحو فَعَلْتِ
، و « تُعا » في نحو فَعَلْتُما ، و « تُم » في نحو فَعَلْتُمْ ، و « تُن » في نحو فَعَلْتُنَّ ،
« الياء » في نحو تَفْعَلِينَ .

و « الكاف » المفتوحة في نحو أَكْرَمَكَ ، والمكسورة في نحو أَكْرَمَكِ ، و « كُما »
في نحو أَكْرَمَكُما ، و « كُم » في نحو أَكْرَمَكُمُ ، و « كُن » في نحو أَكْرَمَكُنَّ . وهذه
بضمان متصلة .

ويشار للغائب بـ « هو » ، و « هي » ، و « هُما » ، و « هُم » ، و « هُن » ، و
« ياء » ، و « إياها » ، و « إياهما » ، و « إياهم » ، و « إياهن » ، وهي ضمان منفصلة .
وبـ « ألف » الاثنين « في نحو فَعَلَا ، و « واو » الجماعة في نحو فَعَلُوا ، و
« ين » الإناث في نحو فَعَلْنَ ، و « الهاء » في نحو أَكْرَمَهُ ، و « مَر به » ، و أَكْرَمَها .

(١) انظر نتائج الفكر في النحو ، ص ٢١٨ .

(٢) انظر شرح المفصل ، ٨٤/٣ .

«هُمَا» في نحو أَكْرَمَهُمَا ، و «هُنَّ» في نحو أَكْرَمَهُنَّ ، و «هُمْ» في نحو أَكْرَمَهُمْ ، و «هُنَّ» في نحو أَكْرَمَهُنَّ ، وهذه صماثر متصلة .

ويلاحظ تنوع الأدوات الإشارية الخاصة بالمتكلم إذ يقال : أَنَا ، نَحْنُ ، إِيَّاي ، إِيَّانَا ، التاء المضمومة ، «تاء» ، «الياء» .

أما المخاطب المنفصل فيكون إما مبدوءاً «بأن» ثم تتصل التاء بهذا المقطع تكون مفتوحة مع المفرد المذكر، ومكسورة مع المفرد المؤنث ، ومضمومة مع المؤنث بنوعيه ، والجمع بنوعيه مع زيادة حرف الميم أو النون كما سبق ، وإما مبدوءاً بإ متبوعة بالكاف التي تميز المفرد من غيره . أما المخاطب المتصل فهو عبارة عن كاء و تاء ، مما يجعلني أقول : إن «التاء» ، و «الكاف» هما الأساس في الإشارة إلى المخاطب، ونجد هذا الأمر مُطَوَّراً في جميع صيغ ضمير المخاطب باستثناء «يا المخاطبة في نحو تَقْعَلِينَ» .

أما الغائب بعامة فيلاحظ أنه يُسْتَدَلُّ عليه بالهاء ، ماعداً ألف الاثنين ، و الجماعة ، ونون النسوة .

ويلاحظ اتفاق المذكر والمؤنث في الضمير وذلك في الصيغة الخاصة بالمتكلم يقال : أَنتُمَا لِلْعَثْنِ المذكر والمؤنث والأمر نفسه في «هُمَا» و «إِيَّاكُمَا» ونحو ذلك ويلاحظ أنه ليس للمتكلم صيغة خاصة بالمتنئ : لأن صيغة «نَحْنُ» تشمل الشئ والجمع ، كما أن صيغة المفرد المتكلم «أَنَا» تشمل المذكر والمؤنث .

والمضمرات في كلام العرب نحو من ستين (١) . ومعظم النحاة يتحدثون المنفصل والمتصل من هذه الضماثر ، وما يختصُّ منها بالرفع أو النصب أو الـ متفصلاً كان أو متصلاً (٢) ، وعن الأصل في الضمير ولغاته .

(١) انظر نتائج الفكر في النحر ، ص ٢١٨ .

(٢) انظر الكتاب ، ٢٨٣/١ ، وشرح الفصل ، ٨٥/٣ .

وأرى ألا أفصل في ما يتصل بذلك نفعاً للإطالة ، ولأنني جعلت البحث
تجلاء موطوع الدلالة الإشارية في أسماء الإشارة والضمائر ، فضلاً عن كثرة
تتبع في ما يتصل بالبنية الشكلية لأسماء الإشارة والضمائر .

ونلاحظ أن ضمير المتكلم يستغني عن الاسم الظاهر في حال الإخبار ؛ إذ
بماهدة تدل عليه ؛ إذ يقول المتكلم : «أنا» مثلاً دون أن يصرح بالاسم الظاهر بخلاف
بيري المخاطب والغائب .

ويعلل السهيلي تأليف ضمير المتكلم المنفصل من الهمزة والنون بأن الهمزة
خرجها من الصدر وهو أقرب مواضع الصوت إلى المتكلم ، ثم إن الهمزة أحق
بتكلم من الهاء لقوة الهمزة بالجهر والشدة ، وضعف الهاء بالخفاء ، ويذكر أن
إلى ما توصل به الهمزة : النون ، أو حروف المد واللين ؛ بيد أن الهمزة لم تقرن
بحروف المد واللين ؛ لذهاب هذه الحروف عند التقاء الساكتين ، وقرنت بالنون
ربها من حروف المد واللين ثم بيئوا النون لخفاؤها بألف في حال السكت . (١)

ونظراً لمشاركة المخاطب للمتكلم في فائدة الكلام يؤدي ضميراً المتكلم والمخاطب
تفصلاً بالهمزة والنون أي أنهما اشتركا في مقطع واحد وهو «أَنْ» بيد أنه فرق
نهما بالتاء خاصة فقالوا في المخاطب : «أَنْتَ» والتاء أصلاً للمخاطب قال
سهيلي : «الأصل للتاء في المخاطب ، وإنما المتكلم دخيل عليه (يعني في نحو فعلت) ،
لأنه كان دخيلاً عليه خصّوه بالضم ، لأن فيه من الجمع والإشارة إلى نفسه ما ليس
بفتح ، وخصّوا المخاطب بالفتح ؛ لأن في الفتح من الإشارة إليه ما ليس في
ضمّة » . (٢)

(١) انظر نتائج الفكر في النحر ، ص ٢١٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٠ .

وبعد سُر السُّهيلي كون ضمير المتكلم المخفوض ياءً في نحو «عَلَّامِي» مثلاً بأن
 لأسماء تنافق في حال الإضافة إليها في الكسرة التي "لا تستقل بنفسها حتى تمكُن
 ستكون ياءً" (١) هكذا يقول . ويبدو أنه يعني أن الاسم عندما يجر بحرف جر ، أو
 بإضافة يكون إعرابه بالكسرة ، والكسرة عندما تُشبع تصير ياءً . إذاً فالكسرة وثيقة
 الصلة بالياء ، ومن ثم صار ضمير المتكلم المخفوض ياءً . ثم بيّن أنهم «شركوا
 النسب مع الخفض في علامة الإضمار (الياء) لاستوائهما في المعنى ، واتفاقهما في
 كثير من الكلام إلا أنهم زادوا نوناً في ضمير المنصوب » (٢) (يريد نون الوقاية) في
 نحو «أَكْرَمَنِي» .

ويوضح السُّهيلي كون ضمير المتكلمين المتصل في حال الرفع ، والنسب بالجر
 (نا) : بأن النون يشترك فيها جميع المتكلمين في الجمع والتثنية ؛ لذا جُعِلَتْ علامة
 للمتكلمين ، ثم زادوا بعدها ألفاً حتى لا تشبه التنوين ، أو النون الخفيفة ، ويضيف
 السُّهيلي سبباً آخر وهو أنهم جعلوا ضمير المتكلمين : «تاء» لقربها من لفظ «أنا»
 فكلاهما للمتكلم (٣) .

ويُعَلِّل السُّهيلي كون ضمير المرفوع المتصل تاءً في نحو «قمتُ» بأن الأسماء
 تتفق في أنها ترفع بالضمة في حال الرفع ، والضمة لا تستقل بنفسها ما لم تكن
 واواً . ثم رأوا الواو لا يمكن تعاقب الحركات عليها لثقلها ، وهم يحتاجون إلى
 الحركات في هذا الضمير فقرأ بين التكلم ، والمخاطب المؤنث ، والمخاطب الذكور ؛
 فجعلوا «التاء» مكان «الواو» لقربها من مخرجها ؛ ولأنها قد تبدل منها في كثير من
 الكلام نحو تراث .. » (٤) .

والذي يظهر من كلام السُّهيلي أن تاء الضمير هنا أصلها ضمة مأخوذة من

(١) انظر نتائج الفكر في النحو ، ص ٢٢٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٢١ .

لاسم المرفوع ، ولما كانت الضمة لا تستقل بنفسها جعلوها واواً لكي تستقل بنفسها
لما كانت الواو لا تتعاقب الحركات عليها أبدلت تاءً لقربها من مخرجها ولتعاقب
الحركات عليها؛ إذ حركتها الضمة فرقاً بينها وبين حركة تاء المخاطب المذكور والمؤنث .
يفسر السهيلي اختصاص هـمير المخاطب في حال النصب والخفض بالكاف بأن
الكاف مبدوء بها في لفظ "الكلام" وكل واحد من المخاطبين مكلم ومقصود بالكلام
الكاف لا تكون علامة إضمار إلا بعد كلام كالفعل والفاعل نحو ضربتك ، أو المبتدأ
الخبر نحو هذا غلامك ، ويوضح أن المخاطب أحق من المتكلم بهذه الكاف بقوله :
فإن قيل : فالتكلم أيضاً هو صاحب الكلام ، فهو أحق بأن تكون الكاف المأخوذة من
فظ الكلام علامة لاسمه ؟ قلنا : الكاف لفظ فهي أحق بالمخاطب ؛ لأن الكلام لم يكن
لفظاً إلا من أجله فعمدة الكلام الذي هو اللفظ إنما هو المكلم المخاطب ، فالكاف
الذي هو جزء من لفظ الكلام أولى به . (١)

وقسّر السهيلي اختصاص "هو" بضمير الغائب المنفصل بأن الهاء مخرجها من
صدر (يعني أقصى الحلق) ؛ لذلك فهي لغفانها أولى بالغائب الذي هو أخفى ، ثم
ذكر أن الهاء وصلت بالواو ؛ لأن الواو مخرجها من الشفتين التي هي أداة الرمز
لى المخاطب بما في النفس من مذكور ، ثم يذكر أن الناطقين طردوا أصلهم في
سمير الغائب المنفرد فجعلوه "هـاء" في جميع أحواله إلا في الرفع ويعلل ذلك بأن
الفرق في موضع الجر والنصب يظهر لاختلاف حركة بناء الضمير ، أما في موضع
الرفع فلا تظهر الهاء لدلالة الظاهر عليها نحو زيد قام (٢).

وشملت "نَحْنُ" المتكلمين جماعة كانوا أو اثنين ؛ لأنه لا يمكن تثنية مفردة
أنا ، ولا جمعه جمعاً سالماً ؛ باعتبار أن المتكلم لا يشاركه متكلم آخر في خطاب
أحد ؛ لذلك وقعت "نَحْنُ" على الاثنين والجمع . ويذكر السهيلي أن اختصاص هذا

(١) نتائج الفكر في النحو ، ص ٢٢٢

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣

الضمير بالنون في أوله جاء ؛ لأنه ضمير جمع فقابل اختصاص مفردة بالهمزة ، ثم جعلوا بين النونين « حاء » ساكنة ؛ لقربها من مخرج الالف الموجودة في ضمير المتكلم المفرد (١) .

وإذا تأملنا تحليلات السُّهيلي في اختصاص كل ضمير، أو اسم إشارة بصاحبه وجدنا أنها تعتمد على فكر صوتي سليم يَبْدُو أَنَّهَا تَبْدُو تحليلات غير مقبولة من وجهة نظر الدّرس اللغوي الحديث ؛ إذ نَعَدُّ الصلة بين اللفظ ومدلوله في غالب الأحيان صلة عرقيّة اعتباطيّة ، وليست صلة طبيعيّة ، ومهما تصوّرنا من وجود صلة بين اللفظ، ومدلوله في التاريخ البعيد لأية لغة ، فإنّ تطوّرها، وتغيّرها المستمر كفيل بأن يجعل هذه الصلة واهية تماما .

إنّ تحليل السُّهيلي ينبّه على أمر آخر يرد في جميع اللغات ، وهو ما يسمّى بالقيَمِ الخِلافيّة التي تظهر في اللغة للتفريق بين مدلول، ومدلول آخر كجعل الضمة على التاء للمتكلم ، والفتحة للمخاطب ، والكسرة للمخاطبة ؛ يَبْدُو أَنَّ محاولة تحليل تخصيص كل حركة بصاحبها تبدو أيضا غير مقنعة .

إشنا نأخذ بمبدأ عرقيّة الصلة بين ألفاظ اللغة ومن بينها الضمائر، وأسماء الإشارة أو بين مدلولاتها ، وليست هناك في تصوّر صلة طبيعيّة إلا في حالات قليلة جداً فيما يُسمّى بالألفاظ المحاكية للأصوات الطبيعيّة ، ولا يدخل فيها ما نحن فيه من أسماء الإشارة أو الضمائر .

الخاصة

أحمد الله سبحانه وتعالى - إذ وفقني إلى معالجة هذا الموضوع ، وقد انتهيت
نه - تعالى - من خلال هذه المعالجة إلى النتائج الآتية :

- أنَّ الإشارة ظاهرة لغوية عامة تشترك فيها اللغات الإنسانية عامة .
- الأدوات الإشارية في اللغة العربية تشمل نوعين من الأسماء - وفقاً لما أراه -
هما : أسماء الإشارة ، والضمائر .
- أنَّ الإشارة في لغتنا العربية قديمة جداً - كما يبدو - لأنها وجدت مع الأسماء
لتنوب عنها ، ونبايتها عن الأسماء يتفق مع ما تنقسم به اللغة العربية من
ميل إلى الإيجاز والاختصار .
- تنقسم الأدوات الإشارية إلى أدوات حضور ، وأدوات غيبة ، والأولى تنقسم
إلى حضور تكلم ، وحضور خطاب ، وحضور إشارة ومعنى هذا أنَّ لها
مرتبتين :

قُربى وتتمثل في الحضور والخطاب ويُعدُّ وتتمثل في الغيبة .
كثرة الصور الصوتية في الأدوات الإشارية ومرد ذلك فيما يبدو إلى التطور
اللغوي الناشئ من كثرة الاستعمال^{التي} ينتج عنها ألوان من الحذف والتغيير في
الألفاظ ، ويضاف إلى ذلك تعدد اللهجات العربية .

الأدوات الإشارية لها دور مهم في علاقة الربط فعودها إلى مرجع يقضي عن
تكرار لفظ ما رجعت إليه ، ومن ثمَّ يؤدي ذلك إلى تماسك أطراف الجملة ،
دون الوقوع فيما يسببه التكرار من ملل ويجعلها واضحة الوظيفة غير
مُفرَّضة لليس .

اشترك الأدوات الإشارية في بعض السمات فضمير المتكلم والمخاطب
الحاصان بالفرد انفصل بشتركان في "الهمزة والنون" في صدرهما ،
ويشترك ضميراهما المتصلان في "التاء" ولا يفرق بينهما إلا حركة بناء

القائم إذا تكون مضمومة إذا كانت للمتكلم، وتكون مفتوحة إذا كان مخاطب
 المذكور وتكون مكسورة إذا كانت للمخاطبة المؤنثة. ونشابه ضمائر الغائب
 وأسماء الإشارة في أن ضمير الغائب يكون مدوياً بالهاء. وأسماء الإشارة
 في الغالب تكون مُصدّرة بـ «ها» التسيه التي اخرجت بها بكثرة الاستعمال
 بل إن هناك تداخلاً بين ضمائر الغائب وأسماء الإشارة من ناحية المعنى
 حيث تستعمل هذه الأدوات الإشاريّة في الإشارة إلى الحاضر أو الغائب
 يستعمل مثلاً «هَـ» ، أو «هَـ» في حالة حضور المشار إليه أو في حال
 غيابه

٨ - الضمائر وأسماء الإشارة أدوات ذات دلالة إشاريّة في اللغة قلم فصل قدام
 النحاة بينهما فجعلوا لكلّ باباً مستقلاً ؟ وما فعلوه في تصوّرنا - كان صواباً
 إن الفارق الأصيل بين النوعين يتمثّل في أن الضمائر عناصر تنصّب
 بالأسماء والأفعال والمروف فعل وتستقر في الأفعال بوصفها يعمل عملها
 الأسماء ، وتنفصل أحياناً ، لكنّ بنيتها عند الانفصال قريبة من بنيتها عند
 الاتصال ، أمّا أسماء الإشارة فهي بمثابة الأسماء الظاهرة التي لا تعز
 بغيرها من الكلمات كما هو الحال في الضمائر

٩ - أن العلاقة بين الألفاظ الإشاريّة ومدلولاتها عرّفيّة

المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

الأنباري : أبو البركات كمال الدين عبدالرحمن بن محمد ، أسرار العربية ، تحقيق محمد بهجت البيطار ، دمشق ، مطبعة الترقى ، ١٩٥٧ م .

برجشتراسر ، ج ، التطور النحوي للغة العربية ، أخرجه : رمضان عبدالثواب ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، والرياض ، دار الرفاعي ، ١٩٨٢ م .

ابن القشّاب : أبو محمد عبدالله بن أحمد ، المرتجل في شرح الجمل ، تحقيق على حيدر ، دمشق ، ١٩٧٢ م ، (دن) .

الرضي الأسترايائي ، نجم الدين محمد بن الحسن ، شرح الرضي على الكافية لابن الحاجب ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط ٢ ، ١٩٨٢ م .

الزجاج : أبو إسحاق إبراهيم بن السري ، ما ينصرف وما لا ينصرف ، تحقيق مدى محمود قراة ، القاهرة ، مطابع الأهرام التجارية ، ١٩٧١ م .

لساقي : فاضل مصطفى ، أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، المطبعة العالمية ، ١٩٧٧ م .

بن السراج : أبوبكر محمد بن السري ، الأصول في النحو ، تحقيق عبدالصين غتلي ، بغداد ، مطبعة سلمان الأعظمي ، ١٩٧٢ م .

سهيلي : أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله ، نتائج الفكر في النحو ، تحقيق حمد إبراهيم البنا ، الرياض ، دار الرياض للنشر والتوزيع ، ١٩٨٤ م .

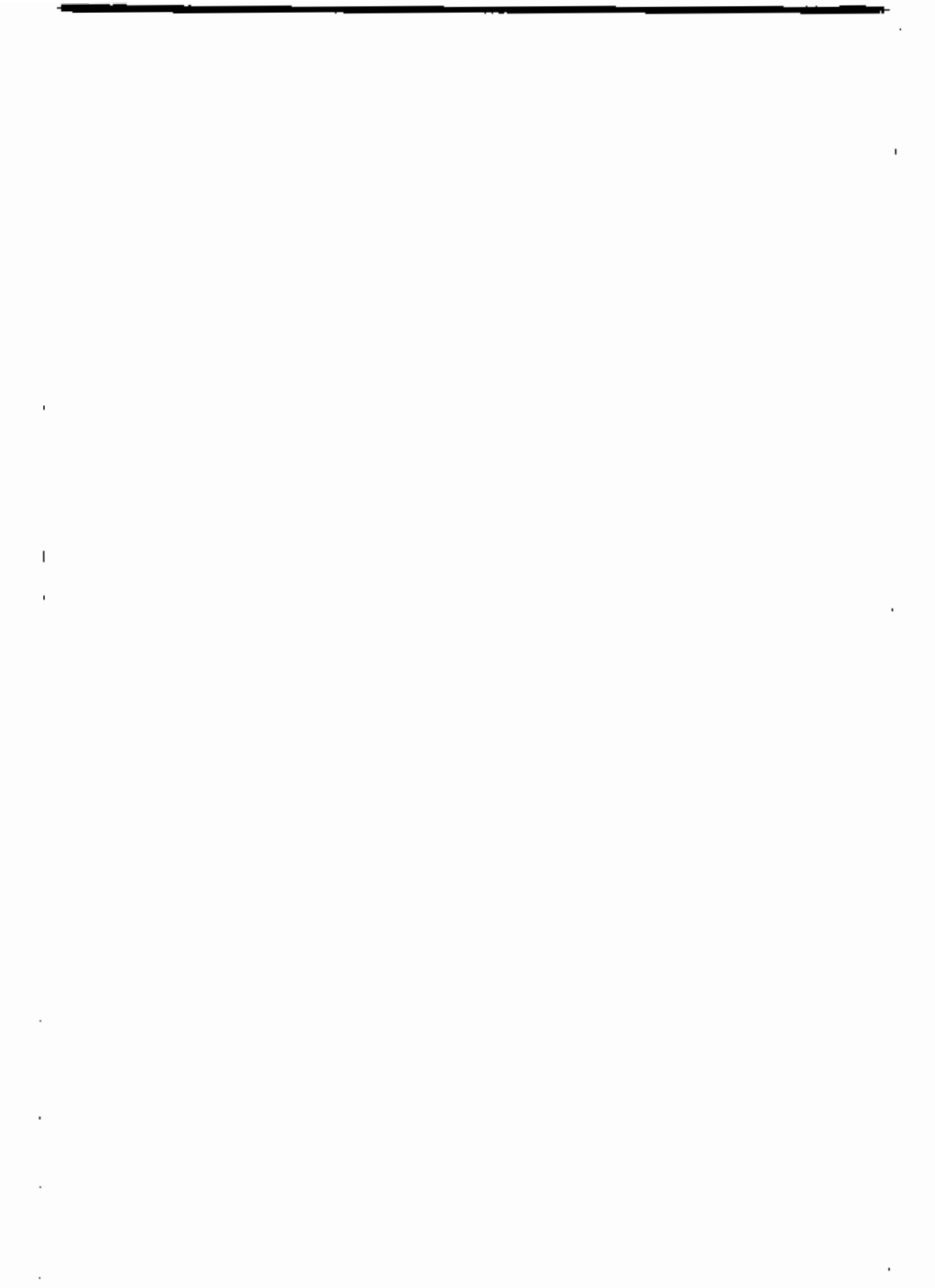
- سيبويه : أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، الكتاب ، القاهرة ، الطبعة الكبرى الأميرية (بولاق) ، ط ١ ، ١٣١٦هـ .
- السيوطي : جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر ، جمع الهوامع شرح جمع الجوامع ، تحقيق عبدالعال سالم مكرم وعبدالسلام محمد هارون ، الكويت ، دار البحوث العلمية ، ١٩٧٥ م .
- ابن عصفور الاشبيلي : أبو الحسن علي بن مؤمن ، شرح جمل الزجاجي ، تحقيق صاحب أبوجناح ، العراق ، مطابع مؤسسة دار الكتب (جامعة الموصل) ، ١٩٨٠ م .
- ابن عقيل : بهاء الدين عبدالله بن عبدالرحمن ، شرح التسهيل (المساعد على تسهيل الفوائد) تحقيق محمد كامل بركات ، دمشق ، مطبعة دار الفكر ، ١٩٨٠ م .
- المبرور : أبو العباس محمد بن يزيد ، المقتضب ، تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة ، بيروت ، عالم الكتب ، (د.ت) .
- المرادي : حسن بن قاسم ، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك ، تحقيق عبدالرحمن علي سليمان ، القاهرة ، مكتبة الكليات الأزهرية ، مطبعة الحلبي ، ط ٢ ، ١٩٧٩ م .
- ابن يعيش : مرفق الدين يعيش بن علي ، شرح المفصل ، بيروت ، عالم الكتب ، نشر في القاهرة ، مكتبة المثنى ، (د.ت) .

الصراع العثماني المملوكي في مصر ونتائج

إعداد

**الدكتور ، سعيد بن سعد سفر الفامدي
الأستاذ المشارك في التاريخ الحديث والمعاصر
قسم التاريخ والحضارة
كلية العلوم الاجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية**

١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا
محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ،

إنَّ الحديث عن قيام الدول وسقوطها أمر هام جدير بالبحث والدراسة ففيه
عبرة وعظة ودروس كبيرة .

وقصة قيام الدولة العثمانية ، ودخولها إلى البلاد العربية ، وسقوطها بعد
ذلك . لم تحظ بدراسة علمية وثائقية لأسباب كثيرة منها بعد المصادر الأساسية
والوثائق العثمانية عن أيدى المؤرخين والدراسين .

ودخول الدولة العثمانية إلى البلاد العربية وصراعها مع الدولة المملوكية أمر
هام جدير بالبحث والدراسة لا سيما وأنه بداية لتاريخ العرب الحديث عند معظم
المؤرخين .

ومن خلال دراستي للصراع العثماني المملوكي في مصر ونتائجه على الوطن
العربي لفت نظري أمر هام ، وهو خلر معظم الكتابات التاريخية من الوثائق
العثمانية . واعتمادها على مصادر قليلة ، ومراجع كثيرة نقلت عن بعضها البعض
حتى ضاعت الكثير من الحقائق التاريخية الصحيحة ، وصارت معظم الكتابات
التاريخية في اتجاهين متعارضين . الأول منهما : التعصب الأعمى للمالكي وتبرئة
ساحتهم من الأخطاء والعيوب والمغالاة في سرد إيجابياتهم . والإجحاء الثاني :
التعصب الشديد للدولة العثمانية في اتجاهها إلى البلاد العربية . وألقي أصحاب
كل اتجاه اللوم والمسئولية على الاتجاه الآخر .

لهذه الأسباب كلها قررت إختيار موضوع ، الصراع العثماني

الملوك في مصر ونتيجة « لعلي أسد فجرة في هذا المجال . وأوضح بعض الحقائق التاريخية عن هذه الفترة من تاريخ البلاد العربية من واقع الوثائق العثمانية وأجلي النصوص والملابس التي أبدت بعض المؤرخين عن الصواب . وهذا ليس دفاعاً عن طرف علي حساب الطرف الآخر ، وإنما هو إحقاق للحق ودفع للباطل إن شاء الله تعالى .

وكان إعتماذي الأساسي في هذا البحث علي الوثائق العثمانية المحفوظة في المديرية العامة لدار محفوظات رئاسة الوزراء . إستانبول.

BASBAKANLIK ARSIVI GENEL MUDURLU

وهي مصنفة كما يأتي :

MÜHİMME DEFTERLERİ : وثائق دفاتر المهمة :

- ١ - دفتر المهمة رقم « ٥ »
- ٢ - دفتر المهمة رقم « ٦ »
- ٣ - دفتر المهمة رقم « ٧ »
- ٤ - دفتر المهمة رقم « ٨ »
- ٥ - دفتر المهمة رقم « ٩ »
- ٦ - دفتر المهمة رقم « ١٠ »
- ٧ - دفتر المهمة رقم « ١٣ »
- ٨ - دفتر المهمة رقم « ١٥ »
- ٩ - دفتر المهمة رقم « ١٦ »

وقد اعتمدت في هذا البحث علي إثنين وثمانين وثيقة تركية لم تنشر مأخوذة من دفاتر المهمة المذكورة آنفاً . وتتضمن هذه الوثائق مراسلات وتقارير بعث بها السلطان سليم وهو في الشام ومصر إلى ابنه وولي عهده

سايمان (القانوني) في إستانبول يصف فيها حروبه مع الماليك ، ويصف فيها جيشه في أثناء المعارك ، وجيش خصمه ، وحالة البلاد من كافة النواحي ، وبعض هذه الوثائق عبارة عن مراسلات بين السلطان سليم وأمير دمشق وقاضي القضاة فيها يصف فيها لحركاته ولحركات خصمه في مصر بكل دقة . والبعض الثالث تقارير بعث بها الصدر الأعظم وبعض القادة العسكريين والوزراء إلى مقام انصدارة العظمي في إستانبول ، وفيها وصف دقيق وشامل لجزريات الأحداث في مصر .

وهذه الوثائق لا غنى عنها لأي باحث أو مؤرخ يكتب عن تلك الفترة فهي تتضمن وصفاً دقيقاً وشاملاً لشخصيات قادت تلك المعارك ولعبت دوراً كبيراً علي مسرح الأحداث ، وتتصف معظم هذه الوثائق بالواقعية والثقة ومن هنا تبرز أهميتها في البحث التاريخي .

كما اعتمدت - إلى جانب الوثائق - علي بعض المصادر العربية المعاصرة لتلك الفترة مثل :

ابن إياس ، المتوفي سنة ٩٣٠ هـ / ١٥١٤ م	بلاتع الزهور في وقائع الدهور
ابن زنبيل ، المتوفي سنة ٩٦٠ هـ / ١٥٥٢ م	آخر الماليك « واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني »
ابن طولون ، المتوفي سنة ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م	مفاكهة الخللان في حوادث الزمان
ابن الحنبلي ، المتوفي سنة ٩٧١ هـ / ١٥٦٣ م	در الحبيب في تاريخ أعيان حلب .

واعتمدت أيضاً علي بعض المراجع للموازنة بينها وبين الوثائق والمصادر المعاصرة .

وكنيت قد تحدثت في بحث سابق^(١) عن نشأة الدولة العثمانية وفتوحاتها في شرق أوروبا ، والصراع العثماني الصفوي ، والعلاقات العثمانية المملوكية ، واستنجاه القوي الإسلامية في شمال إفريقية بالدولة العثمانية .

وقد حصرت حديثي في ذلك البحث . فيما يخص العلاقات العثمانية المملوكية . عن الأسباب الكثيرة التي أدت إلى قيام حرب بين الدولتين المسلمتين . ومن تلك الأسباب التي فصلت القول فيها :

الخطر الشيعي من الشرق ، والخطر البرتغالي النصراني من الغرب ، الذي كان يهدف إلى الوصول إلى الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، والقدس الشريف . وعجز الدولة المملوكية عن حماية تلك الأماكن المقدسة من تلك الأخطار ، كما تحدثت عن مشاكل الحدود بين الدولتين ، وبخاصة إمارة البستان . ذو القادر . ولجوء بعض الأمراء الخارجيين علي السلطان العثماني إلى مصر . مثل الأمير جم أخو السلطان بايزيد الثاني . وإيواء الماليك لهم وأستخدامهم عنصر شغب داخل الدولة العثمانية . وتحدثت أيضاً عن التحالف المملوكي الصفوي وأثره السيء في نفس السلطان سليم . كما أن موقف السلطان المملوكي قانصره الغوري المتردد في فترة أزمة العلاقات العثمانية الصفوية قد أساء إلى السلطان سليم ، وذكرت أيضاً عن تلك الأسباب ما أدعاه السلطان سليم عن قيام دولة الماليك بإعتراض طريق الإمدادات والتموين الموجه إلى القوات العثمانية في فارس .

(١) د . سعيد سعد القاسمي : دخول الأقطار العربية في حوزة العثمانيين وزيادة الإجماع الإسلامي . بحث منشور في الكتاب السنوي لقسم التاريخ والحضارة . كلية العلوم الإجتماعية . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . السنة الأولى . العدد الأولي . سنة ١٤٠٨ هـ . ١٩٨٨ م .

وما قيل عن إستيلاء الغوري على الهندايا التي أرسلها أمراء الهند إلي سليم . وإستيلاء السلطان المملوكي قايتباي من قبله علي بعض الهندايا المرسله إلي السلطان بايزيد الثاني . وكذلك شكوي قانصوه الغوري من أن سليما عمل علي وقف عملية تصدير الرقيق إلي مصر . وهو أمر خطير بالنسبة للدولة المملوكية . وبالإضافة إلي ذلك فقد تحدثت عن رغبة الدولة العثمانية في التشرع بخدمة وحماية البلاد المقدسة ، ثم أشرت إلي بعض الأسباب الاقتصادية التي أسهمت بدور - ضعيف - في إجماع الدولة العثمانية صوب المشرق العربي .

أما هذا البحث الذي أقدمه فقد حصرتة . كما أشرت سابقاً . في الصراع العثماني المملوكي في مصر ونتائجه . ولم أتحدث عن بداية العلاقات بين الدولتين قيل بدء الحرب لأني قد تحدثت عنها . ولا أريد التكرار . والله من وراء القصد .

وصلني الله علي سيدنا محمد وعلي آل وصحبه أجمعين .

الصراع العثماني المملوكي في مصر ونتائجه

- ١ . الزحف العثماني علي مصر .
- ٢ . معركة الريدانية .
- ٣ . معارك القاهرة .
- ٤ . معارك الجيزة .
- ٥ . معارك النيل .
- ٦ . معركة دهبور .
- ٧ . إلتجاء طومان باي إلي قبيلة محارب .
- ٨ . إلقاء القبض علي طومان باي وإعدامه .
- ٩ . وصول الأسطول العثماني إلي الإسكندرية .
- ١٠ . قواعد الحكم العثماني في مصر .
- ١١ . عودة السلطان سليم إلي إستانبول .
- ١٢ . أسباب سقوط المماليك وانتصار العثمانيين .
- ١٣ . نتائج دخول الأقطار العربية في حوزة العثمانيين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الزحف العثماني على مصر

بعد إنتصار السلطان سليم الأول بجيوشه علي المالك في موقعة « مرج دابق »^(١) والتي علي أثرها خضعت بلاد الشام للحكم العثماني. قرر السلطان سليم الزحف علي مصر بعد أن فشلت كل المفاوضات التي بذلها مع السلطان المملوكي الجديد طومان باي ، وفي نفس الوقت أراد السلطان سليم أن يستغل الغرضي التي كانت سائدة في البيت المملوكي حول إعتلاء العرش ، كما ذكر السلطان سليم الأول في رسالته التي بعث بها إلي ابنه وولي عهده سليمان القانوني^(٢) . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى فقد كانت الأوضاع في مصر مضطربة ، بسبب إصرار طومان باي علي عدم توليه السلطة رغم إصرار بقية الأمراء علي توليه . وأستمر تمنعه لمدة خسين يوماً ، وقد يكون السبب في ذلك إحساسه بثقل المسؤولية ، لا سيما وأن الجيش العثماني علي أبواب مصر ، أضف إلي ذلك فراغ خزانة الدولة المملوكية من الأموال وخوف طومان باي من غدر الأمراء به ، واثارتهم للفتن وثورتهم عليه ولكنه قبلها في نهاية الأمر تحت ضغط الرأي العام عليه وبخاصة العلماء في مصر وفي مقدمتهم العالم أبو السعود الجراحي الذي كان من مشايخ الصوفية ، وكان له منزلة خاصة لدي سلاطين المالك ، فقبل السلطان طومان باي

(١) سبق أن تحدثت بالتفصيل عن هذه المعركة وأسباب الحرب بين الدولة العثمانية والدولة المملوكية في بحث منشور في كتاب قسم التاريخ السنوي العدد الأول عام ١٤٠٨ هـ .

(٢) داتر المهمة رقم (٥١) وثيقة رقم (٢١١٢) تاريخ ٩ من القعدة سنة ٩٢٢ هـ من السلطان سليم إلي ابنه - ولي عهده - سليمان (إستانبول) وثيقة رقم (٢١١٤) تاريخ ١٠ من القعدة ٩٢٢ هـ نفس المرحله وانظر إلي .

أمر السلطنة في مصر ، واجتمع الأمراء - الماليك حوله بعد أن أقسموا على المصحف الشريف على طاعته وعدم الغدر به والكف عن ظلم المسلمين (١) .

كما بايع أمير المؤمنين يعقوب الذي كان يحمل تفويضاً من ابنه الخليفة العباسي المتوكل على الله الذي خرج إلى الشام مع السلطان قانصوه الغوري ، وانضم إلى السلطان العثماني سليم بعد مقتل الأول في مرج دابق . وهذه البايعة تولي طومان باي السلطنة في ١٤ رمضان ٩٢٢ هـ / ١١ أكتوبر ١٥١٦ م . وعمره آنذاك ٣٨ سنة وخطب له علي المنابر . وفرح الناس بسلطته وكان محبوباً لدى عامة الناس لأنه كان لين الجانب ، متواضعاً غير متكبر ولا متعجبر علي عكس معظم سلاطين الماليك (٢) .

ما أن تسلم طومان باي مقاليد الحكم حتي وقع علي كاهله عبء الدفاع عن الإقليم المصري ، وخاصة بعد الإتهيار الذي أصاب الجبهة المملوكية في الشام مما أدى إلي صعوبة إعادة تنظيم القوات المملوكية ، وبدأ طومان باي حكمه بإستقبال العديد من الأمراء الماليك العائدين من ميدان الهزيمة بالشام ، وكان علي رأسهم جان بردي الغزالي نائب حماء وصهر السلطان طومان باي .

وأعلن السلطان طومان باي الإستعداد العام ، وقام بتفقد الجيش بنفسه ، وعين الأمراء والقادة العسكريين في المناصب المختلفة كما قام بتعيين جان بردي

(١) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (٢١ . .) تاريخ ٢٧ رمضان ٩٢٢ هـ من القاهرة (لم يذكر اسم المرسل) إلي السلطان سليم في بلاد الشام .

واين ياس ، بدائع الزهور في رقائق النور . طبع المطبعة الكبرى الأميرية بصر . الجزء الثالث ، الطبعة الأولى سنة ١٣١١ هـ ، ص ٦٩ .

(٢) جلال يحيى ، العالم الإسلامي الحديث والمعاصر ، طبع المكتب الجامعي الحديث بالإسكندرية ، ١٩٨٢ م ، ص ٢٤٩ و ٢٥٠ .

عبد النعم ماجد ، طومان باي آخر سلاطين الماليك في مصر ، مطبعة الأنجلو المصرية ١٩٧٨م ص ٤٢ .

يذكر ابن إياس في تاريخه إن السلطان سليم أوفد وهو في القنيطرة يوم الخميس ٢٤ ذو القعدة ٩٢٢ هـ / ١٨ ديسمبر ١٥١٦ م . مراد البحرسي مبعوثاً من قبله وحملته رسالة إلى طومان باي . ولما وصل المبعوث وسلم الرسالة إلى السلطان المملوكي اشتد غضب ذلك السلطان لما فيها من الإهانة البالغة التي مست كرامته وعزته . وأمر بقتل المبعوث العثماني (٢).

بينما يذكر ابن زنبيل في تاريخه أن السلطان سليم أوفد ثلاثة رسل وحملهم رسالة إلى طومان باي . فوافق الأخير علي محتواها عندما اطلع عليها . لما فيها حقن لدماء المسلمين . ولما بلغ الخبر للأمير المملوكي علان اشتد غضبه وقتل المبعوثين الثلاثة (٣).

والذي أرجحه أن ما ذكره ابن زنبيل هو الصواب لأنه عاصر تلك الأحداث وعاش في جوها وشاهد الحوادث فيها . بعكس ابن إياس الذي عاصر تلك الأحداث وهو في مصر وكان في آخر عمره حيث توفي سنة ٩٣ هـ / ١٥٢٤ م . وكان يعتمد في كتاباته علي ما يرويه له أصدقاؤه . والشاهد ليس كالمسامع وإن اتفقا في المعاصرة .

وقد ورد في هذه الرسالة التي بعث بها السلطان سليم إلى طومان باي في

- (١) ودنغر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (٢١ . ٥) تاريخ ١٢ شوال سنة ٩٢٢ هـ من القاهرة (لم يذكر اسم المرسل) إلى السلطان سليم في دمشق وثيقة رقم (٢١ . ٧) تاريخ ١٢ شوال ٩٢٢ هـ من القاهرة (لم يذكر اسم المرسل) إلى السلطان سليم في دمشق ابن إياس . المصدر السابق . ج ٣ ص ٦٩ . ٧٢ .
- (٢) ابن إياس . المصدر السابق . ج ٣ ص ٨٣ .
- (٣) ابن زنبيل . آخر الممالك . واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني . تحقيق عبد النعم عامر . القاهرة ١٩٦٢ م . ص ٤٢ و ٤٤ .

« ... وإني أخذت المملوكية - بنسب أملاك الدولة المملوكية - بالسيف بحكم الوفاة عن السلطان القوي فاحمل لي خراج مصر في كل سنة كما كان محمداً لخلقاء بغداد . . أنا خليفة الله في أرضه وأنا أولي منك بخدمة الحرمين الشريفين ... وإن أردت أن تنجو من سطوة بأسنا فاضرب السكة في مصر بأسنا وكذلك الخطبة وتكون نائب عنا بمصر ، ولك من غزاة إلي مصر ولنا من الشام إلي الفرات . وإن لم تدخل تحت طاعتنا ادخل إلي مصر واقتل جميع من بها من الأتراك (الشراكسة) (١١) .

علم السلطان سليم بما آل إليه مصير رسله الذين أُرْفِدَهم إلي مصر بالرسالة المذكورة قصم علي السير إلي مصر لإزالة الوجود المملوكي بها وضماها إلي أملاك الدولة العثمانية التاسعة . ولذا أُرْسِلَ في استدعاء خاير بك (٢) . واستشاره في الأمر . فعرضه خاير بك علي السير إلي مصر وإسقاط الدولة المملوكية ، إلا أن

(١١) أنظر النصر الكامل لرسالة السلطان سليم إلي طومان باي في الوثيقتين التاليتين :

دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (٢١٢٧) ٢٨ ذو القعدة سنة ٩٢٢ هـ .

لم يذكر اسم المرسل والمرسل إليه .

وثيقة رقم (٢١٣٠) ٢٨ ذو القعدة سنة ٩٢٢ هـ .

لم يذكر اسم المرسل والمرسل إليه .

(٢) خاير بك : أمير مملوكي يشغل منصب نائب حلب ، وكان يتولي قيادة الجيوش السلطان قانصوه الغوري في معركة مرج دابق . كان له دور كبير في هزيمة المماليك في هذه المعركة . حيث أشاع أن السلطان الغوري أمر أتباعه بعدم القتال حتى يقتل القرائص وحدهم ، وهم المماليك القدماء ، وبسبب هذه الإشاعة نثرت حمة القرائص وتوقفوا عن القتال ، وأشاع كذلك أن السلطان الغوري قد قتل ، ولذا خاير بك وأتباعه بالفرار من المعركة ، وبذلك ساعد العثمانيين علي تحقيق النصر بخيائته هذه . وقد أنضم إليهم بعد ذلك وعينه السلطان سليم نائباً علي مصر عندما رجع سليم لبلاد

السلطان سليم لم يكتف بهذه الثورة فاستشار الصدر الأعظم سنان باشا فأشار عليه بعدم الإقدام علي معاربة المماليك والدخول إلي مصر ، لأن ذلك سيرعرضهم إلي مشكلات لا حصر لها قد تؤدي بهم إلي الهلاك والدمار . لكن السلطان سليم لم يقتنع بهذه الثورة وبعد تداول الأمر مع عدد من الأمراء العثمانيين والقادة العسكريين الذين أجمعوا علي وجوب إسقاط الدولة المملوكية في مصر ، تحرك السلطان سليم بجيشه قاصداً مصر وعبر وادي كنعان يوم الجمعة ٢٥ ذي القعدة / ١٩ ديسمبر من السنة نفسها ، واحتل في طريقه مدينة « صفد » وعيّن عليها ابن المنتصر (١) .

كما تحرك الصدر الأعظم « سنان باشا » علي رأس أربعة آلاف جندي إلي غزة ، وجرت معركة حامية بينه وبين الجيش المملوكي بقيادة " دولة باي " نائب غزة بالقرب منها ، وكان ذلك يوم الجمعة ٢ ذي الحجة / ٢٦ ديسمبر ، واستمرت هذه المعركة من الصباح إلي ما قبل الغروب وكان النصر فيها حليف الجيش العثماني وقتل في هذه المعركة الكثير من بينهم " دولة باي " ونائب الإسكندرية وجماعة من الأمراء المماليك (٢) .

لم يتحرك المماليك لدفع الخطر عنهم إلا في أواخر ديسمبر سنة ١٥١٦ م حيث خرجت حملة بقيادة « جان بردي الغزالي » لكنه لما رأي أن العثمانيين استولوا علي غزة تركها متجهاً شمالاً حيث تظاهر بإشتباك مع العثمانيين في معركة تشيلية قرب " بيسان " (٣) ، وأوهم المماليك أنه تعرض للهزيمة فيها ، وذلك حتي يسبك

(١) إبراهيم العبيدي ، للائد العقبان من مفاخر دولة آل عثمان ، طبع في مصر سنة ١٣١٧هـ ، ص ٦٠ و ٦١ .

(٢) ابن طولون ، مفاكهة الخللان في حوادث الزمان ، القسم الثاني ، تحقيق « محمد مصطفى » ، طباعة الدار المصرية ١٩٦٤ ، ص ٤٤ .

(٣) بيسان : مدينة بالأردن تقع بين حوران وفلسطين .

وفي يوم الجمعة ٩ ذي الحجة ٩٢٢ هـ / ٢ يناير ١٥١٧ م رحل السلطان سليم إلى غزة . وانضمت تحت قيادته كل الفرق التي كانت خاضعة للمصدر الأعظم "سنان باشا" وأقام فيها السلطان سليم ستة أيام احتفل فيها بعيد الأضحى المبارك وأخذ يستعد للتحرك صوب مصر (١) .

بلغت الأخبار طومان باي فأخذ يعد العدة ويجهز الجيوش للقاء القوات العثمانية . لكن الماليك في ذلك الطرف العصيب أظهروا الكثير من الإستهتار والإستهانة بالموقف . وتخاذلوا ورفضوا الخروج ، ولم يكتفوا بذلك ، بل وصل بهم الأمر إلى التطاول على سلطانهم " طومان باي " ولكن ذلك السلطان تجاهل ما سمعه . وأتبعهم على موقفهم المتخاذل ، وانشغالهم بالفوضى والفن مما أتاح المجال للجيش العثماني باقتحام الحدود المصرية (٢) .

خرج طومان باي يريد " الصالحية " ، وما أن وصل الريدانية الواقعة خارج أسوار القاهرة من ناحية باب النصر والممتد حتى جبل المقطم . حتى عسكر بها رغماً عنه . عندما رفض جنوده التحرك منها فأضطر « طومان باي » إلى تحصين الريدانية ، وحفر بها خندقاً على طول الخطوط الأمامية ونصب المدافع عليها . وصف حولها العربات الخشبية التي صنعها في انقلعة . وأمر بالمنااة في الفناء لأرباب البضائع ، من الخازين والجزارين ... بالتحول ببضائعهم إلى المعسكر الذي أقامه حتى يبيعون فيه للجنود ، وبذلك نشأت هناك سوق كبيرة وعلاوة على ذلك أهتم " طومان باي " بإقامة حائط يستر به المدافع التي نصبها في الريدانية ، حتى

(١) دفتر المهمة رقم (٦) وثيقة رقم (٢٢٢٩) وتاريخ ١٢ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ من المصدر الأعظم سنان باشا إلى مقام الصلابة العظمى في استانبول .

(٢) دفتر المهمة رقم (٦) وثيقة رقم (٢٢٢٧) وتاريخ ١٣ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ (لم يذكر اسم المرسل الي المصدر الأعظم سنان باشا غزة .

قيل أنَّ السلطان « طومان باي » كان يحمل بنفسه الحجارة مع البنائين (١).

بالرغم من هذه الاستعدادات الضخمة إلا أنَّ المالك كانوا يحسون بضعفهم ، وكان بعضهم يتسلل ليلاً إلى القاهرة للسبت فيها . ولهذا عاني طومان باي المتاعب في سبيل إعداد الجيش وتجهيزته . أما السلطان سليم فواصل سيره نحو مصر حتي وصل إلي خان يونس يوم الجمعة ١٦ ذي الحجة / ٩ يناير ١٥١٧ م ومنها المجده إلي العرش (٢) ومنها إلي " الصالحية " وأقام بها يوماً ، ثم أكمل سيره إلي بلبيس (٣) حتي وصلها يوم الأحد ٢٥ ذي الحجة ، ومكث بها مدة يومين . وأثناء إقامته بها وفد عليه « أحمد بن بقر » شيخ بني " واتل " ومعه أولاده (٤) ليعلن تهنئته وولائه العثمانيين فأقره السلطان " سليم " شلي ما تحبته يده من بلاد وأرزاق ، وكان هذا الولاء من هؤلاء البدو عاملاً هاماً في نجاح الجيش العثماني وتقدمه لأخضاع مصر (٥) .

(١) إبراهيم طرخان ، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، المحرطرم ١٩٥٩ م ، ص ١٨٨ .

جلال يحيى ، العالم الإسلامي الحديث والمعاصر ، ص ٣٦١ .

(٢) مدينة بصر تشرف علي الشام ، تقع علي ساحل البحر المتوسط .

(٣) مدينة بينها وبين القسطنطين ٥٠ كيلومتراً تقع علي طريق الشام . يسكنها عرب بن يغبض فتحت في سنة ١٩ هـ علي يد عمر بن العاص .

(٤) أولاد أحمد بن بقرهم : عبد الدائم ، ويبرس ، والخبرامي ، وخاطر .

(٥) تزيد من التفاصيل عن تحرك السلطان سليم وجيشه من غزة إلي الحانكاك أنظر الوثائق التالية :

دفتر المهمة رقم (٦) وثيقة : رقم (٢٢٢) ٢٧ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصدارة في استانبول وثيقة رقم (٢٢٣٥) ٢٨ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ . من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصدارة في استانبول وثيقة رقم (٢٢٣٨) ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصدارة في استانبول .

ترك الجيش العثمان بليس متجهاً نحو مدينة " الخانكاه " (١) ولكنه تعب في الطريق وأنهكهم الجوع والعطش ولما علم السلطان طومان باي بذلك أراد التحرك لملاقاتهم مستغلاً في ذلك تعب الجيش العثماني . لكن الأمراء والقادة المماليك منعوه من ذلك . ولو التقى معهم طومان باي لربما انتصر عليهم وأعان سبهم نحو مصر . ولكنه اضطر إلى البقاء في الريدانية نزولاً على رغبة القادة والجيش المملوكي.

وقد تعرض السلطان " سليم " وجيشه في " الخانكاه " لهجوم «عرب السومالي» الذين كانوا يغيرون على المعسكر العثماني على حين غرة إلا أن السلطان "سليم" نجح في القضاء عليهم وأسر أعداداً كبيرة منهم (٢) .

(١) الخانكاه : كلمة فارسية معناها بيت العبادة . وأول خانكاه بمصر أنشئت في زمن صلاح الدين بن يوسف بن أيوب سنة ٦٥٩ هـ . أولئك عليها عدة أملاك بمصر من ريعها . ثم ضعف حال الخانكاه واستبدل بها التكايا محل إقامة الدراويش الأعاجم . (ابن زنبيل : المصدر السابق ، ص ٤٩) .

(٢) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (٢١٥٠) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ من السلطان سليم إلى ابنه سليمان في إسطنبول .

معركة الريدانية

تحركت الجيوش العثمانية ، من الحانكا ، ووصلت إلى بركة الحاج في يوم الأربعاء ٢٨ ذي الحجة ٩٢٢ هـ / ٢١ يناير ١٥١٧ م . وما أن سمع أهالي القاهرة بخبر وصولهم حتى اضطرت أحوالهم . وأغلقت أبواب المدينة (١) . خوفاً من إقتحام العثمانيين لهم . أما السلطان " طومان باي " فلما بلغه خبر وصولهم نادى بالخروج لهم وضرب الحصار ومعه جماعات من العرب وطبقوا عليهم الخناق « . وكانت الجيوش العثمانية منهكة القوي لما أصابها من العطش ، فعال المالك بينهم وبين الماء . إلا أن الصدر الأعظم « سنان باشا » صوب عليهم المدافع فتفترقوا (٢) .

كان قرسان المالك الجراكسة (٣) يشنون الغارات على المعسكر العثماني ، وكل من وجده في طريقهم من العثمانيين قتلوه وقطعوا رأسه وأتوا به لطومان باي

(١) للقاهرة ثمانية أبواب : زويلة ، الفرج ، النصر ، الفرج ، المعروق ، البرقية ، سعادة ، الجسر ، القنطرة « .

(عبد الرحمن زكي : القاهرة تاريخها وأثرها ، مطبعة النور المصرية ١٢٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ، ص ١٥ - ١٧) .

(٢) السير وليام مور ، تاريخ دولة المماليك في مصر . ١٢٦ هـ / ١٥١٧ م . ترجمة محمود عابدين وسليم حسن . مطبعة المعارف بصر . الطبعة الأولى ١٩٢٤ م ، ص ١٧٨ .

كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه فارس ومير الجليلكي ، الطبعة الأولى ١٩٤٨ م ، ص ٤٤٨ .

(٣) أصلهم من شمال بحر قزوين وشرق البحر الأسود ، قدموا إلى مصر بعد الزحف المغولي على بلادهم ، اشتهروا بالقوة والشجاعة ، وكانوا من أرخص أنواع الرقيق البيض . اشتراهم السلطان الناصر قلاوون ، وأسكنهم بجزائره في أبراج القلعة ، ولقا سموا بالمماليك البرجية وقد كثروا في أواخر عهد رازداد نفوذهم وسيطروا على الحكم سنة ١٢٨٢ هـ . (عاشور ، المرجع السابق ص ١٤ ، ١٦) .

الذي كان يرسله ليعلق على أحد أبواب القاهرة . وبدأ طومان باي في الإستعداد للمعركة الحاسمة فأمر بإخراج المدافع الكبيرة إلى الجبل ، ووضع آلات الحرب في ساحة المعركة واقترح الغزالي علي السلطان « طومان باي » أن يدفنها في الرمال حتي لا يكتشفها الجيش العثماني ، ففهم ذلك . وفي صبيحة يوم الخميس ٢٩ ذي الحجة / ٢٢ يناير من السنة نفسها أمر السلطان سليم بالرحيل إلى الريدانية للقاء الجيش المملوكي . وما أن انتصف ذلك اليوم حتي تلاقي الجيشان العثماني والمملوكي في الريدانية أمام قبر السلطان قايتباي قرب العباسية (١) كان الجيش العثماني منظمًا علي النحو التالي: السلطان سليم في منتصف الجيش والصدر الأعظم سنان باشا علي قيادة الجناح الأيمن ، وإلي جانبه أمير الأتاترل مصطفى باشا ، وخاير بك ، وأمير ذو القادر علي باشا وعلي قيادة الجناح الأيسر الوزير الثاني يونس باشا ومعه الروملي كبرجك سنان باشا وأمير بني رمضان محمود بك (٢) .

(١) قايتباي من أصل شركسي ، مولى السلطان جغتق . كان فارسًا شجاعًا ارتقى إلي عرش السلطنة من وظيفة أتابك . حافظ علي حياته بحاشية كبيرة جدًا من المالك المخلصين له . كان توليه السلطنة في سنة ٨٧٢ هـ . سار في البلاد سرية حسنة وقد أسعد .

الجزء ٩ من ١٠

(٢) ابن العيني : تاريخ الأواشي - سيرة - غير أنه خدمت في سنة ١٠٠٠ هـ .

٢٩٧ - ١٣٠٠ .

(٢) لنزيد من التفصيل عن تنظيم الجيش العثماني في معركة الريدانية أنظر التقرير الذي بعث به الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصلوة في استانبول .

دفتر المهمة رقم (٦) وثيقة رقم (٢٢٤٩) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصلوة في استانبول ووثيقة رقم (٢٢٥٠) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصلوة في استانبول ووثيقة رقم (٢٢٦١) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصلوة في استانبول .

تقدم الجيش العثماني وكان الجيش المملوكي متحصناً في الخندق الذي حفروه في الريدانية ، وكان الجيش العثماني مدركاً ومتفهماً لطبيعة المدافع المملوكية الثقيلة التي يصعب دورانها للخلف بعكس المدافع العثمانية المتحركة (١) .

أرسل سليم بعض فرقه العسكرية لمواجهة الجيش المملوكي لرواغته ، بينما سير الغالبية من جيشه إلى الجهة الجنوبية من الموقع الذي تحصن فيه الماليك . وأخذت هذه الفرق تهاجم الماليك من جبل المقطم ، وكان هذا الأسلوب الحربي الذي أنتهجه السلطان سليم في الريدانية بناءً على مشورة بعض الأمراء الماليك الذين هربوا من معسكر " طرمان " ولتجاوزوا بالعسكر العثماني (٢) .

اشتبك الفريقان وتبادلا الهجمات . وحسب وطيس المعركة التي تعتبر معركة البقاء والتي سيقدر فيها مصير مصر ، ومستقبل الماليك الجراكسة .

ارتجع الجيش المملوكي من هول ما رأي من إطباق الجيش العثماني من الخلف وأيقن طرمان باي بالخدعة والمكيدة بدفن المدافع في الرمال ، واستسلم للأمر الواقع (٣) .

(١) هذه المدافع ملوثة بالشظايا ، وهي أول مرة يستخدمها العثمانيون أثناء زحفهم على مصر وهذا النوع من المدافع حقق نتائج رائعة ومذهلة في معركة الريدانية ، وهذا النوع من المدافع يختلف بصلده إلى ٩. كنانة متوالية ، وتوجد بعض المدافع من هذا النوع في المتحف الحربي بإستانبول . (أحمد متولي : الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له . دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٦ م ، ص ١٤٨) .

(٢) دفتر المهمة رقم (٦) وثيقة (٢٢٦٣) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ من الصدر الأعظم سنان باشا إلى مقام الصلار في إستانبول وثيقة رقم (٢٢٦٥) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة ٩٢٢ هـ من الصدر الأعظم سنان باشا إلى مقام الصلار في إستانبول .

(٣) ابن إياس : الصدر السابق ج ٣ ص ٩٧ .

لكن أحد المدافع المملوكية أطلق قذيفة فتحت ثغرة في الجيش العثماني فهال الأمر السلطان سليم الذي سرعان ما استدعى خاير بك واستفسر عما حدث فأخبره خاير بك بأن الذي فعل ذلك إنما هو رجل أخرس لم يدفن مدفعه في الرمل ولكنه تركه مكشوقاً وهرب (١).

أما السلطان طومان باي فإنه لما رأى ما حلّ بالجيش المملوكي ، انطلق ومعه الأمير علان والأمير كريتباي كالحسام مخترقين الصفوف العثمانية ، قاصدين خيمة السلطان سليم حتى بلغوها . إلا إن سليم لم يكن بداخل خيمته . إنما كان بداخلها الصدر الأعظم سنان باشا و « محمد بن رمضان » ... واقتحم طومان باي ومن معه الخيمة وأسكوا بالصدر الأعظم سنان باشا وقتلوه ظناً منهم بأنه السلطان « سليم » وقتلوا كل من كان بداخل الخيمة . ارتج المعسكر العثماني لهول ما رأى وأثناء خروج « طومان باي » ومن معه من المعسكر العثماني مروا بالسلطان سليم ومعه خاير بك . ولكن لم يعرف كل منهم الآخر (٢) .

لما بلغ السلطان « سليم » خبر مقتل الصدر الأعظم سنان باشا والثقائدين اللذين كانا معه ، حزن على ذلك حتى قيل أنه بكى على وزيره « سنان باشا » حتى قال بعدما تم له ضم مصر " استولينا على مصر ، لكننا فقدنا سنان باشا . خسارتنا لا يمكن أن تعذلها دولة " (٣) .

(١) دفتر المهمة رقم (٧) وثيقة رقم (٣٣١٠) وتاريخ ٣ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ من السلطان سليم إلى ابنه سليمان في إستانبول .

وثيقة رقم (٣٣١٧) وتاريخ ٣ طهر الحجة سنة ٩٢٢ هـ من السلطان سليم إلى ابنه سليمان في إستانبول .

(٢) العبيدي : المرجع السابق ، ص ٦٤ و ٦٥ .

(٣) دفتر المهمة رقم (٧) وثيقة رقم (٣٣١٥) وتاريخ ١ محرم سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم إلى ابنه سليمان في إستانبول .

شدد العثمانيون هجماتهم على الممالك . وعكفوا من إحقاق الهزيمة بالجيش المملوكي وتشجيعه . ورجع " طومان باي " إلى معسكره فلم يجد أحداً قوياً هارباً والجيش العثماني في أثره . وأصيب الأمير «علائ» بكسر في رجله وحمل على جنيب^(١) وأرسله طومان باي إلى تناطر " بني وائل " وسار هو ومن معه حتى بلغوا بركة الحبش ، ونزلوا بها فترة من الزمن ثم ساروا حتى انتهوا إلى طره^(٢) ، وهناك وافاه المزيدين له حتى بلغوا سبعة آلاف فارس وساروا معه قاصدين ناحية الشرق .

بعد الهزيمة الساحقة التي تعرض لها المماليك في معركة الريدانية أصبح المجال مفتوحاً للعثمانيين لدخول القاهرة دون أي مقاومة . ففي اليوم التالي للمعركة يوم الجمعة ٣ ذي الحجة ٩٢٢ هـ / يناير ١٥١٧ م دخلت فرق الإنكشارية التي أرسلها « سليم » للقاهرة ويصحبهم وزراء الدولة والخليفة العباسي " المتوكل على الله " وقضاة الشافعية والمالكية والحنبلية والحنفية. وأخذت مواكب الجيش العثماني تشق شوارع القاهرة وتنادوا بالأمان للسكان ، وكان من عنده مملوك جركسي عليه أن يحضره السلطان العثماني وأن من يخالف ذلك يعرض نفسه للقتل أو العقوبة ، ودعى للسلطان العثماني " سليم الأول " من على المنابر .

وعندما أقيمت صلاة الجمعة في المساجد دعا الخطباء للسُلطان سليم قائلين :

[illegible]

- (١) أَلْتَنِيْب : هو الفرس الذي يسير بدون زاكب إلى جانب فرس آخر مركوب .
 (٢) طَره : بلد واقعة على خط سكة حديد حلوان جنوب القاهرة بها اليوم مصنع لإستخراج الإسمنت من محاجر جبل القطم اقشرف عليها من الشرق .
 (٣) ابن إياس : المصنف السابق ، ج ٣ ص ٩٨ .
 دفتر المهمة رقم (٧) وثيقة رقم (٣٣١٧) وتاريخ ١ محرم سنة ٩٢٣ هـ من أمير الأناضول مصطفى باشا إلى مقام الصدارة في إستانبول وثيقة رقم (٣٣٢٨) وتاريخ ١ محرم سنة ٩٢٣ هـ من أمير الأناضول مصطفى باشا إلى مقام الصدارة في إستانبول وثيقة رقم (٣٣٣٠) وتاريخ ٢ محرم سنة ٩٢٣ هـ من أمير الأناضول مصطفى باشا (لم يذكر اسم إليه) .

أرسل السلطان سليم الانتكشارية للوقوف على أبواب المدينة لمنع اقتحام البيوت ، والبحث عن الماليك الجراكسة . لهذا شرعت فرق الانتكشارية تجرب ميادين القاهرة للقبض على الأمراء الماليك من المقابر والأزقة والخرائب . وكل من أسكروا به ، أرسلوه إلى السلطان في معسكره ليضرب عنقه . وقبض بعض مشايخ العربان على الأتراك " سودون الدوي داري " . وأتوا به للسلطان " سليم " الذي ربحه بالكلام لموقفه المعادي منه .

ويذكر ابن إياس في روايته أنه لما أوتي " بسودون الدوي داري " إلى السلطان سليم كان مجروحاً أو يعاني من سكرات الموت ، فلم يشفق عليه ، وأرغمه علي ظهر الحمار وألبسه ملابس رثة نكابة به ، كما يذكر في روايته تلك أن الانتكشارية وهي تجرب أحياء القاهرة وضواحيها للبحث عن الماليك الجراكسة ، نهبوا البيوت ، وهدموا المقابر وقتلوا من بها سواء من الماليك المختبئين أو السكان القاطنين بها من غير الماليك ، وذكر ابن إياس أنه قتل في يوم واحد ثلاثمائة وثلاثة وثلاثين من سكان ضواحي القاهرة . وأنه قتل من الماليك الشراكسة ما يزيد عن أربعمائة شخص ، وأخذوهم إلى الريدانية وفصلوا رؤوسهم عن أجسادهم وجمعوا تلك الرؤوس وعلقوها علي حبال نصبت علي أعسدة ، وأمتلأت شوارع وأزقة القاهرة بالجثث المشوهة التي بدون رؤوس ^(١) .

وأري من وجهة نظري أن إياس قد بالغ في سرده للأحداث ، ولا يستغرب عليه ذلك فهو سليل أسرة شركسية ، وكثيراً ما كان يطلق العنان لشعوره وعواطفه ، حتي أننا نراه في سرده للأحداث يحمل علي العثمانيين ويلقبهم بالسفاكين تارة وبالظلمة تارة أخرى ، في عبارات شديدة ، وأحياناً مؤثرة ، ومن الغريب أنه كان متردداً مضطرباً في عواطفه نحو العثمانيين في بعض الأحيان ، فبينما يحمل علي

(١) ابن إياس : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٩٩ .

سليم ويعدد جرائمه . نراه في موقف آخر يترحم عليه حين يذكر وفاته ويلقبه بهنسب
(الملك المظفر)^(١) ولهذا فمن الصعب التعرف علي حقيقة المؤثرات التي دفعته
لخالفة حقيقة عواطفه . وربما أنه دون تاريخه في عهد اضطراب وفتنة . فكان
متردداً بين الذم والمدح .

وفي يوم الأحد ٢ محرم ٩٢٣ هـ قدم الأمير " محمد بن قانصوه الغوري "
إلى السلطان سليم في معسكرة بالريدانية ، وعرض عليه الطاعة ، فقبلها سليم
وأمنه علي حياته وماله ومنحه مدرسة أبيه التي أنشأها في الشراشين للسكن
فيها ، وأسكن الدفتردار أحد وزراء السلطان سليم في بيت الأمير محمد قانصوه
الغوري^(٢) .

(١) ابن أبياس : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٣٦ .

(٢) دفتر المهمة رقم (٧) وثيقة رقم (٣٣٣٧) وتاريخ ٢ محرم سنة ٩٢٣ هـ من الوزير
الثاني يونس باشا (لم يذكر اسم المرسل إليه) .
الصير وليام مراد : المرجع السابق ، ص ١٧٩ .

معارك القاهرة

توجه السلطان " سليم " بعد إنتصاره قاصداً القاهرة ودخلها في موكب حافل من باب النصر ، (١) وقد ارتفعت الأصوات بالدعاء للسلطان العثماني ، وضاعت شوارع القاهرة بالجيش العثماني ومرّ الموكب بباب زويلة قاصداً بولاق (الجزيرة الوسطانية) وعسكر بها (٢) .

وفي يوم الثلاثاء ٤ محرم ٩٢٣ هـ / ٢٧ يناير ١٥١٧ م قدم اثنان من الجنود المماليك للقاهرة حاربين من الجيش المملوكي الذي تنقل مع طومان باي لمحاولة إستعادة الحكم من العثمانيين . وأطلعوا السلطان " سليم " بعزم " طومان باي " ومن معه بالهجوم المفاجيء علي القاهرة لمباغطة العثمانيين (٣) وقد تم ذلك ودخل معه نحو سبعة آلاف من أتباعه من المماليك إلى القاهرة في ليلة الأربعاء ٥ محرم ٩٢٣ هـ ونزل في الشيفرخة (٤) وتفرق جيش " طومان باي " في المدينة

(١) موضعه الأول بالرحبة المراجعة أمام جامع الحاكم قرب المكان الذي شغله الباب الممالي (عبد الرحمن زكي الرجيع السابق ، ص ١٥) .

(٢) ابن طولون : المصدر السابق ، ص ٤٦ .

(٣) لمزيد من التفصيل عن المعلومات التي أدلي بها الجنود المماليك القارين من الجيش المملوكي للسلطان " سليم " أنظر :

دفتر المهمة رقم (٧) وثيقة رقم (٣٣٤٠) وتاريخ ٥ محرم سنة ٩٢٣ هـ من الوزير الأعظم "يونس باشا " إلى مقام الصدارة في إستانبول وثيقة رقم (٢٢٤٥) وتاريخ ٥ محرم سنة ٩٢٣ هـ من الوزير الأعظم " يونس باشا " إلى مقام الصدارة في إستانبول .

(٤) تطلق علي المنطقة المجرودة بشارع الصليبي حول مسجد شيخون وكانت من جطة قطائع ابن طولون وكانت هذه المناطق مساكن إشتراها شيخون " سيف الدين الناصري " (ابن زنبيل : المصدر السابق ، الحاشية ، ص ٢٥) .

وسدوا الطرق والمداخل الرئيسية ومحصنوا بالبيوت . وقتلوا في تلك الليلة الكثير من الجنود العثمانيين (١) .

وفي هذا دلالة كبيرة على أن قوة المماليك لا تزال باقية . وأنه كان في وسعهم الإستمرار في المقاومة ومعارلة إسترجاع سلطتهم على البلاد.

وما أن بلغ الخبر للسلطان " سليم الأول " حتى أمر بإرسال فرقة من الإنكشارية بقيادة وزيره الأعظم " يونس باشا " ومعه " مير ميران " ، و " مصطفى باشا " ، و " إياس أغا " ، و " أمير العلم " (٢) لقتال طومان باي .

التقى الطرفان واشتد القتال بينهم من وراء السدود ، واستمر من طلوع الفجر إلى ما بعد الغروب من وراء السدود ، المنصوبة في الشوارع والأوراق ، وفي صباح يوم الخميس ٦ محرم هجعت القوات العثمانية على الناصرية وقبضوا على العديد من المماليك ، وفر " طومان باي " من الناصرية إلى الصليبية ، ومنها إلى قناطر السباع في نفر قليل من جنده ، وأمر بحفر عدة خنادق في الصليبية وقناطر السباع والرميلة وجامع بن طولون ، وقسم جيشه إلى أربع فرق ، الأولى ، وجهها إلى قناطر السباع ، والثانية إلى الرملة ، والثالثة إلى جامع بن سلطان ، والأخيرة إلى باب زويلة ، وظهر " طومان باي " في القاهرة وخطب بإسسه في المنابر في يوم الجمعة ، وكان في الجمعة السابقة قد خطب بإسم السلطان " سليم " وقد استمر " طومان باي " في معاركه مع العثمانيين ، وكان يقتل كل يوم منهم أعدادا كبيرة ،

(١) يذكر ابن إياس في تاريخه أن " طومان باي " هاجم المعسكر العثماني بهولاق ، وقتل الكثير من العثمانيين وأحرق العديد من خيامهم ، وأحدث النزاع والإضطراب في المعسكر وبهذه الرواية يخالف ابن إياس بنية المؤرخين المعاصرين لتلك الأحداث سواء أتراك أو عرب والذين شاهدوها ونحن لا نوافق على ما ذكر ، لأنه اعتمد في رواياته على أصوله بدليل قوله " أشيع " (ابن إياس : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٢) .

(٢) هو الذي يتولى أمر الأعلام والرايات السلطانية ويشترط ليه الدراية بنوع الأعلام اللازمة لكل موكب من المراكب السلطانية .

(سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٤١٥) .

لا شك أنَّ هذه المعارك أثرت علي معنويات العثمانيين ، حيث أنهم لم يعتادوا علي حرب الحارات والشوارع مما جعلهم يخشون علي سلطتهم ، بل حتي علي سلامة أرواح قواتهم الموجودة بالقاهرة . ويظهر هذا التأثير من قوة حركة رد الفعل التي قام بها العثمانيون ، والتي أخذت شكلاً واضحاً للإنتقام من القاهرة وضواحيها . لذلك صبوا جام غضبهم في الصليبية ، وأحرقوا سقف الديوان الكبير والقبعة التي كانت عليه بسبب إختفاء " طومان باي " في هذا الديوان وقت المعارك في القاهرة ، كما أحرقوا البيوت المحيطة به وألقي العثمانيون القبض علي كثير من الأهالي وعملوا السيف فيهم ، حتي أصبحت جثثهم منتشرة علي الطرقات والأزقة والأسواق . وأخذ العثمانيون يجهزون الحارات والأزقة والبيوت بحثاً عن الماليك ، وحتى في المساجد والجوامع ، وهاجموا الجامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع ابن طولون ، وغيرها من الجوامع والمدارس ، وكانوا يقتلون من يجير الماليك ، وقيل أنهم قبضوا علي ثمانية جراكسة ، وأثروا بهم إلي السلطان سليم في الرميطة ، فأمر بضرب أعناقهم ، وأمر بإحراق البيوت التي كانوا يتحصنون فيها ^(١) .

وليس أدل علي ما فعله العثمانيون بعد هزتهم لطومان باي من الرسالة التي أرسلها السلطان سليم إلي أمير دمشق وقاضي القضاة بها : " وفي هذه الثلاث أيام يستمر القتال من الصباح حتي العشاء ، ويعون الله تعالي قتلنا جميع الجراكسة ، ومن انضم إليهم من العريان ، وجعلنا دمانهم مسفوحة وأبدانهم مطروحة ، ونهب عسكرنا قماشهم وأثاثهم وديادهم وأموالهم ... ثم سارت أبدانهم للهوام " ^(٢) .

(١) محمد عبد المنعم السيد الرائد ، الغزو العثماني لمصر ونتائجه علي الوطن العربي ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر ، ص ١٨٩ و ١٩٠ .

(٢) دفتر المهمة رقم (٨) وثيقة رقم (٥٤٤) وتاريخ ٩ محرم سنة ٩٢٣ هـ من السلطان "سليم" إلي أمير دمشق وقاضي القضاة .

وفي يوم الثلاثاء ١١ محرم / ٣ فبراير أسند السلطان " سليم " منصب الصدر الأعظم إلي " يرنس باشا " بعد مقتل سنان باشا الصدر الأعظم سابقاً في معركة الريدانية ، وعيّن فرقة من جيشه لتتولي الإشراف علي القاهرة . (١) أما السلطان " سليم " فقد توجه في مركب حافل الي القلعة لأول مرة ، ثم عاد إلي معسكره في بولاق واستبشر بما تم له من نصر علي المماليك ، فأرسل رسالة إلي أمير الشام وقاضي القضاة بها . ضمنها ما جرى له من بداية زحفه علي مصر وحدثت معركة الريدانية ، وانتقاله إلي معسكره في بولاق ودخوله القاهرة ، ومحاربتة المماليك وهروب طومان باي (٢) .

بعد أن أنهت معارك القاهرة اختفى " طومان باي " ، ولم يكن لدي السلطان سليم " معلومات مؤكدة عن مصيره . وبعد فترة من الزمان علم بعض الأسري المماليك أن السلطان طومان باي لا يزال علي قيد الحياة - وأثناء تلك الأحداث قبض علي يشبك الداودري ، فمنحه السلطان " سليم " الأمان وذلك نظراً لما يمكن أن يدلي به من معلومات هامة عن توابا " طومان باي " وعن حالته ومجهيزاته العسكرية بحكم مركزه في الدولة المملوكية .

قام أحد العثمانيين باستجواب " يشبك " ، وكتب تقريراً بأقواله وآرائه . وتضمن هذا التقرير معلومات هامة منها هروب " طومان باي " إلي البر الغربي من النيل عند تعرضه لهجوم الجيش العثماني ، وحده أحد الطريقين اللذين يمكن أن

(١) دفتر المهمة رقم (٨) وثيقة رقم (٥٤٤١) وتاريخ ١١ محرم سنة ٩٢٣ هـ من السلطان " سليم " إلي إبنه وولي عهده " سليمان " ، وثيقة رقم (٥٤٤٣) وتاريخ ١١ محرم سنة ٩٢٣ هـ من السلطان " سليم " (لم يذكر اسم المرسل إليه) .

(٢) دفتر المهمة رقم (٨) وثيقة رقم (٥٤٤٨) وتاريخ ١٢ محرم سنة ٩٢٣ هـ من السلطان " سليم " إلي أمير دمشق ولقاضي القضاة . وثيقة رقم (٥٤٥٠) وتاريخ ١٢ محرم سنة ٩٢٣ هـ من السلطان " سليم " إلي قاضي لضاة دمشق .

يسلكهما طومان باي أثناء هروبه ، وهما شاطي ، النيل ، أو الطريق المؤدي إلى مناطق الأعراب كطريق ابن عمرو ابن واصل الأحطب (١) .

أرسل السلطان " سليم " وهو في معسكره بالجزيرة الوسطانية يستدعي خاير بك لإمثارته في أمر الماليك المتبقين في القاهرة بعد هروب طومان باي . فأشار عليه خاير بك بإعطائهم الأمان وإعطائهم مهلة ثلاثة أيام . وقد أمتحن السلطان سليم هذا الرأي ، ورفع فوق خيمته راية حراء بإقتفاء أثرهم ، وأصدر إعلاناً أمر فيه الأهالي أو نوابه بالأماكن التي يختبئون فيها ، وأعطاهم مهلة ثلاثة أيام ، وهددّهم بأن من وجد عنده مملوكي فإنه معرض للقتل (٢) .

وتهاافت الأهالي إلى خاير بك يخبرونه عن الأماكن التي يختبئ بها الماليك . فسارع بإرسال الفرق لالتقبض عليهم . وإرسالهم إلى معسكر السلطان سليم لقتلهم .

وبعد أيام قلائل وسع غزو السلطان " سليم " الأمراء الماليك ، وكتب عهداً وأماناً للماليك الجراكسة المختبئين . وأمرهم بالظهور والإلتجاء إلى مدرسة السلطان الغوري ، وظهر من أمراء الماليك كل من أركماس ، أنسباي ، والأمير قمر الحسني ، وقانصوره أبو سنة ، ومصر باي ، وشيك الذي كان مختبئاً في الجامع الأزهر . . .

اجتمع هؤلاء الأمراء في مدرسة السلطان الغوري وكلّوا عددهم يتجاوز الخمسين وأحاطت بهم فرقة من الجيش الإنكشاري العثماني . ومضوا بهم إلى

(١) أنظر نص التقرير والمعلومات التي أدلى بها " شبك " في الوثيقتين التاليتين :

دفتر المهمة رقم (٨) وثيقة رقم (٦٥٥٣) وتاريخ ١٥ محرم سنة ٩٢٣ هـ ، موقعة من أحد الكتاب (لم يذكر إسمه) إلى السلطان " سليم " ، وثيقة رقم (٦٥٥٧) وتاريخ ١٦ محرم ٩٢٣ هـ موقعة من أحد المحققين (لم يذكر إسمه) إلى السلطان " سليم " .

(٢) دفتر المهمة رقم (٩) وثيقة رقم (٦٥٦٠) وتاريخ ١٥ محرم سنة ٩٢٣ هـ من السلطان " سليم " (القاهرة) إلى ابنه " سليمان " (إستانبول) . وثيقة رقم (٦٥٦٣) وتاريخ ١٦ محرم سنة ٩٢٣ هـ من السلطان " سليم " إلى أمير دمشق وقاضي القضاة

معسكر السلطان " سليم " وبعد أن ذكرهم الأخير بما قاموا به من أعمال ظالمة أثقلت كاهل الشعب المصري . أمر بإرسالهم إلى القلعة للاحتفاظ بهم (١) .

وكان من جملة المختبئين الأمير كرتباي الوالي المصاب في فخذه ، وكان مختبئاً عند صديقه يحيى بن بكر الذي ما لبث أن سمع النداء حتى هب للذهاب إلى معسكر السلطان " سليم " لأخذ الأمان لكرتباي . واستبشر السلطان لهذا الطلب وأرسل مع المتدوب مندبل الأمان والمصحف وكتب له كتاباً ، وأمره بالقدوم إلى معسكره .

قدم يحيى بن بكر والأمير المملوكي كرتباي إلى معسكر السلطان ودارت مناقشة حادة بينهما ، أصدر السلطان بعدها أمره بقتل الأمير كرتباي جزاءً لما تلفظ به من ألفاظ أغضبت السلطان سليم (٢) .

أما طومان باي فبعد هزيمته في معارك القاهرة فقد قر من موقعه في الصليبية ، وتوجه إلى الوجه القبلي في الصعيد ، واستقر في البهنسا ، ومن هناك أخذ في منع وصول الغلال إلى القاهرة ، فوقع فيها القلاء ، وفي الصعيد التف حوله الكثير من الأتباع والمؤيدين حتى قويت شوكرته . ولكنه أدرك إستحالة الوقوف أمام الجيوش العثمانية الضخمة (٣) .

وفي يوم الاثنين ١٧ محرم سنة ٩٢٣ هـ / ٩ يناير ١٥١٧ م أرسل " طومان باي " إلى السلطان " سليم " رسالة يفارضه في الصلح وهذا نص الرسالة :

(١) دفتر المهمة رقم (٩) وثيقة رقم (٦٥٦٧) وتاريخ ١٧ محرم سنة ٩٢٣ هـ من الصدر الأعظم " يونس باشا " إلى مقام الصنارة لمي (إستانبول) .

(٢) ابن زنبيل ، الصدر السابق ، ص ٥٦ ، ٦٢ .

العبيدي ، الصدر السابق ، ص ٧٢ ، ٧٧ .

(٣) إبراهيم طرخان : المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

" إن كنت تروم أن أجعل الخطبة والسكة بإسمك وأكون نائباً عنك بصر وأحمل إليك خراج مصر حسبما ما يقع عليه الإتفاق بيننا من المال الذي أحمله إليك في كل سنة فارحل عن مصر أنت وعسكرك إلي الصالحية وصن دماء المسلمين بيننا ، ولا تدخل في خطيئة أهل مصر من كبار وصغار وشيوخ وإن كنت ما ترضي بذلك ، أخرج ولاقتي في بر الجيزة ويعطي الله النصر لمن يشاء ... ولا تحسب أنني أرسلت إليك أسألك في أمر الصلح عن عجز ، فإن معي ثلاثين أميراً ما بين مقدمي الوف وأربعينات وعشراوات ، ومعهم الممالك السلطانية والعربان نحو عشرين ألفاً ، وما أنا بمعجز عن قتالك ولكن الصلح أصلح لصون دماء المسلمين" (١) .

يلكر ابن إياس في تاريخه أن السلطان " طومان باي " أرسل تلك الرسالة في أوائل شهر سفر (٢) والأصح هو ما ذكرناه سابقاً أنها في ١٧ محرم . بدليل ما كتبه السلطان سليم بعدما أستتب له الأمر في القاهرة إلي ابنه الأمير " سليمان القانوني " في رسالة الفتح في أواخر شهر محرم ، والتي ذكر فيها : " خرج طومان باي في ذي النسا ثم اختفي . ولما استقصينا أخباره وجدناه قد دخل ولاية الصعيد ، وأرسل إلينا رسالة يتضرع فيها ... إلي أن قال : " نتحققنا في هذه الأثناء من مصطفى باشا أمير الرملة السابق ومن الجراكسة ، أن جان بردي الغزالي جاء في ذلك الوقت ، وأدي فروض الطاعة وأظهر العبودية ، وانحسوع بإخلاص... (٣) " .

(١) دفتر المهمة رقم (٩) وثيقة رقم (٦٥٧٠) وتاريخ ٢٢ محرم سنة ٩٢٣ هـ من الصلح الأعظم " يونس باشا " إلي مقام الصلابة في (إستانبول) وثيقة رقم (٦٥٧٣) وتاريخ ٢٣ محرم سنة ٩٢٣ هـ من الصلح الأعظم " يونس باشا " إلي (إستانبول) . (لم يذكر إسم المرسل إليه) .

(٢) إين إياس ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٩ .

(٣) أحمد متولي ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ و ٢٠٣ .

ومن المعلوم أن جان بردي الغزالي قدم إلى السلطان " سليم " طالباً الأمان
في يوم الثلاثاء ١٨ محرم ، وهذا ما أثبتته ابن إياس ^(١) وبذلك يكون السلطان
" طومان باي " قد أرسل في مفادضة الصلح مع " سليم " في اليوم السابق . وربما
اشتبه الأمر علي ابن إياس ولم يتحقق من مصدر تلك الرواية .

وأثناء قدوم جان بردي الغزالي إلى معسكر السلطان " سليم " بهولاق لطلب
الأمان ، كان معه ما يريو علي الشافئة من الأمراء والخدم ، ليقدموا فروض الولاء
والطاعة للسلطان " سليم " ، فأكرمه سليم وأمنه علي نفسه وماله ، أما الوفد الذي
قدم معه طلب الأمان فأودعوا السجن . وكان سبب قدوم الغزالي علي سليم أنه
أدرك بعدما طلب " طومان باي " الصلح مع " سليم " أنه لم يعد بقوي علي مقاومة
العثمانيين مرة أخرى . وربما لجأ إلى ذلك في هذا الوقت بالذات وقبل أن تستقر
الأمر للعثمانيين تماماً خشية أن يفتضح أمره مما يولعه تحت طائلة العقاب من قبل
المماليك .

وبعد مدوه العاصمة ، وعلوها من المقاومة بعد هروب السلطان المملوكي
" طومان باي " إلى الصعيد إنجحه السلطان " سليم " في صبيحة يوم الأحد ٢٣ محرم
سنة ٩٢٣ هـ / ١٥ فبراير ١٥١٢ م من معسكره الذي أقامه في بولا ق قاصداً
القاهرة ودخلها في إحتفال رسمي كبير . وأقام بها عدة أيام وصلى بها الجمعة في
٢٨ محرم / ٢ فبراير في جامع المؤيد .

ودعا له خطيب الجمعة بلقب خادم الحرمين الشريفين فأكرمه السلطان سليم
وخلع عليه . وبذلك دخلت القاهرة في الحكم العثماني رسمياً ، وأصبحت منذ ذلك
اليوم أكبر دوة تزئّن التاج العثماني بعد الحرمين الشريفين ^(٢) .

(١) ابن إياس ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٦ .

(٢) جلال يحيى ، المرجع السابق ، ص ٦٥ .

أحمد متوكلي ، المرجع السابق ، ص ١٩٦ و ١٩٧ .

وبعد أن استتبت الأمور للسلطان سليم في القاهرة أرسل لابنه الأمير "سليمان القانوني" الذي عينه نائباً عنه في إدارة دفة الحكم في الدولة رسالة الفتوح في أواخر شهر محرم سنة ٩٢٣ هـ ضمنها أخباره وما جرى له في المعارك التي دارت بينه وبين السلطان المملوكي قانصوه الغوري في موقعه مرج دابق ، وفي موقعة الريمانية مع السلطان "طومان باي" وفي داخل القاهرة ، وذكر له كيفية هروب طومان باي إلى الصعيد ، وبشره بتمام الفتوح في نهاية الرسالة (١) .

(١) رسالة الفتوح عبارة عن مجموعة تقارير موجزة لحصن فيها السلطان "سليم" أخباره منذ أن أُنحى إلى بلاد الشام وحتى تاريخ الرسالة . وكان "سليم" علي اتصال دائم بابنه ودلي عهده "سليمان القانوني" ، يتضح ذلك من الرسائل الكثيرة التي كان يرفعها إلى ابنه "سليمان" في (إستانبول) وقد أدرجت بعض هذه الرسائل في الصفحات السابقة من هذا البحث .

معارك الجيزة .

في يوم الجمعة ٢٨ محرم وردت الأخبار إلى القاهرة بأن " طومان باي " خرج إلى بر الجيزة . ومنها توجه إلى عرب الهزاره ^(١) طالباً منهم الانضمام إليه . وعرض عليهم رفع الحراج عنهم ثلاث سنوات . ولكنهم رفضوا مساندته خوفاً من قوة الجيش العثماني . فانشئ راجعاً وفي الطريق انضم إليه من العربان سبعة آلاف (٧٠٠٠) فارس .

وما أن وصل قرب اطفح ^(٢) حتى قدم عليه من ثغر الإسكندرية خمسة آلاف (٥٠٠٠) فارس من الرماة بالبنادق وخمسين (٥٠) مدفعاً .

اجتمع " طومان باي " بقادته ومعهم غانم السيوفي حاكم الفيوم واتفقوا على مهاجمة المعسكر العثماني في الجزيرة الوسطانية .

غير أن غانم السيوفي تحركت في نفسه الخيانة ، ورأى أن ينضم إلى معسكر السلطان سليم لأنه كان يدرك أن دور المماليك على وشك الزوال . وما أن حلّ الظلام حتى خرج من المعسكر المملوكي ومعه الأمير أبو حمزة ومائتا مملوك . ودخل في طاعة السلطان سليم وكشف له خطة الهجوم المملوكي على معسكره . وعلم " طومان باي " بخيانة غانم السيوفي ^(٣) .

أرسل السلطان " سليم " جيشاً قوامه ستة وعشرون ألفاً (٢٦٠٠٠) مقاتل بقيادة غانم السيوفي عن طريق النيل ، وكان يهدف " سليم " من وراء ذلك مقاومة " طومان باي " بمعارته بمماليك من جنسه ، ولا سيما الأمراء منهم الذين خانوا دولتهم وانحازوا له منذ أيام حكم السلطان الغوري ^(٤) .

(١) قرية من أعمال مركز الفيوم .

(٢) بلد من أعمال محافظة الجيزة .

(٣) دفتر المهمة رقم (٩) وثيقة رقم (٦٥٨٠) وتاريخ ٩ صفر سنة ٩٣٢ هـ من لغام السبكي إلى السلطان " سليم " .

(٤) عبد المتعم ماجد : المرجع السابق ، ص ١٦٧ .

وتقابل الجيشان ، وخرج غانم السيفي للمبارزة . وبرز من الماليك الأمير دولتباي أمير الجزيرة ، وأخذ كل منهما يستعرض قوته . والتحم الإثنان فتسكن دولتباي من إسقاط غانم السيفي عن جواده ، ونزل لقطع رأسه فهبت عليه القوات العثمانية والتحم الجيشان وتقاتلا حتي الليل . واجتمع " طومان باي " بقيادة فتشاوروا في الإقسام إلى فرقتين . فرقة بقيادة الأمير شاريك الأعور ، وتبقى خارج المعركة ، والفرقة الأخرى بقيادة طومان باي وتبقى في ميدان المعركة . حتي إذا اشتدت المعركة وحمل الوطيس . هاجمت الفرقة التي خارج المعركة الجيش العثماني من الخلف ، وبذلك يتمكنون من الإطباق عليهم .

وفي صباح اليوم الثاني أطبقت الفرقتان الملوكتان البالغ عدده كل منهما نحو ثمانية آلاف (٨٠٠٠) جندي علي العثمانيين . وما أن أنتصف النهار حتي هزم الجيش العثماني ، وولي قاراً نحو الشاطيء قاصدين مراكبهم ، فلم يجدوها ، وتعقبهم الماليك ، فأبادوا الكثير منهم ، ولجأ غانم السيفي وأبو حمزة وأياس أغا من القتل ، وغنم الماليك في هذه المعركة غنائم كبيرة من الأسلحة والمراكب . وقتل منهم نحو ألفين وثلاثمائة (٢٣٠٠) غاليبيتهم من الرماة (١) .

ولما علم السلطان سليم بهزيمة جيشه أشد غضباً . وأستدعي مستشاره "خاير بك " وعاتبه علي الإغرار به وبجيشه بدخول مصر وتسهيله له مهمة ضمها دون عناء ومشقة . وذكر له أنه ملّ الحرب مع الماليك وعلي رأسهم سلطانهم "طومان باي " ، حتي أنه قال : " ولو أن طومان باي أعطاني الخطة والسكة بإسمي لرجعت عنهم إلى الشام ، وما كنت دست هذه الأرض برجلي ، ولكنت مائلاً علي دماء قلوبهم ولا علي مالهم وأولادهم " (٢) .

(١) عمر عبد العزيز عمر . دراسات في تاريخ العرب الحديث (١) الشرق العربي من الفتح العثماني حتي نهاية القرن الثاني عشر ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ص ٧٩ .

(٢) ابن زنبيل ، المصبر نفسه ، ص ٦٩ و ٧٠ .

رجع غانم الميني ووفاه إلى معسكر السلطان سليم في بلاق ، واستدعى السلطان سليم وزراء وأمراء ومستشاريه ، وعقد إجتماعاً للتشاور في أمر السلطان طومان باي وأتباعه . ورأي السلطان " سليم " ألا يرفض الدخول في الصلح الذي عرضه طومان باي عليه ، بحسب الشروط التي ذكرها طومان باي فاستحسن الحاضرون رأيه . وكتب صورة معاهدة إليه في يوم الخميس ١٢ صفر / ٥ مارس . ووقع عليها . وشكل وفداً من الخليفة محمد المتوكل علي الله وقضاة المذاهب الأربعة وكبير القضاة أبو بكر بن عبد البر بن محمد ، وأخيه قاضي القضاة محمد بن عبد البر بن محمد الشهير بحسام الدين ، ومصطفى جلبي دفتردار الأناضول السابق ، وبعض جنود السباهية (١) .

أمرهم السلطان " سليم " بالسير إلى البهنسا في الصعيد لحمل هذا العهد وتسليمه " لطومان باي " لكن الخليفة كره القيام بهذا الأمر ، وأرسل نائبه برد بك بدلاً عنه .

بذكر ابن زنبيل أن الوفد وصل إلى معسكر السلطان القريب من قتيبة بن حصيب (٢) والتقى بالسلطان " طومان باي " وسلموه العهد ، فأبدي " طومان باي " رغبته في القبول ، ولكن أمراء لم يشقوا بعودة السلطان " سليم الأول " ولهذا خالفوا رأي قائدهم " طومان باي " وقتلوا غالبية الوفد ، ومن بينهم القاضي أبو بكر وأخيه محمود ، والمنسوب مصطفى جلبي دفتردار الأناضول سابقاً ، وهرب الباقيون (٣) .

(١) يذكر ابن زنبيل أن عدد هؤلاء الجنود يربو على الخمسمائة جندي ، وسبب إرسال السلطان " سليم " ذلك العهد الضخم مع الوفد هو خوفه من هجمات العربان علي الوفد في أثناء الطريق .

(٢) قرية مشهورة شمال أسوط ، وهي منسوبة إلى الحصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر في عهد هارون الرشيد .

(٣) ابن زنبيل ، المصدر السابق ، ص ٧٢ .

ويذكر ابن أبياس وابن الحنبلي أن الوفد العثماني تعرض للهجوم من فرقة الجراكسة قبل وصولهم إلى البهنسا ، بذلك يخالفون ما ذكره ابن زنبيل في روايته . ونحن نعتقد رواية ابن زنبيل لأنه أقرب للحديث من مخالفه . (ابن أبياس ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٩٠) .

(ابن الحنبلي ، دار المذهب في تاريخ أعيان حلب ، الجزء الأول من القسم الأول ، ص ٣٨٦ و ٣٨٧)

وفي يوم الخميس ١٩ صفر بلغ الخبر سليماً بما آكل إليه مصير الوفد الذي أوقده إلى السلطان طومان باي فغضب غضباً شديداً ، وأيقن أن خصمه لا يريد إلا الحرب ، ولذلك أخذ يعد العدة لحربه ، ونقل معسكره من الجزيرة الوسطانية إلى بركة الجيش وفي صباح يوم السبت ٢١ صفر نزل السلطان سليم من القلعة ومعه العديد من جيشه متوجهاً إلى بركة الجيش (١) .

أما السلطان طومان باي فقد أمر قواته بالمسير حتى أشرف على بركة الجيش من الجهة الغربية المقابلة لرأي معسكر العثمانيين . وأقام بجيشه في بر الجزيرة ، وأخلوا يتباحثون الأمر فيما يفعلونه بالتصدي للجيش العثماني . وبينما هم على هذا الحال ، إذ أقبلت فرقة علي رأسها الأمير رزمك الناشف ، واعتذر " لظومان باي " عن عدم مراقبته بعد الريدانية ، وبين له سبب ذلك وهو إصابته بجروح ، وأطلعهم علي خيانة الغزالي الذي راسل الخائن خاير بك مستشار السلطان سليم بشأن المدافع ، وأنه أشار - الغزالي - علي الجنود بردهم المدافع تحت الرمال مما أعاق عملياته الهجومية . فأخبره السلطان " طومان باي " بأنه علي علم بخيائته منذ إرساله علي رأس جيش إلى غزه للدفاع عنها ضد العثمانيين ، ولكنه لمن يقاتلهم وتظاهر بالقتال والهزيمة ودجع للريدانية (٢) .

أمر السلطان سليم وزيره يونس باشا بإحضار الأمراء المالكين المحتجزين في القلعة ، ولما مثلوا بين يديه ، استفهم منهم عن سبب تركهم " لظومان باي " والقُدوم

(١) دفتر المهمة رقم (٩) وثيقة رقم (٦٥٨٢) وتاريخ ٢١ صفر سنة ٩٢٣ هـ من السلطان "سليم" (القاهرة) إلى ابنه " سليمان " (إستانبول) ووثيقة رقم (٦٥٨٤) وتاريخ ٢٣ صفر سنة ٩٢٣ هـ من الصدر الأعظم " يونس باشا " إلى مقام الصدارة في (إستنبول) .

(٢) دفتر المهمة رقم (٩) وثيقة رقم (٦٥٨٨) وتاريخ ٢٢ صفر سنة ٩٢٣ هـ من عاطف باشا إلى السلطان "سليم" (القاهرة) ووثيقة رقم (٦٥٩١) وتاريخ ٢٣ صفر سنة ٩٢٣ هـ . (لم يذكر اسم المرسل إلى السلطان "سليم" القاهرة) .

إليه فأجابه بأنهم يريدون الدخول في طاعته . ثم بعد ذلك أمر بضرب أعناقهم جميعاً وكانوا نحو الستين أميراً جركسياً ، نكابة بما فعله طومان باي من قتل بعض أعضائه الوفد العثماني الذي أوفده للمصالحة (١) .

كان من بين هؤلاء الأمراء من هو مقدم مائه (٢) أو أربعين أو عشرة من أمراء الجيش المملوكي الجركسي ، كما من بينهم من تقل وظائف كبير في الدولة المملوكية مثل الأمير تقطباي نائب القلعة ، وطقطباي حاجب الحجاب (٣) ، والركماس أمير السلاح ثاني بك الخازنار (٤) وتتمز الزوكاش ، (٥) ويوسف الأشرفي الزوكاش الثاني ، وانسباي أمير آخرد ... (٦) وقانصور أحد الأمراء المقدمين ... (٧) .

(١) دفتر المهمة رقم (٩) وثيقة رقم (٦٦٢٠) وتاريخ ٢٥ صفر سنة ٩٢٢ هـ من السلطان " سليم " (القاهرة) إلى ابنه " سليمان " (إستانبول) .

(٢) أعلى مراتب الأمراء في عصر المماليك ، وهذه المرتبة خاصة بأرباب السيوف ويكون في خدمة صاحبها مائة مملوك ، وهو في نفس الوقت مقدم على ألف جندي في وقت الحرب . (سعيد عاشور ، المراجع السابق ، ص ٤١٥) .

(٣) تسمى وظيفته " الحجريّة الكبرى " وهو يقوم بالنظر في مخاصات الأجناد واختلافهم في أمور الإقطاعات ونحو ذلك .

(٤) المشرف على خزائن السلطان من نقد وأمتعة .

(٥) سعيد عاشور ، المراجع السابق ، ص ٤٣٢ .

(٦) العامل في صنع السلاح وإصلاحه وتجديده .

(٧) وظيفة يقوم صاحبها بالإشراف على إسطول السلطان أو الأمير ورعاية ما فيها من خيل وحيوانات .

(٨) دفتر المهمة رقم (٩) وثيقة رقم (٦٦٣١) وتاريخ ٢٧ صفر سنة ٩٢٣ هـ من الصدر الأعظم " يونس باشا " إلى مقام الصنارة في (إستانبول) وثيقة رقم (٦٦٣٩) وتاريخ ٢٧ صفر سنة ٩٢٣ هـ (لم يذكر اسم المرسل) إلى ولي العهد " سليمان " (إستانبول) وثيقة رقم (٦٦٤٧) وتاريخ ٢٩ صفر سنة ٩٣٢ هـ من الصدر الأعظم " يونس باشا " إلى أمير دمشق وقاضي القضاة

معارك النيل

في يوم الأحد ١٩ صفر جمع السلطان سليم جيشه عند بركة الجبش استعداداً لعبور النيل الي بر الجيزة ، بعد استكمال استعداداته . وبدأت الدفعة الأولى في العبور ، وكان تعدادها نحو الفين أو أكثر . وكان السلطان طومان يراقب الموقف عن كثب .

وما ان أتمت الدفعة الأولى عبورها ورست علي البر حتي هاجمها طومان باي بقواته ، وأوقع بهم القتل . ولم ترسو الفرقة الثانية علي الشاطئ . الغربي حتي تمكن طومان باي من اثناء غالبية الدفعة الأولى .

اضطرب الجنود العثمانيون وتشتت امورهم فاستغل السلطان طومان باي الفرصة في الهجوم عليهم . وقتل بعضهم وفر الباقون في المراكب .

لما رأي السلطان سليم ما حصل لجنوده اغتم لذلك ، وندم علي اقدامه علي ذلك العمل . حتي انه قال : (... لو اشار علي أحد بذلك . يعني العبور . لقتلته اشد قتله ، ولكن يهون الله تعالي علينا ...) (١) ولذلك أوقف السلطان سليم عملية العبور إلي حين تسمح الفرصة بذلك وأمر باطلاق نيران المدافع علي المحالينك في البر الغربي .

نشبت معركة بين الطرفين علي ضفتي النيل . وأخذ كل فريق يقذف الآخر بالسهم والرصاص . وأثناء المعركة تمكن بعض الجراكسه من الهروب من المعسكر الملوكي ، والتجأوا إلي معسكر العثمانيين ، وكان من بين الفارين خادم الأمير علان ، فقام العثمانيون باستجوابه ، للوقوف علي آخر تطورات الموقف عند المحالينك الجراكسه ، لأخذ الحيلة والخبر منهم .

(١) دلترا الهمة رقم (١٠) وثيقة رقم (٦٧٢٠) وتاريخ ٢٥ صفر سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم إلي ابنه سليمان .

وقد أدلى هذا الخادم بمعلومات هامة .. حيث شرح وضع طومان باي واعوانه ، وذكر هدف طومان باي من جمع العرب ، وهو عدم السماح للمراكب العثمانية بالمرور في النيل ، وضع أي عبور لهم الي الضفة الأخرى . وذكر لهم ان عدد العرب المتعاونين مع الماليك نحو الألفين رجل (١) .

وأودت السلطان سليم فكرة إغلاق الطرق في وجه الماليك حتي لا يتمكنوا من الهروب خارج حدود مصر . ولهذا أمر بكتابة الرسائل الي امرائه في الأطراف يأمرهم فيها بإغلاق الطرق أمام الجنود الماليك الفارين ، ومحاولة القبض عليهم (٢) .

بينما هم علي تلك الحالة اذ لاح للماليك من الخلف من بعيد جيش قادم نحوهم ، وكان هذا الجيش هم عرب غزاليه يتقدمهم حماد بن خبير واخوه سلام . وما ان اقتربوا من المعسكر السلوكي حتي يادروا طومان باي الشتم وهندوه بمعاربته اذا لم يكف عن قتال العثمانيين . وذكره بما قام به سلاطين الماليك السابقين له من ظلم واستبداد وقتل ذريع للرعية ، وقد المجاهم الله يزحف السلطان سليم علي دولتهم حتي افني غالبية امرائهم (٣) . اضطر طومان باي واتباعه الي التقهقر حزينا بائساً الي اهرامات الجيزة ، خشية الوقوع في كمين يطبق عليهم من الجنايين . وأثناء تقهقر الماليك الي الخلف عبرت القوات العثمانية في أمان في اليوم الأول من ربيع الأول .

(١) دفتر المهمة رقم (١٠٠) وثيقة رقم (٦٧٣٧) وتاريخ ٢٧ صفر سنة ٩٢٣ هـ تقرير من الصدر الأعظم يونس باشا الي السلطان سليم وثيقة رقم (٦٧٤٣) وتاريخ ٢٧ صفر سنة ٩٢٣ هـ الي السلطان سليم (لم يذكر اسم المرسل) .

(٢) دفتر المهمة رقم (١٠٠) وثيقة رقم (٦٧٥٦) وتاريخ ٢٨ صفر سنة ٩٢٣ هـ صور من هذه الرسائل مرفوعة الي أمير دمشق .

(٣) دفتر المهمة رقم (١٠٠) وثيقة رقم (٦٧٦٩) وتاريخ ٢٨ صفر سنة ٩٢٣ هـ تقرير مرفوع الي السلطان سليم (لم يذكر اسم المرسل) .

وبينما السلطان طومان باي وأتباعه سائرون باتجاه الأهرامات الجيزة ، إذا
بفرقة قد أقبلت نعرهم وانضمت إليهم وكان علي رأسها الأمير قيت رحبي الذي كان
مسيحونا في الأسكندرية ، وكان من أهل الرأي والدين ، سجنه السلطان فانتصرو
الغوري خوفا من أن يقوم بعمل ضده . وبعد أن تولي طومان باي السلطنة اطلق
سراحه للاستعانة به في الحرب (١) .

أشار الأمير قيت رحبي علي السلطان طومان باي بتدوين جميع ما وقع له
من أحداث وحروب علي هيئة شعر .

واستحسن السلطان طومان باي هذه المشورة ، فشرع طومان باي ينشد
والأمير شريك يكتب قصيدة طويلة بلغت ٩٤ بيتاً ، تضمنت الأحداث التي وقعت
بين المماليك والعثمانيين ، ابتداءً من معركة مرج دابق وانتهاءً بهروب طومان باي
ولجونه الي الأهرامات ، وتصور ما آل اليه حال طومان باي وأجراكسه . ومطلع هذه
القصيدة :

دموع العين قاضت من مآق	وقلبي ذاب من كثر احتراقي
فلا ناري طفاها دمع عيني	ولا دمعي يفيض من اختناق
علي زمن تقضي في نعيم	بمصر والعلي والعزراق (٢)

ثم بعد ذلك لجأ طومان باي وأتباعه من المماليك والأعراب المراققين له الي
دهشور بعد أن أحسوا بتعقب الجنود العثمانيين لهم . وأمر أتباعه بالمناداة في
المناطق المجاورة أن الحراج مرفوع عن مصر لمدة ثلاث سنوات ، ومنأهم ووعدهم
بالكثير إذا هم انضموا اليه .

(١) دفتر المهمة رقم (١٠) وثيقة رقم (٦٧٧٧) وتاريخ ٢٩ صفر سنة ٩٢٢ هـ تقرير مرفوع
الي الصدر الأعظم يونس باشا (لم يذكر اسم المماليك) .

(٢) أحمد فؤاد متولي : المرجع السابق ، ص ٢٠٨ . ٢١٢

انضم اليه بعض العريان والفلاحين فتشاور الجميع فيما بينهم ، واتفقوا على ان يتزعم الأمير شاريك فرقة مكونة من عشرة الال فارس ، ويتجه الي معسكر العثمانيين لقتالهم ، بينما يبقى السلطان طومان باي في دهشور حتي تأتية الأخبار من شاريك .

ولمحرك طومان باي الي الاصفحية^(١١) فانضم اليه الكثير من العريان ، وتمكن في مناوراته مع العثمانيين ، ان ينزل بهم بعض الخسائر .

ولما بلغ الخبر السلطان سليم استشاط غضبه ، وندم علي دخوله مصر . وخشى ان يطول به المقام في مصر ويتركه فصل الشتاء ، فتقطع عنه اخبار عاصته ، وداخلته الرساوس والشكوك من الدول الأوربية النصرانية المجاورة لبلادها ، ان يغيروا علي الدولة العثمانية وينزعوا منها بعض املاكها .

وبينما هو علي هذه الحال بلغه خبر خروج بلاد الاصفحية عن طاعته ، وثورتها عليه ، وانضمامها الي طومان باي ، فأمر بتشكيل فرقة من عدة آلاف فارس ، ومن بينهم خمسمائة من الرماة لطاردة طومان باي ، واستند قيادتها لجان بردي الغزالي ، وارسل معهم زيادة علي ذلك خمسمائة من الامراء الجراكسة الذين انضموا اليه^(١٢) .

استعد الغزالي للمسير الي الاصفحية وارسل رسالة الي طومان باي ينصحه فيها بالتسليم ، الا أن الأخير رفض ذلك رفضاً قاطعاً . عند ذلك ارسل الغزالي وقوداً من قبله محملين بالرسائل الي مشايخ القبائل العربية الساندين لطومان باي ، يحثهم علي الانضمام للعثمانيين ويعددهم بتأمين حياتهم وحياة ابنائهم وأسرهم . فرفضوا فسار اليهم فوجدهم علي اهبة الاستعداد لملاقاته . فدارت بينهم وبينه

(١١) من قري مركز الصف بمحافظة الجيزة .

(١٢) أحمد متولي ، المرجع السابق ، ص ٢١٤ و ٢١٥ .

معارك قوية كان النصر فيها حليف العثمانيين ، وولي الاعراب هاريين ، وحل الجيش العثماني بقيادة الغزالي (١١) ، واستباحها ونهبها (١٢) ، ولما سمعت القبائل العربية ما حل بأخراجهم في الاصفحية اعلنوا العصيان ، وانتهر الامير يحيى بن أزيك السلوكي الذي كان مقيما عند بني حزام تلك الفرصة ، وجمع أعداداً منهم ، وسار بهم حتي وصل باب النصر ، وباب الشعيرة ، وقتلوا كل من صادفوه في طريقهم من العثمانيين ، ثم اتجه بعد ذلك الامير يحيى بن أزيك الي معسكر السلطان طومان باي وانضم اليه . فرحب به الأخير .

أصدر السلطان سليم أوامره بربط المراكب بعضها ببعض باحكام وأتقان بين ضفتي النهر ، وأمر بعبور الجيش علي المراكب ، فعبروا جميعاً من خيالة ومشاة ، وكان معهم الامير محمد بن قانصوه الغوري ، ومستشار السلطان سليم خاير بك . وترك سليم خلفه الصدر الأعظم يونس باشا وفرقة من الجيش لحفظ الامن في المدينة . وأوصاه بالرسال الغزالي اذا عاد إلي المعسكر فما كان منه الا ان كتب إلي الغزالي مرسوماً يأمره بعبور النيل الي بر الجيزة للاتقاء السلطان ومساعدته علي قتال المال بك (١٣) .

ولما عبر السلطان سليم بمن معه الي بر الجيزة كان يسير بتأني وروية نظراً لما معه من المدافع والاحجار والانتقال .

وأثناء تحركات السلطان سليم ، كان الأمير شاريك قد وصل إلي بر الجيزة ، وعن يمينه الامير قانصوه العادلي ، ويحيى بن أزيك ، والأمير دولتباي الكبير حاكم الصعيد ، والأمير قلج .

(١١) دفتر المهمة رقم (١١) وثيقة رقم (٧٣٢) وتاريخ ٤ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من جان بردي الغزالي الي السلطان سليم .

(١٢) دفتر المهمة رقم (١٣) وثيقة رقم (٧٢٣٨) وتاريخ ٥ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من الصدر الأعظم يونس باشا إلي جان بردي الغزالي

وأثناء سير الجيش العثماني ، لاح لهم جيش كبير مقبلاً نحوهم . فلما اقتربوا منهم إذا هم عرب الفيوم ، وأخبروا السلطان سليم بأن الأمير شريك الأعور قد سار لحربه ومعه قرابة ألفين من خيار الجراكسة ، فاستعد سليم للملاقاة .

وما إن تقابل الجيشان حتي شن الأمير شريك عليهم حملة واحدة ، فأطلق العثمانيون عليهم المدافع والبنادق والمكفيات والمسبقيات ^(١) فوقع الكثير من المصالحك في القتل ، وهرب الكثير منهم من ميدان المعركة ، ولم يثبت منهم إلا قلة . قاتلوا قتال الأبطال ومع ذلك استطاعوا إجبار الجيش العثماني على التقهقر إلى الخلف .

عندئذ أمرهم سليم بالهجوم الجماعي على الأمير شريك ، واشتدت المعركة بين الجانبين . وكان السلطان سليم يبحث جيشه على الإستماتة في الحرب وبعدم وعنيهم بالنصر . وما قال : (أنظروا لهم ، فإنه ما بقي منهم إلا احتسائة فارس ، انزلوا عليهم بجمعكم وابطشوا عليهم بقوتكم ولا تبقوا منهم علي أحد ، واقطعوهم إلي أهد الأبدن ، واسرعوا في الحركات) ^(٢) كما كان الأمير شريك يبحث جنده وشجعهم علي القتال إلا أن الجيوش العثمانية تكاثرت عليهم مما اضطر شريك إلي التراجع إلي الخلف متظاهراً بالهزيمة واستمر الكر والفر حتي غروب الشمس حيث رجع كل فريق إلي معسكره .

جلس الأمير شريك يتباحث الوضع مع قاداته . وبينما هم علي ذلك إذ أقبل عليهم رسل من غلومان باي يبلغونهم أن السلطان طرمان باي مقيم عند دهشور ، وأنه يأمرهم بالسير إليه وملاقاته . فامتثل الأمير طرمان للأمر واتجه لملاقاة طرمان باي ماراً بالعسكر العثماني في منتصف الليل . ولكن السلطان سليم لم يتعرض لهم خوفاً من أن يكون ذلك كمين لهم .

(١) المكفيات والمسبقيات : أكتان من آلات الحرب ، استعملها العثمانيون في حروبهم ضد المصالحك الذين لم يكن لهم عهد بها من قبل .

(٢) ابن زبيل : المصدر السابق ، ص ٩٧ .

التقى الأمير شاريك بطومان باي في الوردان^(١) ثم بعث الأخير برسالة إلى زعيم عرب غزاة حماد بن خبير يحضه فيها على الإلتزام إليه . وعنيهم بالوعد إن هم انضموا إليه . وإن امتنعوا فعليهم إتخاذ موقف المحايدة وعدم التدخل في المعارك غير أن عرب غزاة رفضوا طلب طومان باي الإلتزام للمصالحك .

أمر طومان باي جيشه بالرحيل ، فساروا حتي وصلوا أم دينار^(٢) واستقبلهم أهلها وياتوا بها تلك الليلة .

وفي صباح اليوم التالي هاجمهم جان يردي الغزالي ، علي حين غرة ، فتصلوا له ودارت بينهما معركة قوية ، تعرض فيها الغزالي لطعنة في خاصرته من الأمير شاريك . فحمله أتباعه إلى خيمته وعالجوه حتي شفي . وأثناء المعركة أقيمت جموع عرب غزاة الذين انضموا للعثمانيين . فأرسلهم سليم لمساندة جيش الغزالي . ودخلوا في صراع مع المصالحك . وفي هذه المعركة تعرض المصالحك لمواقف صعبة نتيجة لتدخل عرب غزاة في المعركة ، مما قوي الجبهة العثمانية .

كما أن عبور الصدر الأعظم يونس باشا إلى الضفة الغربية وإلتزامه إلى المعسكر العثماني قوي من مركز السلطان سليم .

(١) قرية من قري محافظة الجيزة ، قسم إمامية .

(٢) قري قديمة من قري مركز الجيزة .

معركة دهشور

أشار جان بردي الغزالي علي السلطان سليم بتقسم الجيش العثماني إلى ثلاثة أقسام ، قسم بقيادة إياس باشا ، وقسم بقيادته هو (الغزالي) والقسم الثالث بقيادة السلطان سليم ، ويسير كل جيش في جهة ثم تطبق الجيوش الثلاثة فجأة علي جيوش الماليك ويبيدونهم . فاستحسن السلطان سليم هذه المشورة وأمر بتنفيذها فوراً .

وأحاطت الجيوش العثمانية بالماليك ، ثم قلمت جموع عرب غزالة من جهة رابعة ، وضيقوا الحثاق علي الماليك الذين أصبحوا في موقف لا يحسنون عليه . ولما رأي طرمان باي تلك الجموع استعد للاقتاتهم . وكان معه من الأمراء شاريك ، ويحيى بن أزيك ، وأبرك ، ودولتاي ، ورزمك الناشف .

وفي يوم الخميس ١٠ ربيع الأول تلاقي الجيشان عند دهشور . وجرت معركة حامية أشد من معركة الريدانية . انتصر فيها العثمانيون ، وقتلوا من الماليك أعداداً كبيرة حتي أن بعضهم من حراجه المؤلف ألقى بنفسه في النهر ، وتفرق البقية . وسار السلطان سليم بعد هذا النصر إلي قرية وردان ومكث بها عدة أيام ، ثم أخذ يتجول علي الأهرامات وتعجب من بنائها . وفي يوم الأربعاء ١٦ ربيع الأول ، أمر السلطان سليم بالمتابعة في القاهرة بإبطال العملة المتداولة ، وسك عملة جديدة كتب عليها اسمه وكانت خفيفة الوزن (١١) .

(١١) دفتر المهمة رقم (١٢) وثيقة رقم (٧٣٤٩) وتاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم إلي أمير دمشق وقاضي القضاة .
ابن زنيل ، المصدر السابق ، ص ١١٩ و ١٢٠ .
ابن إياس ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١٢ و ١١٣ .

إلتجاء طومان باي إلي قبيلة محارب

بعد أن تعرض السلطان طومان باي للهزيمة القاسية في معركة دهشور ، حيث قتل فيها الكثير من أتباعه من أبرزهم الأمير قانصوه كرت . سار إلي قرية في جنوب وودان التي أقام بها السلطان سليم وعسكر بها . واجتمع بأصحابه ، وأخذوا يتشاورون فيما بينهم . فقال طومان باي لهم : " والله يا إخواني ما أظن إلا أنه دولتنا قد زالت . فإنني أرى أننا كلما فعلنا شيئاً نريد أن تكون فيه المصلحة ، فما يكون أمرنا فيه إلا بضد ما نريد ، وأرى أن أعدائنا أمرهم يزيد فكم قتلنا منهم من أنوف ومع ذلك أرى كلما له يزيد . وأنّ الغالب علي ظني زوال ملكتنا ، وأنّ الظفر لعنونا . " (١) .

أمر أتباعه بالمسير إلي مدينة سخا (٢) بالقرب حيث الشيخ حسن بن مرعي (٣) وابن عمه شكر شيوخ عرب محارب ، اللذين ولّاهم علي تلك المناطق وأخذ عليهم العهد والمواثيق والإيمان بأن يكونوا معه في السراء والضراء ، في وقت الرخاء والشدة وفي السلم والحرب .

(١) ابن زنبيل ، المصدر السابق ، ص ١٢٠ و ١٢١ .

(٢) بلد من أعمال محافظة كفر الشيخ ، كانت كورة وقصبة الكورة القريبة في عهد الدولة الأيوبية . وكان بها دار الوالي ، إليها ينسب الشيخ علي السخاوي المقرئ النحوي اللغوي . والحافظ الشهير محمد شمس الدين السخاوي صاحب كتاب الضوء اللامع في أهل القرن التاسع .

(٣) سجنه السلطان قانصوه القوري وحكم عليه بالأبد ، وما أن تولي طومان باي مقاليد الحكم في الدولة المملوكية حتي أطلق سجنه . وعينه حاكماً علي بعض المناطق في القريية . ورئيساً هو وابن عمه علي شيوخ عرب محارب .

وفي منتصف الليل رحل طومان باي وأتباعه من معسكرهم قاصدين أوطان
عرب المحارب . ولما رآهم الأمير جان بردي الغزالي . خرج في أثرهم ومعه خمسة
من أتباعه . فلما رآهم اتجهوا نحو الغربية . فقل راجعاً إلي معسكر السلطان
سليم . فأخبره بسير السلطان طوماي باي وأتباعه وتوجههم إلي ناحية الغربية .
فطلب سليم مشورته . فأشار عليه بأن يرسله في أثرهم ويكون معه خاير بك
وإياس أغا ومعهم أعداد من الجنود .

فأمر السلطان سليم بتجهيز جيش تحت إمرة الوزير فرهاد باشا . ومعه خاير
بك والغزالي . ويكون تحت تصرفه .

اقترب طومان باي وأتباعه من مدينة سخا^(١) التي كان مقيماً بها حسن بن
مرعي وابن عمه شكر ولما رأي خيل المسالك مقبلين عليهم تبادروا ومعهم فرسان
ومعدات القبيلة إلي جيادهم لاستقبال السلطان طومان باي والترحيب به . وما أن
اقتربوا من السلطان طومان باي وأتباعه حتي ترجلوا عن جيادهم وسلموا عليه
وأتباعه . وعرضوا عليه واجب الضيافة فرد عليهم طومان باي : " ما نحن فاضون
للضيافة ولا لغيرها ، والعدو في أثرتنا ، وقامت علينا العيان من عرب غزاة . وما
جئتم لك إلا لتنظر لنا محلاً نحتمي فيه . ثم تدبر أمرنا فيما فيه
الصلاح لنا".^(٢)

(١) يذكر ابن إياس أن حسن بن مرعي وابن عمه شكر التقيا بطومان باي عند مدينة تروجة.
ثم نراه في نفس الرواية يناقض نفسه . ويذكر أنهما التقيا به في ضيعة البرطة . وهذا
تناقض ظاهر في رواية واحدة . والذي أرجحه أنهما التقيا به في مدينة سخا مركز
حكمهما . وهذا ما ذكره ابن زنيل الذي هو خير من يؤرخ لهذه الحادثة لإتصاله المباشر
بالمسالك الجراكسة وخرجه معهم أحياناً .

(٢) ابن زنيل . المصدر السابق . ص ١٢٢ .

رحب آل مرعي بقدوم السلطان طومان باي فركن إلي ولايتهم وأحضر لهم مصحفاً ، وحلفا عليه أن لا يغتوا ولا يغتروا به ، ولا يدلان عليه بشئ من الأشياء ولا لسبب من أسباب الملك ، ولا يدلان عليه . فحلفا له علي الصحف سبع مرات فأطمئن قلبه إلي ذلك واستقر عندهما ^(١) .

عرض عليه الحسن بن مرعي مخبئاً صعباً اتتعاهه ، وهو غابة في واد كبير واسع وافر المياه ، لا يستطيع الدخول منه سوى إثني مئتين وذلك لشدة ضيقه ، وأخبره بأن هذا المكان هو ملاذه ، إذا هاجمهم عدو لا طاقة لهم به .

طلب منه طومان باي المسير إليه ، فلما عاينه انقبض خاطره وأحس بقلبه أنه غير مأمون وأنه سيحدث له ما لا محمد عقباء ، فأصك بلجام فرسه ووقف في مكانه ومجبر في أمره ، لكنه سلم لأمر الله عز وجل . وسار مع حسن بن مرعي حتي نزل هو ومن معه في صدر الوادي وعسكر هناك . وبعد أن أطمئن حسن بن مرعي علي استقرار "طومان باي" ومن معه . خرج عنهم ليستطلع الأخبار .

(١) ابن إياس ، الصغر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٤ .

إلقاء القبض علي طومان باي وشنقه

بعد خروج الحسن بن مرعي من عند " طومان باي " حدثته نفسه بالخيانة. ودارت مجادلة بينه وبين أمه في أمر الخيانة وحذرت والدته من هذا العمل . وأخذت تذكره بما للسلطان " طومان باي " عليه من أباد ببضاء ، وبالإيمان والعهود التي قطعها علي نفسه بعدم الخيانة . فلم ينتصح لكونه يطمع في المكافأة. وما أن انتهت المعادثة بينهما حتي أقبل فرسان القبيلة مصرعين ونادوه بالخروج إليهم لملاقاة الجيش العثماني القادم نحوهم .

سأل القائد فرهاد باشا الأمير حسن بن مرعي إن كان عنده علم عن طومان باي ، وطعمته بالأموال والمناصب إن هو دله علي مكانه .

فلما عرض عليه فرهاد باشا ذلك أخبره بأنه كفيل بإحضاره إليهم فخلع عليه الوزير فرهاد باشا خلعة سلطانية مذهبة ، وكذلك علي ابن عمه شكر . ووعدهم خيراً.

ورجع حسن إلي والدته فاستنكرت عليه الخلعة ومصدرها ، فأخبرها الخبر . فحذرت من عاقبة الخيانة . فتحير في أمره ، وانتهي بابن عمه شكر فشجعه قائلاً : " وهل عاقل يبيع عاجله بأجله ، لا تمل إلي الكفة الناقصة الخاسرة فيحصل لك الكسران " (٢) .

اتفق الإثنان علي السير للوزير فرهاد باشا العثماني . وأبلغاه بمخبر " طومان باي " وأتباعه ، فأرسل معها فرقة من جنده بقيادة أمير الروملي مصطفى باشا ومعه علي بك بن شهور والغزالي .

(١) ابن زنبيل ، المصدر السابق ، ص ١٢٧ .

(٢) العبيدي ، المصدر السابق ، ص ١٠٤ - ١٠٦ .

وعندما اقتربت الفرقة من مخبأ طومان باي وأتباعه ، وشاهدتهم "طومان باي" طلب من أمرائه أن يتفرقوا ويذهبوا إلى أي مكان أرادوا . فلما رآهم الغزالي فسح لهم المجال للخروج لما رأى السلطان طومان باي ليس معهم وبعد أن تفرق الأمراء عن سلطانهم . اقترب منه الجند العثماني ، وأرادوا القبض عليه حياً . فأغمدوا سيوفهم وأحاطوا بالسلطان طومان باي من جميع الجهات ، وأمسكوا به في يوم الاثنين ٧ ربيع الأول / ٧ أبريل ١٥١٧ م وأحضره مقيداً إلى مكان يدعى أم الدينار ، ثم نقلوه إلى الجيزة . ومنها عبروا به إلى بولاق مقر السلطان سليم ، وأرسلوا البشائر إلى " سليم " بالقبض على طومان باي . وما أن وصلوا إلى خيمة السلطان سليم حتى خرج لهم الوزير الأعظم يونس باشا ، وأمرهم بإنزاله في الخيمة ^(١) .

(١) لا نفر بعض المصادر التركية ومنها (روز نامه حيدر جلبي ، في كتابه : سلطان سلجمن إيران سلفه دالر مختارات ورواية ١٤٣ أ - ١٦٠ ب) .

أن القبض على " طومان باي " بدلالة حسن بن مرعي ، ولكنها تذكر أن الجنود العثمانيين أدركوه في صغور بالقرب من البحيرة ، فألقي بنفسه في النهر خوفاً من بطش الجنود ، فأنتقلوه من النهر وقبضوا عليه .

ويذكر جلال زاده قوجه نشاينجي مصطفى في كتابه : مآثر سليم خاني طاب ثراه . في ورقة ١٤٢ أن مصطفى باشا وجنود الروملي قبضوا على " طومان باي " بعد هزيمته أمامهم في معركة لم يحدد مكانها .

(أحمد فزاد متولي ، المرجع السابق ، ص ٢١٧) .

وهناك روايات أخرى كثيرة مختلفة وردت في المصادر التركية لاداعي للذكرها . وكلها مع الاختلاف في الرواية تؤكد أن القبض على " طومان باي " كان عن طريق الجيش العثماني بعد هزيمته أمامهم . وتتفق هذه الروايات دلالة حسن بن مرعي ولم أعثر في الأرشيف العثماني على وثائق تبين كيفية وطريقة القبض على " طومان باي " مما يجعلني أعتمد على ماورد في المصادر والمراجع العربية للسبب المذكور آنفاً وإختلاف المصادر والمراجع التركية في الرواية .

وفي صباح اليوم التالي مثل " طومان باي " أمام " سليم " . قام له السلطان سليم ، وأخذ يتأمله معجباً بشجاعته وجسارته ، وأجلسه بجواره . وأخذ يتحدث معه بأسلوب رقيق ، راعياً في ضمه إلي جانبه . ودار بين آخر السلاطين المالك ، وتاسع السلاطين العثمانيين حوار طويل ، أظهر فيه " طومان باي " رباطة جأش وشجاعته مدافعاً عن شرفه وشرف بلاده ، ومبدياً له أنَّ ما حدث من هزيمة إنما هو بإرادة الله تعالى .

إهتم سليم بكلام " طومان باي " وأبدي إعجاباً بالغاً بحديثه . فأمر بعدم قتله حتى ينظر في أمره . وكان " سليم " يحسن إستقباله . ويستقر منه عن شئون مصر وإدارتها وجباية خراجها ^(١) .

وأجتمع السلطان سليم بإمراء دولته . وبينما هم يتحدثون في أمر طومان باي إذا بالبشارة تأتي من قبل الأمير أحمد بن بكر بالقبض علي الأمير شريك الأعور . ففرح سليم وأمر بإحضاره . فلما مثل بين يديه . دارت بينهما معادثة قوية . دافع فيها الأمير شريك عن نفسه ، فأمر السلطان سليم بإخراجه ^(٢) .

شاع بين الأوساط الشعبية القبض علي طومان باي . وأن السلطان سليم سيقبض عليه . ويأخذه معه إلي إستانبول . أو يرسله متقبلاً إلي مكة المكرمة مدة حياته ، غير أن خاير بك ، وجان يردي الفزالي لم يعجبهما إبقاء سليم علي حياة طومان باي ، فأخذوا يدبران الكيدة . ويحرضان السلطان سليم علي قتله بحجة أنَّ

(١) ابن زنبل . المصدر السابق . ص ١٣٢ - ١٣٦ .

أحمد شلبي . موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ج ٥ . ص ٢٥٩ ، الطبعة الرابعة ١٩٧٩ م .

(٢) ابن زنبل . المصدر السابق . ص ١٣٦ - ١٣٩ .

وإبن إباص . المصدر السابق . ج ٣ . ص ١١٥ .

لا بقاء للملكه مادام " طومان باي " علي قيد الحياة . وكتبنا رسالتين ^(١١) إلي السلطان سليم خفية دون علم وزرائه . لأن أغليهم وعلي رأسهم الصدر الأعظم يونس باشا لا يؤيدون مشورات خاير بك لسليم ^(١٢) .

استطاع هذان الخائنان التأثير علي السلطان سليم خاصة بعد ما قام به الجراكسة والعربان وأهالي القاهرة من شغب عندما علموا بالقبض علي "طومان باي" فكان ذلك عاملاً مساعداً علي التعجيل بقتل طومان باي ^(١٣) .

قبل إعدام طومان باي بهر عين قرر السلطان سليم تولية يونس نائباً عنه في مصر . وفي نفس اليوم كتب رسائل التبشير بالفتح بالفارسية وأرسلت إلي الدول الصديقة تبشيراً بالنصر ^(١٤) .

(١١) دفتر المهمة رقم (١٣) وثيقة رقم (٧٣٥١) وتاريخ ١٨ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ .

صورة رسالة من خاير بك إلي السلطان سليم .

وثيقة رقم (٧٣٥٨) وتاريخ ١٨ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ .

صورة رسالة من جانب بردي الغزالي إلي السلطان سليم .

(١٢) إبراهيم طرخان ، المرجع السابق ، ص ١٩٧ .

(١٣) دفتر المهمة رقم (١٣) وثيقة رقم (٧٣٧١) وتاريخ ١٩ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من

الصدر الأعظم يونس باشا إلي مقام الصدرة في إستانبول .

(١٤) عن محتويات هذه الرسائل أنظر :

دفتر المهمة رقم (١٥) وثيقة رقم (٧٥٤١) وتاريخ ١٩ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من

السلطان سليم إلي ابنه وولي عهده سليمان .

وثيقة رقم (٧٥٤٣) وتاريخ ١٩ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم إلي أمير

دمشق وقاضي القضاة . وثيقة رقم (٧٥٥٢) وتاريخ ٢٠ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من

الصدر الأعظم يونس باشا إلي مقام الصدرة في إستانبول .

وافق السلطان سليم علي إعدام طومان باي بعد أربعة عشر يوماً من القبض عليه . وفي يوم الإثنين ٢٨ ربيع الأول ٩٢٣ هـ / ١٣ أبريل ١٥١٧ م أمر السلطان "سليم" بإخراج " طومان باي " آخر سلاطين المماليك من سجنه في إمبابية ، فأخرج من سجنه وصار وسط . . . ٤ جندي يحرسونه حتي وصل إلي بولاق . ثم أمرهم السلطان " سليم " بالسير إلي باب زويلة . وظل " طومان باي " سائراً معهم رافع الرأس وهو يسلم علي الناس طوال الطريق . فلما رآه المصريون جهشوا بالهكاه . والصياح . وكان هذا اليوم عليهم من أشام الأيام ^(١) .

وما أن وصل طومان باي إلي باب زويلة . حتي أنزله الحرس عن فرسه . وأرخصي له المشاعلي حبل المشقة . وتم إعدامه . وحزن عليه الناس حزناً كبيراً . نظراً لشجاعته وبطولته في التصدي للعثمانيين . ولشجائته في الحرب واستمراره في المقاومة حتي آخر لحظة . هذا علاوة علي حسن سمعته وحسن أخلاقه . وحسن سياسته للناس .

بسبب شق السلطان طومان باي علي باب زويلة . عرف هذا الباب فيما بعد بهاب التولي - بوابة المتولي - ولعل إختيار هذا الاسم لكونه لقب السلطان طومان باي قبل توليه السلطنة .

يذكر ابن زنبل أن السلطان " سليم " حضر الصلاة علي " طومان باي " . وأرسل ثلاثة أكياس من الفضة للتصدق عليه . وأنه في نفس الوقت الذي أمر ليه بشق السلطان " طومان باي " . أمر بإحضار الأمير شاربك الأعور وضرب عنقه .

(١) ابن زنبل . المصدر السابق . ص ١٤٩ .

حسن عثمان . تاريخ مصر في العهد العثماني (١٥١٧ - ١٧٩٨) في كتابه الجمل في التاريخ المصري . القاهرة ١٩٤٢ م . ص ٢٤٢ .

فأُتي أبناؤه وغلّامه الحاج فارس ، وأُستأذِنوا في أخذه ، فأذن لهم ، فاتوا به إلى المدرسة البيبرسية ^(١) وغسلوه وصلوا عليه ، ودفنوه في فنانها ^(٢) .

وردأ علي شلق " طرمان باي " حاول بعض السالِك الإِنتقام لمقتله ، حيث أن أحد أمرائهم ويدعي قانصوه العادلي ، لما بلغه خبر شلق " طرمان باي " ، قرر الشار له بقتل السلطان " سليم الأول " ، ودبر حيلة حيث لبس زي العرب ، وأخذ معه جماعة من أهل القوة ، وركب مركباً ليلاً قاصداً المكان الذي يجلس فيه السلطان . وكاد قانصوه أن يصل إلى مكان " سليم " ، لولا تيقظ حراسه الناريين ، وماكان من قانصوه العادلي إلا أن ألقي بنفسه في النيل ، فأرسل سليم في أثره وأسكوه به . وأتوا به إلى السلطان " سليم " فأعجب بحراسته ووفائه لسلطانه " طرمان باي " . وعفا عنه وأبقاه معه ^(٣) .

في يوم الجمعة ٢٥ ربيع الأول ٩٢٣ هـ خرج السلطان سليم من معسكره في إمبابة قاصداً القاهرة ، ودخلها من باب زويلة ، وتوجه من هناك إلى الجامع الأزهر . وزينت له القاهرة ، وصلى في الأزهر صلاة الجمعة ، ومكث بالقاهرة عدة أيام ^(٤) .

أرسل السلطان سليم جماعة من أمرائه ووزرائه وأهل مشورته إلى المدرسة الغورية ، وأرسلوا في استدعاء جماعة من القضاة وأعيان التجار ، يختلف أنواع

(١) كانت ملحقة بجامع بيبرس المبرود بحي الجودرية خارج المؤيد .

(٢) ابن زنبيل ، المصدر السابق ، ص ١٤٢ .

(٣) دفتر المهمة رقم (١٥) وثيقة رقم (٧٥٦٣) وتاريخ ٢١ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم (القاهرة) إلى ابنه ولي عهده سليمان .

(٤) دفتر المهمة رقم (١٥) وثيقة رقم (٧٥٧١) وتاريخ ٢٥ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من المصدر الأعظم يونس باشا إلى أحمد باشا (إستانبول)

تجارتهم . وطائفة من البنائين والتجارين والمرخين والبلطين . وغير ذلك من أرباب الحرف . واختاروا أعداداً منهم للسفر إلى استانبول عاصمة الدولة العثمانية ^(١) .

وقد ضم الوفد المرسل إلى الأستانة بعض الذين ترددوا على الحكم العثماني من بين الأمراء والعلماء وعائلاتهم ، بلغ عددهم ٢١ . . شخص أو ٧٠ . . عائلة ^(٢) . ويبدو أن هذا الإجراء يتفق مع عادة مألوفة في الدولة العثمانية بإجراء تنقلات بين السكان ، أثر الفتح ، لنقل الخبرات ، أو لترسيخ الصبغة العثمانية في البلد المفتوح.

ويذكر بعض المؤرخين أن السلطان سليم أخذ معه عند خروجه من مصر ألف جمل محملة بالذهب والفضة ^(٣) . وهذا الرأي غير صحيح ومثالي للحقيقة والواقع فالإقتصاد المملوكي كان متدهوراً بعد تحول طرق التجارة العالمية عن مصر . وهذا ما جعل الماليك يُلجأون إلى فرض الضرائب الفادحة على الناس لسد العجز في مالية الدولة المملوكية .

(١) دفتر المهمة رقم (١٥) وثيقة رقم (٧٥٨٩) وتاريخ ٢٦ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم إلى الوزير محمد باشا .

(٢) لمعرفة تفاصيل أسماء هؤلاء الأشخاص ووظائفهم وأعمالهم أنظر :

دفتر المهمة رقم (١٦) وثيقة رقم (٨١٠٠) وتاريخ ٢٥ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم إلى ابنه ولي عهده سليمان .

وثيقة رقم (٨١٢٢) وتاريخ ٢٧ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم إلى ابنه ولي عهده سليمان .

(٣) محمد بن أبي السريد البكري الصديقي ، الكواكب السائرة في أخبار مصر والقاهرة . مخطوطة بالتحف البيطاني بلندن تحت رقم Additional MS. 9973 ص ١٥ .

ومما يؤكد عدم صحة الرأي المذكور آنفاً الرسالتين اللتين بعث بهما السلطان سليم وهو في الشام إلى ابنه وولي عهده سليمان (القانوني) يذكر له فيها أنه لم يكسب من بلاد مصر شيئاً يذكر . بل أنه أنفق على إصلاح شتونها كل ما حصله معه من ذهب وفضة من إستانبول (١) .

وفي يوم الأحد ٢٧ ربيع الأول أتى السلطان سليم بشخص من العشمانيين امرأة من السوق وزني بها . وبعد ثبوت الزني وانتفاء موانع الرجم ، أمر السلطان سليم به فرجم (٢) .

(١) دفتر المهمة رقم (١٦) وثيقة رقم (٨١٢٧) وتاريخ ٩ شوال سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم (دمشق) إلى ابنه وولي عهده سليمان (إستانبول) .

روثيقة رقم (٨١٤١) وتاريخ ١٢ شوال سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم (دمشق) إلى ابنه وولي عهده سليمان (إستانبول) .

(٢) ابن إياس ، المصنوعه ، ج ٣ ، ص ١١٦ و ١١٧ .

وصول الأسطول العثماني إلى الإسكندرية

وبعد ستة وثلاثين يوماً من إعدام السلطان السلوكي طومان باي . وصل الأسطول العثماني ، الذي كان مقرراً أن يشترك في ضم مصر لأملاك الدولة العثمانية ، إلى شواطئ الإسكندرية في يوم الثلاثاء ٢٨ ربيع الثاني / ١٩ مايو ، وكان يتكون من ٣٠١ قطعة بحرية .

وما أن بلغت الأخبار للسلطان سليم بوصول الأسطول العثماني حتى أصدر أوامره للجيش العثماني بالتوجه إلى الإسكندرية . وفي يوم الخميس ٧ جمادي الأولى / ٢٨ مايو توجه السلطان سليم إلى الإسكندرية للتفتيش على الأسطول . وكان يرافقه الوزير محمد باشا ، وكاتب الديوان حليمي جلبي . كما توجه الصدر الأعظم يونس باشا إلى الإسكندرية عن طريق البر للاقابلة السلطان سليم الذي سلك طريق البحر (١) .

وصل السلطان " سليم " إلى الإسكندرية في ضحى يوم الثلاثاء ٨ جمادي الأولى وأمر نائبه في القاهرة بإرسال الخليفة العباسي المتوكل على الله إليه في الإسكندرية . وقد خرج الخليفة العباسي في هذا اليوم وبصحبه أولاد عمه خليل وهما أبو بكر وأحمد ، وخرج بصحبه أيضاً الناصر محمد العلاني صهر الخليفة ،

(١) دفتر المهمة رقم (١٦٦) وثيقة رقم (٨١٤٧) وتاريخ ٦ جمادي الأولى سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم إلى الصدر الأعظم يونس باشا .

ويونس بن الأتابكي سودون العجمي ، وغيرهم من الأعيان ، متجهين صوب
الأسكندرية (١) .

في يوم الجمعة ١٥ جمادى الأولى أدى السلطان سليم صلاة الجمعة بالمسجد
الغربي ، ثم زار بعض الآثار هناك . ثم تحرك عائداً إلى القاهرة في اليوم الثاني
وأستقر في حي الروضة ، وأمر ببناء قصر في أم القياس ، ليكون قصراً للحكم في
مصر (٢) .

(١) دفتر المهمة رقم (١٦) وثبة رقم (٨١٥٣) وتاريخ ٩ جمادى الأولى سنة ٩٢٣ هـ من
الصدر الأعظم يونس باشا إلى مقام الصدارة في إستانبول .

عاش الخليفة العباسي المتوكل علي الله في إستانبول حياة ملؤها الإسراف والبهخ ، وكان
دائم الخلاف مع أولاد عمه ، مما أدى إلى غضب السلطان عليه ، فأمر بإبعاده خارج
العاصمة - وتذكر بعض المصادر أن السلطان سليم أمر بسجنه - ولما تولى سليمان
(القانوني) عرش العثمانيين أعاده إلى إستانبول ، ثم أذن له فيما بعد بالعودة إلى
القاهرة . وقد عاش المتوكل في القاهرة وهو يحمل لقب خليفة إلى أن مات سنة ٩٤٥ هـ
/ ١٥٣٨ م .

وتسكت المصادر التركية والعربية التي عاصرت ضم الشام ومصر للعثمانيين عن ذكر شيء
عن الخلافة . أما المؤرخون الذين لم يعاصروا ذلك فمنهم من يقول بتنازل الخليفة العباسي
عنها إلى السلطان "سليم" العثماني . ومنهم من ينفي هذا التنازل ويؤكد على عدم
إنتقال الخلافة إلى العثمانيين .

ولا يوجد لدينا دليل من وثيقة أو مصدر يؤكد إنتقال الخلافة إلى السلطان "سليم" كما أن
"سليم" لم يتخذ هذا اللقب من ضمن ألقابه . وأكتفى بلقب خادم الحرمين الشريفين ،
ولم يتخذ سلاطين آل عثمان لقب خليفة إلا في القرن الثامن عشر الميلادي لأسباب
سياسية وكيفما كان الأمر فإن الخلافة العباسية قد أنتهت مع وفاة المتوكل وأصبح سلطان
الدولة العثمانية هو أعلى شخصية في العالم الإسلامي كله لا تعلوها شخصية أخرى
وأصبح خليفة بقره السلاج والواقع .

(٢) ابن إياس ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٢١ .

أرسل شريف مكة زين العابدين بركات ابنه الأكبر محمد أبا نبي إلى
السلطان سليم في القاهرة ليقدم الولاء والطاعة للسلطان "سليم".

وفي يوم الإثنين ١٦ جمادى الثانية دخل ابن الشريف بركات القاهرة،
فاستقبله السلطان سليم إستقبالاً حافلاً ، وبعد ستة أيام قدم محمد أبا نبي الطاعة
والولاء وبعض الهدايا للسلطان سليم ، ثم سلمه مفاتيح الأماكن المقدسة وبعض
الأثار الموجودة في مكة والمدينة ، فأقر السلطان الشريف زين الدين بركات علي
شراقة مكة ، وبعث مع ابنه رسالة بالعربية إليه ، تتضمن الموافقة علي أن تكون
شراقة مكة المكرمة له ولابنه الأكبر من بعده (١١) .

وتنهج هنا النهج الأمراء الماليك الذين كانوا يحكمون بعض مناطق اليمن
باسم الدولة المملوكية وقد قبل سليم ذلك ، وأقرهم في حكم اليمن باسم الدولة
العثمانية (١٢) .

(١١) السيد رجب حراز : الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب (١٤٨٠ - ١٩٠٩) القاهرة ،
١٩٧٠ م ، ص ١٠١ .

فائق بكر الصراف ، العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز في الفترة ما بين ١٢٩٢
- ١٣٣٤ هـ / ١٨٧٦ - ١٩١٦ م . القاهرة ، مطبعة سجل العرب ، ١٩٧٨ م ، ص
٤٨ .

عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، الطبعة الثالثة ،
١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م . دار المثنى ، الدوحة ، قطر ، ص ٢١ .

عبد العزيز الشاري ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفتري عليها .

ج ١ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٠ م ، ص ٢٠ .

(١٢) محمود صالح منسي ، حركة البقطة العربية في الشرق الأميري ،

دار الإلهام العربي للطباعة ، الناشر : دار الفكر العربي ، ١٩٧٨ م ، الطبعة الثانية ،

دراسات في تاريخ الشرق العربي (١) ، ص ٣٠ .

قواعد الحكم العثماني في مصر

شرح السلطان " سليم " في تنظيم أمور الحكم في مصر قبل مغادرتها إلي
إستانبول فعين خاير بك والياً علي مصر في يوم الإثنين ١٣ شعبان / ٣١
أغسطس ١٥١٧ م ومنحه لقب الباشوية ، وأوكل إليه كافة أمور البلاد الإدارية
والاقتصادية وغيرها من مهام الوالي ^(١) . كما أصدر قراراً بعزل يونس باشا من
حكم مصر .

وترك له حامية عثمانية مقبضة في مصر ، مكونة من أربعة آلاف جندي
وقسمها إلي أربع فرق . وأوكل إليها حفظ النظام في البلاد والنود عنها ، وجباية
الحراج . وعين لكل فرقة قائداً مستقلاً عن الوالي تمام الإستقلال يرجع أمره إلي
السلطان مباشرة .

وهذه الفرق : فرقة الإنكشارية ، وتعتبر أقوى الفرق العثمانية ، وعين خير
الدين باشا قائداً لها ، كما عينه نائباً علي القلعة ، وفرقة الروملي ، وأسد قيادتها
إلي ستان بك ، وفرقة الأناضول ، وأسد قيادتها إلي قايق بك ^(٢) . وفرقة
قبرخلقلي وأسد قيادتها إلي مصطفى بك .

(١) أحمد فزاد متولي ، المرجع السابق ، ص ٢٢٧ و ٢٢٨ .

(٢) أحمد حسين ، موسوعة تاريخ مصر ، الجزء الثالث ، دار الشعب ، ص ٨١٥ و ٨١٦ .

أحمد متولي ، المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .

هند أسكندر ، تاريخ مصر ، دار المعارف بمصر ، ص ٢٤٤ و ٢٤٥ .

عبد النعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية .

دار الجليل ، بيروت ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ، ص ٧٦ و ٧٧ .

وقسم البلاد من الناحية الإدارية إلى مديريات ، بلغت ٢٤ مديرية ، وعلى رأس كل منها أمير مملوكي ، وبذلك لم يغير الوضع الإداري الذي كان سائداً من قبل ، وفي الوقت نفسه قسم مصر من الناحية السياسية إلى ثلاثة أقسام كبيرة جعل علي كل قسم رئيساً من الماليك لمعاونة خاير بك في حكم البلاد . ويكون هؤلاء الثلاثة تابعين للديوان في إستانبول ^(١) .

وفي يوم السبت ١٨ شعبان عيّن السلطان سليم الأمراء الماليك علي المديريات المصرية ، حيث ولي الأمير غانم السيفي علي البهنسا والفيوم ، وحمام بن خبير شيخ عرب غزالة علي إقيم الجيزة ، والأمير علي بن عمر شيخ الهوارة علي إمارة الصعيد ومركزه في مدينة جرجا ، والشيخ علم الدين علي أراضي بن عدي ^(٢) .

وبعد أن ولي هؤلاء الأمراء علي مناصبهم ، أمر أن يكتب في الدواوين ولجميع الحكام بعدم التعرض لجميع أصحاب الإقطاعات والأرزاق والأوقاف والجوامع ، وأولاد الأمراء . وبالمذاة أمراء الجراكسة ^(٣) . وجعل لعنة الله ثلاث

(١) دفتر الجهة رقم (١٦) وثيقة رقم (٨١٤٧) وتاريخ ١٥ شعبان سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم إلي ابنه ولي عهده سليمان في إستانبول ، وثيقة رقم (٨١٥٣) وتاريخ ١٧ شعبان سنة ٩٢٣ هـ إلي مقام الصدارة العظمى في إستانبول (لم يذكر اسم المرسل) .

(٢) ابن زنبيل ، المصدر السابق ، ص ١٤٦ و ١٤٧ .

عبد الكريم رافق ، العرب والعشائر ١٥١٦ - ١٩١٦ ، الطبعة الأولى ، دمشق ١٩٧٤ ، ص ٦٤ و ٦٥ .

(٣) إحتمام السلطان " سليم " بالأمراء الماليك الجراكسة يدل علي مدى موقفه بوجه عام من الماليك ، وهذا ما توضحه وصيته بهم بالأبنا عليهم أذي ، ويوضحه تركه السلطة في أيديهم ، وعدم المساس بإقطاعاتهم وتقاليدهم بعد أن أطمأن إليهم . ونتيجة لذلك فقد كان توليهم في العهد العثماني يفوق توليهم قبل ذلك .

(أحمد شلبي ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٢٥٢) .

(هند اسكندر ، المرجع السابق ، ص ٢٣٤٥) .

مرأت علي من غير أو بدل شيئاً من ذلك^(١١)

كما تشكل ديوان الوالي العثماني في مصر وكان يتكون من القادة العسكريين الستة ، ومن ٢٤ والياً ، ويجتمع هذا الديوان أربع مرات في الأسبوع ، ومهمته النظر في الشؤون الإدارية والاقتصادية ... وينوب هذا الديوان لا يستطيع الوالي تقرير أي عمل أو تنفيذه . وإذا تجاوز الوالي حدود سلطته فيرفع أعضاء الديوان الأمر إلى السلطان في إسطنبول^(١٢) .

وما قيام السلطان سليم بتلك الإجراءات والترتيبات التي أتخذها قبل مغادرته مصر . إلا لكي يضمن مصير الحكم العثماني في البلاد . ويضمن سلامة مصالح الناس ، وأيضاً ليحد من سلطة الوالي فيها علي الرغم من ثقته بخاير بك لدرجة أنه عزل وزيره الأول بونس باشا ونصبه مكانه في الولاية .

أما من ناحية التنظيم الاقتصادي في مصر . فقد ألغى السلطان " سليم " النظام الإقطاعي الذي كان سائداً في عهد المماليك ، وأحل محله نظام الالتزام ، والذي يعني أن الحكومة تمتلك جميع الأراضي المصرية ، وتعطي بعضها للوالي ، والبعض الآخر لتنفقات الجند وحكام الأقاليم . وتطرح الباقي للمزايدة مقسمة إلى

(١١) دفتر المهمة رقم (١٦) وثيقة رقم (٨١٦٦) وتاريخ ٢ شعبان سنة ٩٢٣ هـ من السلطان سليم (القاهرة) إلى أمير دمشق وقاضي القضاة .

وثيقة رقم (٨٢١٠) وتاريخ ٢ شعبان سنة ٩٢٣ هـ . من الصبر الأعظم محمد باشا (القاهرة) إلى إسطنبول .

(١٢) دفتر المهمة رقم (١٦) وثيقة رقم (٨٢٢٣) وتاريخ ٢٢ شعبان سنة ٩٢٣ هـ من السلطان "سليم" إلى والي مصر الجديد خاير بك

أجزاء بين الراغبين في الإلتزام (١١)

يقول الشيخ عبد الرحمن الجبرتي عن دخول السلطان " سليم " إلى مصر :
" ولما خلص له أمر مصر عفا عمن بقي من الجراكسة وأبنائهم ، ولم يتعرض لأوقاف
السلطين المصرية ، بل قرر مرتبات الأوقاف والمحيرات والعلوفات وغلال الحرمين
والأنبار ورتب للأيتام والشايع المتقاعدين ومصارف القلاع والمرايطين ، وأبطل
المظالم والكوسس والمغارم . ثم رجع إلى بلاده وأخذ معه الخليفة العباسي (١٢) .

(١) دفتر المهمة رقم (١٦) وثيقة رقم (٨٢٣٧) وتاريخ ٢٥ شعبان سنة ٩٢٣ هـ من
السلطان سليم (القاهرة) إلى أمير دمشق وقاضي القضاة ، ووثيقة رقم (٨٢٤٠)
وتاريخ ٢٧ شعبان سنة ٩٢٣ هـ من والي مصر الجديد خير بك إلى أمير دمشق .

(٢) عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار .

دار الجيل ، بيروت ، ج ١ ، ص ٣٧ .

عودة السلطان سليم إلى إستانبول

بعد أن أتم السلطان " سليم " ترتيب وتنظيم شئون مصر شرع في الإبتعاد للرحيل إلى عاصمة دولته إستانبول بعد أن مكث في مصر سبعة أشهر وثلاثة عشرة يوماً .

وفي يوم الخميس ٢٣ شعبان ٩٢٣ هـ / ١٠ سبتمبر ١٥١٧ م خرج السلطان سليم من بيت السلطان قايتباي ، وتوجه إلى الصليبية ، ومن ثم إلى الرملة ، ومن هناك خرج في موكب حافل ومعه الصدر الأعظم يونس باشا ، والدفتردار ، وبقية الوزراء والأمراء ، والعدد الكثير من جيشه مابين مشاة وخيالة ، وكان علي رأس مودعيه واليه علي مصر الأمير خاير بك (١) .

واصل السلطان سليم رحلته قاصداً بلاد الشام ، حتى وصل إلى بلبس في يوم السبت ٢٥ شعبان ، وهناك أصابته وعكة ، فبقي بها أياماً ، ثم أكمل مسيرته . وفي يوم الثلاثاء ٢٨ شعبان ، وبينما كان السلطان "سليم" متوجهاً إلى غزة ، جرت مناقشات حادة بينه وبين وزيره يونس باشا ، أغلظ فيها الأخير الكلام علي " سليم " منها قوله مخاطباً " سليم " : " ما الذي فعلته ؟ أخذت البلاد من الجراكسة ، ثم أعطيتها لهم ثانية وعاديتهم وقتلتهم ثم صافيتهم ، فما هذا الرأي ؟ فلو عرفنا ذلك ما جئنا معك ولا أطعناك في شيء من ذلك " . فغضب السلطان "سليم" وأمر بضرب عنقه وقتل في الحال (٢) .

وحمل السلطان سليم إلى غزة في يوم الجمعة ٩ رمضان . ففتح جان بردي الغزالي حكم ولاية كل من صند والقدس والكرك ونابلس ، ودخل السلطان سليم

(١) ابن إياس ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٣٢ و ١٣٣ .

(٢) ابن زهبل ، المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

دمشق في يوم الخميس ٦ شوال . وبدأ يفكر في القضاء على المناوئين للحكم العثماني في الشام . وأثناء إقامته في دمشق وصلته رسالة من الشاه إسماعيل الصفوي مع بعض الهدايا ، ومزداها : " ملكتك كثيراً من البلاد والتبعة . استوليت علي مصر خاصة ، وأصبحت "خادم الحرمين الشريفين " . والآن أرضك أرض الاسكندر . لقد زال ما كان بيننا ، ولن يعود مرة أخرى . عد إلي مملكتك ، وأعود أنا إلي مملكتي . فلنصن دماء المسلمين سرياً . إنني سأحقق رغبتك وأمنيتك أبداً كانت " (١) .

اطلع "سليم" علي هذه الرسالة لكنه لم يطمئن إليها ، فأرسل الصدر الأعظم محمد باشا علي رأس فرقة قوامها ألفا جندي ووجهه إلي ديار بكر لمراقبة تحركات الشاه الصفوي عن قرب .

في يوم الإثنين ٢٢ محرم ٩٢٤ هـ / ٨ فبراير ١٥١٨ م ترك السلطان "سليم" دمشق بعد أن مكث بها ثلاثة أشهر وعشرين يوماً . وعين جان بردي الغزالي والياً علي الشام .

ووصل السلطان "سليم الأول" إلي حلب في يوم الجمعة ٢٢ صفر ، وفي يوم الخميس ٢٥ ربيع الثاني خرج منها قاصداً عاصمة بلاده أستانبول فوصلها يوم الأحد ١٧ رجب ٩٢٤ هـ / ٢٥ يوليو ١٥١٨ م (٢) .

(١) دفتر المهمة رقم (١٦) وثيقة رقم (٨٢٣٧) وتاريخ ١٥ شوال سنة ٩٢٣ هـ من الشاه إسماعيل الصفوي إلي السلطان "سليم" .
(٢) ابن الغزي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢١٠ .

أسباب سقوط المماليك وانتصار العثمانيين

كما تقدم يتضح لنا بأن أسباب سقوط المماليك وانتصار العثمانيين يمكن إجماله في الأسباب الآتية :

أولاً : الخيانة المملوكية ، وهي من أقوى أسباب سقوط المماليك . لاسيما وأن تلك الخيانة قد صدرت من أصحاب مراكز مرموقة في الدولة المملوكية ، كبعض القادة العسكريين ، وحكام بعض المناطق الهامة على الحدود العثمانية المملوكية، وقد بدأت الخيانة المملوكية في معركة مرج دابق وظلت تؤدي دورها إلى أن شق السلطان المملوكي طومان باي ، وتمثلت الخيانة التي نشأت في صفوف المماليك في خاير بك أولاً ، وجان بردي الغزالي من بعد ثانياً ... وقد ساهمت خيانتهم في ضعف المماليك وهزيمتهم في النهاية . وقد ذكر طومان باي أن أكبر عوامل هزيمته خيانة بعض قادته ورجاله .

ثانياً : ضعف الإقتصاد المملوكي وتدهوره بعد تحول طرق التجارة مما أدى إلى عجز طومان باي إقتصادياً عن تمويل معاركه مع العثمانيين ، وعجزه عن إستمالة القادة والقبائل في مصر .

ثالثاً : سوء إدارة سلاطين المماليك - في الفترة الأخيرة - للمجتمعات التي يحكمونها في مصر والشام ... وذلك بعدم الإهتمام بصالح الناس ، وفرض الضرائب الفادحة عليهم مما جعل القبائل تنفضه عنهم وتنضم إلى صفوف العثمانيين علماً بحجم تخفيف مما حل بهم من ضنك المعيشة . وقد عرضت نماذج من ذلك خلال صفحات البحث .

رابعاً : تفكك الجيش المملوكي في أواخر أيامه ، وإشغاله بالنازعات الداخلية وقيامه على نظام الجللبان والقرانص الذي أدى إلى تفكك صفوف المماليك وضعفها . وقد عرضت نماذج من ذلك إبتداءً بمعركة الريدانية .

خامساً : تقدم المدافع العثمانية وتطورها أمام أسلحة الماليك . مما أدى إلى هزيمتهم في معظم المعارك التي التقوا فيها بالجيش العثماني .

سادساً : حسن الإدارة والتخطيط والقيادة في الجيش العثماني ، والذي كانت تفتقره القيادة المملوكية . ومن ثم أنعدم الولاء والتضحية بين الجيش وقادته في صفوف الماليك .

سابعاً : سعة الجيش العثماني وكفاءته في ميدان القتال في معاركه مع النصاري في شرق أوروبا . ومع الشيعة في فارس . وقد وصلت أنباء تلك الانتصارات والبطولات إلى أسماع الجيش المملوكي . وإلى عامة الناس في الشام ومصر ... مما أرغى عزائمهم . وأضعف قدراتهم ومعنوياتهم لتصورهم أنهم أمام جيش لا يقهر .

نتائج دخول الأتطار العربية

في حوزة العثمانيين

أولاً : إبعاد الخطر البرتغالي الذي كان يهدد البلاد العربية ، والأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف . وتدعم الطابع العثماني الإسلامي في البحر الأحمر حينما ضم السلطان سليمان القانوني كلاً من مصر وسواكن إلى الدولة العثمانية سنة ٩٦٥ هـ / ١٥٥٧ م متنهزاً إندلاع حرب أهلية في الحبشة . ولجحت الدولة العثمانية في تخفيف الضغط البرتغالي علي التجار العرب والإمارات العربية الساحلية ، وعجز البرتغاليون في مد نفوذهم إلى البحر الأحمر وإلى الولايات العربية الداخلية . كما استطاعت الدولة العثمانية تهطيم المحاولات التي بذلها البرتغاليون لتكوين جبهة نصرانية منهم ومن الأقباش ضد القسري العربية والإسلامية في البحر الأحمر وشرقي إفريقيا .

ثانياً : أضفت الدولة العثمانية علي البلاد العربية الوحدة الكاملة والإستقرار والأمن . وريطت بين أجزائها المتناثرة وخاصة بعد أن ضمت الجزائر سنة ٩٢٦ هـ / ١٥١٩ م بناءً علي رغبة أهلها . وطرابلس سنة ٩٥٩ هـ / ١٥٥١ م ، وتونس سنة ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م . فأصبحت البلاد العربية من الجزائر غرباً إلى العراق شرقاً ومن اليمن جنوباً إلى بلاد الشام شمالاً وحدة واحدة مترابطة تحت ظل الدولة العثمانية المسلحة التي أرسلت الفتوحات الإسلامية إلى أواسط أوروبا تقريباً . وأصبحت رابطة العقيدة من أقوى الروابط التي تربط العربي بأخيه التركي لا فضل لعربي علي أعجمي ولا لأبيض علي أسود إلا بالتقوى .

ثالثاً : إبعاد خطر زحف المذهب الشيعي علي البلاد العربية . وكان الشاه إسماعيل الصفوي الشيعي ينوي نشر هذا المذهب في كافة أرجاء المشرق العربي والقضاء علي المذهب السني ، لا سيما وأنه قد نشر هذا المذهب في أواسط الأناضول قلب الدولة العثمانية . وكان ينوي التفرغ للبلاد العربية منتهزاً ضعف الدولة المملوكية وبدأ باحتلال العراق سنة ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م . ولكن السلطان سليم استطاع في حربه مع الدولة الصفوية في فارس أن يحصر المذهب الشيعي في فارس وأن يقتل من أخطاره . وضم شمال العراق إلي الدولة العثمانية ثم أكمل ابنه سليمان ضم بقية أجزاء العراق إلي الدولة العثمانية سنة ٩٤١ هـ / ١٥٢٤ م . وقد حرصت الدولة العثمانية علي إيجاد نوع من التوازن بين المذهب السني والشيعي في العراق . كما حافظت علي البلاد العربية بعد إسقاط الدولة المملوكية من خطر زحف ذلك المذهب .

رابعاً : أضفت الدولة العثمانية الأمن علي البحر الأحمر وجعلته بحراً إسلامياً مغلقاً في وجه السفن البرتغالية . ثم عسيت هذا المبدأ علي جميع السفن النصرانية فحرمت عليها الإبحار في مياه البحر الأحمر فيما وراء ثغر "المغا" جنوبي ثغر الحديدة في اليمن . إذ كان علي السفن أن تفرغ حمولتها في هذا الميناء . ثم يعاد شحنها علي سفن إسلامية يعمل عليها بحارة مسلمون محبوب أنحاء البحر الأحمر حتي السويس شمالاً . وكان هذا من شدة حفاظ الدولة العثمانية علي أمن وسلامة الأماكن المقدسة في الحجاز ، وقد ظلت الدولة حريصة علي تطبيق هذا المبدأ حتي القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي .

خامساً : يتصف الحكم العثماني للبلاد العربية بأنه حكم غير مباشر . فلم تضيق السلطات العثمانية الخناق علي المجتمعات العربية ، ولم تتدخل إلا في

نطاق ضيق ومحدود لم يتجاوز مجالات معينة هي . توفير الأمن وجمع الضرائب ، والإشراف علي المحاكم الشرعية ، وبناء المساجد والمدارس وتركت للمجتمعات العربية حق إدارة هذه المرافق تحت إشراف الدولة وتوجيهاتها . وتركت معاهد التعليم ومراكز الثقافة العليا ، الدينية والعربية سواء كان ذلك في العراق أو الحجاز أو اليمن أو الشام أو مصر أو شمال إفريقيا تمارس نشاطها علي النحو الذي كان سائداً قبل دخول الولايات العربية تحت السيادة العثمانية ، وكان كبار العلماء إلي جانب نشاطهم العلمي المتعدد الجوانب ، يمارسون زعامة شعبية علي المجتمعات. لم تحاول السلطات العثمانية أن تتال منها ، بل كانت توقرها ، بل وتخشاها وتعمل علي الإفادة منها عند وقوع أي مشكلة إجتماعية طارئة . ومجمل القول أن السلطات العثمانية تركت المجتمعات العربية لحما علي النحو الذي ألفته من قبل دون تغيير جوهري يس حياتهم . فمثلاً لمجد الحكم العثماني في العراق يتم بالهدوء والإستقرار ، وهدوء الصراع المذهبي بين الشيعة والسنيين فيما عدا الحروب التي كانت تنشب بين الدولة العثمانية وفارس . ولكن لم تتعرض المجتمعات العراقية لمذابح أو عمليات تخريبية . أما في الحجاز فقد أبقى العثمانيون علي حكم الأشراف ، وأبقوا علي الإمتيازات الخاصة بأهل الحجاز مثل الإعفاء من التجنيد والضرائب . وكانت الدولة تحرص حرصاً شديداً علي إرسال حصيلة الأوقاف والإعتمادات المالية المرصودة علي الأشراف وفقراء الأماكن المقدسة ، وإصلاح الحرمين الشريفين ، كما كانت تتدخل لإصلاح ذات البين بين الأشراف . أما في اليمن فلم يكن الحكم العثماني مستقراً لفترات طويلة بسبب إختلاف المذهب الديني. فقد كان أهل اليمن شديدي التمسك بأن يكون حكامهم من أتباع مذهب الإمامية الزيدية . وانتهى الأمر بالإتفاق علي تعيين حاكم منهم يعترف

بالسيادة العثمانية على اليمن وما تستتبعه هذه السيادة من التزامات .
أما منطقة الخليج العربي فقد كان الحكم العثماني فيها ضعيفاً حيث
تركزت الدولة سكان المناطق التي امتد إليها الحكم العثماني يزاولون
نشاطهم التقليدي دون تدخل منها . أما في التيايات الثلاث في شمالي
إفريقية فكانت السيادة عليها سيادة إسبانية . وكان الدايات والهايات
والولاة يرسلون مبلغاً سنوياً أحياناً . وأحياناً لا يرسلونه . ولكن كان
الجهاد الإسلامي البحري الذي مارسه سكان شمالي إفريقية مع حكاهم
ضد القوي النصرانية الأوروبية يشدهم شداً إلى الدولة العثمانية بصفتها
أكبر دولة إسلامية وأن سلطانها هو خليفة المسلمين .

سادساً : ومن نتائج دخول الأتطار العربية في حوزة العثمانيين زيادة نشاط الفتح
الإسلامي في بلاد شرق أوروبا في عهد السلطان سليمان القانوني .

فبعد أن أمن العثمانيون البلاد العربية والأماكن المقدسة من أي خطر أجنبي
صليبي . وبعد أن تشرف سلاطين آل عثمان ، بخدمة الحرمين الشريفين . بعد ذلك
تفرغوا للجهاد الإسلامي في بلاد شرق أوروبا حيث وصلت الجيوش العثمانية إلى
أسوار فيينا .

المصادر والمراجع

أولاً : وثائق عثمانية غير منشورة :

من المديرية العامة للآثار محفوظات رئاسة الوزراء . إستانبول

BASBAKANLIK ARSIVI GENEL MUDURLU

وهي مصنفة كما يأتي :

وثائق دفتر المهمة : Mühimme Defterleri

أولاً : دفتر المهمة رقم « ٥ » :

١ - الوثيقة رقم (٢١١٢) وتاريخ ١٠ ذو القعدة سنة ٩٢٢ هـ

من السلطان سليم إلى ابنه وولي عهد سليمان (إستانبول) .

٢ - الوثيقة رقم (٢١١٤) وتاريخ ١٠ ذو القعدة سنة ٩٢٢ هـ

من السلطان سليم إلى ابنه وولي عهد سليمان (إستانبول) .

٣ - الوثيقة رقم (٢١٠٠) وتاريخ ٢٧ رمضان سنة ٩٢٢ هـ

من القاهرة (لم يذكر اسم المرسل) إلى السلطان سليم في بلاد الشام .

٤ - الوثيقة رقم (٢١٠٥) وتاريخ ١٢ شوال سنة ٩٢٢ هـ

من القاهرة (لم يذكر اسم المرسل) إلى السلطان سليم في دمشق .

- ٥ - الوثيقة رقم (٢١.٧) وتاريخ ١٢ شوال سنة ٩٢٢ هـ
من القاهرة (لم يذكر اسم المرسل) إلى السلطان سليم في دمشق .
- ٦ - الوثيقة رقم (٢١٢٧) وتاريخ ٢٨ ذو القعدة سنة ٩٢٢ هـ
(لم يذكر اسم المرسل والمرسل إليه) .
- ٧ - الوثيقة رقم (٢١٣٠) وتاريخ ٢٨ ذو القعدة سنة ٩٢٢ هـ
(لم يذكر اسم المرسل والمرسل إليه) .
- ٨ - الوثيقة رقم (٢١٣٩) وتاريخ ٧ ذو القعدة سنة ٩٢٢ هـ
من السلطان سليم إلى جان بردي .
- ٩ - الوثيقة رقم (٢١٤٧) وتاريخ ٧ ذو القعدة سنة ٩٢٢ هـ
(لم يذكر اسم المرسل والمرسل إليه) .
- ١٠ - الوثيقة رقم (٢١٥٠) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من السلطان سليم إلى ابنه سليمان في (إستانبول) .

ثانياً : دفتر المهمة رقم (٦) :

- ١١ - الوثيقة رقم (٢٢٢١) وتاريخ ١٢ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من الصدر الأعظم ستان باشا إلى مقام الصلابة العظمى في إستانبول .
- ١٢ - الوثيقة رقم (٢٢٢٧) وتاريخ ١٢ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
(لم يذكر اسم المرسل) إلى الصدر الأعظم ستان باشا . غزة .

- ١٣ - الوثيقة رقم (٢٢٣٠) وتاريخ ٢٧ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ١٤ - الوثيقة رقم (٢٢٣٥) وتاريخ ٢٨ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ١٥ - الوثيقة رقم (٢٢٣٨) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ١٦ - الوثيقة رقم (٢٢٤٩) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ١٧ - الوثيقة رقم (٢٢٥٠) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ١٨ - الوثيقة رقم (٢٢٦١) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ١٩ - الوثيقة رقم (٢٢٦٣) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ٢٠ - الوثيقة رقم (٢٢٦٥) وتاريخ ٢٩ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من الصدر الأعظم سنان باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .

ثالثاً : دفتر المهمة رقم (٧) :

- ٢١ - الوثيقة رقم (٣٣١٠) وتاريخ ٣ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من السلطان سليم إلي ابنه سليمان في إستانبول .
- ٢٢ - الوثيقة رقم (٣٣١٢) وتاريخ ٣ ذو الحجة سنة ٩٢٢ هـ
من السلطان سليم إلي ابنه سليمان في إستانبول .
- ٢٣ - الوثيقة رقم (٣٣١٥) وتاريخ ١ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلي ابنه سليمان في إستانبول .
- ٢٤ - الوثيقة رقم (٣٣١٧) وتاريخ ١ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من أمير الأناضول مصطفى باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ٢٥ - الوثيقة رقم (٣٣٢٨) وتاريخ ١ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من أمير الأناضول مصطفى باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ٢٦ - الوثيقة رقم (٣٣٣٠) وتاريخ ٢ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من أمير الأناضول مصطفى باشا (لم يذكر إسم المرسل إليه) .
- ٢٧ - الوثيقة رقم (٣٣٣٧) وتاريخ ٢ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من الوزير الثاني يونس باشا (لم يذكر إسم المرسل إليه) .
- ٢٨ - الوثيقة رقم (٣٣٤٠) وتاريخ ٥ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من الوزير الأعظم يونس باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ٢٩ - الوثيقة رقم (٣٣٤٥) وتاريخ ٥ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من الوزير الأعظم يونس باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .

- ٣ - الوثيقة رقم (٣٤٥٠) وتاريخ ٦ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم (القاهرة) إلى ابنه سليمان (إستانبول) .

رابعاً : دفتر المهمة رقم (٨) :

- ٣١ - الوثيقة رقم (٥٤٢٠) وتاريخ ٦ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى ابنه سليمان .
- ٣٢ - الوثيقة رقم (٥٤٢٢) وتاريخ ٩ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى ابنه سليمان .
- ٣٣ - الوثيقة رقم (٥٤٣٧) وتاريخ ١٠ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى ابنه سليمان .
- ٣٤ - الوثيقة رقم (٥٤٤٠) وتاريخ ١٠ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى أمير دمشق وقاضي القضاة .
- ٣٥ - الوثيقة رقم (٥٤٤١) وتاريخ ١١ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى ابنه سليمان .
- ٣٦ - الوثيقة رقم (٥٤٤٣) وتاريخ ١١ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم (لم يذكر اسم المرسل إليه) .
- ٣٧ - الوثيقة رقم (٥٤٤٨) وتاريخ ١٢ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى أمير دمشق وقاضي القضاة .

- ٣٨ - الوثيقة رقم (٥٤٥٠) وتاريخ ١٢ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلي قاضي قضاة دمشق .
- ٣٩ - الوثيقة رقم (٦٥٥٣) وتاريخ ١٥ محرم سنة ٩٢٣ هـ
موقعة من أحد الكتاب (لم يذكر اسمه) إلي السلطان سليم .
- ٤٠ - الوثيقة رقم (٦٥٥٧) وتاريخ ١٦ محرم سنة ٩٢٣ هـ
موقعة من أحد المحققين (لم يذكر اسمه) إلي السلطان سليم .

خامساً : دفتر المهمة رقم (٩) :

- ٤١ - الوثيقة رقم (٦٥٦٠) وتاريخ ١٥ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم (القاهرة) إلي ابنه سليمان (إستانبول) .
- ٤٢ - الوثيقة رقم (٦٥٦٣) وتاريخ ١٦ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلي أمير دمشق وقاضي القضاة .
- ٤٣ - الوثيقة رقم (٦٥٦٧) وتاريخ ١٧ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من الصدر الأعظم يونس باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ٤٤ - الوثيقة رقم (٦٥٧٠) وتاريخ ٢٢ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من الصدر الأعظم يونس باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ٤٥ - الوثيقة رقم (٦٥٧٣) وتاريخ ٢٣ محرم سنة ٩٢٣ هـ
من الصدر الأعظم يونس باشا إلي إستانبول (لم يذكر اسم المرسل إليه).

- ٤٦ - الوثيقة رقم (٦٥٨٠) وتاريخ ٩ صفر سنة ٩٢٣ هـ
من غانم السيفي إلي السلطان سليم .
- ٤٧ - الوثيقة رقم (٦٥٨٢) وتاريخ ٢١ صفر سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم (القاهرة) إلي ابنه سليمان (إستانبول) .
- ٤٨ - الوثيقة رقم (٦٥٨٤) وتاريخ ٢٣ صفر سنة ٩٢٣ هـ
من الصدر الأعظم يونس باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ٤٩ - الوثيقة رقم (٦٥٨٨) وتاريخ ٢٣ صفر سنة ٩٢٣ هـ
من عاطف باشا إلي السلطان سليم (القاهرة) .
- ٥٠ - الوثيقة رقم (٦٥٩١) وتاريخ ٢٣ صفر سنة ٩٢٣ هـ
(لم يذكر اسم المرسل) إلي السلطان سليم (القاهرة) .
- ٥١ - الوثيقة رقم (٦٦٢٠) وتاريخ ٢٥ صفر سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم (القاهرة) إلي ابنه سليمان (إستانبول) .
- ٥٢ - الوثيقة رقم (٦٦٣١) وتاريخ ٢٧ صفر سنة ٩٢٣ هـ
من الصدر الأعظم يونس باشا إلي مقام الصدارة في إستانبول .
- ٥٣ - الوثيقة رقم (٦٦٣٩) وتاريخ ٢٧ صفر سنة ٩٢٣ هـ
(لم يذكر اسم المرسل) إلي ولي العهد سليمان (إستانبول) .
- ٥٤ - الوثيقة رقم (٦٦٤٧) وتاريخ ٢٩ صفر سنة ٩٢٣ هـ
من الصدر الأعظم يونس باشا إلي أمير دمشق وقاضي القضاة .

سادساً : دفتر المهمة رقم (١٠) :

- ٥٥ - الوثيقة رقم (٦٧٢٠) وتاريخ ٢٥ صفر سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى ابنه سليمان .
- ٥٦ - الوثيقة رقم (٦٧٣٧) وتاريخ ٢٧ صفر سنة ٩٢٣ هـ
تقرير من الصدر الأعظم يونس باشا إلى السلطان سليم .
- ٥٧ - الوثيقة رقم (٦٧٤٣) وتاريخ ٢٧ صفر سنة ٩٢٣ هـ
إلى السلطان سليم (لم يذكر إسم المرسل) .
- ٥٨ - الوثيقة رقم (٦٧٥٦) وتاريخ ٢٨ صفر سنة ٩٢٣ هـ
صور من هذه الرسائل مرفوعة إلى أمير دمشق .
- ٥٩ - الوثيقة رقم (٦٧٦٩) وتاريخ ٢٨ صفر سنة ٩٢٣ هـ
تقرير مرفوع إلى السلطان سليم (لم يذكر إسم المرسل) .
- ٦٠ - الوثيقة رقم (٦٧٧٧) وتاريخ ٢٩ صفر سنة ٩٢٣ هـ
تقرير مرفوع إلى الصدر الأعظم يونس باشا (لم يذكر إسم المرسل) .

سابعاً : دفتر المهمة رقم (١٣) :

- ٦١ - الوثيقة رقم (٧٣٢٠) وتاريخ ٤ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
من جان بردي الغزالي إلى السلطان سليم .

- ٦٢ - الوثيقة رقم (٧٣٣٨) وتاريخ ٥ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
من الصدر الأعظم يونس باشا إلى جان بردي الغزالي .
- ٦٣ - الوثيقة رقم (٧٣٥١) وتاريخ ١٨ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
صورة رسالة من خاير بك إلى السلطان سليم .
- ٦٤ - الوثيقة رقم (٧٣٥٨) وتاريخ ١٨ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
صورة رسالة من جان بردي الغزالي إلى السلطان سليم .
- ٦٥ - الوثيقة رقم (٧٣٧١) وتاريخ ١٩ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
من الصدر الأعظم يونس باشا إلى مقام الصدارة في إستانبول .

ثامناً : دفتر المهمة رقم (١٥) :

- ٦٦ - الوثيقة رقم (٧٥٤١) وتاريخ ١٩ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى ابنه وولي عهده سليمان .
- ٦٧ - الوثيقة رقم (٧٥٤٣) وتاريخ ١٩ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى أمير دمشق وقاضي القضاة .
- ٦٨ - الوثيقة رقم (٧٥٥٢) وتاريخ ٢٠ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
من الصدر الأعظم يونس باشا إلى مقام الصدارة في إستانبول .
- ٦٩ - الوثيقة رقم (٧٥٦٣) وتاريخ ٢١ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم (القاهرة) إلى ابنه وولي عهده سليمان .

- ٧ - الوثيقة رقم (٧٥٧١) وتاريخ ٢٥ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
من الصدر الأعظم يونس باشا إلى أحمد باشا (إستانبول) .
- ٧١ - الوثيقة رقم (٧٥٨٩) وتاريخ ٢٦ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى الوزير محمد باشا .

تاسعاً : دفتر المهمة رقم (١٦) :

- ٧٢ - الوثيقة رقم (٨١٠٠) وتاريخ ٢٥ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى ابنه وولي عهده سليمان .
- ٧٣ - الوثيقة رقم (٨١٢٢) وتاريخ ٢٧ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى ابنه وولي عهده سليمان .
- ٧٤ - الوثيقة رقم (٨١٢٧) وتاريخ ١٠ شوال سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم (دمشق) إلى ابنه وولي عهده سليمان (إستانبول) .
- ٧٥ - الوثيقة رقم (٨١٤١) وتاريخ ١٢ شوال سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم (دمشق) إلى ابنه وولي عهده سليمان (إستانبول) .
- ٧٦ - الوثيقة رقم (٨١٤٧) وتاريخ ١٥ شعبان سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم (دمشق) إلى ابنه وولي عهده سليمان (إستانبول) .
- ٧٧ - الوثيقة رقم (٨١٥٣) وتاريخ ١٧ شعبان سنة ٩٢٣ هـ
إلى مقام الصدارة العظمى في استانبول (لم يذكر اسم المرسل)

- ٧٨ - الوثيقة رقم (٨١٦١) وتاريخ ٢ شعبان سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم (القاهرة) إلى أمير دمشق وقاضي القضاة .
- ٧٩ - الوثيقة رقم (٨٢١٠) وتاريخ ٢ شعبان سنة ٩٢٣ هـ
من الصدر الأعظم محمد باشا (القاهرة) إلى إستانبول .
- ٨٠ - الوثيقة رقم (٨٢٢٣) وتاريخ ٢٢ شعبان سنة ٩٢٣ هـ
من السلطان سليم إلى والي مصر الجديد خاير بك .
- ٨١ - الوثيقة رقم (٨٢٣٧) وتاريخ ١٥ شوال سنة ٩٢٣ هـ
من الشاه إسماعيل الصفوي إلى السلطان سليم .

ثانياً : المصادر والمراجع

- ٨٢ - أحمد حسين ، موسوعة تاريخ مصر الجزء الثالث ، دار الشعب .
- ٨٣ - أحمد فؤاد متولي (دكتور) ، الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له . دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٦ م .
- ٨٤ - أحمد شلبي (دكتور) ، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، الجزء الخامس ، النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة ١٩٧٩ م .
- ٨٥ - إبراهيم العبيدي ، قلائد العقيان في مفاخر دولة آل عثمان طبع في مصر سنة ١٣١٧ هـ .
- ٨٦ - إبراهيم طرخان (دكتور) ، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، الخرطوم ١٩٥٩ م .
- ٨٧ - ابن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور . طبع المطبعة الكبرى الأميرية بمصر ، الجزء الثالث ، الطبعة الأولى ١٣١١ هـ .
- ٨٨ - ابن زنبيل ، آخر المماليك " واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني " تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦٢ م .
- ٨٩ - ابن طولون ، مفاكهة الخللان في حوادث الزمان ، القسم الثاني ، تحقيق : محمد مصطفى طباعة السدار المصرية ، ١٩٦٤ م .

- ٩٠ - ابن طولون ، أعلام السوري . لتحقيق عبد العظيم خطاب . القاهرة .
١٩٧٣ م .
- ٩١ - ابن الخطيب ، در الحبيب في تاريخ أعيان حلب ، ج ١ ، ٢ من القسم الأول
لتحقيق محمود الفاخوري . دمشق ١٩٧٢ -
١٩٧٣ م .
- ٩٢ - ابن الغزي ، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، الجزء الأول ، بيروت ،
١٩٤٥ م .
- ٩٣ - جلال يحيى (دكتور) ، العالم الإسلامي الحديث والمعاصر طبع المكتب
الجامعي الحديث بالأسكندرية ، ١٩٨٢ م .
- ٩٤ - حسن عثمان (دكتور) ، تاريخ مصر في العهد العثماني (١٥١٧ -
١٧٩٨) في كتاب المجلد في التاريخ المصري ،
نشر د . حسن إبراهيم حسن ، القاهرة ،
١٩٤٢ م .
- ٩٥ - السيد وجب حراز (دكتور) ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب (١٨٤٠ -
١٩٠٩) القاهرة ، معهد البحوث والدراسات
العربية سنة ١٩٧٠ م .
- ٩٦ - سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) ، العصر المملوكي في مصر والشام ،
دار النهضة العربية ، مصر ، الطبعة الثانية ،
١٩٧٦ م .
- ٩٧ - عبد الرحمن الجبرتي ، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، دار
الجيل ، بيروت .

- ٩٨ - عبد العزيز محمد الشناوي (دكتور) ، الدولة العثمانية دولة إسلامية
مفتري عليها ، ج ١ ، مكتبة الأجلو المصرية ،
القاهرة ، ١٩٨٠ م .
- ٩٩ - عبد الرحمن زكي ، القاهرة وتاريخها وآثارها ، مطبعة الدار المصرية ،
١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .
- ١٠٠ - عبد المتعم ماجد ، طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر ، مطبعة
الأجلو المصرية ، ١٩٧٨ م .
- ١٠١ - عمر عبد العزيز عمر (دكتور) ، دراسات في تاريخ العرب الحديث (١)
الشرق العربي من الفتح العثماني حتى نهاية
القرن الثاني عشر ، دار النهضة العربية للطبعة
والنشر ، بيروت .
- ١٠٢ - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) ، تاريخ العرب الحديث
والمعاصر ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٢ هـ /
١٩٨٢ م .
- ١٠٣ - عبد الكريم رافق (دكتور) ، العرب والعثمانيون ، ١٥١٦ - ١٩١٦ ،
الطبعة الأولى ، دمشق ، ١٩٧٤ م .
- ١٠٤ - فائق بكر الصواف (دكتور) ، العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم
الحجاز في الفترة ما بين ١٢٩٣ - ١٣٣٤ هـ /
١٨٧٦ - ١٩١٦ م ، القاهرة ، مطبعة سجل
العرب ، ١٩٧٨ م .
- ١٠٥ - كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية نبيه أمين
فارس وصنير البعلبكي ، دار العلم للملايين ،
بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٤٨ م .

١.٦ - محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، دار الجبل ، بيروت ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

١.٧ - محمد عبد المنعم السيد الرائد ، الفزد العثماني لمصر ونتائجه علي الوطن العربي ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر ، ١٩٧٢م .

١.٨ - منسي ، محمود صالح (دكتور) ، حركة البقظة العربية في الشرق الأميوي ، دار الإتحاد العربي للطباعة ، الناشر : دار الفكر العربي ، ١٩٧٨م ، الطبعة الثانية . دراسات في تاريخ الشرق العربي (١) .

١.٩ - المير وليام موير ، تاريخ دولة الماليك في مصر . ١٢٦ - ١٥١٧ م ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ، مطبعة المعارف المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٢٤م .

١١ - هند اسكندر ، تاريخ مصر ، دار المعارف بمصر .

١١١ - محمد بن أبي السرد البكري الصديق ، الكواكب السائرة في أختار مصر والقاهرة ، (مخطوط بالمتحف البريطاني بلندن تحت رقم Additional MS 9973 ويقع في ١٣٢ ورقة) .

آثار محمد علي بدر البهارات المصري

للدكتور جمال محمود مرسى

مدرس الآثار الإسلامية

بكلية آداب قنا - جامعة أسيوط

آثار محمد علي بدرب البهارات المصري

للدكتور جمال محمود مرسي

مدرس الآثار الإسلامية

بكلية آداب قنا - جامعة أسيوط

إن التعرف علي المسالك والدروب التي قطعها ملايين التجار ، ليصلوا
بعضائهم إلي شتي المدن والمواني ، في مشارق الأرض ومغاربها ، يؤدي
إلي إكتشاف آفاق جديدة ومناطق أثرية ، لا تزال مجهولة ، فضلاً عن
أهميتها الحضارية ، في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، إذ
ساعدت هذه الدروب ، وتلك المسالك ، علي إزدياد حركة التجارة والهجرة ،
وتعميق ثقافات الرحالة والمؤرخين .

ولقد تيسر لي التعرف علي أحد هذه الشرايين التجارية التي عرقها
العالم ، وظلت تنبض بالحياة ، طوال فترات التاريخ المتعاقبة ، وكانت تربط
بين الهند وأوروبا ، عبر منافذ مصر البحرية والبرية (١) .

(١) كانت معظم تجارة بلاد الشرق ، في العصور الوسطى ، تسلك طريقين ، لتصل إلي مواني
أوروبا ، أولهما عبر مصر ، وهو طريق البحر الأحمر (بحر القلزم أو بحر التجار) إلي
السويس ، ثم بالقوافل إلي القاهرة ، عاصمة العالم التجارية في العصر المملوكي ، ومنها
علي ظهر السفن في فرع رشيد ، إلي قرب مدينة الرحمانية ، ثم إلي الإسكندرية ، عبر
ترعة ، كانت تصل بين النيل والإسكندرية ، أو علي ظهر الإبل والدواب .
أما الطريق الثانية ، فكانت تمر ببلاد الشام ، وتبدأ من الخليج العربي ونهر الفرات ، ثم إلي
حلب ، ومنها إلي المواني الواقعة شرقي البحر المتوسط ، وإلي مواني مصر والشام ،
وكانت سفن البنادقة والجنسين وغيرهم ، تصل إلي السواحل الشرقية للبحر المتوسط ،

وتكثرت من مسحة ميدانياً ، وتسجيل معاملة وأثاره الباقية التي ترجع إلى عصر محمد علي (ربيع الأول ١٢٢٠ - رمضان ١٢٦٥ هـ / يوليو ١٨٠٥ - أغسطس ١٨٤٨ م) ، علي نحر عملي ، معتمداً علي الشهادة

== فنقل السلع التجارية إلى أوروبا . وظلت الطرق التجارية الموصلة بين الهند وأوروبا ، تسلك طريق مصر ، حتي تكن البرتغاليون من تحويل التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، عقب وصولهم إلى الهند في عام (٩٠٤ هـ / ١٤٩٨م) . لما كان له أثره الاقتصادي والسياسي والاستراتيجي ، علي مصر وعالم البحر المتوسط ، في مطلع العصر الحديث ، بالرغم من استمرار البريطانيين والفرنسيين والهولنديين ، في استخدام برزخ السويس ، وخاصة عندما استولي الأسبان علي البرتغال في عام (٩٨٨ هـ / ١٥٨٠م) . وانتصر الأسطول البريطاني علي الأسطول الأسباني (الأرمادا) في عام (٩٩٧ هـ / ١٥٨٨م) . وتحول مركز النقل البحري والتجاري إلى هولندا وفرنسا وإنجلترا التي نجحت في إحياء طريق مصر للتجارة العالمية ، لاتساع نفوذها في الهند ، فضلاً عن استخدام البخار في تسير السفن في مطلع القرن الثالث عشر الهجري (١٩م) . (انظر : بالقوت الحمري : معجم البلدان - ج ٢ ، ص ٩٢ - ٩٤ ، سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : العصر الماليكي في مصر والشام - ص ٢٨٤ ، عصر في عصر دولة سلاطين المماليك البحرية - ص ٢٠٨ ، نعيم زكي فهمي (دكتور) : طرق التجارة النوبية - ص ١٢٤ ، السيد رجب مراز (دكتور) : الدخول إلى تاريخ مصر الحديث - ص ٥٣ - ٥٤ ، ص ٧٧ حاشية (١) - ٧٩ ، فاروق عثمان أبهاطة (دكتور) : أثر تحول التجارة العالمية - ص ٢ ، ٧ ، ١١ ، ٤٦ - ٤٧ ، ١٣١ - ١٣٣ - ١٣٤ . عبد العزيز محمد الشاوي (دكتور) : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفتري عليها - ص ١٠ - ٢١ .

- Heyd, W. : Histoire du commerce de levant au Moyen Age, T. II., PP. 434 - 435 . , Hoskins, H. L. : The Growth of British Interest in the Route to India, Journal of Indian History, II, P. 167. , Rabbath, E. : Mer Rouge et Golfe d'Aqaba dans L'evolution du Droit International, Societe Egyptienne de Droit International, Janvier, 1962., PP. 20 - 21., Wilson, A. T. : The Persian Gulf, PP. 10 , 13.)

والرؤية الذاتية ، فضلاً عن مصادره ومراجعته المتخصصة ، وأعني ذلك الدرب المستد ما بين السويس والقاهرة ، المعروف باسم (درب البهارات)^(١) ، وهو نفس الدرب الذي أعادت شركة الهند الشرقية الإنجليزية ، نشاطه وإحياء حركته ، للتجارة العالمية بين بلاد الشرق وأوروبا ، عبر مصر في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري (١٩ م)^(٢) ، وذلك لأمنه وقصر مسافته ، وسهولة المرور منه^(٣) . ولقد أدرك محمد علي أهمية هذا

(١) نسبة إلى (جرك البهار) الذي كان يقع على الطريق بين السويس والقاهرة ، وإلى قاضي بندر السويس الذي كان يعرف أيضاً باسم (قاضي المينا) أو (قاضي البهار) لاختصاصاته الجمركية (أنظر : عبد العزيز محمد الشناوي (دكتور) : المرجع السابق - ج ١ - ص ١٧١ ، ليلى عبد اللطيف أحمد (دكتورة) : الإدارة في مصر في العصر العثماني - ص ٩٧ - حاشية (١) ، خريطة درب البهارات المصري - ملحق (١) .

(٢) كان محمد علي من المعضدين لشروع (توماس واجهون) أحد كبار رجال الأسطول الإنجليزي ، الموظفين بالشركة الهندية الشرقية الإنجليزية ، والذي قدم في عام (١٧٢٩ هـ / ١٨٢٣ م) اقتراحاً إلى شركته ، لإعادة وإحياء طريق مصر للتجارة العالمية بين بلاد الشرق وأوروبا (أنظر : محمد فؤاد شكري (دكتور) وآخران : بناء دولة مصر محمد علي - ص ٦٩ ، ٢٢٢) ، وقد أعترف بعض رجال المجلترة بفضل محمد علي ، وإحياء طريق مصر للتجارة العالمية ، وأهداء وساماً في عام (١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م) ، زين أحد وجوهه رسم محمد علي ، ونقشت على الثاني عبارة نصها : « إلى مشجع العلم والتجارة والنظام ، والخاصي لرعايا وأموال الممالك المتضادة والفاتح للطريق البرية إلى الهند » .

(٣) إذ أسست شركة ، كانت تجري سفنها التجارية في النيل وترعة المحمودية ، بين القاهرة والإسكندرية ، بعد أن كانت تتوقف تجارة مصر في ذلك الوقت ، على نهر النيل وقروعه المنتشرة في طول البلاد وعرضها ، وكان أهم السفن التجارية حينئذ دمياط ورشيد ، غير أنهما ، لوقوعهما عند مصبي النيل ، تسد فرضهما ، ومال البحر وغرين النهر ، مما يجعلهما غير صالحين للسفن الكبيرة التي تنقل التجارة الخارجية ، فعزم محمد علي ، على تحويل مجرى التجارة إلى الإسكندرية ، رغم تعرضها للرياح الشمالية الغربية . =

الدرب ، فاختره بتدبيراته الرائعة ، ومنشأته المدنية والدفاعية ، بحكم إحتكاره لتجارة مصر الخارجية ، رغبة في توفير وسائل الراحة لقوافله ، وتأمين سلامته ، وربطه بشبكة المواصلات البحرية ، بين مصر والبلدان الأخرى^(١).

وكانت هذه التجارة العالمية بين بلاد الشرق وأوربا ، تعتمد أساساً علي الكارم^(٢) ، والبخور والعطور التي كانت نساء أوربا تنهافت علي إقتناء

« وأن ماء البحر عندها ضحاح ، ورأي أن من أعظم المشروعات المفيدة لذلك ، حفر ترعة تربط الإسكندرية بالنيل ، لحفرها وسماها (المعمودية) نسبة إلي السلطان محمود خان الثاني (١٢٢٢ - ١٢٥٥ هـ / ١٨٠٨ - ١٨٣٩ م) وانتجت في ٨ ربيع آخر ١٢٣٥ هـ / ٢٤ يناير ١٨٢٠ م) وأمادت البلاد والعباد فائدة كبيرة ، وكان قد جمع حوالي (٣١٣.٠٠٠) من العمال لحفرها وتشيد الأبنية اللازمة لها ، وقد بلغت نفقاتها (٣٠٠.٠٠٠ جنيه) وعمرت البلاد التي مرت بها ، بطول (٢٥٢ - ٨ م) ، فضلاً عن إحياء أراضيها التي كان أكثرها غير صالح للزراعة ، وبقيت ترعة المعمودية هذه ، أعظم طريق للتجارة بين مصر والإسكندرية ، حتي أنشئت السكة الحديدية (أنظر : عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي - ص ٤٨٨ - ٤٩١ ، محمد فوزي شكري (دكتور) وآخران : المرجع السابق - ص ٤٢ - ٤٣ ، ٥١٧) .

(١) ذلك لإتشاء الأسطول المصري في البحرين الأحمر والأبيض ، وسط سيادة مصر في البحر الأحمر وتطهيره من القراصنة ، وإصلاح ميناء الإسكندرية ، لجلب التجار الأجانب لها ، وتسهيل بيع حاصلات البلاد ، إذ كلف محمد علي المهندس الفرنسي (موجيل بك) ومظهر باشا وبهجت باشا - المهندس اللذان تخرجا في فرنسا - بإصلاح مرقأ الإسكندرية (أنظر: علي مبارك : الخطط التوفيقية - ج ٧ - ص ٥٢ ، كلوت بك : لوحة عامة إلي مصر - ج ٢ - ص ٣٢٧ ، عبد الرحمن الرافعي : المرجع السابق - ص ٣٩٣ - ٣٦٧ ، ٣٧٩ - ٣٨٠ ، محمد فوزي شكري (دكتور) وآخران : المرجع السابق - ص ٤٧ ، ١١٣) .

(٢) تولى إسكندر (دكتور) : بحوث في التاريخ الاقتصادي (مترجم) - ص ١٤٠ .
نعيم زكي فهمي (دكتور) : المرجع السابق - ص ١٩٢ .

أطيبها من المسك والعنبر وماء الورد ، وكان عليه القوم في الفوب الأوربي ، لا يقبلون علي طعام ، لم يمزج بالقرفة أو الفلفل والبهار وجوزة الطيب وغيرها من النباتات الشرقية ^(١) ، فضلاً عن العقاقير ، كالأفيون والكافور والصمغ وغيرها ، والتي كان الأوروبيون يستخدمونها في منتجاتهم الطبية ، ويسجلون عليها مصدرها الهندي أو العربي الذي امتحضرت منه ، تأكيداً لجودتها ^(٢) ، هذا إلى جانب البن الذي انفردت البن بإنتاجه ، وتنافست عليه شركة الهند الشرقية الإنجليزية ، والتجار الأمريكيون ، وعملت بريطانيا علي كسر إحتكار الأمريكيين له ، في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري (١٩م) ، هذا إلى جانب الأقمشة الحريرية الراقية التي أقبلت عليها النساء والكنايس في أوروبا ، وكذلك الأبسطة والعاج والأحجار الكريمة ، والأخشاب النادرة التي يصنع منها الأثاث الفاخر والتحف الثمينة، المتباينة الأشكال والوظائف ^(٣) .

بينما كانت صادرات مصر في عصر محمد علي ، تتألف في معظم الأحوال ، من القطن والأرز والحبوب والصمغ والأشعة الكتانية ، والصودا والتمر والخضر الجافة والأفيون والحناء .

(١) Howe, Sonia : In Quest of Spices , PP. 13 - 14.

(٢) عبد العزيز محمد الشاوي (دكتور) : أدبها في مطلع العصر الحديث - ص ٢٧٧ .

(٣) فاروق عثمان أباطة (دكتور) : التنافس الدولي في جنوب البحر الأحمر في النصف الأول من القرن التاسع عشر - ج ١ - ص ١٦٠ ، أثر تحول التجارة العالمية - ص ٥ - ٦ .

أما عن واردات مصر ، فكانت الأنسجة القطنية والأجواخ والطرايش والأنسجة الصوفية والأثواب الحريرية والأخشاب والحديد والخردوات والنحاس والسكاكين والورق والعقاقير ، وأصناف العطار ، والفحم ، والقرمز ، والسكر والزجاج والمرابا والزيت والأنبيذ والمشروبات وغير ذلك^(١).

وقد بلغ حجم تجارة مصر الخارجية مع أوروبا وتركيا ، عام (١٢٥٢ هـ / ١٨٣٦م) نحو ٢١٩٦ر٠٠٠ جنيه للصادرات ، ٢٦٧٩ر٠٠٠ جنيه للواردات^(٢) ، بينما كان حجم صادرات الإسكندرية وحدها ، في عام (١٢٣٩ هـ / ١٨٢٣م) - ١٥٨٥٧٦٤ر٠٠٠ جنيه ، و وارداتها ٤٠١٩ر٠٠٠ جنيه ، في حين زادت صادراتها في عام (١٢٥٨ هـ / ١٨٤٢م) إلى ١٨٠٦ر٠٠٠ جنيه ، و وارداتها إلى ٢٤٧٠ر٠٠٠ جنيه^(٣) .

ويتسم درب البهارات المصري ، بمياهه الشحيحة ، وأشجاره القليلة ، وانعدام خطبه ومرعاه ، وتصل مراحلها إلى نحو تسع مراحل^(٤) ، ويضم

(١) عبد الرحمن الرافعي : المرجع السابق - ص ٥١٣ .

(٢) كلوت بك : المرجع السابق - ص ٣١٧ .

(٣) علي مبارك : المصدر السابق - ج ٧ - ص ٥٩ .

(٤) كانت الدروب التي تقطعها القوافل تضبط بالمراحل ، وهي غير متساوية المسافات (يتراوح طول المرحلة الواحدة ما بين ١٦ إلى ١٩ كم) وتقطع القافلة عادة في كل يوم وليلة مرحلتين ، وسرعة القافلة تصل عادة إلى ٤ كم / الساعة ، بينما يقطع الجمل بفرد ٦ كم / الساعة (أنظر : القلقشندي : صبح الأعشى - ج ١٤ - ص ٣٧٦ ، الجزيري : درر الفرائد - ج ٢ - ص ١٣١٨ ، الموسوي المدني : رحلة الشتاء والصيف - ص ٦٧ ، محمد بن عبد السلام : رحلتنا الدرعي - ص ٧٩ ، محمد طاهر الكردي : التاريخ القديم - ج ٢ - ص ٢٤٥ - ٢٤٧ ، نعم شقير : تاريخ سيناء - ص ٢٤٩ ، =

نحو مبعة منازل ، ويبدأ الدرب من السويس ، فيصل إلى عجرود ^(١) التي تقع في شمال غرب السويس ، على مسافة تبعد عنها بنحو عشرين كيلومتراً ، وهي من مآهل الدرب ، وماء بئر حصنها ، رديء وخبيث ، ملح أجاج ، لا يستسيغه الشارب ، لرائحته الكريهة ، ومع ذلك فقد كان هناك ماء حفاتر عذب ، على مقربة من عجرود ، يعرف بأبي حماطه ، وماء آخر طيب ، يقال له المشاش ^(٢) .

ثم يقطع الدرب موضعاً يعرف بالوعر ^(٣) ، ثم يمر بالقرب من مرقح عويبد ^(٤) ، وبالطليحات ^(٥) ، ويواصل مسيرته ، حتي يصل إلى الدار

== محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية - ج ١ - ص ٣١ ، مجلة العرب - ج ٢ - ص ٤ - سنة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م - ص ١٦٨ ، خريطة درب البهارات المصري - ملحق ١ - جدول المسافات والساعات - ملحق ٢ .

(١) عجرود : سمي المكان باسم نازله من الصلحاء ، يدعى العجرودي ، ولا زال إلى اليوم يزار ليه ، والعجرود ، كما هو وارد في القاموس ، الخفيف السريع ، والفظيظ الشديد ، وهذه منطقة ذمار في اليمن ، وتسمى بهذا الاسم ، أحد زعماء الحوارج يدعى عبد الكريم العجرود ، وعرف أصحابه بالعجاردة ، والعنجره ، المرأة السليطة أو الخبيثة أو السيئة الخلق (أنظر : محمد بن عبد السلام : المصدر السابق - ص ٥٥ - ٥٦) .

(٢) الجزيري : المصدر السابق - ص ١١١٧ ، ١٣٠٧ ، ١٣١٩ حاشية (٢) ، ١٣٢١ . محمد بن عبد السلام : المصدر السابق - ص ٥٣ ، ٦٧ . الزباني : الترجمة الكبرى - ص ٢١٩ .

(٣) الوعر : موضع يقع غرب عجرود بنحو (١٨ كم) ، وشرق مرقح عويبد بنحو (١٠ كم) ، وعرف بين العامة باسم المقات ، وهو أحد محاجر مصر (أنظر : الجزيري : المصدر السابق - ج ٢ - ص ١٣١٩) .

(٤) مرقح عويبد : موضع يقع شرق الطليحات بنحو (٢٠ كم) .

(٥) الطليحات : موضع يقع شرقي الدار الحمراء بنحو (١٠ كم) ، وطلع : أيضاً النعمة ، والطلع موضع دون الطائف ليس محرز ، طلع : بالفتح ثم السكون والحاء مهملة ، =

الحمرء (١) . وهي منطقة صحراوية جرداء ، خالية من النبات والأشجار ، باستثناء قليل من الخشائش التي ترعاها الإبل ، وليس لها من مصادر المياه سوى ما يسقط من أمطار (٢) .

ثم يتجه الدرب غرباً ، ماراً بوادي القباب والمنصرف ، ثم بمضيق بين جبلين صغيرين ، يعرف بالبويب ، ويواصل مسيرته عبر الهراوي والقفار ، حتي يصل بعد نحو (١٥ كم) إلي بركة الحاج (٣) ، وهي تجمع بين الماء

هو شجر أم غيلان ، له شوك معرج ، وهو من أعظم العضاة شوكاً وأصله عوداً وأجوده صمغاً ، والطلع لي القرآن الكريم ، المرز ، وهو موضع بين المدينة وندر ، وموضع بين البساتنة ومكة ، وبذلك ذو طلع (أنظر : بالموت الحسبي : المصدر السابق - ج ٤ - ص ٢٣٨) ، وشجر الطلع من أنواع الكلال الذي ترعاه الإبل كثيراً (أنظر : أبو سالم عبد الله العباسي : الرحلة العباسية - ص ٢٢) .

(١) تقع الدار الحمرء شمال الكيلو (٦٢) طريق القاهرة - السويس الصحراوي ، بنحو (٢٠ كم) ، بمنطقة القصر العباسي وملحقاته ، والذي شيده عباس باشا الأول (١٧٩٩ - ١٢٧١ هـ / ١٨٤٩ - ١٨٥٤ م) للترعة والرياضة الخيرية ، وسماها الدار البيضاء أو الدار الخضراء (أنظر : محمد رمزي : المرجع السابق - ج ١ - ص ٥٨ ، رقعت الجوهري : سيناء أرض القمر - ص ٥١) .

(٢) الوثلاثي : رحلته - ص ٣١٧ .

علي مبارك : المصدر السابق - ج ٩ - ص ٢٤ .

عبد الحميد بن علي الحسني : رحلة المثالي الزبدي - ص ٥٢٩ .

(٣) الجوهري : المصدر السابق - ج ٢ - ص ١٢١٨ .

الناقلي : الحقيقة والمجاز - ص ٢٩٧ .

محمد بن عبد السلام : المصدر السابق - ص ٥٢ .

- بركة الحاج : ويقال لها جب عميرة ، نسبة إلي عميرة بن تميم التميمي ، من بني القرناء ، ويقال لها البركة ، بركة الحاج ، بركة الجب ، وبركة الحج ، لتزول الحاجة بها ، وكانت منتزهاً للفرح والأمراء اللاطفين والأهوين والمسالكة (أنظر : المقريزي : الخطوط - ج ٧ - ص ٥٥٠) .

العذب والمخضرة ، ويكثر بها النخيل ، ثم يتجه الدرب ناحية الجنوب الغربي ، فيمر برمال وحصاء ، حتى يصل القاهرة ، بعد نحو ستة عشر كيلومترا^(١).

وقد اهتم محمد علي بإنشاء ديوان خاص لهذا الدرب المصري الهام ، عرف باسم (ديوان المروء) ، كان مقره الأثريكية ، وغدت طرود البريد ، والمسافرون ، وتجارة بلاد الشرق ، طوال عصره ، تنتقل من بمباي إلي السويس ، عبر البحر الأحمر ، ثم إلي القاهرة ، عبر درب البهارات المصري الذي مهدته أقدام الإبل والدواب ، في صحاري السويس والقاهرة ، علي امتداد نحو مائة وأربعين كيلومترا ، خلال خمس وثلاثين ساعة ، وذلك بمعرفة قبائل (طرايين) و (الحويطات) و (عرب الطور) و (العايدي) ، ثم إلي الإسكندرية ، ومنها إلي مرسيليا وانجلترا^(٢).

ص ٢٢٣ ، علي مبارك : المصدر السابق - ج ٩ - ص ١٦ - ١٧ ، محمد رمزي : المرجع السابق - ج ١ - ص ٣١) ، وهي حاليا قرية صغيرة تتبع قسم المطرية ، وتقد من الشمال الشرقي إلي الجنوب الغربي بطول نحو (١٥٠٠م) ويبلغ عرضها نحو (٨٠٠م) ، وتربها من الناحية الغربية ، ترعة التوفيقية المتفرعة من ترعة الإسماعيلية ، ولد امتد عمران مدينة القاهرة بالقرب منها .

(١) الجزيري : المصدر السابق - ج ٢ - ص ١٢٤٨ ، ١٢٥١ ، ١٣٠٩ - ١٣١٠ .

الوردثلاثي : المصدر السابق - ص ٢٨١ ، الزياتي : المصدر السابق - ص ٢١٧ .

محمد بن عبد السلام : المصدر السابق - ص ٥٢ .

(٢) عبد الرحمن الرافعي : المرجع السابق - ص ٥١٢ - ٥١٣ ، تاريخ الحركة القومية - ج ١ - ص ٥٠ .

محمد نؤاد شكوي (دكتور) وآخران : المرجع السابق - ص ٧٠ .

أمين مصطفى (دكتور) : تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث - ص ١٩٣ .

فارق عثمان أباطة (دكتور) : أثر تحول التجارة العالمية - ص ١٩ .

كما شيد محمد علي ، علي جنبايات درب البهارات المصري ، في
مراحله المختلفة عدة استراحات ، وأحد عشر برجاً ، كان أول هذه الأبراج ،
قرب مدينة السويس ، وآخرها أمام سراي الزعفران بالقاهرة ^(١) ، ومن ثم
توطدت دعائم التأمين والحراسة ، وتوفرت سبل الراحة لقوافله ^(٢) .

وتتمثل الآثار الباقية من هذه المنشآت المدنية والدفاعية ، في برجين
فقط للمراقبة والدفاع ^(٣) ، يقع أحدهما ، ما بين البويع والبركة ، عند
الكيلو (١١٩) ، شمال طريق السويس - القاهرة الصحراوي ، بنحو
(٢٠٠م) ، فوق تل رملي ، يبلغ ارتفاعه عن مستوى سطح الوادي بنحو

= ليلي عهد اللطيف أحمد (دكتورة) : دراسات في تاريخ ومنوش مصر والشام إبان العصر
العثماني - ص ١١٩ - ١٢٠ .

انظر جدول الساعات والساعات ، ملحق ٢ .

- بلغ متوسط عدد المسافرين علي طريق مصر ، بين عامي (١٢٥٨ . ١٢٦٥ هـ /
١٨٤٢ - ١٨٤٨م) ٦٥٠٠٠ مسافر ، في العام الواحد .

(١) عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد علي - ص ٥١٢ .

رفعت الجرهري : المرجع السابق - ص ٥٢ .

جورج أرنست : صور من شمالي جزيرة العرب - ص ١٢ .

- عرف الإنسان إنشاء المباني المحصنة والمراكز الدفاعية ، منذ أقدم العصور التاريخية
كما كان بناء الأبراج معروفاً منذ العصور القديمة (أنظر : فريد محمود شافعي (دكتور)
العصارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها - ص ١٥٤ ، حنان الكودي :
التقلاع الأثرية في الأردن - ص ٢) .

(٢) بعد اضطراب الأمن في أرجائه ، وتعرض المتاجر النقلة فيه لنهب عربان الصحراء ، ولهذا
ظل الطريق مقلقاً عدة سنوات (أنظر : محمد نواز شكري (دكتور) وآخرون : المرجع
السابق - ص ٦٥) .

(٣) لم أعثر علي أية آثار لمنشآت مدنية أو دفاعية أخرى أو آثار متبقية ، بدرب البهارات
المصري ، ترجع إلي عصر محمد علي .

(١٥م) - (صورة - ١) - وهو برج مخروطي الشكل ^(١) ، شبه متكامل ، يتكون من ثلاث طوابق ، متساوية الارتفاع ، يبلغ إجمالي ارتفاعها نحو (١٢م) ، إلى جانب جزء من دروة للمراقبة والدفاع ، بارتفاع نحو (٥٠م) ، شيدت جميعها بالأحجار الرملية ، مختلفة الأشكال والأحجام ، يربط بينها ، ملاط شديد الصلابة ، من الرمل والجير وطمي الوادي ، ويضاف إليها أحياناً ، كسر الأحجار الناعم ، وكانت مغطاة من الداخل والخارج ، بطبقة من الملاط ، شديد الصلابة أيضاً ، يتكون من الرمل والجير وطمي الوادي ، ويبلغ سمكه نحو (١سم) ، ولا تزال بقاياها ظاهرة (صورة-٢) ، ويحدها من الخارج ، أوتار خشبية عرضية ، للربط والتقوية (صورة - ٣) ، ومقط الطابق السفلي منها ، مربع من الخارج ، يبلغ طول ضلعه (٨٧م) ، أما أركانه الأربعة العلوية فمسطوقة من الخارج ، ومثمنة من الداخل ، ويتراوح سمك جداره بين (١٦م) ، (٢٦م) .

(١) من الخصائص البارزة في شكل هذه الأبراج ، أنها مخروطية الشكل ، على نسق بعض مآذن أو أبراج الأريطة المغربية ، مثل منذنة رباط سوسه (٢٠٦ هـ - ٢/٨٢٦م) ، وهي تشبه كل الشبه المآذن الفارسية التي ظهرت في بعض المساجد ، خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (٩ - ١٠م) ، وانتشر هذا الطراز من المآذن أو الأبراج ، في العصر المملوكي ، ببلاد اليمن ، ومصر ، ويشمل في مثلثتي جامع الناصر محمد بن قلاوون بقلعة صلاح الدين بالقاهرة ، كما انتشر في الهند وتركستان ، ويشمل في منذنة (قطب منار) بمسجد قوة الإسلام بمدينة دلهي القديمة ، وقد شهدها قطب الدين أيلك وأتمها خليفته (التتمش) من سلاطين الهند في نهاية القرن السابع الهجري (١٣م) - (لمزيد من المعلومات أنظر : السيد عبد العزيز سالم (دكتور) : دراسة عن منذنة جامع قوة الإسلام بدلهي ، بحث ألقى في ندوة العلاقات المصرية الهندية - القاهرة ١٩٩٠م - تحت الطبع ، المآذن المصرية - ص ١٠ - ١١ حاشية (٢) ، ص ٢٩ - ٣١) .

ويقع مدخل البرج في نهاية ضلعه الجنوبي الغربي ، وهو مسطح ومباشر^(١) ،
 ويبلغ ارتفاعه (٢٠ م) ، واتساعه (١٠ م) ، وكان يعلوه عتب خشبي
 (مخطط - ١ ، الصور - ١ - ٢ - ٣) . أما الطابقان الثاني والثالث ،
 فيتخذان من الخارج شكل مشن (صورة - ٢ - ٣) ، ومن الداخل شكل
 أسطواني ، وهما أقل إتساعاً ، وجدرانهما أقل سمكاً من الطابق الأرضي ،
 إذ يصل سمك نهاية جدار الطابق الثالث ، نحو (٥٠ سم) ، وتنتفح في
 الضلع الشرقي بكل منهما ، نافذة مستطيلة الشكل (١٠٠ ر × ٧٠ ر م)
 للمراقبة والإضاءة والتهوية ، تعلوها أعتاب خشبية^(٢) (صورة - ٢) ،

(١) وهو أبسط أشكال المداخل وأقدمها ، ويفتح باب الدخول منها ، على نفس مستوي جدار
 الواجهة ، ولا يفتح في مجرى مرتد أو ياوز ، ولد أضيف إلى مدخل هذا البرج ، في وقت
 لاحق ، مدخل حديث ، للتل اتساعه إلى (٤٥ م) .

(٢) تشبه هذه الأبراج ، من حيث الشكل الخارجي فقط ، المآذن المصرية التي يتعالب فيها الطابق
 المربع فالمشن (صورة - ٢ - ٣ - ٤) ، إذ أن طوابقها السفلى ، مربعة الشكل ، وأركانها
 الأربعة العلوية مشطوفة من الخارج ، فتبدو كمرحلة انتقال بينها وبين ما يعلوها - بينما
 تتخذ هذه الطابق السفلية ، شكلاً مشناً من الداخل - أما الطوابق العلوية ، فتتخذ شكلاً
 مشناً من الخارج وأسطوانياً من الداخل ، إذ كانت المآذن المصرية الأولى تتكون من برج
 مربع ينتهي بشرفة ، ويقوم لفرق هذا البرج ، طابق آخر مربع ، يتراجع بعض الشئ عن سطح
 القاعدة ، كما هو الحال في منذنة الجيوشي (٤٧٢ هـ / ١٠٨٥ م) ، وقد اختفي هذا الطابق
 المربع بعد ذلك وأستبدل بطابق مشن في منذنة أبي القضايفر (٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م) ،
 ارتفعت لوله رقية مشعنة الأضلاع ، تعلوها خوزة مضلعة ، كما تتكون منذنة مقبرة الملك
 الصالح نجم الدين أيوب (٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م) من بدن مربع مرتفع ، يعلوه طابق مشن ،
 فمئذ مشن تعلوه مبخرة ، وتعتبر منذنة زاوية الهنرد (٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م) صورة طبق
 الأصل منها ، كما تعتبر المآذن التي يتعالب فيها الطابق المربع فالمشن فالمستدير ، هي
 أنشر أنواع المآذن ، وأول منذنة يتضح فيها هذه الظاهرة ، هي منذنة مسجد ومدرسة سلاز
 وسنجر الجاولي بالقاهرة (٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م) .

وكان يفصل بين الطوابق الثلاثة ، أسقف خشبية ^(١) ، قوامها عروق خشبية ، مسك الواحد منها (١٥ ر . ١٠ م) ، وألواح مسك (٢ سم) ، وكان يربط بينها وبين اللوحة درج خشبي ، لازالت آثاره ظاهرة بالجدران من الداخل ، وذلك من خلال فتحة (طاقة) بكل سقف .

أما البرج الآخر ، فيقع بمنطقة تعرف حالياً باسم الماطة ، غرب الكيلو (١٣٥٥) طريق السويس - القاهرة الصحراوي ، بنحو (٥٠ م) ، في منطقة رملية ، ترتفع عن مستوى سطح الوادي بنحو (٢ - ٣ م) - (صورة-٤) ، وهر يشبه البرج السابق إلى حد كبير ، من حيث التصميم ونظام البناء ،

== ويصير الطابق الرابع برشاقته وارتفاعه ، كما يشبه طابقها الثمن نظيره بثلاثة مدرسة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ومنذلة زاوية الهنود (أنظر : السيد عبد العزيز سالم (دكتور) : المآذن المصرية - ص ٨ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٤ - ٢٦ ، القاهرة مدينة المآذن - المجلة - العدد ١٦ أبريل ١٩٥٨ م ، كمال الدين سامح (دكتور) ، العمارة الإسلامية في مصر - ص ٨٨ ، ٢٠١ - ٢٠٣ ، توماس أوتولد وآخرون : تراث الإسلام - ص ٢٥٥ شكل (٨٤) (A) ، سنية الزراعة : مساجد ودول - ص ١٨٧ .

- Combe & Sauvaget et Wiet ; Répertoire chron. d'Epig. Arabe, T. XI, P. 139., Hauteceur & Wiet, Les Mosquées du Caire, P.286).

ومن المعروف أن الأبراج المئنة الشكل ، أصلح للدفاع من الأبراج مربعة الشكل ، ولقد شاع استخدام الأبراج المئنة في بلاد المغرب والأندلس منذ عصر دولة المرابطين ، لغرضها الدفاعية العالية (أنظر : السيد عبد العزيز سالم (دكتور) : في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس - ص ٩٨ ، ١٢٤١) .

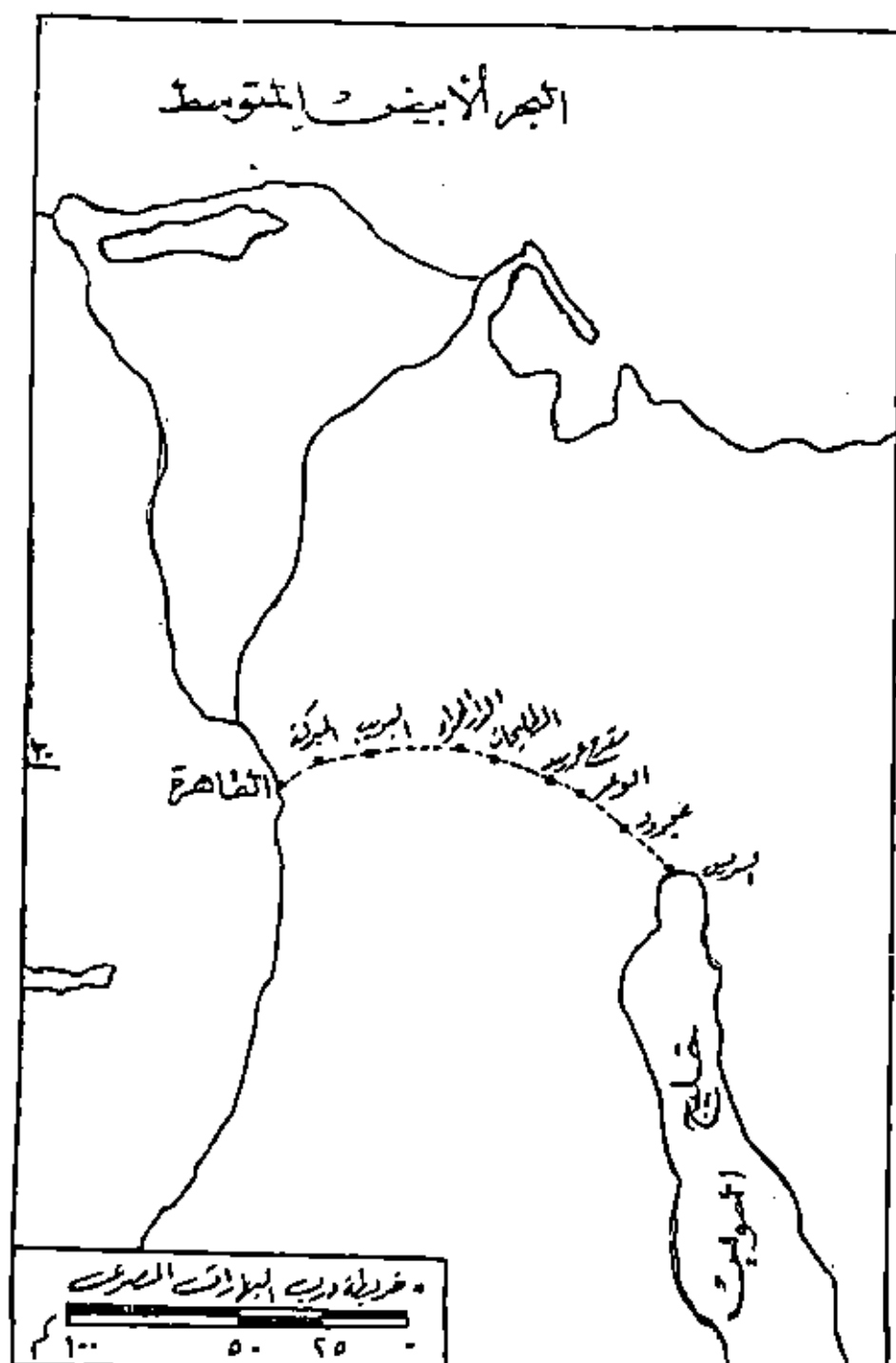
(١) تتكون الأسقف الخشبية عادة ، من عروق والأواح ، يوضع عليها طبقة من الحصى ، يعلوها طبقة من الرديم ، وتنتهي الأرضية بهلاطات من الحجر الجيري ، وقد شاع استعمال الأسقف الخشبية في العصر المملوكي الجركسي ، وخاصة في الأبنية الرئيسية ، وفي نهاية العصر استعملت في جميع الأبنية (أنظر : صالح لمي مصطفى (دكتور) : التراث المعماري الإسلامي في مصر - ص ١٠٧) .

فهو برج مخروطي الشكل أيضاً ، شيد بالأحجار الرملية ، مختلفة الأشكال والأحجام ، ويربط بينها أيضاً ملاط شديد الصلابة ، من الرمل والجير وطيني الوادي ، ويضاف إليها أحياناً كسر الأحجار الناعم ، ويتكون البرج أيضاً من ثلاثة طوابق ، متساوية الإرتفاع ، يبلغ إرتفاع كل طابق منها ، نحو أربعة أمتار ، وتعلوها دروة أيضاً ، بإرتفاع نحو (٥٠ م) ، الطابق السفلي منها ، يتخذ من الخارج شكلاً أقرب مايكون إلى المربع (١٠ × ٥ ر٥٠ م) ، وأركانه الأربعة العلوية مشطوفة ، وتبدو مشعة الشكل من الداخل ، ويبلغ سمك جداره (١٥ ر١٠ م) - (مخطط - ٢ ، صورة - ٤) . أما مدخل البرج ، فكان يقع فيما يبدو بجهته الشمالية المتهدمة حالياً (صورة - ٥) ، أما الطابقان الثاني والثالث ، فمتمنان من الخارج (صورة - ٤) ، بينما يتخذان شكلاً أسطوانياً من الداخل (صورة - ٥) ، وهما أقل إتساعاً ، وجدرانهما أقل سمكاً من الطابق السفلي ، إذ يبلغ سمك نهاية جدار الطابق الثالث أيضاً ، نحو (٥٠ م) ، وكانت تكسوها من الداخل والخارج أيضاً ، طبقة من الملاط شديد الصلابة ، من الرمل والجير وطيني الوادي ، سمكها (١ سم) - (صورة - ٥) ، وكان يعلو كل طابق من الطوابق الثلاث أيضاً ، سقف خشبي ، لا تزال آثاره باقية ، قوامه عروق خشبية ، يبلغ سمك الواحد منها (١٥ ر١٠ × ١٠ م) ، وألواح سمك (٢ سم) - (صورة - ٥) ، ويحد هذه الطوابق الثلاث والدروة من الخارج أيضاً ، أوتار خشبية عرضية ، للربط والتفريغ ، ويتخلل جدران الطابقين ، الثاني والثالث أيضاً ، نوافذ مستطيلة الشكل (١٠ ر١٠ × ٧٠ م) ، للمراقبة والإضاءة والتهوية ، إذ توجد في الجانب الغربي بكل منهما نافذة .

كان يعلوها عتب خشبي أيضاً ، هذا إلى جانب الدروة التي كانت تعلو الطابق الثالث ، للمراقبة والدفاع ، ولاتزال بعض أحجارها باقية (صورة - ٤) .

ومما تقدم يتضح الدور البارز الذي قام به « محمد علي » ، لإنعاش حركة تجارة مصر الخارجية ، مستفيداً من استعادة نشاط طريقها ، للتجارة العالمية ، بين بلاد الشرق وأوروبا ، في أوائل القرن الثالث عشر الهجري (١٩م) ، وعنايته بمراحله البرية ، ما بين السويس والقاهرة ، وتزويدها بالمنشآت المعمارية المدنية والدفاعية ، عبر مناطقها الطبوغرافية المتباينة ، لراحة القوافل ، وتأمين سلامتها .

كما يتضح مدي تميز هذه المنشآت الدفاعية الباقية ، والتي أرجع أنها شيدت بدرب البهارات المصري ، في النصف الثاني من فترة ولاية « محمد علي » بطابع التقشف والبساطة ، وبعض الخصائص المعمارية التي تلائم وظيفتها ، من حيث التخطيط ونظام البنيان ، فضلاً عن مواقعها الاستراتيجية بالدرب ، لحسن المراقبة ، وتنفيذ المهام الدفاعية المخصصة لها .



أخذت هذه الخريطة ، استناداً لما في دراسات الميمنية الجغرافية وعالم ديب البريات
التي هي : ديار ديب ، وأطلس صيرة أفراط الزبداء بهذا المعنى .

(ملحق - ٢)

جدول المسافات والساعات

بين معالم درب البهارات المصري

للي عصر محمد علي

٢	المعالم	المسافة كم	الزمن ساعة
١	السويس - عبيدة	٢٠	٥
٢	الوعر	١٨	$٤ \frac{١}{٢}$
٣	مقرق عرييد	١٠	$٢ \frac{١}{٢}$
٤	الطلحات	٢٠	٥
٥	النار الحمراء	١٠	$٢ \frac{١}{٢}$
٦	البويب	٣١	$٧ \frac{٣}{٤}$
٧	البركة	١٥	$٣ \frac{٣}{٤}$
٨	القاهرة	١٦	٤
إجمالي المسافة والزمن			٣٥
		١٤٠	

ش

(مخطط - ١)

مسلط أفقي للطابق السفلي • بهرج الكيلو (١١٩)

طريق السويس - القاهرة الصحراوي

بالمنطقة ما بين الهوب والهركة



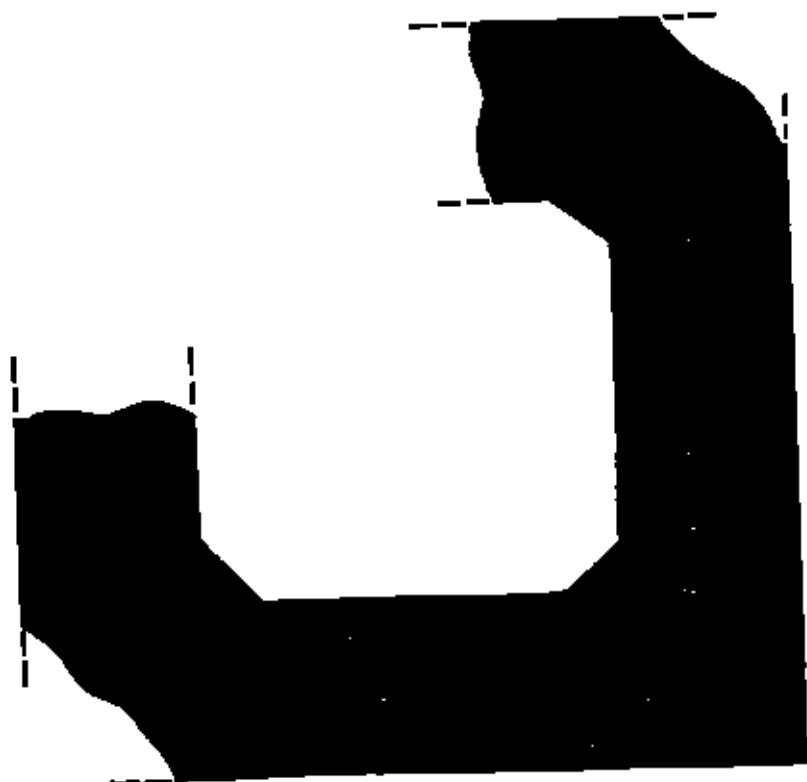
(مخطط - ٢)

مخطط أفقي للطابق السفلي - بهج الكيلو (١٣٥)

طريق السويس - القاهرة الصحراوي

منطقة المأوى

ش





(صورة - ١) - الواجهة الجنوبية الغربية ، لهرج الكملر (١١٩)
طريق السويس - القاهرة الصحراوي بالمنطقة ما بين
الهرج والبركة



(صورة - ٢) - الواجهة الجنوبية الشرقية ، لهرج الكيلو (١١٩)
طريق السويس - القاهرة الصحراوي
وتظهر طبقة الملاط - والأوتار الخشبية ، والنوالد



(صورة - ٣) - الواجهة الشمالية الغربية ، لبرج الكيلو (١١٩)
طريق السويس - القاهرة الصحراوي
ويظهر نظام الهنيان والمداخل والأوتار الخشبية



(صورة - ٤) - الواجهة الغربية ، لبرج الكهلو (١٣٥٥)
 طريق السويس - القاهرة الصحراوي
 ويظهر نظام البنتان والنوافذ والأوتار الخشبية



(صورة - ٥) - الجهة الشمالية لبرج الكيلو (١٣٥ر٥)
 طريق السويس - القاهرة الصحراوي ، وقد أصابها الدمار
 بينما تظهر جهته الجنوبية من الداخل ، ويظهر بها الشكل
 الإسطواني للطابقين الثاني والثالث وأجزاء من طبقة الملاط
 والدرج والأسفلت الخشبية

ثبت المصادر والمراجع

العربية والأدبية

أولاً : المصادر المنشورة :

- أبو العباس أحمد بن علي علي الفلقشندي : صبح الأعشي في صناعة
الأنشا (مولود عام ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م) - ج ١٤ -
القاهرة ١٣٣٨ هـ / ١٩١٩ م.

- تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر محمد المقرزي :
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط
المقرزية - أربعة أجزاء - القاهرة ١٣٢٦ هـ /
١٩٠٨ م.

- شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي :
معجم البلدان - ج ٢ ، ج ٤ - دار صادر - دار بيروت
للطباعة والنشر - ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م .

- علي مبارك : الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة
والشهيره - بولاق - ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٧ م .

ثانياً : كتب الرحلات :

- أبو القاسم بن أحمد الزياتي : الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برأ
وبحرأ ، حققه وعلق عليه عبد الكريم الفيلاي - نشر
وزارة الأثباء المغربية ، مطبعة فضالة الحمديدية - ١٣٨٧
هـ / ١٩٦٧ م.

- أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي المغربي المالكي من أهل
فاس : ماء الموائد (المعروفة بالرحلة العياشية) تحقيق

حمد الجاسر - منشورات دار الرفاعي للنشر والطباعة
والتوزيع بالرياض - السعودية - الطبعة الأولى
١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

- الحسين بن محمد الوردثي : نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ
والأخبار (الشهيرة بالرحلة الوردثية - الجزائر) ١٣٢٦
هـ / ١٩٠٨ م .

- عبد الغني بن إسماعيل النابلسي : الحقيبة والمجاز في الرحلة إلى بلاد
الشام ومصر والحجاز ، تقديم وإعداد أحمد عبد المجيد
هريدي (دكتور) - الهيئة المصرية العامة للكتاب -
١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م .

- عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن إبراهيم الأنصاري الجزيري الحنبلي
: الدور الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة
المعظمة - ثلاثة أجزاء - أعده للنشر - حمد الجاسر ،
منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر بالرياض
- الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

- عبد المجيد بن علي المنالي الزهادي الحسيني الإدريسي : بلوغ المرام
بالرحلة إلى بيت الله الحرام - لتحقيق حمد الجاسر -
مجلة العرب - ج ٧ - ٨ من ١٢ عام ١٣٩٨ هـ /
١٩٧٨ م .

- محمد بن عبد السلام بن عبد الله الناصري الدرعي المغربي : رحلته
الكبرى عام ١١٩٦ هـ / ١٧٨١ م ، رحلته الصغرى عام
١٢١١ هـ / ١٧٩٦ م - عرض وتلخيص حمد الجاسر ،

منشورات دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع بالرياض
- الطبعة الثانية - رمضان ١٤٠٣ هـ / يونيو
١٩٨٣م.

- محمد بن عبد الله الحسيني الموسوي المدني (كبريت) رحلة الشتاء والصيف
- بيروت سنة ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥م.

ثالثاً : المؤلفات المنشورة :

- السيد رجب حراز (دكتور) : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث من الفتح
العثماني إلى الاحتلال البريطاني (١٥١٧-١٨٨٢م) ،
دار النهضة العربية - القاهرة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠م.
- السيد عبد العزيز سالم (دكتور) : القاهرة مدينة المآذن ، المجلة ، العدد
السادس عشر - أبريل ١٩٥٨م.

- : المآذن المصرية نظرة عامة عن أصلها وتطورها
منذ الفتح العربي حتى الفتح العثماني - القاهرة -
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية - ١٣٧٨ هـ /
١٩٥٩م.

- : في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس -
الناشر مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع -
الإسكندرية - ١٩٨٥م .

- أمين مصطفى عفيفي (دكتور) : تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في
العصر الحديث - القاهرة ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٢م - مكتبة
الأنجلو المصرية.

- توفيق إسكندر (دكتور) : بحوث في التاريخ الاقتصادي (مترجم) -
الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - القاهرة ١٩٦١م
- توماس أرنولد وآخرون : تراث الإسلام - الطبعة الثالثة ، عربي وعلق
عليه جرجيس فتح الله - دار الطليعة للطباعة والنشر -
بيروت - يوليو ١٩٧٨م .
- جورج أوغست : صور من شمالي جزيرة العرب - ترجمة سمير سليم
ويوسف ابراهيم ، منشورات أوراق لبنانية - ١٣٩١ هـ
/ ١٩٧١م .
- حنان الكردي : القلاع الأثرية في الأردن - مطبعة وزارة السياحة والآثار
الأردنية - ١٩٧٤م .
- رنعت الجوهري : سيناء أرض القمر - الدار القومية للطباعة والنشر -
القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١م .
- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : العصر المالكي في مصر والشام -
النهضة العربية - القاهرة ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥م .
- : مصر في عصر دولة سلاطين الماليك البحرية -
القاهرة - ١٩٥٩م .
- سنية قراعة : مساجد ودول - مكتب الصحافة الدولي للصحافة والنشر -
الطبعة الأولى ، غرة ربيع الأول ١٣٧٨ هـ / ١٤ سبتمبر
١٩٥٨م .

- صالح لمعي مصطفى (دكتور) : التراث المعماري الإسلامي في مصر - بيروت ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م. - مطبعة جامعة بيروت .
- عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد علي - دار المعارف - الطبعة الخامسة - سنة ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م - القاهرة .
- : تاريخ الحركة القومية - ج ١ - الطبعة الأولى - ١٩٢٩ م.
- عبد العزيز محمد الشناوي (دكتور) : أوروبا في مطلع العصور الحديثة - مكتبة الأنجلو المصرية - الجزء الأول - الطبعة الثالثة - القاهرة ١٩٧٧ م.
- : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفتري عليها - ثلاثة أجزاء - مطبعة جامعة القاهرة - الناشر مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة (١٤٠١ هـ / ١٩٨٠ م).
- فاروق عثمان أباطة (دكتور) : أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح علي مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر - دار المعارف - الإسكندرية (١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م) .
- : التناقض الدولي في جنوب البحر الأحمر في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ندوة البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ، أبحاث الأسبوع العلمي الثالث عشر - ١٥ مارس ١٩٧٩ ، سنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث بجامعة عين شمس - القاهرة ١٩٨٨ م .

- فريد محمود شافعي (دكتور) : العنارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها - عمادة شئون المكتبات - جامعة الملك سعود - الرياض - السعودية - الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م.

- ف. رستفيلد : جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها - ترجمة عبد المنعم هاجد (دكتور) ، عبد الحسن رمضان - مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة (٤٠١ هـ / ١٩٨٠ م) .

- كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر - الأصل الفرنسي - عام ١٨٤٠ م .
- كمال الدين سامح (دكتور) : العنارة الإسلامية في مصر - الهيئة العامة للكتاب والأجهزة العلمية - مطبعة جامعة القاهرة -
١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .

- ليلى عبد اللطيف أحمد (دكتورة) : الإدارة في مصر في العصر العثماني - مطبعة جامعة عين شمس بالقاهرة (١٣٩٩ هـ / ١٩٧٨ م) .

- : دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام إبان العصر العثماني - القاهرة - ١٤٠٠ هـ / ١٩٧٩ م.

- محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية - مطبعة دار الكتب المصرية (١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م) - أربعة أجزاء .

- محمد طاهر بن عبد القادر بن محمود الكردي المكي الشافعي الخطاط :
التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم - أربعة أجزاء -
مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة - سوق الليل -
الطبعة الأولى - ٣٠ ربيع الثاني ١٣٨٥ هـ / ٢٧
أغسطس ١٩٦٥ م .

- محمد فوز شكري (دكتور) وآخرون : بناء دولة مصر محمد علي - دار
الفكر العربي - القاهرة - ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٨ م .
- نعوم شقير : تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها - مطبعة المعارف
بمصر ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م .

- نعيم زكي فهمي (دكتور) : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق
والغرب أواخر العصور الوسطي ، الهيئة المصرية العامة
للكتاب - القاهرة ١٩٧٣ م .

- مجلة العرب - ج ٢ - س ٤ - شعبان ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م - دار
البيامة / الرياض .

رابعاً : المؤلفات غير المنشورة :

- السيد عبد العزيز سالم (دكتور) : دراسة عن منذرة جامع قوة الإسلام
بدلهي - بحث ألقى في ندوة العلاقات المصرية الهندية
- القاهرة ١٩٩٠ م - تحت الطبع .

خامساً : الأطالس والخرائط :

- أطلس مجموعة خرائط القطر المصري الطبوغرافية (مقياس ١ :
.....) ، مصلحة المساحة المصرية - الجيزة -
١٣٤٨ هـ / ١٩٢٩ م .

سادساً : المراجع الأوربية :

- Combe , Sauvaget et Wiet; Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe, T. XI, Le Caire , 1931.
- Hauteceur et Wiet ; Les Mosquées du Caire, 1932.
- Heyd, W. : Histoire du Commerce de Levant au Moyen Age, T. I. & II. Leipzig , 1925.
- Hoskins, H. L. : The Growth of British Interest in the Route to India^{١١}, Tufts Coll., Mass., U.S.A. Journal of Indian History, II.
- Howe, Sonia, E., : In Quest of Spices, London, 1946.
- John Bartholomew and Son Ltd. Edinburgh : World Travel Map., Egypt (Scale 1 : 1000000).
- Rabbath, E. : Mer Rouge et Golfe d'Aqaba dans L'evolution du Droit International , Societe Egyptienne de Droit International, Janvier, 1962.
- Wilson, A. T. : The Persian Gulf, London, 1954.

التاريخ الكمي
Quantitative History

د . عبد الله بن إبراهيم العسكر
١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م

المقدمة

تشير الملاحظات التجريبية التي فُحصت في الغرب إلى أن التاريخ يعاني من قلة الملتحقين بدراساته، مما أدى إلى ذلك الركود الذي تعاني منه أقسام التاريخ. وما ترتب عليه من هبوط في شعبية التاريخ لدى العامة، أو لدى النوائر الرسمية، وهي أقسى محنة تعرضت لها الدراسات التاريخية. هذا كله أدى إلى هبوط في الوعي التاريخي، أو كما يدعوه آخرون بالعقلية التاريخية في المجتمعات الحديثة.

ومع انتشار العلوم الإنسانية، وهي السمة الجديدة التي أصبحت تسود عالم اليوم في الفن والتجارة والتقنية والعلوم الطبيعية، وزيادة الاهتمام بالشجون المتعددة المتمثلة في الدراسات المستقبلية والدراسات الجديدة؛ مثل علم القوضى Chaos، كلها أوجدت شعوراً بأن التاريخ لم يعد بإمكانه أن يحتل مكاناً في عالم اليوم. وليس التنبؤ التاريخي بأحسن حال من التاريخ نفسه. فقد بدأ التنبؤ التاريخي تافهاً ومبتذلاً لموجة فقدان الثقة به وبأهميته. فطالب التاريخ في يومنا هذا بمصالحة عن الأسرار التي يمكن لأستاذه أن يفك رموزها، وتقبع في ذهنه مقارنة دائمة بين التاريخ والعلوم الطبيعية، وهو يزعم أن لاشئ يمكن لأستاذه أن يقدمه له، سوى البحث التقليدي في المصادر والوثائق وصولاً إلى نوع من الخيل، واصدار أحكام عامة تبعاً لذلك.

وإذا الطين بلة أن التاريخ أخذ كموضوع مسل لدى العامة، وأصبح من النادر أن يترك التاريخ للمؤرخين. ومن المعتاد أن يتعرض عمل المؤرخين لأحكام العام. وهو أمر قلما يحدث للعلوم الأخرى مثل العلوم التطبيقية، أو لعلوم إنسانية أخرى مثل علم النفس. لذلك أصبح التاريخ علم يتعاطاه المختص وغير المختص. أما طرائق البحث التاريخي فقد أصبحت عتيقة وقديمة قدم علم التاريخ.

نفسه.

هذا البحث يحاول أن يقدم إضافة جديدة لطرائق البحث التاريخي، وذلك عن طريق التعرف على التاريخ الكمي، وهو التاريخ الذي يقوم على منهج جديد اسمه (المنهج الكمي Quantitative Method). وبسبب سعة المنهج الكمي وتعدد طرقه وأساليبه أصبح التاريخ المكتوب به يشكل فرعاً من فروع التاريخ، قائم بذاته مثله مثل التاريخ الاقتصادي والتاريخ الدبلوماسي. وبأهل الباحث أن يساعد المنهج الكمي في تجديد شباب علم التاريخ، وبالتالي يؤدي إلى نتائج جديدة وذات قيمة، ويبدد الأوهام من أذهان الناس، والبحث ينقسم إلى قسمين رئيسيين، يتعرض الأول للتعريف بالتاريخ الكمي، وتاريخ منهجه، ثم يعرج على يستمولوجيا المنهج الكمي، بعد ذلك يستعرض أهم آراء المؤيدين للتاريخ الكمي ومعارضيه، ويختتم هذا القسم بنتيجة تبين رأي الباحث في النقاش القائم بين المؤيدين والمعارضين للتاريخ الكمي.

أما القسم الثاني من هذا البحث فنخصص للحديث عن تقنية كتابة التاريخ الكمي. حين يقترح الباحث ثمان خطوات يحسن بالمؤرخ أن يلم بها أو ببعضه. وهي تصنيف المادة التاريخية، وتنسيق المادة التاريخية، والتحليل الرياضي للمادة التاريخية، ثم التحليل الأولي للمعلومة التاريخية، والتحليل المتقدم للمعلومة التاريخية، وتحليل السلاسل الزمنية، ثم العلاقة بين المتغيرات، ومشكلة المعلومات غير الصحيحة، وأخيراً خاتمة البحث وفيها رأي الباحث حول تقنية التاريخ الكمي.

التعريف

من الأساسيات في عالم اليوم تعرض ما يسمى بالإنسانيات لتقد قاس يشنه جيل الفكر العلمي، سلاحه علوم جديدة كعلوم الضبط والثورة الإلكترونية، وإنشاء واستغلال مصادر الحاسبات الإلكترونية. وليس من العجب أن يفقد الجيل الجديد من المؤرخين صبرهم مع طرق البحث القديمة في كتابة التاريخ، وأن يحاولوا إقامة عملهم على أساس أنضج، لذلك فإن التاريخ يمر الآن بمرحلة يجعله أكثر تعقيداً، لأن المؤرخين طفقوا يستعملون المنهج الكمي في دراسة التاريخ، مع ما يتطلب هنا من معرفة ودراية بعدد من العلوم والمهارات الحديثة. ويعتقد أصحاب التاريخ الكمي بقولة أحد مؤسسيه واسمه ماركزويوسكي Marczewski الذي يقول «المؤرخون اليوم أكثر اهتماماً بالجماهير منهم بالأبطال، فمن المؤكد أن الكمية هي مفتاح الباب الذي نستطيع بولوجه الأقتراب من أسرار الملايين المجهولين الذين لم تدون أخبارهم»^(١).

يقوم المنهج الكمي على أساس القياس والحساب، ويعتمد على أساليب إحصائية رياضية. ويهدف إلى اعتماد تقنيات متعددة لتحليل المحتوى، أو الفحص المنظم والكمي للكلمات أو الأفكار أو المواضيع التي تتكرر في مدة محددة ومعينة. ومن الأمثلة على ذلك دراسة برايس لقياس تطور الشعور الذاتي الأمريكي، وذلك عن طريق احصاء استعمالات بعض التعابير الرمزية في الصحافة الاستعمارية، في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي^(٢). ويهدف المنهج الكمي إلى تقييم التغيرات الكمية الاقتصادية، لتقودنا الأخيرة إلى اكتشاف العلاقات بين التغيرات في المجتمع^(٣).

ونلاحظ هنا أن المنهج الكمي يختلف عن المناهج المعتادة في دراسة

التاريخ. مثل منهج الاستنباط Deduction ومنهج الاستقراء Induction .
ولعل أعظم صفة تميز المنهج الكمي عن غيره من المناهج، هي بعده عن (التعميم
التاريخي)، فهو لا يراعي ما اعتاده المؤرخون عليه من استخدام كلمات تعبر في
حقيقتها عن تعميمات مثل (محتمل، تقريباً، كثيراً، عادة، أحياناً). ويشترط
المنهج الكمي لاستعمال مثل تلك الكلمات وغيرها شروطاً منها تحديد وقياس
مدلولها وحدودها الكمية، حتى يمكن فهمها والانتفاع منها . لذلك فالمنهج الكمي
لا يهتم بالظواهر والأحداث التاريخية باعتبارها حالات فردية، ولا يعالجها من
منظور التفرد Ideo graphic prospect . بل يؤكد على تعدد القيم والمسببات ،
ويعالج الحدث التاريخي من منظور التعدد Nomothetic prospect (٤).

لم يكن تطبيق المنهج الكمي سهلاً في بداية الأمر ، فقد أنيرى عدد من
المؤرخين والمنهجيين يعارضون ويتقنون هذا التوجه الجديد ، الذي - كما يقولون
- يهتم فقط بحاجات الاقتصاديين النظرية أكثر من اهتمامه بحاجات المؤرخين.
كما أيده آخرون ولحمصوا له ، وعدوه ثورة في ميثاق المناهج التاريخية ، وطالبوا
بتعميمه ليشمل كل فروع التاريخ. وتوسط فريق ثالث بين المعارضين والمؤيدين.
وقالوا إن التاريخ أساساً ينقسم إلى قسمين أساسيين : تاريخ يمكن دراسته بالمنهج
الكمي ، وأطلقوا عليه التاريخ الكمي Quantitative History والقسم الثاني
دعوه بالتاريخ التسلسلي Serial History وهو ما يدرس بالمناهج المعتادة.

وأحسب أن المؤرخين في وقتنا الحاضر لا يميلون إلى التمييز والتفريق بين
معاني الألفاظ والمصطلحات التاريخية من منظور كمي. وهم أيضاً يفضلون
استعمال تلك الألفاظ والمصطلحات كما هي دون قياسها، ولا يبذلون حماسة واضحة
للأساليب الجديدة. ومع هذا سيظل التاريخ الكمي مستعملاً لوصف كافة أشكال
الكتابات التاريخية، وخاصة تلك الكتابات التي يكون فيها التأكيد على قياس
المعلومات بالأسلوب الكمي. والبعيد قدر الامكان عن قياس المعلومات بالأسلوب
الكيفي .

تاريخ المنهج الكمي

من زمن أرسطر Aristophanes (٤٤٨ - ٤٨٠ ق ب) حتى زمن هيجل Hegel (١٧٧٠-١٨٣١) تظهر أدبيات البحث المنهجي وهي مملوءة بأقوال وأحكام ضد الأسلوب الكمي. وفي زمن مكياڤيلي N. Machiavelli (١٤٦٩ - ١٥٢٧) الذي كتب في الفلسفة السياسية الحديثة ، ظهرت اشارات قليلة لها دلالات واضحة تشير إلى استعمال الأسلوب الكمي^(٥). واتضح المنهج الكمي بصورة أوضح في كتابات جاليلو Galileo (١٥٦٤ - ١٦٤٢) وهيجل: الذي أبرز العلاقة الحميمة بين الكمية والكيفية^(٦). ثم جاء ماركس K. Marx (١٨١٨ - ١٨٨٣) الذي أعاد بناء فلسفة هيجل بشئ من المنهج الكمي، وكتب بهذا الأسلوب في الاقتصاد والإدارة، وأخيراً ماكس ووبر Max Weber الذي وظف آراء المنهجية كميًا، ولكن بأسلوب يختلف عن أسلوب ماركس^(٧).

وهكذا شهد القرن السابع عشر الميلادي بداية ميلاد منهج جديد في دراسة العلوم الإنسانية ومنها التاريخ^(٨). ومع حلول العقد الأخير من القرن التاسع عشر كتب الدكتور جونسون أبحاثًا تاريخية قصيرة مستعملًا الأسلوب الإحصائي. وقد أبدى عدد من المؤرخين إعجابهم بالأسلوب الكمي من أمثال لورانس لويل Lawrence Lowell وفردريك جاكسون Frederick Jackson والبروفيسور كيتسون كلارك G. Kitson الذي يقول (... دع عنك التخمين، والتزم بالعدد، وإذا لم تستطع أن تعد، فأعلن بصراحة أنك تخمن) ولورانس لورستون Lawrence le Stone الذي يقول (... إذا كنت تطمح في الحصول على مصداقية من نوع م ، فإن الحركات الاجتماعية لابد أن تُدرس من خلال الأسلوب الإحصائي)^(٨).

ومع أن فكرة المنهج الكمي لقيت قبولاً واسعاً في أوساط المؤرخين الأمريكيين والأوروبيين، فقد تهيّب جمع كبير منهم تطبيقها في بحوثهم ودراساتهم. ويعزو الباحث هذا التهيّب إلى أسباب ثلاثة: الأول تواضع الأساليب

الإحصائية المستعملة آنذاك من جهة ، وعدم معرفة المؤرخين بها من جهة أخرى .
والسبب الثاني كثرة الوثائق والمخطوطات التي تحتوي معلومات كثيرة تهم
للتأريخية ، والتي بدونها لا تلتزم الأسلوب الكم . والسبب الثالث بروز فروع من
التأريخ مثل التأريخ الدبلوماسي والتأريخ الفكري ، وهما فرعان يصعب عليهما
تطبيق المنهج الكمي .

ويعترف النظر عن التطور الحديث للمنهج الكمي في ميدان الدراسات
التأريخية ، فإنه من الممكن قبول الوصف الذي أطلقه باركلو لوصف تلك الحقبة
وهي الثورة الكمية^(٩١) فقد أصبحت الطرق الكمية في عصرنا هذا من أقوى
الأدوات الجديدة في التأريخ ، لدرجة أن خصصت لها أعمالاً للتأريخ الدولي الثالث
عشر للعلوم التأريخية التي اتحدت في سنة ١٩٧٠ م في موسكو^(٩٢) .

ومن أهم الدراسات التأريخية التي طبقت المنهج الكمي دراسة برايمون
Clarence Crane Brinson التي درس ثلاثة أندية : أندية البحالة في بريطانيا
Jacobine Class وهي جماعة سياسية مطروقة انحضت للإرهاب كوسيلة سياسية
وإد وحل مزائن الدراسة إلى نتيجة مؤلفها أن عطية التواضع للذكورة تعبر
بصدق عن شريحة مجتمعية ، وإن تلك الأندية في سنة ١٩٩٢ م لم تكن لطل
طبقة اجتماعية واحدة كما هو سائد ، كما إن الأعضاء المعروفين بالاستفراطيين ،
وهم أعضاء البحالة لم يكونوا طبقة اجتماعية أيضاً ، لذا فإن الحرب التي نشبت
بينهم لم تكن حرباً طبقية ، بل كانت حرباً دينية^(٩٣) . كل هذه النتائج جاءت
عكس المعروف عن تأريخ تلك الأندية ، وذلك بفضل استغلال المنهج الكمي الذي
غير من طبيعة النتائج .

كما أجاز المؤرخ الأمريكي كونارد وزميلة ميور دراسة عن اقتصاديات الرق
في ولايات الجنوب الأمريكية بواسطة المنهج الكمي ، حيث توصل الباحثان إلى
نتائج باهرة تناقض ما كان سائداً عن تلك الظاهرة^(٩٤) . ومن الدراسات العرسية
المتحيزة في نتائجها بسبب اعتمادها المنهج الكمي ، دراسة دونالد كير عن التفسير

بستمولوجيا المنهج الكمي

يبدو أن استعارة العلوم الإنسانية كلمات (كمي وكمية) ومشتقاتها من علم الفيزياء جاءت متأخرة، فحتى وقت قريب لم يشر مؤلفي القواميس الأجنبية إلى استعمالات وتطور مدلول ومثل تلك الكلمات في ميدان الدراسات الإنسانية. ومدلول الكلمة Semantic وتطورها الوحيد منذ أن كانت تعني المنطق Logic هو أنها أصبحت تعني العد والوزن، ثم أصبحت تعني كل شيء قابل للقياس من وجهة نظر احصائية بحتة. أما أنها تستعمل في العلوم الإنسانية فهو أمر لم يخطر على بال الأوائل، فقد قال Renata Adler (١٤) (إن أحزان وشقاء الإنسان من الصعب قياسها).

لقد ثار جدل واسع منذ منتصف القرن العشرين ولا يزال حول الدلالة اللفظية للمنهج الكمي وعلاقته بالتاريخ، ومدى أهمية النتائج التي تبرز عند تطبيق المنهج الكمي. ولقد ذهب البعض إلى أن مثل هذا المنهج يشكل خطراً على السياق الثري Verbal continuity الموجود في التاريخ، لأن هذا المنهج عند تطبيقه سوف يقرّم أشكال النثر التاريخي مثل البلاغة وحسن الاستدلال وجزالته. ويستدل أصحاب هذا الرأي بالصورة التاريخية السيئة التي طبعت صفحات من كتاب (المتوسط والعالم المتوسطي) لفرناند برادويل Fernand Braudel (١٩٨٥ - ١٩٠٢) ذلك أن برادويل استغرق صفحات يعد وبحسب متوسط دخل المزارع الفرنسي بالعملة بالعملة الذهبية ducat، والنتيجة التي توصل إليها مؤلف الكتاب نتيجة متواضعة، وغير مؤكدة ومتفاوتة، وهامش الخطأ - كما يعترف المؤلف نفسه - كبير، لدرجة أن العدد والحساب لا معنى له، وكان بإمكان المؤلف أن يصل إلى النتائج نفسها بالاعتماد على المنهج الثري Verbal. والشئ الذي حققه برادويل هو المستوى المتواضع لإسلوبه ودلالته اللفظية، وهو المتمكن

لقد ذاعت فكرة في أوساط المؤرخين في أوروبا وأمريكا في الخمسينات والستينات من هذا القرن مؤداها أن الأعداد الرقمية تساوي الدقة والصحة، وأن الكلمات تساوي عدم الدقة والخطأ. هذا التصور هو نفسه الذي نقده رشدة المؤرخ بلومب J. H. Plumb والذي وصف المهرسين بالأرقام بأنهم يلعبون مع الأرقام على أرضية هشة، لأن أغلب المصادر التاريخية مصادر غير رقمية ، ويقول (١٦) .. لقد أصبحنا مجتمعاً رقمياً، وقضايانا التي نرغب في دراستها أصبحت قضايا رقمية أكثر منها قضايا حرفية، ويصرف النظر عن هشاشة وضعف المصادر الاحصائية أو مقدار دقة صاحب الدراسة، فإن الأرقام لا تتحدث الحقيقة في كل الأحوال، بل إن وجود الحقيقة في صورة رقمية أو صورة حرفية هي نفسها مدعاة للقبول).

وحقيقة الأمر أن مثل تلك تناقضاً واضحاً بين المنهج الإقناعي المعاصر، والذي يُفترض تواجد في الأرقام، وبين المناهج التاريخية الأخرى التي لا تعطي للأرقام وزناً كبيراً. إن الاستعانة المشوشة بالأرقام لا يرقى إلى درجة الإقناع الذي تقدمه الأساليب السحرية مثل الكلمات ذات الدلالة الدقيقة والوصف المشير. ونحن إذا نقلنا التاريخ إلى الأجيال القادمة بواسطة الأرقام والجداول الاحصائية، جدها نسحط القيمة الجمالية والتأثير النقدي، والذي لا يتأتى إلا بواسطة وسائل متعددة. وأمر آخر فإن الأرقام قد تنود القارئ إلى جهة أخرى لم تكن نترقبها.

لقد أمضى أصحاب المنهج الكمي وقتاً ليس باليسير في حل إشكاليات متعددة منها ماله علاقة باليستمولوجيا، ومنه ماله علاقة بالتاريخ، وذلك قبل أن يتفرغوا لوضع دراسات تاريخية ذات طابع كمي. وقد نتج عن تلك الإشكاليات والحلول كم هائل من الآراء المؤيدة والأخرى المعارضة. وهنا يستحسن أن نعرض أبرز تلك الآراء .

المؤيدون

لقد أخطأنا بعض الأقوال المريدة للأسلوب الكمي. ومن أشهر الأقوال في هذا الصدد، قول البعض من أن الأساليب المنهجية المعتادة هي نفسها أساليب كمية. ولو لم تكن في صورة رقمية. وأشار آخرون إلى أن الهدف من إدخال المنهج الكمي في الدراسات التاريخية، هو الذي يقرر أهميته من عدمه. والمنهج المذكور يلفت الانتباه إلى نقص العقلانية في المناهج القديمة، ذلك أنها تجعل التاريخ التقليدي واجهة دفاع لإبقاء الوضع على حاله. وذلك باستعمال أساليب نشرية بليغة. (١٧)

ويقول آخرون أن الشكل يغلف التاريخ المكتوب بالمناهج التقليدية، وذلك أن مقدمات ذلك التاريخ ونتائجه بنيت أساساً على متانة العبارة، وقوة الاستدلال البياني. وأن التاريخ العرفي Verbal History يهتم بالنس النقدية عن طريق عرض النماذج والحداث دون نقدها. ويضيف آخرون أن التاريخ المكتوب بالطرق الاعتيادية هو تاريخ أبطال، ولا يهتم بالبحاير إلا لماماً. وليس هنالك طريقة لدراسة البحاير إلا الطريقة الكمية. لأنهم ليسوا أبطالاً تركوا لنا أقوالاً أو ملاحم. ويقول ماوكزيرسكي أن الطريقة الكمية هي مفتاح الباب نستطيع بوجه الاقتريب من أسرار الملايين المجهولين الذين لم تكون أخبارهم. (١٨)

ويشدد آخرون على النتائج الباهرة التي تمخضت نتيجة تطبيق المنهج الكمي، مما يستوجب تعميمه. ويضيفون أن القياس الدقيق - وهو أحد خطوات المنهج الكمي - للحوادث التاريخية يمثل إضافة جديدة لدى الإحتمالات التاريخية. وبهذا الأسلوب لن يحاول أحد مثلاً أن ينسب توجه ألمانيا للوحدة إلى جهود بسمارك الشخصية. أو إلى عبقريته في إدارة الدول. (١٩)

ويجادل آخرون إلى أن المنهج الكمي يقدم تقنيات متعددة لتحليل المحتوى التاريخي، ولفحص الكلمات والأفكار، والتي قد تتكرر في النص التاريخي أو الوثيقة التاريخية في مكان معين أو زمن محدد. وهذا الأمر لا يمكن دراسته

بواسطة الطرق الاعتيادية. ومن الأمثلة على ذلك دراسة قياس تطور الشعور الذاتي الأمريكي، وذلك عن طريق احصاء بعض التعابير الرمزية واستعمالاتها الواردة في الصحافة الاستعمارية في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي (١٢).

واقترح آخرون أن المنهج الكمي يعد الفجوة بين المؤرخين وبين كل من الاقتصادي وعالم الاجتماع والمتخصص في العلوم السياسية وغيرهم من المشتغلين في ميدان العلوم الإنسانية. وفي هذا السياق فقد اعتبر المؤرخ شونو أن الأخذ بالمنهج الكمي هو حل وسط لتقريب المسافة بين المؤرخين والاقتصاديين. عبارته المشهورة يمكن ترجمتها بأن هنالك نوعين من التاريخ الأول اسمه (التاريخ التسلسلي Serial History) والثاني اسمه (التاريخ الكمي Quantitative History) فالأول ميدان المؤرخين، أما الثاني فهو ميدان الاقتصاديين (٢١).

ويذهب آخرون إلى عدم القدرة على تخيل حقيقة الماضي بواسطة العدد التخيلي، هو في الوقت نفسه عدم القدرة على صنع التاريخ. فالحادثة تقدم للمؤرخ الفرصة لمواصلة التخيل المملود. مثال ذلك الاستعراض الكبير بدون موسيقى قد لا يعطي الانطباع نفسه الذي يولده استعراض صغير ولكن بمصاحبة الموسيقى. فالمؤرخ الذي يطبق المنهج الكمي سيعد ويحسب كل مكونات الاستعراض. أما المؤرخ الذي يطبق المنهج القديم سيحكم على الاستعراض من خلال الانطباع الذي تولد لديه، والذي كما أشرنا قد يكون بسبب الموسيقى، لا بسبب الاستعراض ذاته.

ونختتم آراء المؤيدين، برأي طريف يقول أصحابه بأن المعارضين للمنهج الكمي قد أساءوا الظن بطبيعة البحث الترتيبي Systematic research الذي هو أحد دعائم المنهج الكمي. فالافتراض الأساسي للأسلوب الكمي عند المعارضين هو أن معالجة الظاهرة التاريخية يأتي في صورة قالب يضم نظرية مناسبة. هنا المفهوم فيه خلل كبير، وقد انعكس هنا دوره على تطبيق المنهج الكمي. ويؤي أصحاب التاريخ الكمي أن نقد المعارضين قد بني على تصور خاطئ نتيجة سوء

تطبيق المنهج ذاته. ويطالب أصحاب التاريخ الكمي إلى حمايته من أصدقائه قبل أعدائه. ويقولون أن أغلب من طبق المنهج أساء إليه، إما لأنهم عجزوا عن فهم أساسيات المنهج، أو أنهم قصّروا في إكمال ما بدأوه. لأنهم فشلوا في ربط المنهج بالتحديات الفكرية الموجودة في ربط المنهج بالتحديات الفكرية الموجودة في الموضوع الذي يعالجونه. (٢٢)

للمعارضين

جاءت أكثر الانتقادات الموجهة إلى المنهج الكمي من المؤرخين الذين لهم دراسات متخصصة في المناهج التاريخية. يأتي على رأس هؤلاء المؤرخ كوتشك صاحب كتاب (فهم التاريخ Understanding History) والمؤرخ ماكجيل McNiel صاحب كتاب (تاريخ الغرب The History of the West). ومجمل ملاحظات أولئك تتعلق بصحوة المنهج وعدم ملاءمته للدراسات التاريخية ويقولون أن النتائج العامة للقصر الكمي لا يمكن إثباتها بالأرقام، وإنما هي مجرد افتراضات تبدو أنها تفسر القصور بشكل جيد. (٢٣) لدرجة أن المؤرخين التاريخيين قُصِبَ في قوالب جاهزة (إشارة إلى الجدولة الإحصائية) ومضت سلقاً مما يجعل الاحتمالات المتوقعة تتعارض مع الحوادث التاريخية.

وصف آخرون المنهج الكمي بأنه يقتصر عمداً على التركيب الإحصائي البحتي. كما أنه لا يصلح للتطبيق إلا في حبة التاريخ الحديث، وتحديدًا في الفترة التي لا ترجع أبعد من سنة ١٧٨٠ م. حيث تتوفر معلومات إحصائية، كما أنه يصعب استعمالها خارج أوروبا وشمال أمريكا؛ حيث تطور الاهتمام بإحصائيات الحسابات القومي في وقت مبكر نسبياً، وهذا يعني أنه - أي المنهج الكمي - غير ملائم لأزمنة كانت فيها الحدود الاقتصادية والسياسية غير متطابقة. (٢٤)

ويضيف آخرون أن الطريقة الكمية تضع حاجزاً كبيراً يصعب إزاحته

التنظير، وهو أمر مهم في الدراسات التاريخية، وتُعرف الطريقة الكمية بأنها ضد التحليل النظري البحث، وضد النظرية (Anti-theoretical heuristic)، لأن الطريقة الكمية تعتمد بصورة كبيرة على الحالات الميكانيكية (Mechanical Aspects) وتغفل أيضاً المنظور الفكري للقضية التاريخية المراد دراستها (Intellectual Task). وتبعاً فإن الذين يقبضون الطريقة الكمية إما يوجهون طاقاتهم للعمل على تحسين النهج وتطوير ميكانيكيته، ويبدون اهتماماً أقل لنتائج بحوثهم.

اتهم آخرون أصحاب المنهج الكمي بأنهم انتقائيون، يختارون الموضوعات التاريخية التي تناسب المنهج الكمي، بجانب أنهم يظهرون لامبالاة واضحة تجاه قضايا ملحة أو مهمة، لأن تلك القضايا يصعب معالجتها إحصائياً. وهذا الاتجاه واضح في أسلوب العرض الذي يبدو صحيحاً من الوجهة الرياضية البحتة، ولكن من وجهة نظر تاريخية فكرية فإن أسلوب العرض تافه ولا قيمة له، والنتيجة المترتبة على مثل هذا العمل هي إعطاء صورة متواضعة، ونتاج غير دقيقة عن قضايا ليست بالفعل مهمة، هذا إلى جانب أفكار غير كاملة، يصاحبها أسلوب ردي.

ويُنتقد آخرون التحليل الجزئي، الذي يتبنى المنهج الكم، من أنه صعب التطبيق خارج ميدان الاقتصاد، وفي ميادين أخرى يواجه المنهج صعوبات كبيرة. وخاصة إذا أخذنا بالتعريف الذي تبناه أحد مؤسسي المنهج الكمي ماركزبوسكي. (٢٥) ومن هنا فإن معظم المؤرخين لا يعارضون إعطاء المنهج الكمي مكاناً في دائرة التاريخ الاقتصادي وإلى حد قليل في دائرة التاريخ الاجتماعي. وما عدا هاتين الدائرتين فمن الصعب تطبيق المنهج التاريخي. فلا يمكن أن يدرس المنهج الكمي التاريخ القانوني أو التاريخ الدستوري أو التاريخ السياسي. وكما يقول أيديلوتي (٢٦) ليس هنالك أي معيار كمي لدراسة الحوادث السياسية مثل تقدير عظمة هنيبال).

ويعبد المعارضون إلى الأذهان حقيقة مؤداها أن بعض أصحاب المنهج الكمي أنفسهم من أمثال ماركزبوسكي، يعترفون أن منهجهم لا يغني إطلاقاً عن طرائق البحث التاريخي الأخرى . ويحذرون من عاقبة الإندفاع المحموم تجاه التقنية الحديثة، وجرها إلى ميدان الدراسات التاريخية. فقد يؤدي مثل هذا العمل إلى نتائج لا تحمد عقباه . ويستشهدون بقوله أحد رواد المنهج الكمي الذي يقول (٢٧) (إن أكبر مجازفة في المنهج الكمي هي ليست في إهمال التقنيات، وإنما جعلها تشكلاً كلياً. فإذا أمكن اتهام بعض المؤرخين القليديين بالمواجهة القاترة للوثائق، فإنه يمكن أيضاً اتهام بعض المؤرخين الكميين بالمواجهة البليدة للألة الحاسبة).

ويشدد المعارضون على ضرورة الحذر من الانسياق وراء التقنية، لأنه عن الصعب التحم فيها في مراحل متعددة . هنا إلى جانب أن الأعداد وحدها خالية من أي دفاع تلقائي. كما أن الكميات وحدها تفتقد الترجيح التحليلي، مثلها مثل الآراء التي لا تستند الأدلة. (٢٨) فالأرقام مثل الكلمات لا تقوم بنفسها، ولا بد من دعمها وتزويج المناهج البحثية التي تتناولها، وكما أشار فيلار (إن لمجني شيئاً، وإنما قد نفقد الكثير) إذا نحن اعتمدنا منهجاً بحثياً. (٢٩)

النتيجة

بعد استعراض بعض آراء المؤيدين والمعارضين للمنهج الكمي. نلاحظ أن السمة الغالبة على تلك الآراء هي التأييد المطلق أو الرفض المطلق. ويبدو للباحث أن لب القضايا ليس هو إمكانية إدخال الميكنة الحديثة، أو أساليب حديثة في ميدان الدراسات التاريخية. القضية الرئيسية في هذا المجال، هي إلى أي مدى يستطيع التاريخ أن يستعين بمناهج العلوم الأخرى؟ وإلى أي مدى يمكن للمؤرخ أن يتعاون مع زميله في التخصصات الأخرى؟

ولعل من أقوى الاتجاهات الحديثة في البحث التاريخي المعاصر هو الانتقال من العناية بالحالات الفردية إلى العناية بالأهوال العامة، ومحاولة جعل التاريخ

منسجماً مع العلوم الاجتماعية، وخاصة تلك التي تدرس الجماعات والأفراد على حد سواء. مثل علم الاجتماع، وعلم الأنثروبولوجيا، وعلم السياسة، وعلم الاقتصاد. وهكذا دأب المؤرخون في عصرنا هذا على إدخال طرق وأساليب من العلوم المذكورة في مجال البحث التاريخي. للدرجة أن أحد العلماء لاحظ أن معظم الجيل الجديد من المؤرخين يرون أنفسهم علماء اجتماع، ومع هذا فإن استعمال المؤرخين لطرق علم الاجتماع تختلف عن طرق زملائهم في تخصص الاجتماع. والملاحظة نفسها يمكن أن تقال عن المؤرخ الذي يستعير أدوات وأساليب من تخصص الاقتصاد أو تخصص الأنثروبولوجيا. ولعل السبب يكمن في أن بعض المؤرخين لا يجيدون الأساليب المستعارة أو أنهم لا يرغبون في تحويل علم التاريخ إلى فرع من العلوم الأخرى.

والملاحظة الأخرى الجديرة بالتنويه هي أنه مع محاولة المؤرخين إدخال تقنيات جديدة إلى ميدان الدراسات التاريخية، تزداد قسوتهم على المادة التاريخية نفسها، لأن هنالك موضوعات تاريخية لا يمكن دراستها بمناهج العلوم الأخرى. ولعل هذه المشكلة تبرز أكثر عندما يحاول المؤرخون التوفيق بين الكم والكيف، ليتسنى لهم إدخال المنهج الكمي إلى ميدان التاريخ. وهنا لابد من التنويه إلى أن الفرق الواضح بين الحكم والكيف لا يوجد إلا لدى الشغليين بعلم الكيمياء.

ويتحتم في نظر الباحث أن يقوم المؤرخون بمحاولة جادة للتفاهم مع علماء الاجتماع والاقتصاديين والأنثروبولوجيا، والذين يقدمون للمؤرخين وجهات نظر ليست عذبة الجوى. وبدون الاتصال ومحاولة إيجاد تعاون مستمر في ميدان البحث المشترك، سيظل المؤرخون في متأى عن انتاج الجديدة "بني الآخرين". ولعل أقرب مثال للتسخيف السابق هو ما كتبه أستاذ الآثار شيان: Stephen Stennan من جامعة ساوهمتون حيث اعترف أن لجنه لم يستفيد "كثيراً" من الطرق الكمية التي طورت في دراسة مشرونة بزملائهم في تخصص الاجتماع.

والأحياء، لانعدام التعارض لحل المشكلات المتاهج المشتركة. (٣٠١)

القسم الثاني كتابة التاريخ بالطريقة الكمية

ليس هنالك طريقة كمية مثالية لكتابة التاريخ. فالمنهج الكمي واسع متشعب، ويعطي المؤرخ مساحة واسعة من الاختيارات، وذلك حسب الموضوع والمادة المراد اخضاعها للمنهج الكمي. وتواجه المؤرخ العربي مشكلة نقص الكتب التاريخية المكتوبة بأسلوب المنهج الكمي، والمتوفر منها يغطي جزءاً بسيطاً من قضايا التاريخ، وتحديداً التاريخ الأمريكي الحديث. أما التاريخ القديم والتاريخ والوسيط، وتاريخ الأمم الأخرى فلم يُدرس بالطرق الكمية، وما كتب عن ذلك يُعد بأصابع اليد الواحدة.

لقد نُشرت في الغرب دراسات تاريخية محدودة أخذ بعضها بالمنهج الكمي، والبعض الآخر اكتفى بأن حاول تطبيق المنهج الكمي بصورة بسيطة. أما التاريخ الإسلامي والعربي فلم يشهد محاولة جادة لدراسته حسب المنهج الكمي، هنا علاوة على عدم توفر كتال يتحدثون عن المنهج الكمي نفسه باللغة العربية. وهو سبب في عدم انتشار مثل هذا المنهج لدى المؤرخين العرب. (٣١)

فيما يلي يقترح الباحث عدداً من الخطوات المنهجية تعالج التاريخ الكمي، من وجهة نظر تقنية بحتة. وقد جاءت تلك الخطوات نتيجة لنقص محدود لما كتب عن المنهج الكمي، والنشورة بلغات أجنبية. (٣٢) كما أن هذه الخطوات صيغت بأسلوب يظن الباحث أنها سوف تناسب التاريخ الإسلامي والعربي. تنقسم تلك الخطوات إلى ثمان خطوات، بعضها يؤدي إلى بعض، بمعنى ضرورة المراجعة عند الانتقال من خطوة إلى أخرى. لكن بعض المعلومات التاريخية لا تستلزم الأخذ بكل الطرق، مما يعني أن المؤرخ يستطيع الاختصار على بعض الخطوات دون غيره. هذا ولا بد من التنويه إلى أن الباحث لم يتوسع في كيفية تطبيق الطرق الكمية الواردة في هذا البحث، لأن التوسع في هذا الموضوع سيحيل هذا البحث

إلى كتاب مدرسي في الإحصاء والرياضيات، ومن أراد معرفة تطبيق بعض الخطوات الرياضية الإحصائية الزارد ذكرها في هذا البحث فعليه مراجعتها في مظانها.

الخطوة الأولى ، تصنيف المادة التاريخية Classifying historical data
التصنيف المناسب للمادة التاريخية يفرضه نوعية وطبيعة المادة التاريخية. وفي كل الأحوال هنالك ثلاث طرق لتصنيف، تهدف كلها إلى جعل المادة التاريخية في وضع تصلح للمعالجة حسب المنهج الكمي وهي:
١ - تصنيف المادة التاريخية على أساس الأسماء Nominal Classification
٢ - تصنيف المادة التاريخية على أساس العدد Ordinal Classification
٣ - تصنيف المادة التاريخية على أساس الفترة الفاصلة Interval Classification.

ونلاحظ هنا أن المادة التاريخية تستلزم تصنيفها في واحدة أو أكثر من الطرق الثلاث السابقة.(٢٣) ويستحسن الاختصار على تلك الطرق، وعدم تصنيف المادة التاريخية بطريقة جديدة، لأن هذا يستلزم من المؤرخ إدخال بعض التعديلات على الخطوات المقترحة. وعلى المؤرخ أيضاً ملاحظة أن أي تصنيف جديد لابد أن يتسق مع مجمل الترتيب، والتي يتعامل معها المؤرخ. وألا يكون هنالك تكرار ما، لأن التكرار سوف يؤدي إلى تكرار آخر عند تحويل المادة التاريخية إلى أرقام أو جداول أو رسوم بيانية. ومجمل القول أن التصنيف الأول يقتصر على كل ماله علاقة بالأسماء مثل الجنسية والديانة واللغة والحرف. أما التصنيف الثاني فيعتمد على العدد والأهمية النسبية، مما يسمح بإجراء مقارنة الإحصائية، مثل الطبقات والتراجم ومراتب العلماء، وعدد الحضر والبدو في مدينة معينة. ويهتم التصنيف الثالث بالتغيرات النسبية إلى الفترات وهو قياس احصائي متقدم، حيث يمكن إجراء مقارنات مع تحديد الفترات.

مستوى الأسعار ومستوى الأجور ومستوى الميشة وما تنوي دخل الفرد.

الخطوة الثانية ، تنسيق المادة التاريخية Arranging historical data

وهنا تنتقل إلى الخطوة الثانية، حيث يتوجب تنسيق المادة التاريخية في وضع خاصة إذا كانت المادة التاريخية بسيطة. أما إذا كانت المادة التاريخية كبيرة أو المعلومات التي لمحتويها المادة التاريخية متشابهة، أو مرتبطة بقضية واحدة، أو تعالج قضية واحدة، فتتسق ضمن مجموعة واحدة تدعى Case. ولكن إذا كانت المعلومات التاريخية لا تتشابه، أو أنها تختلف من حالة إلى أخرى، أو أنها تشتمل على أكثر من حالة. فهنا تنسق المادة التاريخية بطريقة تدعى المتغير Variable، ويدعوها آخرون بالصفات المتغيرة.

وبعد أن يكون لدى المؤرخ عدد من الأوضاع Sets أو الحالات Cases أو المتغيرات Variables ينتقل إلى تحويل المعلومات التاريخية إلى معلومة رمزية Data Matrix ويتطلب مهارة جديّة لتحويل الكلمات في النص التاريخي إلى أرقام حسابية أو رموز جبرية، مثل الحروف الهجائية؛ حيث يقرر المؤرخ سلفاً أن الحرف الفلاني يعبر عن العدد العلاتي. وقد يصادف المؤرخ مشكلة وهي زيادة الرموز الجبرية على عدد الحروف الهجائية، وهنا يستطيع المؤرخ اللجوء إلى الترميز أو التدوين التقطي Matrix Notation. وهو إعطاء كل حرف أبجدي رقماً حسابياً بجواره، حيث يتسع حيز الحرف الأبجدي. مثال ذلك حرف A قد يصح A1 أو A2. وهكذا.

وبعد هذا الاجراء ينتقل المؤرخ إلى عمل آخر يُدعى تجميع المعلومات التاريخية Collecting data وذلك طبعاً بعد أن حولها إلى رموز عددية أو نقطية Matrix. وفي هذه الخطوة يجب على المؤرخ أن يعين سلفاً خانة تنسيق المعلومات الرمزية data Matrix التي جمعها، هل هي منسقة في خانة Set أو في خانة Case أو في خانة Variable. عندما يعين هذا الأمر يسهل عليه تبويب

المعلومات، ووضعها في مكانها المناسب، ولكن يجب عليه أن يكون متسقاً في جمعه وتبويبه. (٢٤)

الخطوة الثالثة : التحليل الرياضي Mathematic Analysis

وهذه المرحلة خطوة متقدمة لتحليل ومعالجة المعلومات التي سبق معالجتها في الخطوات السابقة. وقد لا يحتاج المؤرخ لاستعمال هذه الخطوة، عندما تكون المادة التاريخية المراد معالجتها مادة بسيطة. ففي هذه الخطوة ينتقل المؤرخ لتحليل النص التاريخي رياضياً وإحصائياً. وتنقسم هذه الخطوة إلى ثلاث مستويات. يستطيع المؤرخ أن يكتفي بمستوى واحد، وذلك راجع لطبيعة المادة التاريخية. وكل مستوى يؤدي إلى آخر أكثر تعقيداً.

المستوى الأول : توزيع التواتر Frequency Distribution

في هذا المستوى يقوم المؤرخ بإعادة توزيع الأرقام التي سبق أن تحدثنا عنها في جداول إحصائية حسب حالات ترددها الرياضي، لجعلها واضحة لتحليلها رياضياً، وصياغة نتائج من خلال التحليل الرياضي. إن التوزيع التواتري هو وسيلة إحصائية جيدة ومهمة، ويمكن إجراؤها بطرق متعددة للوصول إلى البيانات الإحصائية، وتكمن أهميتها للمؤرخ في أنها تساعد على توزيع الجداول الإحصائية حسب المتغير Variable موضوع الدراسة.

المستوى الثاني : تدوين أو ترميز المحصل Summation notion

وهنا يقوم المؤرخ بتدوين أو ترميز المحصل النهائي الناتج من عملية توزيع التواتر. وعادة ما يستعمل الرياضيون رموز رقمية، فمثلاً الحرف اليوناني المعروف بسيجما Σ يستعمل للدلالة على ضرورة إضافة بعض الأرقام للعملية الحسابية، بينما الأرقام الحسابية الصغيرة التي توضع بين أو يصار أو فوق أو تحت الحرف سيجمما Σ تدل على كيف وماذا يجب إضافته من أرقام. وتكمن أهمية هذه العملية في اختصار الأرقام العديدة الكبيرة، وإثني تعاليم

نصوص أو بيانات كبيرة ومتعددة.

المستوى الثالث : اللوغاريتمات Logarithms

يتعين على المؤرخ أن يحسب ويحلل تغيرات التناسب Proportionate Changes مثل التغيرات التي تطرأ على الصادرات أو الواردات للدولة سنوية للمدة نفسها في سنة محددة. وللقيام بمثل هذه العملية الرياضية يستلزم اللجوء إلى اللوغاريتمات؛ والتي تهدف إلى تبسيط العمليات الحسابية ذات الأرقام الكبيرة. ونظراً لشبوع الحاسبات الالكترونية Electronic Calculators فإن اللوغاريتمات أصبحت سهلة التناول في ميادين كثيرة ومنها ميدان الدراسات الإنسانية. وتنقسم اللوغاريتمات كما هو معروف إلى ضربى . الأول لوغاريتم ذات قاعدة 10، والثاني لوغاريتم ذات قاعدة e. والضرب الأول هو المستعمل في ميدان الاحصاء والاحصاء التربوي ، ولنا يصلح استعمالها في ميدان الدراسات التاريخية. ويتضح أن الهدف من استعمال الضرب الأول من اللوغاريتم هو إيجاد الجزء العشري للوغاريتم المعروف باسم Mantissa وايضاً الجزء العشري Decimal. (٢٥) مثال ذلك من اللوق Log ذي القاعدة 10

لوغاريتم 10 = 10000

لوغاريتم 10 = 10 أو 20000

لوغاريتم 10 = 10 أو 30000

وهكذا

الخطوة الرابعة ، التحليل الأولى للمعلومة Data Preliminary Analysis of

بعد الانتهاء من الخطرات والعمليات السابقة يبدأ المؤرخ في تحليل تمهيدي

للمعلومات التاريخية التي لجمعت لديه في صيغ رياضية أو احصائية. ولعل أول

ما يجب فعله هو إيجاد ما يُعرف بالاحصاءات الوصفية Descriptive Statistics

وهذه العملية هي المسئولة عن تنظيم وعرض المعلومات التاريخية . وهي ليست

صعبة، ليكتفي المؤرخ أن يضع ماتوصل إليه في جداول احصائية متعددة الأغراض. ، ليسهل التعرف بسهولة على طبيعة ونوع المعلومة، وبهذا تكون هذه الجداول وصف وتنظيم للمعلومة التاريخية. وهذه العملية قد تضاد عملية احصائية أخرى تعرف باسم الاحصاءات التحليلية Analysis Statistics . ولكن هذا التضاد لا يهمنا في هذه المرحلة، لأن الحصاءات الوصفية هي نفسها احصاءات تحليلية في مجال التاريخ .

وقد بحثنا المؤرخ إلي نقل ما وصل إليه بالأسلوب السابق إلى الأسلوب الأكثر تعقيداً في المجال الاحصائي. وهو الأسلوب المعروف باسم التصنيف أو الترويب الترافقي Cross-Classification ويعني هذا الأسلوب وضع المعلومات التاريخية في عدد من الجداول. ويهدف هذا الاجراء إلى اعطاء المؤرخ صورة أوضح، ومن جوانب متعددة، عن الأرقام التي يدرسها، ليصل إلى استنتاج أشمل. وخاصة أن المؤرخ عليه أن ينتقل إلى مرحلة أخرى يضع فيها المعلومات التاريخية - النتيجة لديه من خلال الخطوات السابقة - في قوائم احتمالية ذات نسبة مئوية Percentage Contingency Table وتتميز هذه القوائم عن الجداول السابقة، أن الأخيرة تظهر بصورة أوضح كل المتغيرات والتوزيع المئوي لكل الأرقام، والتي وصل إليها المؤرخ في مراحل سابقة .

وبما هو جدير بالذكر أن لا يكتفي المؤرخ بالحصول على قوائم احتمالية ذات النسبة المئوية Percentage Contingency Table، وهو عمل رائع وشاق في الوقت نفسه، ولكن عليه أن يقوم بتحويل تلك القوائم إلى رسوم بيانية Charts، ذلك أن البعض يجد الرسوم البيانية أسهل وأسرع في التعرف على المتغيرات . وكذلك أقرب للوصول إلى استنتاجات نهائية Conclusion. والرسوم البيانية متعددة الأنواع، ولكن أنسب الأنواع للدراسات التاريخية هو المعروف باسم Bar Chart وهو السائد في الرسوم البيانية ، وعادة ما يستعمل مع المعلومات المصنفة على أساس الترتيب الاسمي Nominal Data . وهذا النوع من الرسوم البيانية لا

يتطرق للمعلومات المصنفة على أساس العدد Original Data ولا المعلومات المصنفة على أساس الفترة الفاصلة Interval Data . فلك المعلومات يمكن أن تدرس بواسطة عدة أساليب بيانية منها ما يُدعى الرسم البياني النسبي Histogram ومنها الرسم البياني باستعمال اشارات مختارة Graphical Form مثل النقاط أو النجوم، ومن ثم وصل تلك النقاط أو النجوم بخط يُدعى A Line-Graph . تلك الرسوم يطلق عليها علماء الاحصاء اسم Diagram . كما يستطيع المؤرخ أن يلجأ إلى استعمال الرسم بالميزان النسبي Ratio Scale Graph ، وذلك عندما يقارن بين نسب مئوية متعددة في فترات متعددة أيضاً، وعادة ما يكون هذا الأسلوب معتمداً على اللوغاريتمات. (٣٦) والباحث لا يرى استعمال رسوم بيانية معقدة أو تعتمد على عمليات حسابية معقدة . ففي مجال التاريخ لا توجد معلومات وأرقام كثيرة تتطلب نوعاً معقداً من الرسوم البيانية . ولذا فإن الرسم البياني للدراسات التاريخية هو الرسم البياني المعروف باسم Bar Chart .

الخطوة الخامسة، التحليل المتقدم للمعلومة Advanced Analysis of Data:
وأدعوها بالمتقدمة مع أنها خطوة مكملية للخطوة الرابعة، ذلك أن المؤرخ يقوم بإتمام ما بدأه في المرحلة الرابعة ، حيث يعمل القياس النهائي للنتائج التي وصل إليها . وهناك ثلاث طرق لقياس النتائج، تبدأ من الطريقة السهلة وتنتهي بالطريقة المعقدة. وقد لا يحتاج المؤرخ لكل هذه الطرق، فالأمر كما أسلفنا متروك للمادة التاريخية، ومتروك أيضاً لهدف الدراسة الذي يرومه من وراء تطبيقه للمنهج الكمي.

الطريقة الأولى : المتوسط الحسابي Arithmetic Mean

وتعني حساب رقم محدد لتمثيل أو اختصار مجموعة من الأرقام، كما تعني الوصول إلى المعدل Average وهذه الطريقة أيضاً تركز على الميل المركزي.

هذا ولا يمكن استعمال هذه الطريقة إلا مع المادة التاريخية المصنفة على أساس الفترات التاريخية Interval Data.

الطريقة الثانية : المتوسط الهندسي Geometric Mean

وهي طريقة أخرى للحصول على المتوسط Average، وهذه الطريقة صالحة فقط لمعالجة المادة التاريخية المصنفة على أساس الفترات التاريخية Interval Data. وهي قليلة الاستعمال، لكن أغلب المؤرخين الأمريكيين يفضلون هذه الطريقة، وخاصة في دراسة التاريخ الاقتصادي.

الطريقة الثالثة : الوسيط Median

وهذه الطريقة تساعد بسهولة على قياس الميل المركزي للمعلومات التاريخية . كما أنها تستعمل مع المادة التاريخية المصنفة على أساس العدد Ordinal Data والمادة التاريخية المصنفة على أساس الفترات التاريخية interval Data . والمتوسط الحسابي يعني حساب وترتيب الحالات مع الأخذ بعين الاعتبار المتغير والقياس ، وهو ينقسم إلى ثلاث أقسام :

رباعي Quantiles - عشري Deciles - مئوي Percentiles

فالأول يقسم المعلومات التاريخية إلى أربع مجموعات، والثاني يقسم المعلومات التاريخية إلى عشر مجموعات، بينما يقسم الثالث المجموعات التاريخية إلى مائة مجموعة.

لكن إذا كانت المادة التاريخية من النوع المصنف على أساس الاسماء Nominal Data فإن الطرق السابقة لا تصلح مع هذا النوع من المواد التاريخية لإيجاد المعدل أو الميل المركزي. بل لابد من عمل صيغة أو شكل يُطلق عليها النوال Model Value . وهي صيغة تهدف إلى معرفة أكثر الحالات التي يزداد في المعلومات، وهو أسلوب يستعمله بكثرة مؤرخو الدراسات السكانية (٣٧) ويعالج المتوسط بأنواعه تعدد مصادر المعلومات التاريخية، واختلافها مع عدم وجود أدلة كافية لتوجيه مصدر أو معلومة تاريخية معينة.

الخطوة السادسة ، تحليل السلاسل الزمنية Analysis of Time Series

عندما تكون المادة التاريخية على شكل حواريات، هنا يُستحسن دراستها بطريقة خاصة . فبعد أن يطبق المؤرخ عليها الخطوات الأولى والثانية والثالثة ، يقوم بوضع ما ينتج لديه في جداول نقطية Data-Matrix Chart . وهنا الإجراء ليس بدعاً، فإن أغلب المعلومات التاريخية تأتي بهذه الصورة، مثل جداول السكان، والرتاج الزراعي، وأرقام البطالة ، والصادرات والواردات وغيرها. وعند استعمال هذه الطريقة سوف يجد المؤرخ أن المعلومات التي كتبت بطريقة حورية قد تحولت إلى جداول نقطية، مما يسهل التعرف على المتغيرات وسراها . لكن سيواجه المؤرخ مشكلة وهي الوقت أو الزمن. لأن أغلب الحواريات يتدخل فيها الزمن القصير مع الزمن الطويل، ولأنه أمام ضرورة رياضية ملحة، وفي تحليل الوقت Time Analysis؛ الذي يتطلب معرفة أهداف واحتمالات تحليل الوقت، مثل نسبة الزيادة أو التطور في الوقت مقارنة مع تغيرات أخرى كالإنتاج، وهو ما يعرف بلغة الاحصاء النزعة Tendency. وهو نزعة حالة تاريخية معينة لاتجاه محدد بصرف النظر عن المتغير الإحصائي المصاحب لتلك الحالة.

كما يصاحب تحليل السلاسل الزمنية ما يُعرف بالتموج الطبيعي لسلطنة الوقت Regular Fluctuation in Time Series . وعادة هنالك ثلاث حالات من التمرج، إثنين طبيعيتان ، والثالثة غير طبيعية. الأول يُدعى بالمتغير الموسمي Seasonal Fluctuation وهو التمرج المتأثر بالمتاخ، وأوقات العمل وساعاته، أو أوقات العبادة وغير ذلك ... والثاني تمرج عرضي ذو علاقة بالإنتاج كالأشراء والبيع والتصدي . والثالث تمرج دوري ذو علاقة بالقوانين مثل الأعياد والمناسبات الدينية، والمناسبات الرسمية، والاجازات، وعلاقة كل ذلك بالعمل والإنتاج. (٣٨) .

الخطوة السابع، العلاقة بين المتغيرات Relationship between Variables المؤرخ الذي يرد أن يكتب مميّزاً بالطرق الكمية، عليه أن يقف عند الطرق الكمية السابقة. بل عليه أن يتعرف على طرق أكثر تعقيداً وتطوراً، والتي ستساعده في تحليل أرقى للمادة التاريخية وتفسيرها. ولعل من أهم المشكلات التي تواجه المؤرخ عند تحليله للتاريخ وتفسيره هي العلاقة بين مجموعات من الحوادث التاريخية، أو العلاقة بين المتغيرات .

وتعرض المتغيرات لأغلب مناهي الحياة، ويستدل عليها بأرقام احصائية لقياس التغير النسبي في مستوى ظاهرة معينة في فترة معينة (تسمى فترة المقارنة) ومقارنتها بفترة أخرى (تُدعى فترة الأساس) ولعل ما يُدعى بالأسلوب الترابطي والتراجعي Correlation And Regression Technique . هو الأسلوب الناجح في معالجة تلك الزنوج من المشكلات. مثال ذلك معرفة هل هنالك علاقة احصائية ومن ثم تاريخية بين الدخل والمستوى الاجتماعي في بغداد أيام دولة العباسيين، أو بين الواردات والصادرات المكية في القرن الأول الهجري. يتحتم اجراء فحص احصائي دقيق لمعرفة العلاقة بين الحوادث التاريخية، وهل هنالك حوادث جانبية ضمن تلك الحوادث المذكورة، ومستقلة تماماً عن غيرها، أو من نوع العلاقة بين الحوادث نفسها، مثل هل تلك العلاقة هشة أم قوية، لدرجة عندما تحدث الحادثة A لا بد أن تحدث الحادثة B. أم أن العلاقة ضعيفة لدرجة أن B ستتبع A ولكن ليس دائماً . وهل عندما تزداد A فإن B تزداد، أم العكس فعندما تزداد A فإن B تقل أو تضعف. ولكن قبل أن يطبق المؤرخ الأسلوب الترابطي والتراجعي عليه أن يسأل نفسه هذه الأمثلة:

- ١- هل هنالك علاقة بين مجموعة المتغيرات؟
- ٢- ما قوة تلك العلاقات؟
- ٣- ما طبيعة أو شكل تلك العلاقة؟
- ٤- هل هنالك حوادث جانبية لا تدخل ضمن المتغيرات؟ (٣٩)

الخطوة الثامنة، مشكلات المعلومات غير الصحيحة Problem of Imperfect Data :

هذه مشكلة عويصة تواجه المؤرخ على وجه الخصوص . ويملك المنهج الكمي طريقة رياضية لمعالجة هذه المشكلة. ولكن هذا لا يعني إلغاء الطرق والأساليب المعروفة والمتعلقة بالتأكد من صدق المعلومات، التاريخية. كما يملك المنهج الكمي حلاً رياضياً لمعالجة مجموعة من المعلومات، والتي لابد وأن تكون قد تداخلت وربما طفت على مجموعة أخرى. وقد قسم أصحاب المنهج الكمي المعلومات التاريخية إلى نوعين أو مجموعتين. الأولى تُدعى Data Set والثانية عبارة عن مجموعة من المجموعة الأولى وتُدعى Set of Cases. وهي تكون رموز متغيرة Set of Variables Characteristics، وهذه أيضاً يندرجها تميز كل حالة عن أخرى، وتشكل كل الحالات مجموعة معلومات مثالية ورمزية Ideal Data Matrix.

هنا التوزيع الهرمي للمعلومات التاريخية بتعدد معالجتها اقتصادياً رياضياً، لا يمكن للمؤرخ أن يصل إليه بدون المنهج الكمي، لأنه توزيع هرمي معقد يفكك الحوادث والروايات التاريخية إلى مجموعة ثم حالة ثم رمز متغيرة وأخيراً مجموعة مثالية ورمزية. إن بعض المعلومات التاريخية البسيطة من السهل معها تحديد مجموعة مثالية ورمزية Ideal Data Matrix دون تطبيق كامل الخطرات الهرمية السابقة.

وكلما زادت الحالات والمتغيرات كلما أصبحت صيغة المعلومات المثالية أكثر صعوبة . وعلى المؤرخ أن يلاحظ أن العلوم الرمزية الحقيقية تختلف عن المعلومة الرمزية المثالية. ولكن والحال كذلك، على المؤرخ أن يعيد صياغة ما يريد بحثه بحيث تبدو له المعلومات . - ستة مع الأشكال أدوية التالية :-

- ١- معلومات كثيرة.
- ٢- معلومات مفقودة في وحدة أو أكثر من وحدات.
- ٣- معلومات مفقودة في متغير واحد أو أكثر.

الخلاصة

هذا استعراض سريع لأغلب الخطوات الكمية التي يعمل بها أصحاب التاريخ الكمي . ولكن هنالك سؤال طالما تفرز إلى الذهن وهو: هل يتوجب على المؤرخ الذي يود معالجة المادة التاريخية بالتهج الكمي أن يلم بكل الطرق والأساليب الاحصائية السابقة؟ والجواب البديهي بالنفي. فالذي يقرر ماذا نستعمل من أساليب وطرق كمية هو طبيعة المادة التاريخية نفسها. يأتي بعد ذلك طبيعة المتغير ودرجته (متغير المعلومة التاريخية) وثالثاً طبيعة استعمال مقياس الاختصارات ومدى ملاحظته للمعلومة التاريخية .

لكن في بعض الحالات لا يجد المؤرخ أمامه اختياراً واضحاً. ففي تاريخ الأديان - مثلاً - يصعب تطبيق الخطوات الاحصائية المعقدة، أو اعتماد رسوم بيانية متطورة . هذا عكس تاريخ السكان ، حيث يستطيع المؤرخ تطبيق كل أو أغلب الطرق والأساليب الكمية. لأن كل خطوة تساعد المؤرخ في رصد تطور معين . فبينما يوضح أسلوب النزال Model Value على تحديد سن السكان في مرحلة زمنية معينة، وبصورة تقرب من الواقع. نجد أن الوسيط Median يستبعد أكثر الحالات شذوذاً. وهذا عكس المتوسط الحسابي Arithmetic Mean الذي يتسع لكثير الحالات شذوذاً. وهذا ما يجعلنا نؤكد على أهمية معرفة العلاقة بين كل أدوات القياس التي يروم المؤرخ لاستعمالها .

كما يفضل أن يستعين المؤرخ بأسلوب احصائي للتقدير، وهنالك نوعان من أساليب التقدير. الأول يُدعى التقدير بقيمة Point Estimation، وهو تقدير لمُصنّص أو معالم مجتمع ما بقيمة وحيدة . والأسلوب الثاني يُدعى التقدير بفترة Interval Estimation، وهو تقدير لمُصنّص أو معالم مجتمع ما بقيمة فترة تقع بين قيمتين. كما يستحسن أن يستعمل المؤرخ ما يُدعى باختبارات الفروض،

والتي تساعد على التحقق من صحة الفروض التي يعتمدها المؤرخون.

ولقد رافق انتشار التاريخ الكمي ثورة المنسق الصغير Micro-Processor وهو الحاسب الشخصي، والذي قدم وسبق قدم مساعدة راتعة في مجال تحليل المعلومات التاريخية، ويتوقع العاملون في ميدان تطبيقات الحاسب الآلي منحل أغلب إن لم يكن كل المشكلات البحثية التي تواجه المؤرخ. وفي ظني أن مستقبل التاريخ الكمي مرتبط بتطور وانتشار الحاسب الآلي. (٤١) ولا أدل على ذلك من قيام بعض المؤسسات العلمية في الغرب بإنشاء بنك المعلومات Data Bank. مثل البنك البريطاني للمعلومات الذي أسس في سنة ١٩٦٧ م في جامعة إيسكس Essex، وهذا البنك يهتم بجمع المعلومات عن التاريخ المعاصر. بل إن التاريخ الأمريكي في القرنين التاسع عشر والعشرين لم يتم تفريفه حسب المنهج الكمي في مجلدات تحتوي على بطاقات كومبيوتر. وكان لاتعداد الجامعات الأمريكية للبحوث السياسية في آن أدير دور كبير في ولجأ مثل هذا العمل الكبير. (٤٢)

وتبرهن مثل تلك الاعمال على مدى اهتمام الغرب بالتاريخ الكمي، حتى أن أحد فلاسفتهم قال (الشيء يُعرف بالكامل ما عدا الكليات أو بواسطة الكليات) (٤٣) وهو قول فيه مبالغة لا تخفى. لكن الأعمال التاريخية التي خضعت للمنهج الكمي أثبتت نجاحاً مثيراً. ولن يعرق انتشار التاريخ الكمي في مناطق أخرى خارج أوروبا وأمريكا سوى أمور ثلاثة: الأول يجدد عدد كبير من المؤرخين صعوبة في التكيف مع طرائق المنهج الكمي. والأمر الثاني عدم توفر مراكز البحث العلمي أو بشك المعلومات الكمية خارج أوروبا أو أمريكا، مهما أدرأن ضرورياً لإجراء البحوث الكمية. والأمر الأخير هو ارتفاع كلفة إعداد البحوث التاريخية الكمية، مما يقف حجر عثرة في طريق عدد كبير من دول العالم.

الهوامش

Marczewski, Gean, Introduction a L'histoire, - ١

Geneve (Droz 1965) p.33.

تأين ما نقلناه من آراء ماركزوسكي بما كتبه جعري باراكلو في : الاتجاهات العامة في الابحاث التاريخية ، ترجمة صالح العلي ، بيروت (مؤسسة الرسالة ١٩٨٤) ص ١٥٥ .

Price, Jacob M., Recent Quantitative Work in - ٢

History : A Survey of Main Trends Studies in Quantitative history, Beitft (1969) p.11.

Gress, Doland, The Incidence of the Terror During - ٣

thr French Revolution : A Statistical Interpretation, Cambridge (Mas Univ. Press 1953) pp. 97-99.

(Univ. Zeisel, Han, Say it with Figure, New York, - ٤
of New York 1974) p.4.

Ibid.. p.15 - ٥

Ibid., p - ٦

Ibid.. p.48. - ٧

Adyelotte, William, Quantification in History, - ٨

Massachusetts (Adisson Wesley Publication Co. Ltd.1971) p.18.

٩ - بارالكور ، الاتجاهات ، ص ١٤٥

Topolski, Jerzy, Methodology of History. - ١٠

translated from the polish by Olgired Wogtaslewics,
(Pwn - Polish Scientific Publication, 1967) Warsaw
p.483.

يقول بارالكو أن التاريخ الكمي قد طغى على اجراء المؤتمر، ذلك أن عدد البحوث
التي ناقشت التاريخ الكمي تفرق غيرها بنسبة كبيرة ، ومن ضمن تلك البحوث
ما يلي:

- بابادولس ، طريقة العلوم الاجتماعية في البحث التاريخي .

- شيلر ، الانفصال بين طريقتي علمي التاريخ والاجتماع .

- ديربروك ، التاريخ في مفترق طرق العلوم الإنسانية .

- ستان ، تاريخ التقدم وتاريخ التكون .

- هيكستر ، التاريخ والعلوم الاجتماعية والتقدير الكمي

انظر بارالكو ، الاتجاهات ، ص ١٥٥

١١ - بارالكو ، الاتجاهات ، ص ١٥٦ .

١٢ - Contand, Alfred H., & Meyer, John R., (The
Economic of Slavery and Other Studies) in
Econometric History, Chicago, (n.p.1964), p.66-82.

١٣ - Grees, op. cit., pp.97-98.

١٤ - Morris, William, The American Hertrage -
Dictionary, Boston (Houghton Mifflin Co.1986).

١٥ - Hexter, J. h. (Review of the History Primer) -
Encounter40, (April1973) p.64.

١٦ - Barzun, Jacque, Clio and the Doctors: -
Psycho-History, Quanto History and History, Chicago

(Univ. of Chicago 1974) p.55.

١٧ - يقول لوينسون Le Benson إن كلمات مثل (نموذجي ، تشيل ، ذو مغزى ، منتشر نامي وقوي) هي كلمات تحمل دلالات كمية ، بصرف النظر عن كون من يقول بها يدرك ذلك .
أنظر :

Le Benson, (Research Problems in American Politics Historiograph) in: Komarovski, Mirra, Frontier of the Social, Glence, (1970) p.117.

١٨ - باراكلو ، الاتجاهات ، ص ١٥٦ .

١٩ - نفسه .

Price, op. cit., p.11. - ٢٠ .

٢١ - لاشك أن محاولة تطبيق منهج الاقتصاديين أثر في تنمية وتطوير التاريخ الكمي ، لدرجة أصبحت الفجوة بين المؤرخين والاقتصاديين ضيقة . حول هذا الموضوع انظر :

Vilar, Pierre, (Pour une Meilleur Compré Hension entre Economistes et Historiens) Reveu Historique ccxxxiii,2 (Apr. June 1965) pp.293-312.

Adyelotte, op. cit., p.20. - ٢٢

٢٣ - بارالكر ، الاتجاهات ، ص ١٦١ .

٢٤ - نفسه ص ١٤٧ .

Marczewski, op. cit., p.190. - ٢٥

Adyelotte, op. cit., p.13. - ٢٦

Ibid., p.21. - ٢٧

٢٨ - بارالكو ، الاتجاهات ، ص ١٠٧ .

٢٩ - نفسه ص ١٥٨ .

Shennan, Stephen, Quantifying Archaeology - ٣.
Edinburgh (Edinburgh Univ. Press 1988) p.1

٣١ - لم يطلع الباحث على دراسات كمية في التاريخ العربي والإسلامي سوى أعمالاً قليلة ، سيُخصى لها مقالة تدلج تقنية تلك الدراسات ونتائجها والأعمال هي :

- شارل بولا Charles Bulliet ، معدل المواليد في زمن النبي (ص)، ترجمة فاطمة عصام صبري ، وسائل جغرافية (١٩٩٢) ، الكويت (إصدار الجمعية الجغرافية الكويتية 1989) .

Bulliet, Richard. Conversion to Islam in the Medieval -
Period: An Essay- in Quantitative History, Boston,
(Harvard Univ. Press 1979).

Bulliet, Richard, (A Quantitative Approach to Medieval
Muslim - Biographical Dictionaries) JESHO XIII (1970)
pp.195-211.

Petry, Carl, Elite of Cairo in the Late Middle Ages,
Princeton.

٣٢ - هذه قائمة بكتب التاريخ الكمي التي اعتمد عليها الباحث مرتبة حسب أهميتها وعدد مرات ورودها في ثنايا البحث .

Floud, Rodrick, An Aintroduction to Quantitative -
Method for historian, London (Metnuem Co
Ltd.1973).

Lorwin, V. R. et al., The Dimension of the past, –
Materials, Problems and Opportunities for Quantitative
Work in History, New York & London (Yale Univ.
Press1972).

Drake, M., Historical Data and the Social Science, –
vol.1 (The Quantitative Analysis of Historical Data)
Milton Keynes (Open Univ. Press1974.

Anderson,R.H., ed.,The New Economic history –
Recent Paper on Methodology, New York (John
Wiley1970).

Floud, op. cit., pp.7-15 Also see Hoel P., – ۳۳
Introduction to mathematical Statistics, New York,
(John Wiley & Sons Inc.1984) p. passim.

Ibid. pp.17-23 Also see Topolski, op. cit., p.495 – ۳۴
and Mood, A.M. Introduction to Theory of Statistics,
New York, (McGraw Hill Book Co. Inc.1963)
p.passim.

Floud, op. cit., pp.28-38 . – ۳۵

Ibid., pp.42-54 Also see Hogg R.et al. Introduction – ۳۶
to Mathematic Statistics, New York (MaCmillan
Publishing Co. inc.1987) p. passim.

Floud, op. cit., pp.67-82. – ۳۷

Ibid . pp.90-122. – ۳۸

Ibid. pp.130-156 Also see Topolski, op. cit., - ٣٩
p.515.

Floud, op. cit., pp.164-193. - ٤٠

٤١ - لقد صمم أحد علماء الآثار برنامجاً على الحاسب الآلي لدراسة سقوط
حضارة المايا ، وقد أثمر هذا البرنامج عند تطبيقه على نتائج مثيرة ، انظر :

Hammond, N. ed., Social Processes in Maya
Prehistory 533-90, New York (Academic Press 1977).

وعن استعمال الحاسب الآلي في الدراسات التاريخية انظر :

Topolski, op. cit., p.524.

Shorter, E. The Historians and the Coputer : A وكذلك انظر
Practical Guid New York (Englewood 1971) p. passim.

٤٢ - الجهة المسؤولة عن هذا العمل هي :

Inter- univ. Consortium for political Reasearch at Ann
Arbor, MI. USA.

Kepler Says : (Nothing can be known completely - ٤٣
except quantities or by quantities) see: Schwar, Robert,
: Quantification in the History of Political Thought
Toward A Quantitative Approach , London
(Greenwood press 1981).

المراجع

- Adyelotte, William,
Quatification in History, Memo park.
(Addision-Wdsley publication co. Ltd.1971).
- Anderson, R. H., ed.
The New Economic History. Recent paper on
Methodology, New York, (John Wiley1970).
- الامجاعات العامة في الابحاث التاريخية ، ترجمة صالح العلي بيروت
Barracclough, Geoffrey. (مؤسسة الرسالة ١٩٧٤ م)
- Barzun, Jacque,
Clio and the Doctors: Psycho-History, Quanto.
History & Chicago, (Univ. of Chicago1974)
- Brinton, Clearnce Crane,
The Jacobins: An Essay in the New history, New York
(1930).
- Contand, Alfred H. & et al.,
(The Economics Slavery and other Studies) , in
Econometric History Chicago (1964).
- Drake, M.,
Historical Data and The Social Science, Vol.1(The
Quantitative Analysis of Historical Data) Milton

- Keynes, (Open Univ. Press1974).
- Floud, Rodrick,
An Introduction to Quantitative Method for Historian,
London (Methuen C. Ltd.,1973)
- Grees. Doland,
The Incidence of the Terror during the French
Revolution: A Statistical Interpretation, Cambridge,
(Mass. Univ.1935).
- Hammond, N., ed.,
Social Processes In Maya Prehistory533-90) New York,
(Academic Press1977).
- Hexter, J. H.,
(Review of the History Primer) Encounter40,
(April1973)
- Hoel, p.,
Introduction to Mathematical Statistics, New York,
(John Wiley & Sons inc.1984).
- Hogg, R. & et al.,
Introduction to Mathematic Statistics, New York,
(MaCmillan Publishing Co. inc.1978).
- Komarovsky, Mirra,
Frontier of the Social Science, Glence, (n.p.1970).
- Lorwin, V.R. & et al.,
'The Dimension of The Past, Materials, Problems and

Opportunities for Quantitative Work in History, New
 York & London (Yale univ. Press1972).
 Marczewski, Gean,
 Introduction a L'histoire, Geneve (Droz1965)
 Mood, A. M.,
 Introduction to Theory of Statistics. New York,
 (McGrew Hill Book Co. inc.1963).
 Morris, William, The American Heritage Dictionary,
 Boston (Houghton Mifflin Co.1961).
 Price, Jacob M.,
 Recent Quantitative Work in History : A Survey of the
 Main Trends Studies in Quantitative History,
 Beiteft,9,1969.
 Schware, Robert,
 : Quantification in the history of Political Thought
 toward A A Quntitative Approach, London
 (Greenwood Press1981).
 Shennan, Stephen,
 Quantifying Archaeology, Edinburgh (Edinburgh
 Univ. Press1988) Shorter, E.,
 The Historians and the Computer: A practical Guid,
 new York (Englewood Cliffs1971).
 Topolski, Jerzy,
 Methodology of History, Translated from the Polish by

Olgierd Woglasiewicz, Warsaw (Pwn-Polish Scientific
Publicatio1967).

Vilar, Pierre,

(Pour une Meilleure Compre Hension Entre
Economistes Et Historiens) Revue Historique ccxxxiii,2
(Apr-June1965).

Zeisel, Han,

Say it with Figure, New York,1947.

بنو تافراجين
ودورهم في تاريخ الدولة الحفصية
(٦٤٧ - ٨٢٧ هـ / ١٢٤٩ - ١٤٢٤ م)

للدكتور
كمال السيد أبو مصطفى
أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية العربية - جامعة الاسكندرية

أولية بنى تافراجين .

لعبت بعض الأسر العريقة دوراً مهماً في تاريخ الدول الإسلامية، سواء في المشرق أو المغرب الإسلامي، ومن أمثلة ذلك: أسرة البرامكة في العصر العباسي الأول، والوزير بقر الجمالي وابنه الأفضل في العصر الفاطمي، وبنو عامر في عصر الدولة الأموية بالأندلس، وبنو عباد أصحاب إشبيلية في عصر دولات الطوائف، وغيرهم كثير.

وفي إفريقية (المغرب الأدنى) خلال العصر الحفصي (القرن ٥٧-٥١هـ/ ١٢-١٥م) اشتهرت العديد من الأسر العربية والبربرية، التي يرجع أصلها إما إلى الأندلس أو المغرب، ومن ذلك: بنو سيد الناس الإشبيليون وبنو أبي الحسين الأندلسيون (١١)، وبنو تافراجين (٢) البربر وغيرهم من البيوتات البارزة، التي أسهمت في تاريخ إفريقية السياسي والحضاري خلال عصر الدولة الحفصية.

أما بنو تافراجين - موضوع البحث - فهم من الأسر الموحدية البربرية الشهيرة، وأصلهم من بربر تينمل (٣)، الذين ينتمون إلى قبائل مصمودة بالمغرب الأقصى، ولع اسمهم منذ بداية عصر الموحدين أي مع ظهور دعوة الإمام

(١) راجع التفاصيل حول تلك الأسر الأندلسية ودورها في العصر الحفصي في بحثي: «الأندلسيون في تونس وإسهاماتهم الحضارية»، مجلة كلية الشريعة - جامعة الإسكندرية عام ١٩٩٢م.

(٢) وردت كلمة «تافراجين» في المصادر العربية في صيغ متعددة منها: تافراجين وتفرجين وتيفراجين وتفرأجين وتافراكين وتافركين.

(٣) تينمل (أو تمل أو تملل أو تامللت): حصن يقع بمنطقة جبل درن (أحد جبال أطلس) بهلاء السوس جنوب المغرب الأقصى. وهو حصن متيج صعب الارتفاع. ويذكر ابن خلدون أن قبائل المصامدة كثيرة بتلك المنطقة ومنهم هتاتة وتينمل ومرغة، ويضيف المراكشي أن الإمام المهدي بن تومرت اتخذ من حصن تينمل مركزاً له لحصانه ومناعته، ومنه قامت دعوته، وبه قبره. راجع التفاصيل حول وصف تينمل في: (مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب =

المهدي بن تومرت زعيم الحركة الموحدية في المغرب، حيث كان جدهم أبو حفص عمر بن تافراجين من أهل خسين (١)، وأحد أعوان المهدي في نشر دعوة الموحدين بين بربر تينملل، فقد قام ببايعته على رأس أهل بلده تينملل عند وصوله إليها في سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ - ١١٢٢ م. (٢)

وفي عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي أول خلفاء الموحدين -

= الأمصار، لمحقق سعد زغلزل عبد الحميد، مطبعة جامعة الاسكندرية، ١٩٥٨، ص ٨. ٢.
المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لمحقق محمد سعيد العربي، القاهرة، ١٩٦٢ م.
ص ٢٥٤: ابن خلدون، العبر، ج ٦، طبعة بيروت ١٩٧٩، ص ٢٢٤: الحميري الروض العطار في خبر الأقطار، لمحقق إحسان عباس، ط ٢، بيروت، ١٩٨٤، ص ١٢٨: عبد العزيز بن عبد الله الموسوعة المغربية للأعلام (معلة المدن والقبائل) مطبوعات وزارة الأوقاف المغربية، عام ١٩٧٧، ص ١٦٢: عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، ج ١، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٨ م، ص ٣٠٣-٣٢٤: دوجي لي تورنو، حركة الموحدين، ترجمة أمين الطيبي، النار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، ١٩٨٢، ص ٣٤-٣٥.

Basset et Terrasse, Sanctuaires et Forteresses almohades (collection Hesperis) Paris, 1932, pp.1-8

(١) أهل خسين (أو أيت خسين): صنف الإمام المهدي أصحاب طبقات، فجعل منهم العشرة أو أهل الجماعة، وهم المهاجرون الأوائل الذين أسرعوا إلى إجابته، أما أهل خسين فهم الطبقة الثانية، وكانت تتكون من خسين عضواً من عدة قبائل ساهمت في تأسيس حركة الموحدين في المغرب، ومنهم أهل تينملل، ويذكر المراكشي أن هذه الطبقات لا تجمعها قبيلة واحدة، بل هم من قبائل شتى، وكان المهدي يطلق عليهم اسم «المؤمنين». انظر (البليزق، أخبار المهدي بن تومرت، طبعة ليفي برونفسال، باريس ١٩٢٨، ص ٣٤: المراكشي، نفسه، ص ٢٥٢: ابن خلدون، نفسه، ج ٦، ص ٣٤٨: السلاوي الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ٢، النار البيضاء، ١٩٥٤، ص ٨٥: هيكتز النظم الإسلامية في المغرب، ترجمة، أمين الطيبي، النار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، ١٩٧٧، ص ١٩٣-١٩٦).

(٢) البليزق، نفسه، طبعة برونفسال، ص ٣٤: السلاوي، نفسه، ج ٢، ص ٢٨٥: عبد الوهاب بن منصور، نفسه، ج ١، ص ٣٢٣: محمد الهادي العامري تاريخ المغرب العربي، تونس، ١٩٧٤، ص ١١٢: هيكتز، نفسه، ص ١٦٤-١٦٥.

(٥٢٤-٥٥٨هـ/١١٣-١١٦٣م)، ولى عمر بن تافراجين على قاس عندما فتحها الموحدون في سنة ٥٥٤هـ/١١٤٥-١١٤٦م، ثم تولى مراكش إثر فتحها في سنة ٥٥٤١هـ/١١٤٦-١١٤٧م، حيث كان الخليفة عبد المؤمن يستخلفه على الامارة والصلاة اثناء غيابه عنها، مما يدل على المكانة البارزة التي تمتع بها مؤسس هذه الأسرة لدى الموحدين، غير أن ابن تافراجين لم يلبث أن قتل بقصبة مراكش على أيدي بني أمغار -أخوة المهدي- حينما ثاروا على الخليفة عبد المؤمن بمراكش في سنة ٥٥٤٩هـ-١١٥٤-١١٥٥م مستهزين فرصة غيابه لزيارة قبر الإمام المهدي بتمنمل (١).

وبعد وفاة عمر بن تافراجين خلفه ابنه عبد الله الذي تمتع بنفس المكانة المرموقة التي كانت لوالده، فتذكر المصادر أنه كان من كبار الموحدين ومشيختهم ومن ذوي الرأي والمشورة في الدولة الموحدية. ومما يدل على ذلك أنه عندما أسند الخليفة يوسف بن عبد المؤمن - (٥٥٨-٥٥٨هـ/١١٦٣-١١٨٤م) ولاية قرطبة لأخيه السيد أبي إسحق، انزل معه للمشورة جماعة من شيوخ المرحدين على رأسهم عبد الله بن عمر بن تافراجين (٢).

وبرز من أولاده ابنه عمر بن عبد الله بن تافراجين، الذي حظي بنفس مكانة والده البارزة في الدولة، فولاه الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي (٥٨٠-٥٩٥هـ/١١٨٤-١١٩٩م) قابس وأعمالها عقب فرار نائب قراقوش

(١) انظر: البلق، نفسه، طبعة عبد الحميد حاجيات، الجزائر، ١٩٧٤، ص ١٤١-١٤٢؛ ابن خلدون، نفسه، ج ٦، ص ٢٣٦-٢٤٨؛ ابن الشجاع، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق الطاهر المصوري، ليبيا- تونس ١٩٨٤، ص ٩١ هـ؛ برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج ١، ترجمة حمادي الساحلي، بيروت، ١٩٨٨، ص ١٨٦.
(٢) العبر، ج ٦، ص ٢٤٩.

الأرمني (١) عنها، عندما علم بهزيمة سيده أمام جيش يحيى بن غانية (٢) الذي لم يلبث أن زحف نحو قايس، وحاصر واليها الموحدني عمر بن تافراجين حصاراً شديداً، وبعث إلى أهلها يندوهم ويحذوهم، بما اضطر أهل قايس إلى إجبار واليهم ابن تافراجين على الإذعان والاستسلام، وفتحوا أبواب المدينة لابن غانية، بعد أن اشترطوا عليه إعطاء الأمان لابن تافراجين، وأن يتوجه صحبة أهله وماله في البحر إلى المغرب الأقصى، فوافق على شروطهم، وذلك في رمضان سنة ٥٩١هـ/١١٩٤-١١٩٥م (٣).

وقد برز أيضاً من بني تافراجين في أواخر عصر الموحدين شخصيات عديدة من أهمهم :- عبد العزيز بن تافراجين، وهو من شيوخ الموحدين في مراكش

(١) هو شرف الدين قراقوش (أو قراقش) الغزي الأرمني، أصله من الأرمن، وكان يقال له المعطسي والناصر. لأنه كان يخطب للناصر صلاح الدين الأيوبي، وهو من مالِك الغز الذين قُدموا من مصر، وكان مملوكاً لآلِ الدين ابن أخي صلاح الدين. وقد وفد قراقوش على رأس المالِك الغز على إفريقية وتولى حكم طرابلس، وتحالف مع عرب بني هلال، كما تعاون فترة مع بني غانية، وأغار معهم على الأطراف الشرقية للدولة الموحدية بالمغرب، واستولى على بعض المدن والعاقل هناك، راجع عنه: (المراكشي المعجب، ص ١٦٥-٣٦٦؛ التجاني، الرحلة، طبعة تونس، ١٩٥٨، ص ٣، ١٩؛ ابن خلدون، نفسه، ج ٦، ص ١٩٢؛ الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، لمحقق محمد ماضور، تونس، ١٩٦٦، ص ١٦؛ عز الدين موسى، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٣، ص ٢٤).

(٢) هو يحيى بن إسحاق بن محمد بن غانية المسوفي، من قبيلة مسوقة البرية - إحدى قبائل المرابطين -، ويذكر المراكشي أن بني غانية كانوا من قادة المرابطين، وأهلوا بلاداً حسناً في الجهاد، وتنعيم دولة المرابطين في بلاد المغرب والأندلس، ثم استقروا في ميوزقة، وحلوا لواء الشدة ضد الموحدين عقب سقوط دولة المرابطين. انظر: (المعجب، ص ٢٤٢-٣٥١؛ العبر، ج ٦، ص ٢٤٢-٢٤٧-٢٤٨).

Alfred Bel, Los Benou Ghanya, Paris, 1903, p. 1-19.

(٣) انظر: رحلة التجاني، ص ١٠٥-١٠٦؛ العبر، ج ٦، ص ٢٤٩؛ برنشفيلد، نفسه، ج ١، ص ١٨٧-١٨٨.

آنذاك، وشارك في الحوادث السياسية بها، في عهد الخليفة أبي العلاء إدريس المأمون بن المنصور الموحدي (٦٢٤-٦٢٩هـ-١٢٢٧-١٢٣٢م)، حيث انضم إلى شيوخ الموحدين بالمحاضرة مراكش عندما نقضوا بيعة الخليفة المأمون، وبايعوا ابن أخيه يحيى بن الناصر الملقب بالمعتصم عقب دخوله مراكش في سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨-١٢٢٩م، مما أدى إلى غضب المأمون عليه، فقرر التخلص منه إثر عبوره من الأندلس إلى المغرب واستيلائه على مقاليد الحكم بمراكش، وذلك بأن أوغر إلى بعض أعوانه باغتياله عند ذهابه إلى المسجد لصلاة الفجر (١).

وتفيد المصادر بأن الخليفة المأمون الموحدي ندم على قتله شيخ الموحدين عبد العزيز بن تافراجين، فرعاها له في أخيه عبد الحق وبنيه، بأن أعاد إليهم نفوذهم ومكانتهم المتميزة في الدولة (٢)، غير أن ذلك لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما تدهورت الأوضاع في الدولة الموحدية بالمغرب الأقصى بسبب الفقر والحروب الداخلية بين الموحدين من بني عبد المؤمن طمعاً في الحكم، في الوقت الذي ازداد فيه نفوذ بني مرين (٣)، مما اضطر بنو تافراجين إلى الرحيل من المغرب الأقصى إلى إفريقية التي كانت تنعم آنذاك بالأمن والاستقرار والازدهار الحضاري في ظل الحفصيين، ولذا أصبحت في تلك الفترة (أواسط القرن

(١) انظر ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٢٤٩؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص ٢٢.

(٢) العبر، ج ٦، ص ٢٤٩.

(٣) من المعروف أن الفترة الأخيرة من عصر الموحدين قد حفلت بلاضطرابات والانتقاسات والحروب الداخلية بين أمراء الموحدين، بسبب التنافس والصراع حول العرش، في الوقت الذي ازداد فيه نفوذ بني زيان في تلمسان بالمغرب الأوسط، وكذلك بني مرين الذين سيطروا على المغرب الأقصى، وتمكنوا من القضاء على دولة الموحدين هناك في سنة ٦٨٨هـ/١٢٦٩-١٢٧٠م، وذلك بقتل أبي دبرس الرائي بن محمد أبي حفص بن عبد المؤمن الموحدي في نفس السنة أثناء الحرب ضد بني مرين راجع التفاصيل في (المراكشي، نفسه، ص ٤٠٤-٤٠٩؛ العبر، ج ٦، ص ٢٥-٢٦٢؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص ٢-٢٢).

٥٧/١٣م) معط رحال المهاجرين من الأندلسيين والمغاربة على السواء (١).

بنو تافراجين وبداية اتصالهم بالحفصيين .

بدأت هجرة بني تافراجين إلى إفريقية في بداية عصر الدولة الحفصية، وكان أول من هاجر إليها من بني تافراجين كبيرهم عبد الحق - سالف الذكر - الذي رحل إلى تونس، -حاضرة الحفصيين - واستقر بها في عهد السلطان محمد المستنصر بالله بن أبي زكريا الحفصي (٦٤٧-٦٧٥هـ/١٢٤٩-١٢٧٧م)، الذي استقبله بالحفاوة والترحاب وقربه إليه، نظراً لأصله العريق، وللخدمات الجليلة التي قدمتها عائلته للموحدين منذ عهد الإمام المهدي بن تومرت (٢).

وبلغ من ثقة الخليفة المستنصر الحفصي في الشيخ عبد الحق بن تافراجين، أن أسند إليه قيادة بعض الحملات العسكرية الموجهة للقضاء على الثوار والعمالة، فيذكر ابن خلدون أن المستنصر عهد إليه بقيادة حملة إلى الحامة (٣)، بسبب ثمود وعصيان شيوخها وذوي الرأي والنفوذ فيها، فقام بتلك المهمة خير قيام، وتمكن من إخضاع الثورة بمنطقة الحامة ، وقتل أهل الخلاف، وحسم العلل (٤).

(١) انظر: العبر، ج ٦، ص ٢٩٩، ٣٤٩؛ ابن القنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، لمحقق محمد التبر وعبد المجيد التركي، تونس ١٩٦٨، ص ٨٠، ١٠٠؛ الزركشي، نفسه، ص ٢٥؛ Basset et Brunschvig, Initiation a La Tunisie, Paris, 1950, p.90.

(٢) انظر: ابن خلدون، نفسه، ج ٦، ص ٣٤٩؛ برنشفيك، نفسه، ج ١، ص ١٨٧.

(٣) الحامة (أو الحمة وتسمى أيضاً حامة قابس أو حامة مطاطة نسبة إلى سكانها من البربر) هي إحدى مدن بلاد قسطنطينية بجنوبي إفريقية (المغرب الأدنى) ويذكر الحسبي أنها تقع على مقربة من قابس واشتهرت بكثرة النخيل وأهلها موصوفون بالشهامة والنجدة. انظر (البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر مكتبة الشئى ببيقباد، بدون تاريخ، ص ٤٨؛ العبر، ج ٦، ص ٤١٨؛ الحسبي، الروض المظفر في خبر الأقطار، لمحقق احسان عباس، ص ٢٠).

(٤) العبر، ج ٦، ص ٤٠٣، ٣٤٩؛ ابن القنفذ، الفارسية، ص ١٤٤؛ الزركشي، نفسه، ص ٤٧؛ محمد المرزسي الطري، السلطنة الحفصية، نشر دار المغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٦، ص ٢٦١؛ برنشفيك، نفسه، ج ١، ص ١١٩.

وفي عهد السلطان أبي إسحاق إبراهيم بن الواثق بن المستنصر الحفصي (٦٧٨-٦٨١هـ/١٢٧٩-١٢٨٢م) تولى عبد الحق بن تافراجين حكم بجاية - وكانت من الحواضر الحفصية المهمة - آنذاك - وذلك عقب مقتل واليها محمد بن أبي هلال (١) في سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م. فاضطلع بها، وأظهر كفاءة وحزمًا في إدارة شئونها، ووطد نفوذ الحفصيين ونشر الأمن والاستقرار فيها. (٢)

وعندما تمكن أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة الدعي من الاستيلاء على الحكم في الدولة الحفصية مدعيًا أنه الفضل بن الواثق في سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م، استعان بخدمات شيخ المرحدين عبد الحق بن تافراجين، لخبرته الإدارية والحربية الطويلة، وإخلاصه في خدمة الدولة، فعهد إليه في سنة ٦٨١هـ بقيادة جيش من المرحدين لتأديب العرب، ووضع حد لعيثهم وفسادهم في حواضر وقرى إفريقية، وقد نجح في تحقيق أهداف تلك الحملة وأثبت جدارته في القيام بتلك المهمة الصعبة، حيث أثخن في العرب، وقتل بعض زعمانهم، وقبض على البعض الآخر

(١) هو شيخ الدولة أبو عبد الله محمد بن أبي هلال الهتاتني، كان من كبار رجال دولة السلطان الواثق بن المستنصر الحفصي في بجاية، غير أن ابن الجبير (رئيس دولة الواثق وكاتب علامته) ولي أخاه إدريس بن عبد الملك على بجاية فأراد التخلص من ابن أبي هلال وكبار الجند فيها وعندما علموا بذلك ثاروا ضده وقتلوه في سنة ٦٧٧هـ، وباهوا الأمير أبا إسحاق إبراهيم بن الواثق الذي دخل بجاية في نفس السنة، ثم سرعان ما استولى على تونس وتولى حكم الدولة الحفصية في سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، ولكن بعد أن استقر حكمه قام بالتخلص من ابن أبي هلال، حيث أمر بقتله في بجاية في سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م لازدياد نفوذه، «ولما كان يتوقع منه من المكروه في الدولة»، وما عرف به من السعي في إثارة الفتنة. انظر (العبر، ج ٦، ص ٢٩٧-٢٩٩؛ ابن القنفذ، نفسه، ص ١٣٥-١٣٦، ٢٥٩؛ الزركشي، نفسه، ص ٤٤، ٤٢).

(٢) (العبر، ج ٦، ص ٣٤٩).

من شيري الشغب والفتنة، وعاد ظاهراً إلى الحاضرة تونس، وظل يتمتع بهجاء
والرياسة والنفوذ حتى وفاته. (١)

وبعد وفاة عبد الحق بن تافراجين خلفه في قيادة أسرته بنو أخيه عبد
العزیز وهم: أحمد ومحمد وعمر، الذين جاءوا على أثره من المغرب الأقصى،
واستقروا بالحاضرة تونس، فنزلوا بها خير منزلة، وتمتعوا بمركز مرموق في الدولة
الحفصية آنذاك. وكان أبو العباس أحمد بن عبد العزیز بن تافراجين هو كبير تلك
الأسرة، فولاه السلطان أبو حفص عمر بن أبي زكريا الحفصي
(٦٨٣-٦٩٤هـ/١٢٨٤-١٢٩٥م) على قفصة ثم المهديّة، وظل والياً بالمهديّة
حتى التمس من السلطان الاستعفاء من الولاية، فأعفى (٢)، ورغم زهده في
الامارة كان السلطان أبو عصبدة - الذي خلف السلطان أبا حفص في سنة ٦٩٤هـ
يستخلفه على الحاضرة تونس أثناء غيابه عنها، وذلك تمسكاً مع سياسة أسلافه
نحو تلك الأسرة الموحدية، حيث كان بنو تافراجين موضع ثقة السلاطين الحفصيين
ورعايتهم، وقد استمر الشيخ أبو العباس أحمد بن تافراجين على مكانته وحظوته
حتى توفي في أواخر عهد السلطان أبي عصبدة في سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣. تاركاً
إثنين أحدهما أبو محمد عبد الله وهو الأكبر - والآخر يدعى أبا العباس
أحمد. (٣)

(١) العبر، ج ٦، ص ٣٠٤-٣٠٥، ابن القنفذ، نفسه، ص ١٤٤؛ الزركشي، نفسه،

ص ٤٧؛ المطري، نفسه، ص ٢٦١؛ برنشتيك، نفسه، ج ١، ص ١١٩.

(٢) العبر، ج ٦، ص ٣٤٩؛ برنشتيك، ج ١، ص ١٨٧.

(٣) العبر، ج ٦، ص ٢٤٩. ويجدير بالإشارة هنا أن الشيخ أبا العباس أحمد بن تافراجين
الشهير عبد الله بن تافراجين - علاوة على مشاركته في الإدارة والحكم، كان أيضاً من العلماء
الذين برزوا في العلوم الشرعية، حيث وصف في كثير من الوثائق بأنه «الشيخ الأجل الفقيه
المحدث الراوية». انظر:

(Amari, Diplomi arabi dell'archivio Fiorentino, t.1. Firenze, 1863, p.99).

بنو تافراجين ودورهم السياسى والعشارى فى القرن ٨ هـ / ١٤م

أ - بداية ظهور الحاجب عبد الله بن تافراجين،

يعتبر شيخ الموحدين الحاجب أبو محمد عبد الله بن أحمد بن تافراجين التينمللى، أبرز شخصيات أسرته خلال العصر الحفصى، لما له من دور بارز وخطير فى الحوادث السياسية فى إفريقية فى القرن ٨ هـ / ١٤م، وما تمتع به من نفوذ واسع وسلطات مطلقة مدة ما يزيد من عشرين سنة، حيث كان المدير الحقيقى لأمر الدولة سنوات عديدة، وأصبح فى بعض الفترات السلطان غير التوج للدولة الحفصية.

وقد نشأ أبو محمد عبد الله بن تافراجين وأخوه أبو العباس أحمد نشأة طيبة فى كنف السلاطين الحفصيين ورعايتهم، إذ كان أبوهما - كما سبق الذكر - من كبار رجال الدولة ومن ذوي الرأي والمشورة فيها - ولم يلبث عبد الله أن قام بتدعيم مكانته بالزواج من ابنة أحد ذوي النفوذ فى البلاط الحفصى وهو ابن يزدوتن (١) - شيخ الموحدين آنذاك - وساعد ذلك علاوة على استعداده الشخصى، واخلاص أسرته للحفصيين، على سرعة ارتقائه للخطط الكبرى فى الدولة. (٢)

(١) هو أبو يعقوب بن يزدوتن أحد شيوخ الموحدين فى عهد السلطان أبي عصبنة (٦٩٤-٧٠٩ هـ)، وقد تولى رئاسة الموحدين وتبليغ الدولة بتونس فى سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٦-١٢٠٧م، عندما عزم شيخ الموحدين أبو يحيى زكريا بن اللحياني فى الخروج للحج، كما تولى مشيخة الموحدين بتونس فى عهد السلطان أبي بكر بن عبد الرحمن الحفصى المعروف بالشهيد فى سنة ٧٠٩ هـ / ١٢٠٩م، وعندما استولى أبو البقاء خالد بن يحيى الحفصى على المحاضرة تونس وتولى مقاليد الحكم فى سنة ٧٠٩ هـ أبغى عليه فى رئاسة الموحدين مشاركاً للشيخ أبي زكريا يحيى بن أبي الأعلام. انظر (العبر، ج ٦، ص ٣٢، الزركشى، نفسه، ص ٤٩ - ٦٠)

ففي عهد السلطان أبي ضربة محمد المتعمر بن اللحياني (٧١٧-٧١٨هـ/١٣١٧-١٣١٨م) حظي عبد الله بن تافراجين بصداقة السلطان، الذي استخلصه لنفسه، وآثره بصحبته ورفع منزلته، وظل من المقرين إليه إلى أن هُزم في وقعة مصوح (١) في سنة ٧١٨هـ. فأمر بالقبض عليه واعتقاله فترة مع كثير من شيوخ الموحدين (٢). ويبدو أن ذلك بسبب الرشايات التي كثيراً ما يقوم بها الحاقدون في البلاط، أو أن يكون السلطان قد أحس بميلهم لنافسه السلطان أبي بكر بن يحيى الحفصي (صاحب قسنطينة وبجاية آنذاك) وهو ما نرجحه، حيث أن الحوادث التالية تشير إلى وجود نوع من التحالف بين ابن تافراجين والسلطان أبي بكر، ويؤكد ذلك الحظرة والمكانة السامية التي تمتع بها في عهده.

وفي عهد السلطان أبي بكر بن يحيى الحفصي (٧١٨-٧٤٧هـ/٣١٨-٣٤٦م) بدأ اسم عبد الله بن تافراجين يلمع في الحاضرة تونس، وازداد نفوذه، وتدرج سريعاً في المناصب القيادية في الدولة، فكان في البداية ضمن حاشية السلطان أبي بكر الذي وثق به وأسند إليه بعض المهام الخطيرة، ومن ذلك اعتماده عليه في السفارة إلى المرينيين أصحاب المغرب الأقصى، حيث أرسله في سنة ٧٢٣هـ مع ابنه الأمير أبي زكريا الحفصي على رأس سفارة إلى السلطان أبي سعيد المريني (٧١٠-٧٣٩هـ/١٣١٠-١٣٣١م)، للاستنجاد به ضد بني زيان (بني عبد الواد) أصحاب تلمسان، الذين استولوا على تونس في سنة

(١) مصوح: يقع ذلك الموضع ببلاد هواره (شرقي المغرب الأوسط)، وفيه نشبت الموقعة بين السلطان أبي بكر الحفصي صاحب قسنطينة وبجاية -آنذاك- وبين منافسه السلطان أبي ضربة بن اللحياني وذلك في سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م-١٣١٩م، وفيها تمكن السلطان أبو بكر من إيقاع الهزيمة بأبي ضربة، وقتل في تلك المعركة بعض شيوخ الموحدين وعدد من أفراد البيت الحفصي. راجع: (ابن خلدون نفسه، ج ٦، ص ٣٢٩-٣٣٠؛ برنشيك، نفسه، ج ١، ص ١٦٢).

(٢) العير، ج ٦، ص ٣٤٩.

٧٣هـ/أواخر ١٣٢٩م. وساهم ابن تافراجين بدور فعال في توطيد العلاقات بين الحفصيين والمرينيين وعقد التحالف بينهما عن طريق المصاهرة، بزواج الحرة فاطمة ابنة السلطان أبي بكر الحفصي من الأمير أبي الحسن علي ابن السلطان أبي سعيد المريني في سنة ٧٣١هـ/١٣٣١-١٣٣٢م (١). كذلك أرسله السلطان في سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤-١٣٣٥م في سفارة ثانية لحليفه وصهره السلطان أبي الحسن المريني (بيع سنة ٧٣١هـ)، وذلك لتجديد العهد وتوثيق عرى التحالف بينهما في مواجهة بني زيان (أصحاب تلمسان) العدو المشترك (٢).

وعقب ذلك رقاء السلطان أبو بكر إلى خطة الوزارة خلفاً للشبح أبي محمد بن القاسم (٣)، ثم ولاء خطة الحجابة لابنه الأمير أبي زكريا صاحب بجاية في سنة ٧٤٠هـ/١٣٤٠م و فاقام أحوال ملكه، وعظم أبهة سلطانه ووطد دعائم حكمه في ولاية بجاية وأعمالها، غير أن ذلك أثار عليه حقد شيوخ الموحدين ببجاية ولذا طلب الاستعفاء، فأعفى وعاد إلى مكانه بالمحاضرة تونس (٤)، حيث قدمه السلطان شيخاً للموحدين في سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١-١٣٤٢م، وكان أصحاب

(١) الغبر، ج ٦، ص ٣٤-٣٤١، ٣٤٩؛ يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر سنة ١٩٨٠، ص ٢١٨ الزركشي، نفسه، ص ٦٨؛ حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، طبعة تونس، سنة ١٩٧٦، ص ١٣٧؛ رضوان البارودي، سفارات متبادلة بين بني زيان وملكة أروغان، دار نشر الثقافة، الاسكندرية، ١٩٨٤، ص ٤٣-٩١؛ المطري، السلطنة الحفصية، ص ٣٤٤-٣٤٥؛ مارييه، بلاد المغرب وعلاقاتها بالشرق الإسلامي، ترجمة محمود هيكمل، الاسكندرية، ١٩٩١، ص ٣٤١-٣٤٢؛ برنشفيلك، نفسه، ج ١، ص ١٧٩-١٨٠.

(٢) الزركشي، نفسه ص ٧٣.

(٣) الغبر، ج ٦، ص ٣٥٣؛ ابرو، انقنفة، الفارسية، ص ١٦٥؛ محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي، ص ٩٣.

(٤) الغبر، ج ٦، ص ٣٥٣؛ برنشفيلك، نفسه، ج ١، ص ١٨٧.

التنفيذ في الدولة ومنهما الحاجب ابن عبد العزيز (١) والقائد ابن الحكيم (٢) -
يرجعان إليه ويعولان على رأيه (٣).

وفي سنة ٧٤٤هـ / ١٣٤٣-١٣٤٤) اتاحت الظروف لشيخ الموحدين عبد
الله بن تافراجين تولي خطة الحجابة للسلطان - أبي بكر - وكانت أهم خطط
الدولة الحفصية حينذاك - ، وذلك عقب وفاة الحاجب ابن عبد العزيز الفاساني في
نفس السنة (٤).

وما ان تولي ابن تافراجين الحجابة حتى قرر الاتفراد بتدبير شئون الدولة،

(١) هو الحاجب أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عبد العزيز الفاساني، أصل سلفه من
الأتلس، وهاجروا إلى مراكش، واستخدموا بها للموحدين. واستقر أبوه اسماعيل بالحاضرة
تونس، ونشأ أبو القاسم بها، وتولى بعض المناصب المهمة، حيث ولاه ابن عمر (حاجب السلطان
أبي بكر) خطة الاشغال (وزارة المال)، ثم تقلد خطة الحجابة للسلطان أبي بكر عقب نكبة حاجبه
ابن سيد الناس انظر العمير ج ٦، ص ٣٤٨؛ ابن الشاح، نفسه، ص ٩).

(٢) هو القائد أبو عبد الله محمد بن علي بن حمزة المعروف بابن الحكيم. نشأ في كنف الدولة
الحفصية، واختصه الحاجب ابن عمر وحباه لتقلد الخطط العليا فرقى إلى عمل باجة، واضطلع
به، وهو الذي تولي اعتقال الحاجب ابن سيد الناس وتغذيته. فعقله السلطان أبو بكر التدبير
في الحرب، ثم انقلب عليه وأضر نكبته بإيعاز من حاجبه ابن عبد العزيز وانتهى الأمر باعتقاله
ومصادرة أمواله، ثم قتله في مجننه سنة ٧٤٤هـ / ١٣٤٣م. انظر العمير، ج ٦،
ص ٣٤٤-٣٤٥، ٣٥٠؛ الفارسية، ص ١٦٣، ٢٧٨).

(٣) ابن خلدون، نفسه، ج ٦، ص ٣٥.

(٤) العمير ج ٦، ص ٣٥٠؛ ابن الشاح، الأدلة البيعة، ص ٩؛ الزركشي، نفسه، ص ٧٧؛ ابن
أبي دينار، المونس في أخبار إفريقية وتونس تحقيق محمد شمام، ط ٣، تونس ١٣٨٧هـ،
ص ١٤٤. وجليد بالذکر هنا ان ابن القنفذ اشار إلى أن تولية ابن تافراجين الحجابة للسلطان
أبا بكر كانت عقب مقتل القائد ابن الحكيم الذي جمع بين قيادة الجيش والحجابة في تلك الفترة،
(الفارسية، ص ١٦٥). والحقيقة أن تلك الرواية غير صحيحة، ولم نأخذ بها، لأن جميع المصادر
الأخرى اتفقت على أن ابن تافراجين خلف ابن عبد العزيز في الحجابة عقب وفاة الأخير سنة ٧٤٤هـ
وهو ما أثبتناه بالمتن.

والاستحواذ على النفوذ فيها، بالتخلص من منافسه القائد ابن الحكيم (وزير الجند) ووجد الفرصة سانحة للإيقاع به، إثر تغير السلطان عليه، بعدما حذره حاجبه ابن عبد العزيز قبيل وفاته من ابن الحكيم بخطرته على دولته وتآمره عليه. ولذا نجح الحاجب ابن تافراجين بالتعاون مع السلطان أبي بكر في التخلص من هذا المنافس القوي، ونكبته في سنة ١٧٤٤هـ/١٣٤٣-١٣٤٤م. (١)

وبذلك أصبح الحاجب عبد الله بن تافراجين هو المدير الوحيد لأمر الدولة، وصاحب الحل والعقد فيها، مما ساعده على توطيد نفوذه أسرته، حيث كان له دور واضح في تولية أخيه أحمد الوزارة في سنة ١٧٤٤هـ، ثم تقلبته قيادة الجيش عقب ذلك. غير أن القائد أحمد بن تافراجين لم يلبث أن قتل في أوائل سنة ١٧٤٧هـ/١٣٤٦م، على يد سحيين من أولاد القوس (من عرب بني حكيم)، وهو من الخارجين عن الطاعة، عندما هاجمه بأتباعه فجأة أثناء قيامه بجباية الضرائب من بلاد هوارة، وذلك بإيعاز من ابن عتو (شيخ الموحدين وحاجب الأمير أبي العباس بن أبي بكر الحفصي وإلى بلاد الجريد) الذي كان منافساً لبني تافراجين وحاكماً على منزلتهم الرفيعة في الدولة. (٢)

ومن جهة أخرى كان للحاجب عبد الله بن تافراجين دور كبير أيضاً في اتمام المصاهرة الثانية بين الحفصيين والمرينيين، وتأكيد التحالف بينهما، وذلك بزواج السلطان أبي الحسن المريني من الحرة عزونة ابنة السلطان أبي بكر في سنة ١٧٤٧هـ/١٣٤٦م، بعد مقتل أختها فاطمة أثناء وقعة طريف بجنوبي الأندلس (وتسمى في المصادر الإسبانية موقعة نهر سلاو Rio Salado) والتي هزم فيها أبو الحسن المريني أمام نصارى قشتالة في صفر سنة ١٧٤١هـ/ أغسطس

(١) العبر، ج ٦، ص ٢٥: ابن القنفذ، الفارسية، ص ١٦٥؛ برنشفيك، نفسه، ج ١، ص ١٨٧.

(٢) العبر، ج ٦، ص ٣٥٢-٣٥٣؛ الزركشي، نفسه، ص ١٧٨؛ برنشفيك، نفسه، ج ١، ص ١٨٧.

ونستنتج من المصادر أن الحاجب ابن تافراجين - الذي تميز بعد النظر - كان حريصاً على عقد تلك المصاهرة، وبذل مجهوداً ضخماً لاقتناع السلطان أبي بكر بالمرافقة عليها، ذلك لمعرفة مدى قوة دولة بني مرين في بلاد المغرب، ولكي يوطد علاقاته وصداقته بالسلطان أبي الحسن المريني، ليكون عوناً وملجأً آمناً له في حالة تقلب الأحوال بالحاضرة تونس، أو إذا ما تنكر له سلاطين بني حفص لوشاية أو مؤامرة من أحد الحاقدين عليه في البلاط الحفصي، وعلاوة على ذلك كانت الدولة الحفصية - وعلى رأسها السلطان أبي بكر وحاجبه ابن تافراجين - بحاجة ماسة إلى مساعدة المرينيين والتحالف معهم في مواجهة الضغط الزياني على الأجزاء الغربية للدولة.

ب - ابن تافراجين ودوره في تولية السلطان أبي حفص عمر الحكم،
كان السلطان أبو بكر قد أسند ولاية العهد لابنه أبي العباس أحمد وإلى بلاد الجريد (جنوبي إفريقية)، غير أنه لما تولى السلطان أبو بكر فجأة في رجب سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م. قام ابنه أبو حفص عمر - الذي كان مقيماً آنذاك بالحاضرة تونس - وتحريض من الحاجب عبد الله بن تافراجين بالسيطرة على القصر، وضبط أبوابه، قمهيداً لاخذ البيعة من شيوخ الموحدين وأهل الشورى في الدولة، منتهزاً فرصة غياب أخيه أبي العباس - ولي العهد - بقفصة حاضرة بلاد الجريد. (٢)

(١) العبر، ج ٦، ص ٢٦٦-٢٦٧؛ السلاوي الناصري، الاستقما لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ٤، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري ١٥٣؛ برنشفيلد، نفسه، ج ١، ص ١٩٤-١٩٥.
(٢) انظر ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٣٥٥؛ ابن الشناخ، الأدلة البينة، ص ٩١؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص ١٨؛ السراج الأندلسي، الحلل النسبية في الأخبار التونسية، مجلد ٢، تحقيق الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٧٤، ص ١٦٨؛ القلشندي، صبح الأعشى، ج ٥، طبعة بيروت، ١٩٨٧، ص ١٢٦؛ المطري، السلطنة الحفصية، ص ٣٧١.

وحاول الأمير أبو حفص اقناع القاضيين ابن عبد السلام (قاضي الجماعة) والأجسي (قاضي الأتكية) بمبايعة دون جدوى، بحجة أنه سبق لهما أن شهدا في بيعه أخيه أبي العباس كرلي للعهد. وفي ظل هذه الظروف العصيبة التي تمر بها الدولة الحفصية، وعدم قدرة الأمير أبي حفص على السيطرة على زمام الأمور، يتصدى الحاجب ابن تافراجين لمواجهة الموقف، ويقوم بتذليل تلك العقبة، وإجبار القاضيين على مبايعته، وذلك بأن أمر ألا يخرج أحد من المجلس - بقصر الحكم - ثم طلب من القاضيين الاشتغال بغسل السلطان أبي بكر وتكفينه، وعقب ذلك استدعى وجوه الموحدين وقواد الجند وأعيان الحاضرة، وأخرج لهم الأمير أبا حفص عمر فبايعوه، وما شعر القاضيان ومن معهما حتى سمعوا جلبة الطبول والبرقات، «وهنا علماً بتأ مبايعة أهل الحل والعقد للأمير أبي حفص، فاضطروا إلى قبول الأمر الواقع، ومبايعته، وكتبت وثيقة بعقد البيعة له» لاختيار العامة والخاصة إياه عن ولي العهد، ويضيف الزركشي، أن ذلك يدل على حسن سياسة الحاجب ابن تافراجين، ومقدرته على تصريف مشاكل الدولة. (١)

والحقيقة أن الدور الخطير الذي قام به الحاجب ابن تافراجين في تولية أبي حفص عمر الحكم بدلاً من أبي العباس ولي العهد، لم يكن يهدف من ورائه مصلحة الدولة أو الرعية، بل كان يخدم - فعاب - أغراضه الشخصية وطموحه في النفوذ والسلطة، بمعنى أنه كان يرمي إلى الاستبداد بالحكم عن طريق تفويض السلطان أبي حفص له تدبير أمور دولته بصفته الحاجب، تقديراً لجهوده ودوره

(١) انظر: تاريخ الدولتين، ص. ٨؛ الرشدي، المعيار المغرب، ج. ١، طبعة وزارة الأوقاف المغربية، ١٩٨١، ص. ٥-٦؛ السلاوي، نفسه، ج. ٤، ص. ١٥٤؛ حسن حني عبد الرهاب، خلاصة تاريخ تونس، ص. ١٤؛ الطري، نفسه، ص. ٣٧١-٣٧٢؛ محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي، ص. ٩٣.

Henri Terrasse, Histoire du Maroc, Casablanca, p.59.

وهكذا تولى السلطان أبو حفص عمر بن أبي بكر الحفصي العرش وتلقب بالناصر لدين الله. عقب وفاة أبيه في الثاني من رجب سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م، ولا أن ذلك أدى إلى حدوث الاضطرابات والفتن في الدولة. فشلت الحرب بين أبناء الأسرة الحفصية لأن أبا العباس - ولي العهد الشرعي - (ولي الجريد) عندما علم باستيلاء أخيه أبي حفص على العرش، صم على استرداد حقه الشرعي في الحكم فجمع من حوله أنصاره من الأعراب، وزحف بهم نحو الحاضرة تونس. في الوقت الذي بدأ فيه السلطان أبو حفص يشكر لمجاهديه ابن تافراجين بسبب وشايات مناصبه في الحاشية، الذي أوغروا صدره عليه، وأثاروا مخاوفه من ازدياد نفوذ حاجب الطموح واستبداده بأمر الدولة، ويذكرونه بالمنافسة القديمة بينه وبين الحاجب خلال عهد السلطان أبي بكر. وقد أحس ابن تافراجين بذلك، وتأثر السلطان بسعاية خصومه، مما ينذر بالخطر في حالة الاستمرار في صحبة السلطان أبي حفص، ولذا أعمل الحيلة في الخلاص والهرب حين تتحسن الأحوال لمصلحة، ويتمكن من العودة إلى تونس لمواصلة الاستعواذ على السلطة. (١)

وعلى هذا انتهز الحاجب ابن تافراجين وصول الأمير أبي العباس بقواته قرب الحاضرة تونس، وقبيل التقائه بجيش السلطان أبي حفص - خارج الحاضرة -، قرر الهرب، حيث تذرّع للسلطان بضرورة العودة إلى تونس في بعض المهام العاجلة (٢)، ثم جمع ذخائره وأمواله وفر ليلاً إلى قسنطينة ومنها توجه إلى

(١) العبر، ج ٩، ص ٣٥٥-٣٥٦؛ ابن السمع، نفسه، ص ٩٢؛ ابن أبي دينار المزني، ص ١٤٥؛ برنشتيك، نفسه، ج ١، ص ١٩٩.

(٢) من الملاحظ أن ابن السمع قد انفرد بذكر رواية منفصلة حول كيفية فرار الحاجب ابن تافراجين قبيل المعركة. فأوضح أنه طلب من السلطان أبي حفص أن يرجع إلى الحاضرة تونس، وليأخذ من المال ما يكفل به حركة من بقي من الأجناد، فأسمعه بذلك، وبعث من خدمه من يأمر أمه أن تعطيه ما يقول لها، فدخل تونس ووصل القصة وأخذ من أم السلطان ما أراد، وانصرف إلى رياضه فدخله... وجلس خدام السلطان ينتظرون عند الباب، وكان ذلك في العتمة أول =

السلطان إلى الحسن المريني بالمغرب الأقصى. (١) وفي تلك الأثناء علم أبو حفص بفرار حاجبه ابن تافراجين فاضطرب لذلك، واختل مصاف جيشه، واضطرب للهرب هو وجنده إلى تونس ومنها إلى باجة، مما مكن الأمير أبا العباس أحمد من دخول العاصمة تونس في الثامن من رمضان ٧٤٧هـ/ديسمبر ١٣٤٦م، ولكنه لم يستمر في الحكم سوى سبعة أيام، وذلك إثر قيام أبي حفص بهجوم مفاجئ على تونس، أسفر عن افتتاحها وفرار أبي العباس عنها، ثم القبض عليه وقتله واستتباب الحكم للسلطان أبي حفص مرة ثانية. (٢)

= الليلة من رمضان، فركب جواده، وخرج من الباب الآخر متوجهاً إلى المغرب. انظر (الأدلة البينة، ص ٩٢).

(١) لمجدد الإشارة هنا إلى أن ابن القنفذ أفاد بأن الحاجب ابن تافراجين لم يطمئن إلى السلطان أبي حفص مما اضطره للفرار إلى المغرب، حيث توجه أولاً إلى لتطينة، غير أن السلطان بحث وراءه من رده، وثقف ليلتين في قصبة تونس، ثم أطلقه الزوار القائد نبيل لمصلحة، وغرب إلى الأمير أبي الحسن المريني.... هـ، والحقيقة أن تلك الرواية جانبها الصواب ولا تتفق مع مجريات الحوادث، ولذا لم نأخذ بها لأن كل المصادر الأخرى أجمعت على أن أبا حفص عندما علم بفرار حاجبه اضطرب وفرّ أيضاً من المعركة، والتجأ إلى باجة، وبالتالي لم يكن مهتماً بإعادة ابن تافراجين إلى تونس بسبب صعوبة الموقف الذي كان يتعرض له من جانب جيش أخيه أبي العباس، الذي لم يلبث أن استولى على المحاضرة تونس عقب فرار السلطان أبي حفص عنها. انظر: (الفارسية، ص ١٦٩. وراجع أيضاً للمقارنة بين الروايات: العبر، ج ٦، ص ٣٥٦؛ الأدلة البينة ص ٩٢؛ تاريخ الدولتين، ص ٨١؛ المؤنس، ص ٦٤٥؛ الحلل النسبية في الأخبار التونسية، مجلد ٢، ص ١٦٨).

(٢) انظر: العبر، ج ٦، ص ٣٥٧-٣٥٨؛ ابن الشماخ، الأدلة البينة، ص ٩٣؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص ٨٩؛ السراج الأندلسي، الحلل النسبية، مجلد ٢، ص ١٦٨؛ ابن أبي دینار، المؤنس، ص ١٤٥؛ حسن حسني عبد الوهاب، نفسه، ص ١٤؛ المطري، نفسه، ص ٣٧٧-٣٧٨؛ جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج ٢، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس، ١٩٧٨. ص ١٨٤، برنشفيك، نفسه، ج ١، ص ١٩٦.

ج - ابن تافراجين ودوره في التدخل المريني في إفريقية .
 عندما علم السلطان أبو الحسن المريني باستيلاء أبي حفص على العرش وقتله لأخيه أبي العباس - ولي العهد الشرعي -، غضب لذلك لأنه كان قد شهد على سجل توليته العهد، وكتب ذلك بخطه في السجل. وعلى هذا رأى السلطان أبو الحسن في نقض أبي حفص العهد، وقتله لأخيه ذريعة للتدخل في إفريقية، ووسط نفوذه عليها، خاصة وأنه كان بطمح إلى ذلك ومعنى نفسه بملكها منذ عهد السلطان أبي بكر الحفصي، وما شجعه على ذلك أيضاً تحريض ابن تافراجين له، وترغيبه في ملك إفريقية، ويؤكد ذلك قول الزركشي أن السلطان أبا الحسن المريني أجمع الحركة على إفريقية، وقوى عزمه على ذلك قدوم الوزير ابن تافراجين... (١).

وجدير بالملاحظة أن بعض الروايات التاريخية تلتقى على موقف ابن تافراجين من الحفصيين ومدى إخلاصه لهم بعد وفاة أبي بكر الحفصي، ظللاً من الشك، خاصة وأن كل المصادر أجمعت على أنه هو الذي مهد الطريق أمام المرينيين لغزو إفريقية. ويمكن القول إن حرصه على تدعيم صلته بالمرينيين خلال عهدي أبي سعيد المريني وابنه أبي الحسن، ودوره الفعال في اقام المصاهرة الثانية بين

(١) العبر، ج ٦، ص ٣٥٦-٣٥٧، ابن الساع، نفسه، ص ٩٤؛ الزركشي، نفسه، ص ٨٢؛ السراج، نفسه، مجلد، ص ١٧؛ ابن أبي دينار، نفسه، ص ١٤٦؛ برتشيك، نفسه، ج ١، ص ١٩٦-١٩٧.

Josefa Mutge Vives, Algunas noticias sobre la relaciones entre la corona catalano-aragonesa Y el reino de tunez, en actas del coloquio, Madrid, 1988, p.137.

وجدير بالإشارة هنا أن أبا الحسن المريني عقب هزيمته في معركة نهر سلاو أمام النصارى القشتاليين وجه نشاطه العسكري تجاه بلاد المغرب بعد أن مني بالفشل في الجبهة الانتلسمية، ولاشك أن تلك التفريعات السياسية التي حدثت بإفريقية في تلك الفترة كانت مجرد ذريعة للتدخل ووسط نفوذه عليها .

الحفصيين والمرينيين، وتسييه في إحداث النزاع بين الآخرين حول العرش رغم تعيين ولي العهد، ثم تخليه عن سلطانه أبي حفص في وقت عصيب لمجرد الظن بتخيير السلطان عليه، وامراعه بالفرار واللجوء إلى السلطان أبي الحسن المريني، وتحريضه إياه على غزو إفريقية، كل ذلك يؤكد حرص الحاجب ابن تافراجين الشديد على تحقيق طموحه في السلطة مهما كانت النتائج، كما يشير في نفس الوقت الشك حول وجود نوع من التحالف السري بينه وبين المرينيين، ضد أسياده الحفصيين، لاسيما إذا ما شعر بوجود تهديد لنفوذه وسلطانه المطلقة في الدولة. (١)

وكيفما كان الأمر فقد زحف السلطان أبو الحسن المريني بعيش ضخم إلى إفريقية مصطحباً معه ابن تافراجين، كما انضم إليه العرب الكعوب، وتمكن الجيش المريني من الاستيلاء على الحاضرة تونس في ٨ جمادى الآخرة سنة ٧٤٨هـ/سبتمبر ١٣٤٧م بعد فرار السلطان أبي حفص، الذي لم يلبث أن قُبض عليه وقُتل، ودخل السلطان أبو الحسن قصبة تونس وطاف بقصور الحفصيين بها، ومعه حليفه ومحرضه ابن تافراجين. وبذلك خضعت إفريقية لبني مرين، وأعلن أمراء الولايات بها طاعتهم للسلطان أبي الحسن المريني. (٢)

(١) انظر العبر، ج ٦، ص ٣٥٧-٣٥٨، ج ٧، ص ٢٦٨-٢٧٠؛ ابن الشماخ، نفسه، ص ٩٤-٩٥؛ الزركشي، نفسه، ص ٨٢؛ السراج، نفسه، مجلد ٢، ص ١١٧؛ ابن أبي دينار، نفسه، ص ١٤٥-١٤٦؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٢٦-١٢٧؛ محمد الهادي العامري، نفسه، ص ٩٥، ٩٧، ٩٨؛ برنشفيك، نفسه، ج ١، ص ١٩٧؛

Terrasse, Histoire du Maroc, p.59. Ency., of, Islam, Art., Tunis, vol, IV, London, 1913, p.852 & Vives, op. cit, p.139.

(٢) العبر، ج ٦، ص ٣٦؛ ابن الشماخ، نفسه، ص ٩٧؛ الزركشي، نفسه، ص ٨٤؛ السلاوي، نفسه، ج ٤، ص ١٦-١٦١؛ الطري، نفسه، ص ٣٨٨-٣٨٩؛ برنشفيك، نفسه، ج ١، ص ٢.

د - إفريقية تحت الحكم المريني وموقف ابن تافراجين .

عقب استقرار الأمور للسلطان أبي الحسن المريني بإفريقية، وضع اضطلاعه بنفسه بتدبير شئون دولته هناك، ورغم استاءه الوزارة لابن تافراجين إلا أنه لم يمنحه نفوذه السابق، ولم يفرضه في أمور الدولة لأنه كان قائماً على أمره، وليس التفويض للوزراء. من شأنه، مما أثار سخط ابن تافراجين، الذي كان يظن أن السلطان أبا الحسن سيكل إليه أمر إفريقية، وقيل أنه عاهده على ذلك، ولهذا بدأ يتعين الفرصة للوثوب على السلطان المريني وطرده من إفريقية. (١)

وفي تلك الأثناء كان العرب أيضاً قد نعموا على السلطان أبي الحسن المريني لاسأته السيرة فيهم بمنعهم من الأعطيات وانتزاع ما بأيديهم من اقطاعات، وسبب إلقائه ضريبة أو إتاوة الخفارة التي كان يفرضها العرب على المسافرين وسكان المناطق الصحراوية نظير حمايتهم، ولذا خرجوا عن طاعته وثاروا عليه، وبايعوا شخصاً مغموراً من أعقاب الخلفاء الموحدين يدعى أحمد بن أبي ديوس، وأخذوا يغيرون على ضواحي الحاضرة تونس، وقاموا بأعمال السلب والتخريب، مما أدى إلى معارضة السلطان أبي الحسن لهم ولكنهم تمكنوا من الانتصار عليه، وحاصروه بالقيروان - التي فر إليها - حصاراً شديداً في المحرم سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م . (٢)

(١) العبر، ج ٦، ص ٣٦؛ ابن الشماخ، نفسه، ص ٩٧؛ الزركشي، نفسه، ص ٨٤؛ السلاوي، نفسه، ج ٤، ص ١٦-١٦١؛ المطوي، نفسه، ص ٣٨٨-٣٨٩؛ برنشفيك، نفسه، ج ١، ص ٢٠.

(٢) التباهي المألف، تاريخ قضاة الأندلس، طبعة بيروت ١٩٨٣، ص ١٦١؛ العبر، ج ٦، ص ٣٥٦-٣٦؛ يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ص ٢٣٥؛ ابن الشماخ، نفسه، ص ٩٦؛ الزركشي، نفسه، ص ٨٣-٨٤؛ السلاوي، نفسه، ج ٤، ص ١٥٩-١٦٠؛ المطوي، نفسه، ص ٣٩٩-٣٩٥؛ جوليان، نفسه، ج ٢، ص ١٨٤-١٨٥؛ برنشفيك، نفسه، ج ١، ص ١٩٩.

Terrasse, op. cit. p.59.

وهكذا أصبحت الظروف مرآتية أمام ابن تافراجين للانتقام من السلطان أبي الحسن المريني، واسترداد نفوذه الواسع الذي اعتاده منذ عهد السلطان أبي بكر الحفصني، حيث طلب العرب من أبي الحسن المريني - المحاصر بالقيروان - أن يبعث إليهم وزيره ابن تافراجين - الذي يحظى بحب معظم العرب لاغداقه عليهم الأرزاق والأعطيات أثناء حجابته للحفصيين - وذلك لمفاوضته في الصلح، ووافق السلطان المريني، وأرسل إليهم ابن تافراجين، الذي سرعان ما أعلن الثورة ضد أبي الحسن المريني، وتحالف مع الأعراب وقلدوه حجابة سلطانهم ابن أبي دبوس، ثم زحفوا بقيادة ابن تافراجين نحو الحاضرة تونس، واستولوا عليها وحاصروا قصبتها، وقذفوها بالنجنيق، غير أنهم لم يتمكنوا من اقتحامها لمنعتها وحصانتها وقوة الحامية المرتبة المدافعة عنها، في الوقت الذي كان فيه السلطان أبو الحسن المريني قد داخل بعض العرب المحاصرين له بالقيروان في فك الحصار عنه مقابل بعض الأموال، وتمكن بذلك من العودة إلى تونس بحراً. (١)

وما أن علم الحاجب ابن تافراجين بذلك حتى تسلل خفية عن أتباعه العرب، وركب إحدى السفن إلى الإسكندرية في ربيع الثاني سنة ٧٤٩هـ/١٣٧٨م، مما أدى إلى انسحاب العرب من تونس واستتباب الأمور فيها للسلطان أبي الحسن المريني مرة أخرى. (٢)

ومن الثابت أن الحاجب ابن تافراجين نزل الإسكندرية في بداية عهد الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر (سلطنته الأولى من ٧٤٩-٧٥٢هـ) وكان والي الإسكندرية - آنذاك - على الأرجح هو سيف الدين

(١) العبر، ج ٥، ص ٣٩-٣٦١.

(٢) انظر: ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٣٦١، ج ٧، ص ٢٧٥-٢٧٦؛ ابن الشماخ، نفسه، ص ٩٧-٩٨؛ الزركشي، نفسه، ص ٨٤-٨٥؛ برنشتيك، نفسه، ج ١، ص ١٩٩-٢٠٠؛

Terrasse, op. cit, p.59.

بكتمر بن عبد الله المؤمني (ولايته الأولى غير محددة، وقد عُرِّل في سنة ٧٥١هـ/١٣٥١م). (١)

وتذكر الرواية أن السلطان أبا الحسن المريني بعث عقب عودته إلى تونس برسالة إلى الناصر حسن سلطان مصر في ٧٤٩هـ/١٣٤٨م - يلتبس منه فيها القبض على ابن تافراجين الذي نزل بالاسكندرية، (٢) وأقام بها بعض الوقت في جوار أصدقائه من الأمراء المماليك (٣). إلا أن مطلب السلطان المريني لم يحظ

(١) انظر القرينى، السلوك ج ٢ ق ٢، تحقيق محمد مصطفى زياده، ط ١، القاهرة سنة ١٩٥٨، ص ٧٤٥ وما بعدها؛ ابن حجر الدرر الكامنة، نشر دار الجيل بيروت، بدون تاريخ ج ١، ص ٤٨٨. (٢) يذكر ابن بطوطة أنه عند التقائه بالسلطان أبي الحسن المريني بتونس سأله عن ابن تافراجين فأخبره بتعرضه للأذى من جانب الجالية المغربية المقيمة بالاسكندرية، التي حاولت قتله انتصاراً للسلطان أبي الحسن. (رحلة ابن بطوطة، تحقيق طلال حرب، بيروت سنة ١٩٨٧، ص ٦٦٥). ولا شك أن رواية ابن بطوطة يقلب عليها المبالغة ومحاولة التزلف للسلطان. لأن ابن تافراجين كان يستعج بحماية بعض أصدقائه من الأمراء المماليك بالاسكندرية. ومن جهة أخرى يبدو أن ابن تافراجين كان حريصاً على تأمين مرقفه أثناء فترة حجابته للسلاطين المنفيين، ولذا أقام علاقة صداقة مع أمراء المماليك بالاسكندرية، كي يلجأ إليهم، عند الحاجة، ولا يستبعد أن يكون قد اكتسب صداقتهم عن طريق إرسال الهدايا الثمينة لهم من حين لآخر. (٣) يذكر ابن خلدون (العبره طبعة بيروت، ج ٦، ص ٣٦٤) أن ابن تافراجين لما نزل بالاسكندرية بعث السلطان أبو الحسن المريني إلى ملوك مصر في التحكيم فيه، فأجابه الأمين المستبد على الدولة يومئذ ويدعى «سقاروس». ولا شك أن هذا الاسم فيه تصحيف من الناسخ. وصحته بييفاروس أو أرس. وهو بييغا بن عبد الله القاسمي الناصري، ولقبه سيف الدين. كان من جملة أمراء الناصر محمد بن قلاوون، وكفي نيابة السلطنة بالديار المصرية بعد وفاة الملك الناصر مدد. ثم نقل إلى نيابة حلب سنة ٧٥٢، ثم قتل في سنة ٧٥٢هـ/١٣٥٢-١٣٥٣م إثر خروجه على الطاعة. راجع عنه (ابن تغرى بردي، المشعل الصافي، ج ٣، تحقيق نبيل عبد العزيز، القاهرة سنة ١٩٨٥، ص ٤٨٦-٤٨٨).

بالاستجابة، في الوقت الذي اتجه فيه ابن تافراجين إلى مكة لأداء فريضة الحج. (١)

هـ - ابن تافراجين ودوره في عزل الفضل الحفصي وتولية السلطان أبي إسحاق .

في تلك الفترة (١٣٤٨/٧٤٩ - ١٣٤٩م) سادت الأحوال بإفريقية، حيث بدأ الأمير أبو العباس الفضل بن أبي الحفصي صاحب بونة (عنابة) يسعى لاسترداد ملك أبيه في إفريقية، وانضم إليه أمراء الولايات بها والكثير من العرب، وباعوره، وحاصروا المرينين بتونس دون جدوى، في الوقت الذي علم فيه السلطان أبو الحسن المريني باستيلاء ابنه أبي عنان فارس على الحكم في المغرب، مما جعله يسارع بمغادرة تونس متجهاً إلى الغرب الأقصى في أوائل شوال ١٣٤٩/٧٥٠ - ١٣٥٠م، بعد أن عقد لابنه أبي الفضل على تونس، ولكن لم تستتب له الأمور، إذ ثار عليه أهل الحاضرة تونس في نفس السنة، وباعروا الأمير الفضل الحفصي - صاحب بونة -، الذي حاصر تونس حصاراً شديداً، واضطر الأمير أبو الفضل المريني إلى الاستسلام مقابل الأمان. وبذلك استرد السلطان الفضل الحفصي - الذي تلقب بالمتوكل على الله - عرش أبيه وذلك في أواخر ذي القعدة سنة ١٣٥٠/٧٥٠ وأوائل ١٣٥٠م. (٢)

(١) انظر ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٣٦٤؛ السراج، نفسه، مجلد ٢، ص ١٧٥؛ السلاوي، نفسه، ج ٤، ص ١٦٢؛ حسن حسني، عبد الوهاب، نفسه، ص ١٤١؛ محمد المتولي، علاقات المغرب للشرق أيام السلطان أبي الحسن المريني، ضمن كتاب ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، الرباط، سنة ١٩٧٩، ص ١٧٩، والحقيقة أننا لا نستبعد أن يكون رجال ابن تافراجين عن مصر إلى مكة لأداء فريضة الحج قد تم بالاتفاق مع الماليك حتى لا يتسبب في هرج لهم مع أبي الحسن المريني سلطان المغرب الذي تربطهم به علاقات ودية.

(٢) انظر: العبر، ج ٦، ص ٣٦٣، ٣٦١؛ ابن السماع، نفسه، ص ٩٨-٩٩؛ الزركشي، نفسه، ص ٨٨-٨٩؛ السراج، نفسه، مجلد ٢، ص ١٧٤-١٧٥؛ الطوي، نفسه، ص ٤١١-٤١٢؛ برنشتيكن، نفسه، ج ١، ص ٢١١١.

من تافراجين فبدأ يظهر على مسرح الحوادث بوفريقية مرة أخرى عقب عرته من الحج بصحبة عمر بن حمزة زعيم أولاد أبي الليل (من العرب الكعوب)، وكان قد التقى به في مكة أثناء الحج وتعاهدا على العودة إلى إفريقية والتظاهر على أميرها، وتمكن عمر بن حمزة من توحيد صفوف أولاد أبي الليل تحت قيادته واتفقوا جميعاً على المكر بالسلطان الفضل الحفصي إذا لم يستجب لمطلبهم في السماح لابن تافراجين بدخول الحاضرة تونس، وتقليده الحجابة بدلاً من حاجبه أبي القاسم بن عتو، غير أن السلطان الفضل رفض الاستجابة لهم، مما دفعهم إلى الغدر به فأورهموه بجلهم إلى عقد الصلح خارج تونس، وأنفذع السلطان وأجابهم إلى ذلك، وسرعان ما أحاطوا به وبخاصيته، واعتقلوه ببيوتهم وأذنوا لابن تافراجين بدخول تونس، وسط سلطانه عليها في ١١ جمادى الأولى سنة ٧٥١هـ/يوليو ١٣٥٠م، وحينئذ أعلن الحاجب ابن تافراجين عزل الفضل الحفصي، وبإيعة أحد أخوته وهو أبي إسحاق إبراهيم بن أبي بكر الحفصي، فأجلسه على كرسي الخلافة وبإيعة الخاصة والعامة وكان لا يزال صبيّاً صغير السن، ولذا أصبح في كفالة حاجبه عبد الله بن تافراجين. (١)

و - الحاجب ابن تافراجين ودوره في عهد السلطان أبي إسحاق .

عقب تولي السلطان أبي إسحاق إبراهيم (المستنصر بالله الثاني) الحكم سنة ٧٥١هـ/ ١٣٤٠م، تم التخلص من أخيه الفضل، وقتله هو وحاجبه ابن عتو.

Gimenez Soler, La corona de Aragóny Granada, Barcelona, 1908,= p.292.

(١) المعبر، ج ٦، ص ٣٦٤؛ الأدلة البينة، ص ١١١١؛ ابن القنفذ، الفارسية، ص ١٧٤؛ ابن الخطيب، اللوحة البدرية في الدولة النصرية، طبعة لجنة إحياء التراث، بيروت، ط ٣ سنة ١٩٨٠، ص ١١٩؛ الزركشي، نفسه، ص ٩؛ السراج، نفسه، مجلد ٢، ص ١٧٥؛ ابن أبي ديار، نفسه، ص ١٤٨؛ القلقشندي، نفسه، ج ٥، ص ١٢٧؛ محمد الهادي العامري، نفسه، ص ١٧٠-١٧١، برنشتوك، نفسه، ج ١، ص ٢٠٢.

وقام الوزير الحاجب ابن تافراجين بتدبير دولة السلطان أبي اسحاق، وتهديد أمره، وكان له في ذلك باع طويل واشتد بالحكم دون السلطان، وانتهى أمره إلى أن يسلم عليه بسلام الملوك، وأصبح في تلك الفترة الحاكم الفعلي، والسلطان غير المتوج للدولة الحفصية قرابة خمسة عشرة عاماً، وساعده على ذلك ميل أهل الحاضرة تونس إليه، لحسن سيرته فيهم، وحرصه على بعث الطمأنينة في نفوسهم ونشره الأمن والاستقرار في ربوع البلاد. (١)

ويمكن أن نتبين أهم معالم السياسة الداخلية للحاجب ابن تافراجين والمشكلات التي واجهته في تلك الفترة فيما يلي:-

أولاً - موقفه من الأعراب :

- أشارت المصادر إلى نجاح الحاجب ابن تافراجين الملموس في حل مشكلة الأعراب الزمينة، والتي ظلت قائمة في معظم فترات العصر الحفصي، وتمثل في عدم خضوعهم تماماً لسلطة الدولة في أغلب الأحيان، وقيامهم بأعمال السلب والنهب والتخريب في بلدان إفريقية، فيذكر ابن خلدون أن عرب بني كعب (الكعوب) دخلوا في الطاعة، ويضيف ابن السمعان أن ابن تافراجين استخلص قواعد البلاد من أيدي العرب بأحسن محاولة، بعد أن تعهد لهم بأن يوقى لهم حاجتهم كل عام من مجابي تلك البلدان الخاضعة لنفوذهم. وبذلك أعاد للحفصيين

(١) ابن الحاج النعيري، فيض العباب، تحقيق محمد بن شقرون، الرباط عام ١٩٨٤، ص ١٥٤
ابن السمعان، الادلة البينة، ص ١٠٢؛ ابن القنفذ، نفسه، ص ١٧٤؛ الزركشي، نفسه، ص ٩٢؛
ابن أبي دینار، نفسه ص ١٤٩؛ الخطيب نفسه ص ٤١٦؛ بونشفيك، نفسه، ج ١، ص ٢٠٢؛

Terrasse, Hist. du Marco, p.59.

سلطانهم على بلاد قرطاجة والقيروان وسوسة وباجة وتبرسق (١) والأريس (٢).
وأُسند حكمها لأعرانه والمخلصين له من الولاة (٣).

ثانياً - ابن تافراجين والولايات الجنوبية .

فيما يتعلق بالولايات الجنوبية بإفريقية؛ قام الحاجب ابن تافراجين عقب مبايعة السلطان أبي إسحاق بالحااضرة تونس، بمخاطبة العمال بأخذ البيعة له على من قبلهم، فبعثوا بها، وأعلن ابن يلول (٤) والي توزر، وابن العابد (٥) صاحب

(١) تبرسق: تقع في الصحراء الفاصلة بين المغرب الأدنى والأوسط إلى المغرب الغربي من الحاضرة تونس. انظر: (ابن القنفذ، القارمية، ص ١٩١).

(٢) الأريس: تقع بالصحراء الجنوبية للمغرب الأوسط، ويذكر الإدريسي أن من مدينة الأريس إلى باجة مرحلتان، ويصفها بأنها في وطاء من الأرض، عليها سور تراب جيد، وفي وسطها عين ماء جارية لا تجف، وشرب أهلها من ماء تلك العين، وتشتهر بمزارع الحنطة والشعير. (الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس، طبعة لندن، ١٨٩٤، ص ١١٧).

(٣) العبر، ج ٦، ص ٣٩٤؛ ابن السمع، نفسه، ص ٢. ١؛ السراج، نفسه، ج ٢، ص ١٧٦.

(٤) هو يحيى بن أحمد بن محمد بن يلول، ونسبهم في طوابع العرب من تترج، ويذكر ابن خلدون أن بني يلول استقروا بتوزر قاعدة بلاد الجريد (جنوبي إفريقية) منذ أول الفتح الإسلامي، وتأنثوا ووشجت بها عروقهم نسباً وصهراً حتى انتظروا لي يبنوا الشورى التقدم للرفادة على الملوك وتلقي العمال القادمين من دار الخلافة. وعندما انقسمت الدولة الحفصية بين الشور الغربية، والحااضرة تونس وما إليها، استبد بنو يلول بحكم توزر إلى أن تمكن السلطان أبو بكر الحفصي من إخضاعهم وأعادتهم إلى الطاعة. (العبر، ج ٦، ص ٤١٢؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص ٥٦).

(٥) هو يحيى بن محمد بن علي بن العابد الشربجي، كان أسلافه أصحاب قنصة، ومن بيوتاتها المعروفة. ونسبهم في يلى، ولهم حلف في الشريد من بطون بني سليم. وقد استغلوا ضعف الدولة الحفصية واستقلوا بحكم قنصة إلى أن أخضعهم السلطان أبو بكر الحفصي في سنة ٧٣٥هـ. انظر: (العبر، ج ٦، ص ٣٤٤-٣٤٥، ٤١٤).

نفصة وبنو الخلف (١) اصحاب نفطة الدخول في الطاعة، ويعثروا بالمجباية والهدية، أما ابن مكى (٢) صاحب قابس وجريه فقد أعلن التمرد والعصيان، وسخط على الحاجب ابن تافراجين لاستبداده بالسلطان ومنعه من التصرف في أمور دولته، ولوجود منافسة قديمة بينهما منذ عهد السلطان أبي بكر، ولذا كان ابن مكى يتهرز كل فرصة لاقصاء ابن تافراجين عن المجابية، والقضاء على نفوذه في الدولة الحفصية، غير أنه لم ينجح في تحقيق هدفه (٣).

خاتمة - سياسته نحو إمارة قسنطينة ،

كانت إمارة قسنطينة تحت حكم الأمير أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر الحفصي (ابن اخي السلطان أبي إسحاق)، الذي كان يطمع في بسط

(١) بنو الخلف: من منافع، ونسبهم في غسان من طوابع العرب، انتقل جدهم من بعض قرى نفزاوة إلى نفطة، واستقر بها، وأصبح لبيته بها بيت مشهور، ويذكر ابن خلدون أن إمارة نفطة -خلال عهد السلطان أبي بكر وبنيه- كانت تحت حكم بني منافع المرويين أيضاً ببني الخلف وكانوا أخوة أربعة هم: منافع وأبو بكر وعبد الله ومحمد، وتكنوا من الاستبداد برياستها زمن الشورى في فترة انشغال الدولة الحفصية عنهم إلى أن تمكن السلطان أبو بكر الحفصي من إخضاعهم، والقضاء على معظم زعمائهم. (العبر، ج٦، ص ٣٥١-٤١٥).

(٢) هو أبو العباس أحمد بن مكى من شيوخ قابس، وأميرها الذي استبد بحكمها عند ضعف وانقسام الدولة الحفصية، وينسب بنو مكى إلى قبيلة لواتة البربرية، ويعدهم الأعلى هو مكى بن فوج بن زيادة الله اللواتي. وكان بنو مكى هؤلاء من المقربين للأمير أبي زكريا بن عبد الواحد الحفصي -مؤسس الدولة الحفصية-، ولما اعتزم الأمير أبو زكريا الاستقلال بحكم إفريقيا دخل أبو القاسم غسان بن مكى في طاعته وأخذ له البيعة من أهل قابس. فكان له ولقومه بذلك، مكانة من السلطان أبي زكريا وخلفائه. انظر: (العبر، ج٦، ص ٤٢-٤٢١).

(٣) العبر، ج٦، ص ٣٦٤-٣٦٥؛ الزركشي، نفسه، ص ١٩٢ عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، نشر مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية، بدون تاريخ، ص ٧٩٢؛ برنغليك، نفسه، ج١، ص ٢٠٢.

نفروه على تونس وتكن من إنزال الهزيمة بجيش ابن تافراجين عند بلاد هواره في سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١-١٣٥٢م، ولكنه لم يواصل زحفه إلى تونس وقفل بجيشه عائداً إلى قسنطينة. (١)

وفي سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٢-١٣٥٣م عاود الأمير أبو زيد الكرة مرة أخرى، وشجعه على ذلك لمحرّض أحمد بن مكّي - العدو اللدود لابن تافراجين -، الذي وفد على الأمير أبي زيد بقسنطينة بصحبة حلفائه العرب من أولاد مهلهل وحته على الزحف نحو إفريقية واسترداد ملك آبائه من الحاجب ابن تافراجين الذي استبد به واحتازه دونهم، وبالفعل انقاد الأمير أبو زيد لتحريض حليفه ابن مكّي وزحفاً إلى تونس في سنة ٧٥٣هـ. وما إن علم ابن تافراجين بذلك حتى جهز السلطان أبا إسحاق بما يحتاج إليه من الجند والعدة، وعهد بقيادة الجيش لابنه محمد بن عبد الله بن تافراجين، والتقى الجمعان في موقعة مرماجة (٢)، وفيها هُزم جيش السلطان أبي إسحاق، وولي الأديار، وتحصن بالعاصمة تونس التي حاصرها أبو زيد عدة أيام، ولكنها امتنعت عليه، فاضطر للعودة إلى بلاده قسنطينة، خاصة وأنه أحس بخطر يهدد ولايته، وذلك من ناحية الأمير أبي عبد الله محمد الحفصي (صاحب بجاية وابن أخي السلطان أبي إسحاق)، وكذلك السلطان أبي عنان المريني صاحب المغرب الأقصى، اللذين زحفا نحو قسنطينة للاستيلاء عليها بإيعاز من الحاجب ابن تافراجين وبذلك نشل التحالف بين أبي زيد الحفصي

(١) العبر، ج ٦، ص ٣٦٥؛ الزركشي، نفسه، ص ٩٣؛ المطري، نفسه، ص ٤١٧؛ برنسيك، نفسه، ج ١، ص ٢٠٥.

(٢) مرماجة: إحدى مدن بلاد هواره بصحراء المغرب الأوسط على مقربة من الأرس، وصفها صاحب كتاب الاستبصار بأنها مدينة قديمة أزلية فيها آثار كثيرة للأول، واشتهرت بوفرة الخبثات ومزارع القمح والشعير. انظر: (مجهول، الاستبصار، في عجائب الأمصار، ص ١١٦٢؛ الإدريسي، نفسه، ص ١١٨).

(صاحب قسنطينة) وابن مكي (صاحب قابس وجربة) في القضاء على ابن تافراجين. (١)

رابعاً - موته من الحملة المرينية الثانية على إفريقية .
بعد أن خلع السلطان أبو عنان فارس أباه أبا الحسن المريني واستولى على حكم المغرب الأقصى في سنة ١٣٥٢هـ/١٣٥١م. قرر مد سلطانه إلى المغرب الأوسط والأدنى والقيام بغزو كبرى بلاد المغرب مثلما حدث في عهد والده. وبالفعل نجح أبو عنان المريني في الاستيلاء على تلمسان من أبي بني زيان (٢)، ثم زحف إلى قسنطينة، وتمكن من إخضاعها إثر استسلام أميرها أبي العباس أحمد الحفصي في سنة ١٣٥٨هـ/١٣٥٧م. وعقب ذلك بعث السلطان أبو عنان إلى الحاجب ابن تافراجين يدعو للدخول في طاعته والتنازل عن تونس، ورفض ابن تافراجين الاستجابة لمطلب السلطان المريني، لأنه يدرك أن خضوعه للمرينيين سيؤدي - حتماً - إلى ضياع نفوذه القوي الذي يتمتع به كحاجب

(١) العبر، ج ٦، ص ٣٦٥-٣٦٦؛ ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً منشورات دار الكتاب المصري واللبناني، ١٩٧٩، ص ٥٧-٥٨؛ الزركشي، نفسه ص ٤١٧-٤١٩؛ برتشفيك، نفسه، ج ١، ص ٢٠٥-٢٠٦.

(٢) انظر ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٣٦٦؛ الزركشي، نفسه، ص ٩٣-٩٤؛ برتشفيك، نفسه، ج ١، ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٣) كانت إمارة قسنطينة تحت حكم أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر الحفصي، كما سبق الإشارة - ثم غلبه على حكمها أخوه أبو العباس أحمد الذي يبيع بها في سنة ١٣٥٥هـ/١٣٥٦م واضطر أبو زيد للاستقرار في بونة (عنابة) لفترة قصيرة، غير أنه لم يركن للإقامة بها، فراسل الحاجب ابن تافراجين في السماح له بسكنى تونس مقابل التنازل عن بونة لعهده السلطان أبي إسحاق، فأجابه إلى طلبه. انظر التفاصيل في: (ابن القنفذ، نفسه، ص ١٨١؛ الزركشي، نفسه، ص ٥٩-٦٩؛ برتشفيك، نفسه، ج ١، ص ٢٠٥-٢٠٦).

للسلطان أبي إسحاق الحفصي، خاصة وأن مجريته الأولى معهم - في عهد السلطان أبي الحسن - أثبتت أن سلاطين بني مرين يميلون إلى تولي أمور دولتهم بأنفسهم ولا يفوضون ذلك لوزرائهم أو حجابهم، مما يتعارض مع سياسة وطرح الحاجب ابن تافراجين. (١)

وعلى هذا أرسل السلطان أبو عنان جيشاً برياً وأسطولاً بحرياً لمنازلة الحاضرة تونس في شعبان سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٧م، وتصدى لهم ابن تافراجين بقواته (٢)، ولكنه أدرك عدم جدوى الاستمرار في المقاومة، خصوصاً عندما بلغه تأهب السلطان أبي عنان للزحف من قسنطينة إلى تونس، ولذا أسرع بالفرار مع بعض أعوانه وخنعه إلى المهدية، وتحصن بها، كما لحق به السلطان أبو إسحاق الحفصي، الذي هرب مع حلفائه أولاد أبي الليل إلى بلاد الجريد، مما مكن القوات المرينية من دخول تونس، وفتت البيعة هناك للسلطان أبي عنان المريني وخطب له

(١) انظر ابن الحاج، قبض العباب، بتحقيق محمد بن شرف، ص. ١٦ وما يليها؛ الزركشي، نفسه، ص. ٩٦-٩٧؛ ابن أبي دينار نفسه، ص. ١٤٩؛ المطري، نفسه، ص. ٤٢٨-٤٢٩. ودير بالملاحظة أن العلاقة بين السلطان أبي عنان المريني والحاجب ابن تافراجين قد سادت بسبب رفض إبن السلطان أبي بكر الحفصي الزواج من السلطان المريني، يوقوف الحاجب موقفاً سلبياً من ذلك. انظر: (ابن التفتز، نفسه، ص. ١٧٤).

(٢) أشارت بعض الروايات إلى أن الحاجب ابن تافراجين تمكن من إزوال هزيمة شبيعة بالأسطول المريني الذي وصل تونس قبيل الجيش البري، (ابن الشجاع، نفسه، ص. ٣، ١؛ السراج، نفسه، مجلد ٢، ص. ١١٧؛ ابن أبي دينار، نفسه، ص. ١٤٩) ولكن تلك الروايات تنم بالبداهة، والصواب ما أثبتناه بالمتن -تقلاً عن ابن خلدون المعاصر لتلك الحوادث- وهو أن ابن تافراجين نصلى للأسطول المريني، وصد في المقاومة يوماً أو بعض يوم، ثم تغير الوضع بوصول الجيش البري المريني، حيث أدرك ابن تافراجين أنه لن يتمكن من مواصلة المقاومة بسبب شدة الحصار حول تونس، ووصول أنباء تفيد بقرب وصول السلطان أبي عنان بمعسكره إلى تونس، ولذا قرر الهرب إلى المهدية، والتحصن بها، ريثما تتحسن الأحوال لمصلحته ويتسكن من العودة إلى تونس لاسترداد نفوذه. انظر: (العبر، ج ٦٥، ص. ٣٧؛ الزركشي، نفسه، ص. ٩٧).

على جميع منابر إفريقية عدا المهديّة وسوسة وتوزر. (١)

وفي الوقت الذي اعتزم فيه السلطان أبو عثان التوجه إلى تونس حدث تمرد في جيشه، وأسرع جنده بالانسحاب والعودة إلى المغرب الأقصى، ولم يلبث أن لحق بهم أبو عثان مما أدى إلى حدوث اضطراب في صفوف المرتين بتونس، وساعد على ذلك أيضاً ثورة الأهالي ضدهم، مما جعلهم يسارعون بمغادرة الحاضرة تونس في سفينهم متجهين إلى المغرب الأقصى، وبذلك اتبعت لابن تافراجين الفرصة بالعودة إلى تونس مرة أخرى (٢)، ووجدت البيعة للسلطان أبي إسحاق الحفصي الذي دخل حاضرتة في أوائل ذي الحجة ٧٥٨هـ/١٣٥٧م، وهكذا فشلت الحملة المرتنية الثانية على إفريقية واستمر الحاجب ابن تافراجين يتمتع بسلطاته المطلقة في الدولة الحفصية. (٣)

(١) ابن الحاج فيض العباب، ص ١٧٣-١٧٤؛ العبر، ج ٦، ص ٣٧؛ ابن الشّاع، نفسه، ص ١٠٤-١٠٣؛ ابن القنفذ، نفسه، ص ١٧٥؛ الزركشي، نفسه، ص ٩٧؛ عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص ٧٩٢؛ المطوي، نفسه، ص ٤٢٩؛ برنشفيك، نفسه، ج ١، ص ٢٠٧-٢٠٨؛

Ency., of Islam, Art., Tunis, vol, IV, p.852.

(٢) جدير بالإشارة هنا أن الحاجب ابن تافراجين بعد أن غادر المهديّة وعاد إلى تونس عقب انسحاب المرتين، استعمل السلطان أبو إسحاق الحفصي على مدينة المهديّة أخاه الأمير أبا يحيى زكريا الحفصي، وبعث على حجابته أحمد بن خلف -من أعوان ابن تافراجين- مستجلاً عليه، ولم يلبث الأمير زكريا الحفصي أن ضجر من استبداد حابيه عليه، فقتله وتحالف مع أحمد بن مكّي صاحب قابس، واستنعاها ليتولّى الحجابة له، فوصل إليه وأعلن مبايعة السلطان أبي عثان الرضي، مما دفع ابن تافراجين إلى إرسال جيشه إلى المهديّة، وانتهى الأمر بفرار الأمير أبي يحيى زكريا وحابيه ابن مكّي إلى قابس واسترداد ابن تافراجين للمهديّة. انظر: (الزركشي، نفسه، ص ٩٨-٩٩).

(٣) العبر، ج ٦، ص ٣٧٢؛ ابن الشّاع، نفسه، ص ١٠٤؛ السراج، نفسه، مجلد ٢، ص ١٧٦؛ محمد الهادي العامري، نفسه، ص ١١١؛ برنشفيك، نفسه، ج ١، ص ٢٠٩

خامساً - سياسته نحو إمارة بجاية

كانت بجاية من الإمارات المنهدة في الجزء الغربي من الدولة الحفصية. نهى الشرع العربي تلك الدولة خلال عصر الأيوبيين، بالقول: «يُلقَى بها سباً حتى تلك الفترة لم يربو الذين أسدروا حكمها لأحد عدائهم وهو يحيى بن ميمون، الذي كان مكروهاً من أهل بجاية لشدة وتعمسه ولما أخذوا يتحينون الفرصة للتخلص من الحكم المريني، فاستنجدوا بابن تافراجين بعد انتخاب الجيش المريني من تونس وعودته إلى المغرب الأقصى. (١)

وقد سلك الطريق بذلك أمام ابن تافراجين لبسط نفوذه على بجاية واستعادة بعض الأجزاء الغربية التي كانت خاضعة للحفصيين فيما مضى، وأرسل إليها ابن تافراجين جيشاً قوياً على رأسه السلطان أبي اسحاق، وعندما اقترب الجيش الحفصي من مدينة بجاية ثار أهلها على من بها من المرينيين، وتم اعتقال ابن ميمون - عامل المرينيين بها - وإرساله إلى تونس ودخل السلطان أبو اسحاق بجاية في سنة ٧٦١هـ/ ١٣٦٠م، واستبد بها وتولى شئونها بنفسه، ومكث هناك خمس سنوات كان حاجبه ابن تافراجين يده خلالها من تونس بما يحتاج إليه، وظل أبو اسحاق ببجاية حتى دخلها عليه صلاح الأمير أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا بن أبي بكر الحفصي (ابن أخيه) الذي سمح له بالعودة إلى حاضرتة تونس في سنة ٧٦٥هـ/ ١٣٦٥م. (٢)

سادساً - ابن تافراجين واسترداده جزيرة جربة

كانت جزيرة جربة خاضعة لنفوذ أحمد بن مكي (صاحب قابس وطرابلس)

(١) انظر: العبر، ج ٦، ص ٣٧٣: الزركشي، نفسه، ص ٩٩: المطري، نفسه، ص ٤٣٨: برنشفيك، نفسه، ج ١، ص ٢١.

(٢) العبر، ج ٦، ص ٣٧٣: ابن القنفذ، نفسه، ص ١٧٦: الزركشي، نفسه، ص ٩٩: السراج، نفسه، مجلد ٢، ص ١٧٧: المطري، نفسه، ص ٤٣٨-٤٤٥، ٤٤٦: برنشفيك، نفسه، ج ١، ص ٢١-٢١١.

وظلت هكنا، حتى سنة ٧٦٣هـ/١٣٦٢م حيث نقم أهلها على ابن مكي سيرته فيهم، وبعثوا بذلك سرّاً إلى ابن تافراجين بتونس، الذي انتهزها فرصة للانتقام من عدوه ابن مكي^(١) فأرسل إلى جربة جيشاً بقيادة ابنه محمد بن تافراجين الذي تمكن من النزول بجربة وحاصر قلعتها حصاراً شديداً، نتج عنه اقتحامها عنوة واستولى بذلك على جزيرة جربة، وأقام بها دعوة السلطان أبي إسحاق الحفصي، ثم غادرها إلى تونس بعد أن ترك محمد بن أبي العيون والياً عليها. (٢)

س - اتهامات ابن تافراجين الحضرية

أوّلاً - دوره في تطور خطة الحجابة في الدولة الحفصية .

أوضح ابن خلدون - المعاصر لتلك الفترة - أن السلاطين الحفصيين احتاجوا بعد اتساع دولتهم وكثرة الخدم والحاشية والمرتزقين بقصرهم إلى قهرمان خاص بالقصر السلطاني، يهتم بالنظر في أحواله، ويجريه على قدره وتربيته وما يحتاج إليه من رزق وكسوة وعطاء ونفقة وغير ذلك، واطلقوا عليه اسم «الحاجب». واستمر الحال على هذا النحو إلى أن أصبح السلطان الحفصي يحجب نفسه عن الناس، فتطورت خطة الحجابة حيثئذ، وأصبحت واسطة بين السلطان وبين أهل الرتب كلهم. ثم جاء الحاجب ابن تافراجين في عهد السلطان أبي بكر الحفصي (٧١٨-٧٤٧هـ) وطوّرت تلك الخطة حيث صار له الرأي والمشورة وتدبير

(١) أوضح ابن خلدون أن أحمد بن مكي استقر بطرابلس وجعلها داراً لإمارته منذ ملكها من أيدي النصارى الجنوبية نظير مبلغ من المال، وذلك في شعبان سنة ٤٥٦هـ/١٣٥٥م. انظر التفاصيل في: (ابن خلدون، العمير، ج ٦، ص ٣٧٤-٣٧٥) برنشفيك، نفسه، ج ١، ص ٤٠٢.

(٢) العمير، ج ٦، ص ٣٧٤-٣٧٥ الزركشي، نفسه، ص ١١٠. محمد أبو ريس الجري، مؤنس الأجيح في أخبار جربة، طبعة تونس، ١٩٦٠، ص ١٥١. الطوى، نفسه، ص ٤٦٦: برنشفيك، نفسه، ج ١، ص ٢١١. وحول علاقة الحفصيين بجزيرة جربة راجع التفاصيل في: (رضوان البارودي، جزيرة جربة التونسية، نشر دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٣٢ وما يليها).

شئون الدولة، ولم يكتف الحاجب الطمرح بذلك بل تطلع الى الانفراد بالنفوذ واستحوذ على سلطتي السيف والقلم في عهد السلطان أبي حفص عمر بن أبي بكر الحفصي، ثم في عهد أخيه أبي إسحاق إبراهيم الذي شهد استبداد الحاجب ابن تافراجين بالسلطان الحفصي. وبلغت خطة الحجابة -آنذاك- أوج ازدهار وذروة النفوذ وأصبح الحاجب هو الوزير الأول في الدولة، وسلم عليه بسلام الملوك (١) وهو ما يشبه وزير التفويض في المشرق الإسلامي في العصر العباسي الأول.

ويتضح لناها سبق أن الحاجب ابن تافراجين أحدث تطويراً مهماً في خطة الحجابة واختصاصاتها، وجعل منها أرفع خطط الدولة الحفصية على الإطلاق في تلك الفترة، كما أعاد في نفس الوقت لشيوخ الموحدين هيبتهم ومكانتهم المرموقة في الدولة، وساهم بشكل ملموس في الحفاظ على التقاليد والمراسم السلطانية. (٢)

ومن جهة أخرى يلاحظ أن ابن تافراجين حمل العديد من الألقاب أثناء فترة حجابته، والتي تدل على تدرجه في المناصب وكذلك مدى قوة نفوذه، ومن ذلك صاحب السفارة، وشيخ الموحدين، والوزير، والحاجب والمؤمن المكين، وشيخ الحضرة. كما وصف في الوثائق والمعاهدات بأنه «مصلح الأحوال بعد اختلالها، ومنجج الآمال بعد اعتلالها...» (٣).

(١) انظر: ابن خلدون، المقدمة، ج٢، تحقيق علي عبد الواحد والي. ط٣، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٨١، ص١٧٢-١٧٣ العبر، ج٦، ص٣٥٥؛ الأدلة البيئية، ص١١٧، مختار العيادي، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس، الطبعة الأولى، الاسكندرية، ١٩٦٨، ص١٩٣-١٩٥؛ برنشفيك، نفسه، ج٢، ص٤٢، ٣٧.

(٢) برنشفيك، نفسه، ج٢، ص٣٥، ٥١-٦٥.

(٣) العبر، ج٦، ص٣٤٩-٣٥٠؛ الأدلة البيئية، ص١١٧، ٩٩، ٩١، ٩٢؛ الفارسية، ص١٧٤؛ تاريخ الدولتين، ص٧٧، ٩٨؛ الوثائق، ص٤٠، ١٢٨٢.

Amarí, Diplomí arabi, pp.98-99. & Alarcón Y Linares, los documentos arabes diplomaticos, Madrid,1940, pp.311-312.

ثانياً - ميوله الأدبية والشرعية ورعايته للعلم والعلماء .

أمدا الوثائقي بإشارة قيمة توضح الميول الأدبية والشرعية للحاجب ابن تافراجين، فيذكر أن الحاجب بعث إلى ابن عرفة شيخ الفقهاء بالمحاضرة تونس يدعه بأبيات، ومن ذلك قوله :

يا دوحة الأدب المصر في العلا . . . منك استطبنا الطعم والمشموما

أردت زناذك في العلوم فأصبحت . . . تهدي إليك نفائسا وعلوما (٢١)

كذلك هناك بالمصادر ما يفيد بوجود رياض (بستان) للحاجب ابن تافراجين على مقربة من قصبة تونس، كان يتخذ للراحة وعقد مجالس الأنس مع أصحابه من شيوخ الموحدين وغيرهم من العلماء والأدباء، ولا نستبعد أنهم في تلك المجالس كانوا يتناطرون في الأدب والشعر والفقه والعلوم الشرعية الاخرى، خاصة أن شيوخ الموحدين كانوا في المقام الأول من العلماء البارزين في العلوم الدينية. (٣)

ومن ناحية أخرى قام الحاجب ابن تافراجين بدور مهم في الاهتمام بالعلم وتشجيع طلابه، عن طريق الأوقاف العديدة التي أوقفها على مدرسته بتونس

= وجدير بالإشارة هنا أن شيوخ الموحدين الذين ينتمي إليهم الحاجب ابن تافراجين كانوا يتمتعون بشراء واسع وجادة رغدة، وكانت لهم قطاعات ورواتب توزع عليهم أربع مرات في السنة، علاوة على الفلة التي يهرقها عليهم السلطان عند تحصيل الغلات في المخازن. وغير ذلك من الأعطيات والأزاق. راجع التفاصيل في: (ابن فضل الله العمري، وصف إفريقية والمغرب والاندلس من كتاب ممالك الانصار، نشر حسن حسني عبد الوهاب، تونس، بدون تاريخ، ص ١٨-١٩؛ القلقشندي، نفسه، ج ٥، ص ١٣٦-١٣٧).

(١١) انظر: المعيار المغربي، ج ٤، ص ٢٨٢.

(١٢) ابن الشماخ، نفسه، ص ٩٦، ٩٧، ٩٨.

والتي كانت مسددة لـ (٤) ، العلماء على الحوزة (٥) .

خاتمة - أعماله العمرانية ،

قام الحاجب ابن تافراجين بالعديد من الأعمال العمرانية، ومن ذلك قيامه في عهد السلطان أبي إسحاق ببناء السور البراني (الخارجي) المحيط بأرض الحاضرة تونس، وحسب عليه العديد من الأوقاف لقرميه وتحصينه كلما دعت الحاجة إلى ذلك. (٢) كما قام بتشييد مدرسة حملت اسمه هي «المدرسة التافراجينية» (٣)، علاوة على السبيل الذي أقامه بتونس والمعروف بسبيل ابن تافراجين، وقام بحسب حمام على المدرسة والسبيل وخصص عائدته لصيانتها ودفع رواتب من يعمل بهما. (٤)

ولم تقتصر أعماله العمرانية على تونس بل شملت أيضاً مدينة المهدية وكانت من الثغور الشرقية للدولة الحفصية وملجأً للحاجب ابن تافراجين وقت الشدة، عندما تحدى به الأخطار بتونس، ولذا اهتم بتحسينها وتجديد أسوارها وحصونها وشحنها بالآلات والعتاد. (٥)

٥ - الحاجب ابن تافراجين وعلاقاته الخارجية (الدبلوماسية).

أقام ابن تافراجين أثناء حجابته للسلطان أبي إسحاق واستبداده بالملك

(١) الوثريسي، العبار المغرب، ج ٦، ص ٩٨؛ الرصاع، فهرست الرصاع، تحقيق محمد العناني، تونس، بدون تاريخ، ص ١٩٩.

(٢) ابن السماع، الأدلة البينة، ص ١٠٢؛ ابن أبي دينار، المزنس، ص ١٤٩؛ برتشفك، نفسه، ج ١، ص ٣٧٢.

(٣) توجد بقايا تلك المدرسة على مقربة من ضريح الشيخ ابراهيم الرياحي بتونس، وكان بها قبره الذي اندثر الآن (الرصاع، فهرست الرصاع، ج ٦، ص ٢٠٠هـ).

(٤) العبر، ج ٦، ص ٣٧٧؛ الوثريسي، نفسه، ج ٦، ص ٩٨.

(٥) العبر، ج ٦، ص ٣٧٢؛ برتشفك، نفسه، ج ٢، ص ٣٤.

العديد من العلاقات الخارجية وتشمل فيما يلي:-

أولاً - علاقته مع جمهورية بيزا،

أبرم الحاجب ابن تافراجين - باسم السلطان أبي إسحاق الحفصي - معاهدة صلح وسلام مع نيربرجلين Neri Porcellino سفير جمهورية بيزا الإيطالية، وذلك في ١١ ربيع الآخر سنة ٧٥٤هـ/ ١٦ مايو ١٣٥٣م.

وما نصت عليه : أن يكون جميع من يصل من التجار البيزيين (البيشانيين) وأتباعهم إلى الحضرة العلية (تونس) وإلى جميع بلادها الداخلة تحت طاعتها آمنين في أنفسهم وأموالهم، وعلى ألا يصل إلى بلادهم الساحلية ولا إلى جزرهم جفن حربي لضرر من الحضرة تونس مدة هذا الصلح. وأن يكون للتجار البيزيين في كل بلد من البلاد الإفريقية الساحلية المعروفة بتزولهم فيها للتجارة فندق يختصون به لتجارهم، ولا يشاركهم في سكناه غيرهم، ويمكثوا في كل فندق من الكتيبة التي فيه ، ومن مدقن لوتاهم ومن فرن يختصون به، وأن لهم دخول حمام يختصون به يوماً في الجمعة، وأن يؤخذ منهم العشر فيما يبيعونه من السلع وأن يحكم قناصلهم فيما ينشب بينهم من منازعات وألا يشتروا ممن يقطع على المسلمين شيئاً من سلع المسلمين أو من أسراهم، وألا يضروا بأحد من أهل البلاد الإفريقية أو من أعمالها، وإذا حدث ضرر بأحد منهم فعلى حاكمهم وقناصلهم الانصاف من ذلك والقبض على الجاني. (١)

ثانياً - علاقته مع مملكة أراغون (أراجون Aragon)،

كذلك عقد ابن تافراجين باسم السلطان أبي إسحاق - معاهدة صلح وسلام

(١) راجع التفاصيل في:

Amarí, op. cit, pp.98-111 & Mas Latrie, Traites de Paix et du Commerce. Paris, 1886, pp.56-65.

لمدة عشر سنوات مع الفارس مربييس مكنوسيه (Mervies Mknosieh) سفير
بطرو الرابع (Pedro IV El Ceremonioso) ملك أراجون في ٢٥ صفر سنة
٧٦١هـ / ١٥ يناير ١٣٦٠م.

ومن نصوصها المهمة : أن يكون الصلح شاملاً لبلاد الحاضرة تونس أو البلاد
التابعة لها برأ وبعراً وأن كل مسلم يسافر من الحاضرة تونس أو من البلاد التابعة
لها يكون آمناً في نفسه وماله لا يلحقه ضرر، كذلك يقوم الملك بطرو بمنع من يريد
الخروج من بلاده إلى بلاد الحاضرة (تونس) وبسبب القطع في جلن من
الأجفان... كما منحت تلك المعاهدة للأراجونيين حق مهاجمة السفن القشتالية
في سواحل إفريقيا وميتا تونس، واحتجاز من فيها من أشخاص وأمتعة وعلاوة
على ذلك التزم السلطان الحفصي بمقتضى تلك المعاهدة ولمدة عشر سنوات. بدفع
ضريبة سنوية للملك أراجون قدرها ألفا دينار من الذهب، كما نصت المعاهدة على
بناء فنادق للتجار الأراجونيين ويكون لهم قناصلهم بتونس وسائر بلادها التي تحت
طاعتها، وألا يזمر أحد من الحاضرة تونس أو من أعمالها ببلاد ملك أراجون من
المسلمين أو اليهود بعد عقد هذا الصلح. (١)

وهناك رسالة بعث بها الحاجب ابن تافراجين إلى بطرو الرابع ملك أراجون في
٢٧ جمادى الآخرة سنة ٧٦١هـ / مارس ١٣٦٠ بخبره ليها بتفرض أحد رعاياه،
المبوقين للصلح، بقيامه (في نفس السنة) بأعمال القرضة في المياه التونسية
ومهاجمته لسفن في ميتا كل من تونس وسوسة ونهيه ما فيها من بضائع وأمتعة

(١) انظر برنشفيك، نفسه، ج. ١، ص ٢١٢-٢١٣.

Alarcon Y Gracia de Linares, Los documentos arabes Diplomaticos
del archivo de la corona de Aragon, Madrid, 1940, pp. 311-314,
Isidro de las cagigas, un traite de Paix, Hesperis, 1934, pp. 65-77,
Cronica de la corona de Aragon, publicado por conde de castellano,
zaragoza, 1919, p. 275, Aguado Bleye, Manual de historia de
España, Madrid, pp. 814-820 & Vives, op. cit, pp. 142-144.

وعدة، رغم إخباره بمعاودة الصلح والسلام المبرمة بين الطرفين، وطلب الحاجب من الملك بدره معاقبته ورد ما سلبه المعتدى من مال وسلع. ورغم تلك الحادثة إلا أنها لم تعكر صفو العلاقات الودية بين الدولة الحفصية ومملكة أراجون. (١)

ومن جهة أخرى نلاحظ ذبوع صيت ابن تافراجين في بلاط ملك أراجون، فتذكر وثائق أرشيف تاج أراجون أن الملك بدره الرابع كان يوصي مبعوثيه إلى الحاضرة تونس دائماً بالحرص على مقابلة الحاجب ابن تافراجين، ويطلب منه بدوره الاعتناء بسفرائه ومساعدتهم في القضايا التي جاورا ليحثها مع السلطان الحفصي. (٢)

ثالثاً - علاقته مع بنى الأحمر ملوك غرناطة،

أشارت المصادر العربية إلى وجود علاقة صداقة ومودة بين الحاجب ابن تافراجين والسلطان محمد الخامس الغني بالله بن الأحمر صاحب مملكة غرناطة، فيذكر ابن الخطيب أن الغني بالله سلطان غرناطة بعث برسالة ودية إلى الحاجب ابن تافراجين في سنة ٧٦٣هـ/١٣٦٢م يخبره فيها بالحوادث التي وقعت آنذاك - بمملكة غرناطة وخاصة الانقلاب الذي تزعمه محمد بن اسماعيل بن نصر أحد أقربائه - ثم تمكنه من العودة إلى الحكم، واستقراره على عرش مملكة غرناطة، كما دعا الحاجب في رسالته بالعمل على استمرار العلاقات الطيبة الرابطة التي تربط بين الدولة الحفصية ومملكة غرناطة منذ القديم. (٣)

(١) برنشفيك، نفسه، ص ٢١٣؛

Alarcon Y Linares, op. cit, pp.324-325.

Vives, op. cit, pp.133-134.

(٢)

(٣) راجع نص الرسالة في: ابن الخطيب، ريعانة الكتاب، مجلد ١، لمحقق محمد عبد الله عنان، نشر مكتبة الخالجي، القاهرة، ١٩٨٠، ص ١٠٥-٧٠، القرى نفع الطيب، ج ٩، لمحقق يوسف البقاعي، بيروت، ١٩٨٦، ص ٥٨-٦٣؛ وانظر أيضاً: محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي، ص ١١٢؛ برنشفيك، نفسه، ج ١، ص ٢١٣؛

هـ - وفاة ابن تافراجين ودور أسرته في الدولة الموحية.

توفي الحاجب عبد الله بن تافراجين بسبب الطاعون في ربيع الأول سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م (١١)، وكان قبيل وفاته مباشرة قد ارتبط بالسلطان أبي إسحاق الحفصي برباط المصاهرة حيث تزوج السلطان من ابنة الحاجب في صفر سنة ٧٦٦هـ واحتفل لذلك غاية الاحتفال (٢).

وعقب وفاة الحاجب ابن تافراجين استقل السلطان أبو إسحاق إبراهيم بأمور دولته، وباشرها بنفسه وكان «كسحجور أطلق يده وصيه»، وفي تلك الاثناء كان القائد محمد بن عبد الله بن تافراجين غائباً عن تونس على رأس العسكر يقوم بالحماية عندما بلغه نبأ وفاة والده فأوجس خيفة وصرف الجند إلى تونس، وأخذ يعرض نفسه على حواضر إفريقية - مثل المهدية وجربة وغيرها - والتي كان يظن أنها على طاعته، إلا أنه لم يلق القبول، وصده ولائها، ثم بعث إليه السلطان أبو إسحاق يطمنه ويستميله، وأعطاه الأمان مما أدى إلى سرعة عودته إلى الحاضرة تونس فلتقاه السلطان بالترحاب والاکرام وقلده حجابته خلفاً لوالده (٣).

ولم تلبث العلاقات أن سادت بين السلطان أبي إسحاق وحاجبه محمد بن تافراجين لانكاره مباشرة السلطان للناس ورفعه للحجاب ولما ألفه من الاستبداد

Gaspar Remiro, *Correspondencia diplomática entre = Granad.YFez,1910, pp.343-347 & Mujtar Al-Abbadi, El Reino de Granada en la epoca de Muhammad V, Madrid,1973, p.116.*

(١١) دفن الحاجب عبد الله بن تافراجين في مدرسته الواقعة بفنطرة ابن ساكن داخل باب السويقة بتونس وحضر دفنه السلطان أبو إسحاق، انظر: (الزركشي، نفسه، ص ١٠١؛ السراج، نفسه، مجلد ٢، ص ١٧٧).

(١٢) ابن الشاح، نفسه، ص ١٠٥؛ الزركشي، نفسه، ص ١٠١؛ السراج، نفسه، مجلد ٢، ص ١٧٧؛ ابن أبي دينار، نفسه، ص ١٥.

(١٣) العبر، ج ٦، ص ٢٧٨؛ الفارسية، ص ١٧٦؛ الزركشي، نفسه، ص ١٠١-١٠٢؛ برنشفيك، نفسه، ج ١، ص ٢١٣.

والنفوذ منذ عهد أبيه، فأظلم الجو بينه وبين السلطان، وما ساعد على ذلك أيضاً تدخل الرشاة والمنافين للحاجب محمد بن تافراجين في البلاط الحفصي، ونتج عن ذلك قرار الحاجب ابن تافراجين إلى قسنطينة حيث استقر عند السلطان - أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر الحفصي، وأخذ يحرضه على غزو تونس ويرغبه في ذلك، موضحاً سهولة الاستيلاء عليها. وقد رحب السلطان أبو العباس به، ووعدته بالتهوض معه إلى إفريقية عقب فراغه من حربه ضد ابن عمه الأمير أبي عبد الله الحفصي صاحب بجاية. (١)

وعقب انتهاء السلطان أبي العباس صاحب قسنطينة من فتح بجاية في شعبان سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥-١٣٦٦م، أرسل إلى تونس جيشاً بقيادة أخيه أبي يحيى زكريا (صاحب برنة) وبصحبه محمد بن تافراجين ونازلها الجيش عدة أيام، ولكنها امتنعت عليه، واضطروا إلى فك الحصار والاتسحاب بعد عقد السلم والمهادنة مع السلطان أبي إسحاق ولحق ابن تافراجين بالسلطان أبي العباس أحمد بقسنطينة. (٢)

وفي سنة ٧٧٧هـ/١٣٩٦م توفي أبو إسحاق سلطان تونس، وخلفه ابنه أبو البقاء خالد الثاني الذي كان قليل الخبرة يأمره الحكم، ولذا خرجت عن طاعته العديد من الولايات. وأرسل أمراء العرب ببلاد قسطنطينية (جنوبي إفريقية) إلى السلطان أبي العباس (صاحب قسنطينة وبجاية) يستحثونه لبط سلطانهم عن تونس، فرحب بذلك، وبعث إليهم في البداية بالقائد محمد بن عبد الله تافراجين لأخذ بيعتهم، فدخل في الطاعة يحيى بن ملول صاحب توزر والخلف بن الخلف صاحب نفطة، وأصبح الطريق بذلك ممهداً أمامه لغزو تونس وإفريقية. (٣)

(١) العبر، ج ٦، ص ٣٧٨؛ ابن السمع، نفسه، ص ٦٠، الزركشي، نفسه، ص ٢، ١؛ المطر، نفسه، ص ٤٧.

(٢) العبر، ج ٦، ص ٣٨٩؛ الزركشي، نفسه، ص ٢، ١؛ المطر، نفسه، ص ٤٧.

(٣) العبر، ج ٦، ص ٣٨٢-٣٨٣؛ الزركشي، نفسه، ص ١، ٥.

وفي سنة ٧٧٢هـ / ١٣٧٠م تمكن السلطان أبو العباس أحمد الحفصي من الاستيلاء على تونس واعتقال صاحبها أبي البقاء خالد بن أبي إسحاق الحفصي، وأرساله في سفينة إلى إحدى مدن ساحل المغرب الأوسط، تمهيداً لنقله إلى قسنطينة، غير أنه غرق في البحر. وعقب استقرار السلطان أبي العباس بالحاضرة تونس قلد خطة الحجابة لأخيه الأمير أبي يحيى زكريا، وجعل القائد محمد بن تافراجين رديفاً له مكافأة على خدماته. (١)

ولم تلبث العلاقات أن تدهورت بشكل خطير بين السلطان أبي العباس وحاجبه محمد بن تافراجين بعد أن نفي إلى علمه عن طريق الرشاة أن ابن تافراجين اتفق سراً مع العرب في الخروج عليه ومهاجمة الحاضرة تونس. (٢) وعلى هذا أمر السلطان بالقبض على الحاجب ابن تافراجين، وأرساله إلى قسنطينة، وظل معتقلاً بها إلى أن توفي في سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦-١٣٧٧م. (٣)

وبعد نكبة الحاجب محمد بن تافراجين ظهرت في البلاط الحفصي بتونس شخصية أخرى تنتسب إلى تلك الأسرة وتعني بذلك : الشيخ أبو عبد الله بن أبي العباس أحمد بن تافراجين (ابن أخي الحاجب الشهير عبد الله بن تافراجين)، الذي حل مكان ابن عمه في بلاط السلطان أبي العباس الحفصي. فيذكر ابن القنفذ

(١) الأدلة البينة، ص. ١١: برنشفيك، نفسه، ج. ١، ص. ٢١٨-٢١٩.

(٢) في الحقيقة أننا لا نستبعد صحة الرشايات التي أبلغت للسلطان أبي العباس ضد حاجبه ابن تافراجين خاصة وأن هذا الحاجب كان يطمح -مثل والده- في السلطة والانفراد بالنفرة في الدولة، ولكنه لم يجد السبيل إلى ذلك نظراً لحزم السلطان أبي العباس وقوة بأسه، وتولية تدبير أمور دولته بنفسه، مما يصعب على الحاجب تحقيق طموحه الشخصي، خصوصاً وأنه لم يكن في مثل هبة ودهاء والده الذي كان يمتاز ببعد النظر والحيرة بأسود السياسة والحكم. انظر: (ابن الشجاع، نفسه، ص. ٤١١ المؤنس، ص. ١٥١، المطري، نفسه، ص. ٤٨٦-٤٨٧).

(٣) العبر، ج. ٦، ص. ٢٨٣-٢٨٤: ابن الشجاع، نفسه، ص. ١١: السراج، نفسه، مجلد ٢ ص. ١٨. برنشفيك، نفسه، ج. ١، ص. ٢٢-٢٢١.

-المعاصر له- ان السلطان أبا العباس «رتب مجلساً جليلاً، واختص خواص في مجلسه يتسابقون إلى نصحه»، ويضيف بأن الشيخ أبا عبد الله بن تافراجين كان يقرر في ذلك المجلس أصول المسائل السلطانية، ويذكر المعادة فيما التبس منها إذا سئل عنها بعقل وافر...هـ (١).

وفي عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز بن أبي العباس الحفصي (٧٩٦-٨٣٧هـ/١٣٩٤-١٤٣٤م) استمر بنو تافراجين في خدمة الدولة الحفصية، فيفيد ابن القنفذ بأن السلطان أبا فارس عقب استيلائه على قسنطينة في رمضان سنة ٧٩٨هـ/١٣٩٥م عين عليها مولاة القائد نبيل، وجعل على قصبتها الشيخ أبا الفضل أبا القاسم بن أبي عيد الله بن أبي العباس أحمد بن تافراجين، الذي لازم القصة وحسنت سيرته في أهل قسنطينة، فحظى بحبهم لتدينه وعدله، ولكنه لم يستمر بها طويلاً إذ لم يلبث أن بعثه السلطان أبو فارس في سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧-١٣٩٨م رسولا إلى بجاية (٢)، ثم عاد عقب ذلك إلى تونس واستقر بها في خدمة السلطان أبي فارس (٣).

وبوفاة الشيخ أبي القاسم بن تافراجين - على الأرجح في أواخر عهد السلطان أبي فارس - ينتهي دور تلك الأسرة التافراجينية الشهيرة، التي لعبت دوراً مهماً وخطيراً في تاريخ الدولة الحفصية خاصة خلال القرن ٨هـ/١٤م.

(١) الفارسية، ص ١٧٧.

(٢) كانت إمارة بجاية في تلك الفترة تحت حكم القائد طاهر ثم عزله السلطان أبو فارس، وولى عليها أخاه الأمير زكريا (صاحب برنة) ثم استولى عليها الأمير أبو عبد الله محمد بن أبي يحيى زكريا (ابن عم السلطان أبي فارس) الذي عقد عليها لابنه محمد المنصور. غير أن السلطان أبا فارس تمكن من استردادها وولى عليها ابن أخيه الأمير أبا العباس أحمد بن أبي عبد الله الحفصي. انظر: (الزركشي، نفسه، ص ١٢٤؛ برنسيك، نفسه، ج ١، ص ٣٤٣).

(٣) الفارسية، ص ١٩٤؛ الزركشي، نفسه، ص ١١٩؛ مبارك الميلي، تاريخ الجزائر، ج ٢، نشر مكتبة النهضة الجزائرية، ١٣٥٠هـ، ص ٣١٥؛ الطوى، نفسه، ص ٥٥٩؛ برنسيك، نفسه، ج ١، ص ٢٣٤.

**ثبت بأسماء ما وصل إلينا من أفراد أسرة بني تافراجين،
من خلال المصادر العربية**

- ١ - أبو حفص عمر بن تافراجين (جد بني تافراجين) (ت سنة ٥٤٩هـ).
 - ٢ - عبد الله بن عمر بن تافراجين (كان حياً سنة ٥٥٨هـ).
 - ٣ - عمر بن عبد الله بن تافراجين (كان حياً سنة ٥٩١هـ).
 - ٤ - عبد العزيز بن تافراجين (كان حياً سنة ٦٢٦هـ).
 - ٥ - عبد الحق بن تافراجين (كان حياً سنة ٩٨١هـ).
 - ٦ - أبو العباس أحمد بن عبد العزيز بن تافراجين (ت سنة ٧٠٣هـ).
 - ٧ - محمد بن عبد العزيز بن تافراجين.
- { عاشا في أواخر السابع وأوائل الثامن الهجري
- ٨ - عمر بن عبد العزيز بن تافراجين
 - ٩ - أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد العزيز بن تافراجين (ت ٧٤٧هـ).
 - ١٠ - أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عبد العزيز بن تافراجين (ت سنة ٧٦٦هـ).
 - ١١ - محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد العزيز بن تافراجين (ت سنة ٧٧٨هـ).
 - ١٢ - أبو عبد الله بن أبي العباس أحمد بن تافراجين (كان حياً سنة ٧٩٦هـ).
 - ١٣ - أبو الفضل أبو القاسم بن أبي عبد الله بن أبي العباس أحمد بن تافراجين
- عاشا في أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع الهجري.

مصادر ومراجع البحث

أولاً - المصادر العربية القيمة ،

١ - ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، لتحقيق محمد محمد شمام ، المكتبة العتيقة ، ط ٢ ، تونس ، ١٣٨٧ هـ .

٢ الإدرسي : صفة المغرب وبلاد السودان ومصر والأندلس من كتاب نزهة المشتاق ، طبعة ليدن سنة ١٨٩٤ م .

٣ - ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار ، تحقيق طلال حرب ، بيروت سنة ١٩٨٧ .

٤ - البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، نشر مكتبة المثنى ببغداد ، بدون تاريخ .

٥ - البليق : أخبار المهدي بن تومرت ، طبعة باريس ، نشر ليفي برونسسال سنة ١٩٢٨ ، طبعة عبد الحميد جاجيات ، الجزائر سنة ١٩٧٤ .

٦ - ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، ج ٢ ، تحقيق د. نبيل عبد العزيز ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٥ .

٧ - التجاني : رحلة التجاني ، المطبعة الرسمية ، تونس ، ١٩٥٨ .

٨ - ابن الحاج النخيري : فيض العباب وأغاضة قدامح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب ، تحقيق محمد بن شقرو ، ط ١ سنة ١٩٨٤ .

- ٩ - ابن حجر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ج ٩ ،
طبعة دار الجبل ، بيروت ، بدون تاريخ .
- ١٠ - الحميري : الروض المغطر في خبر الأقطار ، تحقيق
احسان عباس ، بيروت ، ط ٢ ، ص سنة
١٩٨٤ .
- ١١ - ابن الخطيب : ربحانة الكتاب ولحمة المتناهب ، تحقيق عبد
الله عتّان ، نشر مكتبة الخالجي ، القاهرة ،
١٩٨٠ .
- ١٢ - ابن الخطيب : النسخة البيرية في الدولة النصرية ، طبعة لجنة
إحياء التراث بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٠ م .
- ١٣ - ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ،
منشورات دار الكتاب اللبناني المصري ،
١٩٧٩ م .
- ١٤ - ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، طبعة بيروت ،
١٩٧٩ م .
- ١٥ - ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، تحقيق علي عبد الواحد
وإثني ، نشر دار نهضة مصر ، ط ٢ ، سنة
١٩٨١ م .
- ١٦ - الرصاع : فهرست الرصاع ، تحقيق محمد العناني ، نشر
المكتبة العتيقة ، تونس ، بدون تاريخ .
- ١٧ - الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق
محمد ماضور المكتبة العتيقة ، تونس ،
١٩٦٦ .
- ١٨ - الراج الأندلسي : الحلل المنسوبة في الأخبار التونسية ، تحقيق

الحبيب الهبلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت
١٩٨٤.

١٩ - الملاوي الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق
جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار
البيضاء ١٩٥٤.

٢٠ - ابن الشاع : الأدلة البينة التوراتية في مفاخر الدولة
الحفصية، تحقيق الطاهر المعموري، الدار
العربية للكتاب، ليبيا - تونس ١٩٨٤.

٢١ - ابن فضل الله العمري : وصف إفريقيا والمغرب والأندلس من كتاب
مسالك الأبصار، تحقيق حسن حسني عبد
الوهاب، مطبعة النهضة، تونس، بدون تاريخ.

٢٢ - القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نشر دار
الكتب العلمية بيروت، ط ١، ١٩٨٧.

٢٣ - ابن القنفذ : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق
محمد النيفر وعبد المجيد التركي، الدار
التونسية للنشر، تونس ١٩٦٨.

٢٤ - محمد أبو واس الجريسي : مؤنس الآحية في أخبار جربة، طبعة تونس،
١٩٩٦.

٢٥ - المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق
محمد سعيد العريان، نشر المجلس الاعلى
للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٣.

٢٦ - المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، تحقيق
دمحمد مصطفى زيادة، ط ١، القاهرة
١٩٥٨.

٢٧ - المقرئ : نفع الطب من غصن الأندلس الرطيب.

لمحقق يوسف البقاعي، بيروت، ١٩٨٩.

٢٨ - مؤلف مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار، لمحقق سعد

زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة
الاسكندرية، ١٩٥٨.

٢٩ - النباهي الماتني : تاريخ قضاة الأندلس المعروف بالمرقبة العليا.

طبعة بيروت، ١٩٨٣.

٣٠ - ألونشريسي : المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي

علماء إفريقية والأندلس والمغرب، نشر وزارة
الأوقاف المغربية ١٩٨١.

٣١ - يحيى بن خلدون : بقية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد

الواد، لمحقق عبد الحميد حاجيات، الجزائر
١٩٨٠م.

ثانياً ، المراجع العربية الحديثة والعربية .

١ - أحمد مختار العبادي (دكتور) : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس،

الطبعة الأولى، الاسكندرية، ١٩٦٨م.

٢ - برنشفيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ترجمة

حمادي الساحلي، نشر دار المغرب الاسلامي،
بيروت، ١٩٨٨.

٣ - جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق الاسلامي،

ترجمة محمود هيكل، منشأة المعارف،
الاسكندرية، ١٩٩١.

٤ - جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية، ج ٢، تعريب محمد

مزالى والبشير بن سلامة، تونس، ١٩٧٨.

٥ - حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٦.

٦ - السيد عبد العزيز سالم (دكتور) : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، نشر مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، بدون تاريخ.

٧ - رضوان البارودي «دكتور» : جزيرة جربة التونسية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٠.

٨ - روجي لي تونزو : حركة الموحدين في المغرب، ترجمة أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ١٩٨٢.

٩ - عبد العزيز بن عبد الله (دكتور) : الموسوعة المغربية للأعلام الشربة والحضارية (معلمة المدن والقبائل)، مطبوعات وزارة الأوقاف المغربية، ١٩٧٧.

١٠ - عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب، ج١، المطبعة المكية، الرباط، ١٩٦٨.

١١ - عز الدين موسى (دكتور) : دراسات في تاريخ المغرب الاسلامي، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣.

١٢ - مبارك الملي : تاريخ الجزائر، ج٢، نشر مكتبة النهضة الجزائر، ١٣٥٠.

١٣ - محمد التوني (دكتور) : علاقات المغرب بالشرق ايام السلطان أبي الحسن، بحث بكتاب ورفات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، الرباط ١٩٧٩.

١٤ - محمد العروسي الطوي : السلطنة الحفصية، نشر دار المغرب الاسلامي،

بيروت، ١٩٨٦.

١٥ - محمد الهادي العامري : تاريخ المغرب العربي، نشر الشركة

التونسية، تونس، ١٩٧٤.

١٦ - هوبكنز : النظم الإسلامية في المغرب في القرن

الوسطى، ترجمة أمين الطيبي، نشر الدار

العربية للكتاب، ليبيا- تونس، ١٩٧٧.

حائلاً، المراجع الأجنبية .

- 1- Aguado Bleye : Manual de historia de España, t.1, Madrid, 1947.
- 2- Ahmad Muhtar Al-Abbadi: El reino de Granada en la epoca de Muhammad V, Madrid, 1973.
- 3- Alarcon Y Gracia de Linares: Los documentos arabes diplomaticos de archivo del la corona de Arogon, Madrid, 1940
- 4- Alfred Bel, Les Benau Ghanya, paris, 1903.
- 5- Amari: Diplomi arabi dell archivio Fiorentio, Firenze, 1863.
- 6- Cronica de la corona de Arogon Y Granada, Barcelona, 1908.
- 7- Encyclopedia of Islam, Art., Tunis, vol, IV. London, 1913.
- 8- Gaspar Remiro: Correspondencia diplomatica entre Granada Y Fez en el siglo XIV, Granada, 1910.
- 9- Gimenez Soler: La Corona de Arogon, Barcelona, 1908.
- 10- Isidro delas Cagigas: Un traite de paix entre le roi pierre IV de Aragón et le Sulaton de Tunes, Hesperis, XiX, 1934,
- 11- Josefa Mutge Vives: Algunas noticias sobre la relaciones entre la corona catalano-aragonesa Yel reino de Tunes, en. Actas del coloquio, Madrid, 1988.

- 12- Mas Latrie: Traites de paix et du commerce concernait les relations des chertiens avec les arabes de L'Afrique Septentrionale au moyen-age, paris,1886.
- 13- Terrasse: Histoire du Maroc., Casablanca.



ولاية العهد كمدخل طبيعي للحكم في دول الخليج
مع دراسة تطبيقية علي دولة قطر (حالة دراسية)

د. يوسف محمد عبيد الله
كلية الإدارة والاقتصاد
جامعة قطر
١٩٩٢



تمهيد:

إن غرضنا من هذا البحث هو دراسة موضوع ولاية العهد في الدول الخليجية ذات الدساتير المكتوبة وهي الكويت والبحرين وقطر ودولة الإمارات العربية المتحدة ^(١) باعتبار هذه المسألة من المسائل الجوهرية في الحياة السياسية ، نظراً لكونها المدخل الطبيعي لشرعية الحكم وما يؤدي إليه ذلك من حفظ استقرار النظام السياسي واستمراره ووقايته من عوامل الاضطراب والاهتزاز . وسوف نتناول بالتحليل في بحثنا هذا دراسة هذه المسألة في جانبها السياسي دون الدخول في جانبها التاريخي إلا بالقدر الذي يتطلبه ذلك الجانب السياسي ولا شك أن هذه المسألة قد غدت اليوم ذات شأن خطير في بنيان هذه النظم ، وإن تحليلنا لها سوف يساهم في تقييمها ويلقي الضوء على ما تلعبه من دور في حفظ كيان هذه البلدان الجديدة الناشئة ، بما يسمح بالمقارنة بينها وبين واقعها وأيضاً بين النظم القائمة في مناطق أخرى من العالم وتأسيساً على هذا ، نتناول بالدراسة والتأصيل هذه المسألة على النحو التالي :

- أولاً : التكوين التاريخي للدول الخليجية ومفهوم الأسر الحاكمة .
- ثانياً : العلاقة بين الأسر الحاكمة وبريطانيا في عهد الحماية وأثر ذلك في تثبيت الحكم .
- ثالثاً : مفهوم ولاية العهد في الدول الخليجية .
- رابعاً : ولاية العهد في قطر (حالة دراسية) .

(١) أثرتنا الاقتصار على دراسة مسألة ولاية العهد في هذه الدول نظراً لأن هذه الدول لها دساتير وتوانين أساسية تناولت هذه المسألة بشيء من الدقة والتحديد تسهيلاً للمقارنة

أولاً: التكوين التاريخي للدول الخليجية ومفهوم الأسر الحاكمة :

إننا في دراستنا للتكوين التاريخي لهذه الدول ، سنطرح جانباً - كما
أشرنا - الدراسات التاريخية التي تخرج عن نطاق دراستنا والاكتفاء
بالإشارة إليها كلما لزم الأمر وبالقدر الذي تسمح به دراستنا السياسية
ويعين في إلقاء الضوء على موضوع ولاية العهد .

فمما لامرأ فيه أن الدول الخليجية تمتاز بانتمائها لتاريخ مشترك ، إذ
أنها جميعاً تعتبر أجزاء من منطقة جغرافية واحدة في الخصائص والسمات
المشتركة من النواحي الاقتصادية ، والاجتماعية والسياسية^(١) ، وهي عبر
عصورها التاريخية كذلك خضعت لظروف واحدة تتمثل في قوى متشابهة في
الداخل والخارج سواء في ذلك من ناحية تركيبها الاجتماعي ونظامها في
الحكم التقليدي أو من ناحية تبعيتها للنفوذ العثماني والاستعمار البريطاني ،
ثم في تطورها المعاصر الذي نشاهده اليوم واقعاً حيث أضحت دولاً ذات
سيادة من الناحية السياسية والاقتصادية . ولذا فإن التاريخ السياسي
والاجتماعي للإمارات الخليجية فيما قبل إنشاء الدولة المعاصرة يلقي الضوء
علي واقعها في عهد الاستقلال المعاصر . فلقد ظهرت إلى الوجود بين قوى
خارجية فرضت سلطانها عليها ، وأحكمت قبضتها عليها بتوجيه بفة تطورها
وسياستها ، وبين قوى داخلية أصيلة في صلب بنائها المجتمعي وتركيبها
الحضاري^(٢) .

ولقد تمثلت القوى الخارجية من الناحية الإسمية في السيادة العثمانية
ومن الناحية الفعلية في الاستعمار البريطاني الذي عرف حق المعرفة الأهمية

(١) أنظر رسالتنا المكتورة : نظام الحكم في دول الخليج : دراسة مقارنة لكل من قطر والكويت

والبحرين ، مقدمة إلى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٧٢ .

(٢) فريد هالدي : المجتمع والسياسة في الجزيرة العربية ، تعريب د . محمد غانم الرميحي -

طابع دار الوطن ، الطبعة الأولى ، الكويت ١٩٧٦ ، ص ٢٢ - ٢٥ .

الاستراتيجية والسياسية للخليج بالنسبة لامبراطوريته في الهند خاصة منذ أن اكتشفت بريطانيا أن غزو نابليون لمصر في عام ١٧٩٨ كان يخفي وراء أهداف الهجوم الفرنسي على الهند ، فحرصت بريطانيا على أن تبقى منطقة الخليج في " أيد غير معادية لها " (١) .

كما تمثلت قوي التطور السياسي التنظيمي من الناحية الداخلية في بروز أسرة حاكمة انعقد لها لواء الرياسة والإدارة في هذه الدول وذلك على نحو ماصاغه ابن خلدون من قانون التطور الاجتماعي والسياسي في تجربته الحكم عند العرب (٢) ، وهذه الأسر التي يستمد منها نظام الحكم في هذه الدول كيانه ونشاته هي التي قامت ولا تزال تقود المسيرة السياسية العامة فيها مستهدفة تطوير النظام الاجتماعي بما يتلاءم مع اتجاهات الدول الجديدة كما صاغته دساتيرها (٣) .

ولأنه لمن المعروف - طبقاً لمصادر التاريخ - أن التكوين التاريخي لكل دولة يرتبط بظهور الأسرة الحاكمة وتزعمها للسلطة والريادة ، نتيجة ما حظيت به هذه الأسرة من جاه ونفوذ وغني مكنتها من التفرد بهذه المكانة فلم يكن مجيئها إلى السلطة وتقلدها زمامها أمراً ميسوراً بل كان محفوفاً بالمخاطر ، تكبدت من جرائه هذه الأسرة الكثير من المتاعب والتضحيات

Ramahi, Seif A. EL-Wady - Economics and Political Evolution (١) in the Arabian Gulf States. New York Carlton Press, Inc., 1973, P. 69 .

(٢) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، الجزء الثاني ، القاهرة لجنة البيان العربي ، ١٩٥٨ ، ص ٤٢٩ .

(٣) أنظر رسالتنا للكتوراء : نظام الحكم في دول الخليج : دراسة مقارنة لكل من قطر والكويت والبحرين ، مقدمة إلى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، مرجع سابق ، ص ٧٤ .

المادية والبشرية ، بما عقدته من تحالفات مع أسر أخرى للوقوف معها في كفاحها سواء من الناحية الداخلية أو من الناحية الخارجية حيث طلبت الاستتجاد بقوى خارجية للمعازنة في تثبيت ملكها كي يتسنى لها مقاومة خصومها في الداخل والخارج .

ومن الجدير بالذكر أن الطبيعة كانت عاملاً من عوامل نجاح هذه الأسر في الارتقاء إلي مسرح الزعامة . فقد كانت الهجرة من وإلى هذه البلدان بسبب القحط وندرة المياه والكلا من العوامل التي دفعت هذه الأسر كما أشرنا إلي خوض الحروب سواء مع القوى المحلية المسيطرة أو مع القوى الخارجية المناوئة التي تمثلت في الامبراطورية العثمانية والامبراطورية البريطانية . كما كان لعامل الثراء أثره هو الآخر في وصول هذه الأسر إلي سدة الحكم ، إذ أسهم كذلك إلي حد كبير في تقوية نفوذ هذه الأسر ومركزها ونفاذ كلمتها في أوساط الكثير من الأسر والقبائل المتحالفة معها .

وتفريعاً علي هذا زخر التاريخ السياسي الخليجي بأسر حاكمة ارتبط اسمها وتاريخها بالبلد الذي تعكنت فيه من تقوية شوكتها وسلطتها فأصبحت بما قامت به من حروب وما حققت من انتصارات هي الهيئة التي تجسد رمز الشرعية في حكم هذه البلاد .

ففي الكويت تجمع الروايات التاريخية علي أن آل الصباح هم أول من أسس الكويت ، إذ كانت قبل مجيء هذه الأسرة دياراً فقيرة يقطنها فقط بضع عشائر ، فاستوطنتها هذه الأسرة وشيدت بها بيوتاً حجرية صالحة للإقامة الدائمة ، كما يروي ذلك المؤرخ الكويتي عبد العزيز الرشيد (١) ،

(١) عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ص

وتأسيساً على هذا فإن التاريخ الحقيقي للكويت يبدأ بوصول الأسرة الصباحية إليها وهي تنسب إلى قبيلة عنزة العربية التي ينتمي إليها كل من الأميرين الحاكمين في السعودية والبحرين . ويحكي التاريخ أن الفقر والخدمة والخلافات العائلية (١) كانت الدافع لهذه الأسرة ونظيرتها في البحرين إلى ترك الموطن الأصلي في نجد والانتقال إلى قطر ، ولكن لم يطلب لها المقام ، فانتهي بها المطاف إلى الاستقرار في الكويت التي كانت تحكم بواسطة ابن عريم زعيم قبيلة بني خالد ذات الثراء الواسع العريض (٢) . وما أن وطئت أقدام آل صباح أرض الكويت حتى سعوا في بادية الأمر إلى التحالف مع أمراء بني خالد الذين تنازلوا لهم طواعية عن الإمارة لما كانوا يعانون من فرقة وشقاق نتيجة حروبهم مع القبائل الأخرى ، وقد كان الخلاف حافزاً للمستوطنين الكويتيين في العام ١٧٥٦ وجلبهم من القبائل والعشائر التي تنتمي بالأصل إلى بلاد نجد لأن يقرروا بالإجماع تولية وانتخاب عميد الأسرة الصباحية آنذاك الشيخ صباح بن جابر وتنصيبه كأول حاكم للبلاد من هذه الأسرة .

أما سبب اختيار القبائل الكويتية لهذا الحاكم فيعزوه المؤرخون إلى ما كان يتمتع به والده من زعامة وهيبة على قومه منذ أن كان في موطنه الأصلي (نجد) قبل الهجرة ، ويتولى هذا الأمير السهم ظهرت الأسرة الصباحية كدولة حاكمة على مسرح الحكم في الكويت في أوائل القرن الثامن عشر ، ومنذ هذا التاريخ أصبح الحكم في الكويت ميراثاً يتوارثه الخلفاء من آل صباح من هذه الأسرة (٣) .

(١) انظر في قصص : أغواء على تاريخ الكويت ، دار الكتب العربية ، طابع في بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٣٧ .

(٢) زهرة ديكسون فرات : الكويت كانت مغربي ، دار الكتب العربية ، بيروت ، تاريخ الكويت ، ص ١٠ .

(٣) سيف مرزوق الشملان : من تاريخ الكويت ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ١٠ .

أما في البحرين فإن التاريخ السياسي الحديث لها يبدأ بوصول آل خليفة عام ١٧٨٢ م وتسلمهم زمام السلطة فيها وذلك حين استقر المقام بال خليفة في قرية الزبارة من شبه جزيرة قطر ووطدوا حكمهم فيها ، واتخذوا منها مقراً للتطلع نحو جزر البحرين المتاخمة لهم ، بقيادة كبير لهم يدعي الشيخ أحمد الخليفة (الملقب بأحمد الفاتح) والذي وافته الفرصة بعد عدة محاولات قام بها إلي طرد والي فارس العربي من البحرين عام ١٧٨٢ ، ودخل قواته البحرين بقيافته فاتحة وتمكنها من احتلال جزيرتي الفاتمة والمحرق (١) .

ويدخل هذا الشيخ إلي البحرين يكون قد أرسى دعائم حكم أسرة آل خليفة فيها كما وضع هذا الفتح أيضاً نهاية للنفوذ الفارسي علي جزر البحرين (٢) ومنذ اضطلاع الأسرة الخليفة بالحكم أدبت جادة للدفاع عن حكمها ضد مختلف الطامعين من القوي المحلية بشتي الوسائل العسكرية أحياناً والسياسية أحياناً أخرى ، مما حفظ لها استقلالها حتي انتهى الأمر بقيام بريطانيا بالمحافظة علي ما سمي بالوضع الراهن في منطقة الخليج والذي استمر حتي الاستقلال .

(١) أمل الزباني : البحرين من ١٧٨٢ - ١٩٧٢ ، دراسة في محيط العلاقات النولية وتطور الأحداث في منطقة الخليج ، مطابع دار الترجمة والنشر لشئون البترول ، بيروت ١٩٧٢ ص ٤٤ .

(٢) انظر في هذا بالتفصيل كلام من :

Kelly, J. B. - Eastern Arabian Frontiers, Clarendon Press, - ١ London, 1964, PP 112 - 115 .

٢ - د . أحمد مصطفى أبو حاكمه - تاريخ شرق الجزيرة العربية في العصر الحديث ، مطبعة النهضة ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ص ٦٤ - ٨٩ .

٣ - حافظ وهبه : جزيرة العرب في القرن العشرين ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ص ٨٧ - ١٠٢ .

أما التاريخ السياسي الحديث لقطر - طبقاً لروايات المؤرخين - فإنه لا يختلف عن مثليه في الكويت والبحرين ، فتاريخها يبدأ بوصول أسرة آل ثاني إلى الأرض القطرية (١) كآسرة حاكم علي نحو مشابه تماماً لما كان عليه الحال في الكويت والبحرين . وقد تواجد آل ثاني في قطر (٢) وفقاً لإجماع الروايات في أوائل القرن الثامن عشر ، وهم ينتسبون إلى جدهم الشيخ محمد بن ثاني بن ثامر بن علي من قبيلة بني تميم وكان موطنهم الأصلي في بلاد نجد ، ومنها نزحوا إلى واحة جبرين من أراضي السعودية ، وأخذوا في التجوال في جنوب هذه البلاد شرقاً وغرباً حتي حطت بهم الرحال في مدينة الزبارة حيث ولد فيها الشيخ ثاني جد العائلة . ثم مالبت الأسرة أن انتقلت إلى بلدة " فويرط " في شمال قطر قبل انتقالها إلى الدوحة عام ١٨٤٧ ، وكان نزول الأسرة الدوحة في ظروف عسيرة بسبب أطماع القوى الإقليمية وتكالب القوى المحلية على السلطة (٣) . وقد تمكن الشيخ محمد بن ثاني بفضل حنكته وما تحلى به من صفات أن يوحد القبائل القطرية في مواجهة خصومه من آل خليفه في البحرين ، فاستطاع بفضل توحيد الصفوف رد غارات شنها آل خليفه عليهم في مدينة الوكرة وتمكن من هزيمتهم في هذه المدينة وقد وجد الشيخ محمد في ابنه الشيخ جاسم خير عون له ، إذ تولي الشيخ جاسم ولاية الحكم بعد أبيه ، ويشار إليه علي أنه المؤسس الفعلي لإمارة قطر منذ توليه

Zahlan, Rosemarie Said - The Creation of Qatar, Groom Helm, (١)
London 1972, P. 18 .

(٢) محمد بهر ج ستان : تاريخ قطر العام ، الطبع الأولي ، بغداد ، مطبعة العا

٨٧ - ٨٦ .

(٣) د . خالد العزي . الخليج العربي في ماضيه وحاضره ، مطبعة الي حط بغداد ، ١٩٧٢ . ص

١٦٢ .

الحكم عام ١٨٧٨^(١) ، واستطاع هذا الشيخ - رغم أن حكمه لقطر كان تحت السيادة الاسمية للدولة العثمانية الإسلامية - أن يؤلف بين ثلوب القبائل القطرية ويصبح فيهم السيد المطاع ويحظي منهم بالسمع والطاعة وساعده علي ذلك ما أوتي من صفات شخصية ودهاء وحكمة وتغلب علي الصعاب فضلاً عن ثرائه الواسع الذي جعل منه أكبر وأشهر تجار اللؤلؤ وبهذا تكون قاعدة الحكم قد تثبتت في أسرة آل ثاني ، منذ ذلك التاريخ .

أما دولة الإمارات العربية المتحدة التي تكونت في السبعينات من سبع إمارات هي أبو ظبي ودبي والشارقة ورأس الخيمة وعجمان والفجيرة وأم القيوين ، فكلها منطقة جغرافية واحدة أو بالأحرى ساحل له سمات وخصائص واحدة ومتشابهة في الجغرافيا والوحدة التاريخية والتراث المشترك واللغة والدين والعادات والتقاليد^(٢) كما تكشف ذلك المؤلفات التاريخية وكان هذا الساحل منذ نشأته قديماً يعرف بين أهل الخليج باسم إمارات الساحل أو إمارات ساحل عمان ، ولكن بعد أن تدخل البريطانيون في أمور هذا الساحل عقب الحملة البريطانية عام ١٨١٩ وتوقيع اتفاقية عام ١٨٢٠ مع شيوخ الإمارات ثم اتفاقية عام ١٨٥٢ مع هؤلاء الشيوخ ، أيضاً أصبحت إمارات هذا الساحل تعرف لدى الرسميين البريطانيين وفي الخرائط الدولية باسم إمارات الساحل المتصالح^(٣) وواقع الأمر ، أننا لا نجد فارقاً البتة بين بداية

(١) مصطلحي مراد الدباغ : قطر ماضيها وحاضرها ، منشورات دار الطليعة للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ١٨٢ .

(٢) د . يوسف أبو الحجاج : دولة الإمارات العربية المتحدة ، دراسة تحليلية للملامح العامة : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

(٣) د . محمد مرسي عبد الله : دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها الطبعة الأولى ، ١٩٨١ ، دار القلم ، الكويت ، ص ٢٧ .

التاريخ السياسي لكل من الكويت والبحرين وقطر وبين كل إمارة من الإمارات السبع النخرطة في دولة الإمارات العربية المتحدة ، ففي كل إمارة من هذه الإمارات توجد أسرة حاكمة مؤسسة ارتقت سلم الحكم في الإمارة نتيجة ما انفردت به من مركز متميز يتمثل في الواجهه والسطوة والغنى ساعدها في إحكام قبضتها علي مقادير الأمور وحظيت من القبائل المقيمة معها بالسمع والطاعة والمبايعه ومن تفاعل الظروف المحلية والخارجية برزت هذه الأسر ككيانات قبلية . فمنذ أوائل القرن الثامن عشر بدأت القبائل العربية في منطقة الساحل تأخذ نوعاً من الترابط والتجمع فيما بينها أسفر في منتصفه عن بروز تنظيمين قبليين كبيرين هما اتحاد القواسم سكان القسم الشمالي واتحاد بني ياس سكان القسم الجنوبي (١) .

وقد تقاسم هذان الحلفان الكبيران السلطة السياسية فيما بينهما في المنطقة إلا أنهما لم يوفقا في الترابط والنمو بينهما نتيجة الضغوطات الخارجية لأن الظروف العامة التي شهدتها المنطقة في النصف الأول من القرن الثامن عشر قد ساعدت علي قيام تلك التنظيمات القبلية التي تحقق لها قدر كبير من الاستقرار والتنظيم السياسي والاقتصادي في غياب سلطة قوية كبرى إثر انهيار القوة البحرية المتفوقه للبرتغاليين واضطرابهم للانسحاب من قواعدهم وحصونهم المنيعه مما أفسح المجال لموجات من الهجرات العربية التي اندلعت إلي شواطئ الخليج من أواسط الجزيرة العربية بعد أن اضطرت هذه الموجات إلي الانكماش خلال ما يقرب من قرنين من الزمان نتيجة الأسلوب العسكري الاحتكاري التعسفي الذي مارسته البرتغاليون .

بحار الشرق .

(١) Jonathan B. Kelly - Britain and the Persian Gulf, 1795 - 1880 - (Oxford Clarendon Press, 1968) P. 33 .

وتنبه المصادر التاريخية أن تنظيمي القواسم وبني ياس المنشار إليهما قد تزامنا في نشأتهما في اتجاهين متوازيين فتتميز التنظيم الأول بالقوة البحرية ، في حين تفوق التنظيم الآخر بقوته البرية ، كما استطاع كل من التنظيمين تجميع عدد كبير من القبائل والعشائر تحت لوائه ، إذ نجح كل من التنظيمين في زعامة مجموعة من الأحلاف والعشائر القبلية وأوكلت لهم هذه المجموعات مقاليد أمورها وأصبح القواسم وآل بوفلاح عندئذ هما العشيرتان المترعمتان لهذين التنظيمين الكبيرين . وهما بطبيعة زعامتهما كانا يمثلان الجناح العسكري في المجموعة القبلية المنتمية لهما ، ومما يجدر ذكره أن هذه القبائل فضلاً عن روابط القرابة فإنها ترتبط كذلك بروابط التضامن السياسي والمصالح المشتركة والوجود ضمن منطقة معينة والخضوع لزعامة موحدة كما أن من أسباب نجاح زعامة هذين الحلفين علي القبائل المنتمية لهما أنهما لم يمارسا سلطة استبدادية أو تعسفية بل تركا لكل قبيلة (شيخا) يمارس عليها الحكم وفق أسلوبه القبلي بالرغم من احتفاظهما بالسلطة العليا عليهم وهو ما كان عاملاً من عوامل الولاء لهما ^(١) أسهم في استتباب الأمر لهذين التنظيمين إلي أن أصيبا بالتصدع والانقسام في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ^(٢) حين بدأ الزحف البريطاني علي المنطقة إذ أدّى هذا الزحف إلي قيام

(١) للمزيد عن دور القواسم كقوة مؤثرة ومطاعة في التاريخ السياسي للإمارات طالع :

S. B. Miles, Countries and Tribes of the Persian Gulf (Lon- ١ don Frank Cass . 1966) Vol 2, P. 438 .

٢ - د . جمال زكريا قاسم : الخليج العربي ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوربي الأول ١٥٠٧ - ١٨٤٠ دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٥ ص ص ٢٩٣ - ٣٢١ .

٣ - صالح العابد : دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧ - ١٨٢٠ ، بغداد ١٩٧٦ .

(٢) د . جمال زكريا قاسم : الأسس التاريخية لوحدة الإمارات ودور الاستعمار في تجزئتها [مجموعة بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بعنوان التجارب الوجدانية العربية المعاصرة تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٨١ ص ص ٨٥ - ٨٨ .

كيانات سياسية صغيرة علي أنقاض هذين الحلفين منحتها السياسة البريطانية حمايتها ودافعت عن وجودها .

وهكذا ونتيجة هذه التفاعلات ظهرت علي مسرح إمارة أبو ظبي عائلة آل نهيان كأسرة حاكمة ، وأسرة آل مكتوم في دبي ، والقواسم في كل من الشارقة ورأس الخيمة ، والمعلّ في أم القيوين والنعيمي في عجمان والشرقي في الفجيرة . وهي الأسر التي لازالت حتي الآن تمارس الحكم في هذه الإمارات منذ أن نجحت بريطانيا في إبرام الاتفاقات المانعة مع هذه الإمارات في الأعوام ١٨٢٩ ، ١٨٤٧ ، ١٨٥٦ (١) بحجة القضاء علي تجارة الرقيق باديء الأمر ثم انتهى بها المطاف إلي عقد اتفاقية السلام البحري الدائم مع هؤلاء الشيوخ وهي التي أدخلتها في دائرة الحماية البريطانية .

ثانياً : العلاقة بين الأسر الحاكمة وبريطانيا في عهد الحماية وأثر ذلك في تثبيت الحكم :

لا يمكن لأي باحث في جوانب الحياة الخليجية أن يعزل اللورد البريطاني عنها منذ أن حط الاستعمار البريطاني رحاله فيها وألحقها بدائرة تبعيته . ذلك أن بريطانيا كانت القوة المؤثرة والفاعلة في تاريخ هذه المنطقة ، فتاريخها السياسي هو جزء لا يتجزأ من تاريخ بريطانيا . وفي جانب الحكم ، كانت السياسة البريطانية عاملاً مكيناً كذلك في تثبيت الحكم ، وإقرار شرعيته في الأسر الحاكمة التي استطاعت بريطانيا أن تبرم معها معاهدات الحماية وتعترف لها فيها بالإمارة والرئاسة في البلاد مما مهد الطريق لرسوخ قواعد الحكم في هذه المشيخات طيلة عهد الحماية التي استمرت فترة طويلة من الزمن وحتى الاستقلال .

(١) أضيفت اتفاقية إضافية عام ١٨٥٦ لتعديل الاتفاقية المانعة عام ١٨٤٧ بالقضاء العام علي تجارة الرقيق .

ونحن نعلم أن بريطانيا قد عملت على تثبيت أقدامها السياسية في المنطقة عن طريق الارتباط مع إماراتها ومشيخاتها في اتفاقيات سرية على صعيد السيطرة البحرية أو السياسية منذ أن فشلت في نهاية القرن ١٩ من عشر - كما أشرنا - من القضاء على نفوذ الدول الأجنبية الأخرى فلقد كان بداية تدخلها في الخليج على شكل معاهدات بحرية فيما بين عام ١٨٠٦ إلى ١٨٥٢ وكان الهدف منها القضاء على القرصنة البحرية ، ومحاربة تجارة الرقيق وصيانة السلام والاستقرار في مياه الخليج بوجه عام (١) ، وهذه الاتفاقيات بلا ريب هيأت جواً من التفاهم بين بريطانيا وحكام الخليج ، لأن بريطانيا اتبعت خطة تكتيكية في هذه المعاهدات مؤداها إبداء حسن النوايا للحكام طمعاً في كسب ودهم لها .

وعندما تيقنت السياسة البريطانية من نجاح خطواتها الأولى ، شرعت في خطوة أخرى ، إذ مناد اعتقاد لديها بأن تعاملها مع هذه الإمارات يجب أن يكون على أساس كونها حكومات مستقلة تدار عن طريق حكام يتمتعون بمظاهر السيادة من الوجهة القانونية ، وهذه الاتفاقيات في حقيقة الأمر هي التي أدت إلى فرض الحماية البريطانية على الإمارات ، ومن ثم أنيطت مسؤولية علاقاتها الدولية ببريطانيا ، خاصة وقد بدأ جالياً من نصوص هذه الاتفاقيات أن منازعاً انجوهي هو المسانطة على وضع بريطانيا التجاري والاستراتيجي والاقتصادي في الخليج وتطويره بصورة أكبر في مواجهة أوضاع نفوذ كل من فرنسا وتركيا وروسيا والمانيا الذي انتهى بالقضاء عليه تماماً في كل الأقاليم الخاضعة للنفوذ البريطاني (٢) .

(١) C. U. A Aitchison A Collection of Treaties Engagements and Sanads, Relating to India and Neighbouring Countries, Fifth Edition, 1919 XI PP 231 - 267 .

(٢) د . حسين محمد البحارنة : دول الخليج العربي الحديث : علاقاتها الدولية وتطور الأوضاع السياسية والقانونية والدستورية فيها ، مجلة مناسبات الحياة ، بيروت ، ١٩٧٢ ص ٣٦ .

وعندما بدأت تظهر في الأفق بوادر لامتناه نفوذ بعض الدول في الخليج مع بداية القرن العشرين علي حساب بريطانيا وتهديد أكبر مصالحها البحرية والتجارية فيه ، أبدت بريطانيا اهتماما أكبر بحماية الأقاليم التابعة لها ضد أي تدخل أجنبي ومن هنا كان اهتمامها بالاتفاقيات الاقتصادية التي تعتبر من وجهة نظرها تكملة للاتفاقيات السياسية وامتداداً لها ، وهي اتفاقيات ذات صبغة اقتصادية عقدت فيما بين عام ١٩٠٢ إلى عام ١٩٢٢ ، وفي صلب موادها ، النص علي حقوق اقتصادية كعمليات استخراج البترول والغاز ، وهي بمثابة حقوق أفضلية واحتكارية للحكومة البريطانية يتوجب علي الحكام مراعاتها والالتزام بها لصالح بريطانيا وشركاتها ، ولأن شأنا تمنحه برضاها تحقيقا لسيطرة اقتصادية واستثمار كبير يخدم مصلحتها الاقتصادية ولهذا اتجهت بريطانيا إلي تبني سياسة مؤداها فرض نوع من الرقابة علي الشؤون المالية والاقتصادية للإمارة يتيح لها وحدها ولشركاتها الانفراد ضمناً لفعالية تلك السيطرة وتم لها بهذا الأسلوب الذي اتبعته في بادئ الأمر بدبلوماسية جاءت علي شكل اقتراحات وتوصيات تمثل وجهة نظر الحكومة البريطانية للحكام نونما التزام بالتطبيق - عقد اتفاقيات امتياز التنقيب عن البترول في كل من الكويت والبحرين وقطر والإمارات العربية المتحدة كل حسب تواريخ الامتياز وهذه الإشارة التي تمثل بدأ دخول الإمارات الخليجية تحت السيطرة البريطانية ، تلقي الضوء علي موضوع بحثنا الخاص بولاية العهد من خلال تأثير الحماية البريطانية علي جانب الحكم في هذه الإمارات ، وعورها في تثبيت شرعية الأسر الحاكمة فيها ، وهذا الدور نعرض له بالدراسة في مرحلة هذه الحماية لثري الموقف الذي تبنته السياسة البريطانية ، وكان له انعكاساته علي نظام الحكم واستقراره .

ولسنا هنا في معرض تحليل الأسباب والنوافع التي حدثت ببريطانيا لفرض حمايتها علي الإمارات الخليجية ، فقد أقاض المؤرخون ودارسو

العلاقات النولية في سرد الأسباب التي دفعت ببريطانيا إلى إعلان الحماية على الإمارات الخليجية ، ولكن مما تجدر الإشارة إليه أن حكم الأسر الحاكمة، كان أمراً سابقاً على الحماية وآية ذلك أن بريطانيا أبرمت الاتفاقية مع شيخ الإمارة الذي كان علي رأس الحكم وقت إعلان هذه الحماية مما جعل إعلان الحماية يقترب باسم ذلك الحاكم المبرم لتلك الاتفاقية ، ولا شك أن هذا الاقتران كان له أثره الذي لا ينكر في تثبيت وراثة العرش في الأسرة الحاكمة من جهة وانحصاره في ثرية ذلك الشيخ من جهة أخرى كما سيتضح لنا .

وبصرف النظر عن الأسباب التي أدت إلى اتفاقية الحماية ومارافقتها وتزامن معها من أحداث ونتائج محلية وإقليمية ودولية ، يمكن القول أن اسم الشيخ مبارك الصباح قد لمع في التاريخ الكويتي باعتباره أول حاكم كويتي من الأسرة الصباحية يبرم اتفاقية الحماية بينه وبين بريطانيا بتاريخ ١٨٩٩/١/٢٢^(١) والتي استمرت حتى عام ١٩٦١ حين حصلت الكويت على الاستقلال ، وفي التاريخ البحريني يبرز اسم الشيخ عيسى بن علي آل خليفة،

(١) انظر في هذا بالتفصيل ما يلي :

١ - د . سيد نوال : الخليج العربي أو الحدود الشرقية للوطن العربي ، دار الطليعة ، بيروت،

الطبعة الأولى ، ١٩٦٩ ، ص ١٧٨ .

٢ - د . حسن سليمان محمود : الكويت ماضيها وحاضرها ، منشورات المكتبة الأهلية ،

بغداد ١٩٦٨ ص ١٨٤ .

٣ - راشد الفرحان : مختصر تاريخ الكويت ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

٤ - Dicken: H.R. P - Kuwait and her Neighbours, London - George Allen and Unwin LTD, 1936 P. 137 .

٥ - C. J. A Aitchison - A collection of Treaties engagements - and Sanads opcit P. 202

الذي دخلت البحرين في عهده دائرة الحماية بصورة رسمية عام ١٨٨٠ م (١).
وامتد حكمه قرابة أربعة وخمسين عاماً واستمرت الحماية البريطانية علي
البحرين حتي عام ١٩٧١ ، حين حصلت علي الاستقلال .

ولي قطر ، يشتهر اسم الشيخ عبد الله بن جاسم آل ثاني كأول حاكم
يبرم معاهدة الحماية مع بريطانيا في ١٩١٦/١١/٢ ، فعنده هو عهد التحول
إلي الحماية الرسمية والتي امتدت حتي الاستقلال عام ١٩٧١ وكذلك الحال
في الساحل المتصالح ، فبالرغم من أن بريطانيا عقدت عدة معاهدات تمهيدية
في بادئ الأمر لتأمين مصالحها ودخولها التدريجي في الساحل ، إلا أن
المعاهدة المانعة التي أبرمت في عام ١٨٩٢ تعتبر حجر الزاوية في إرساء
الحماية ، وقد وقعها ممثل الحكومة البريطانية الكولونيل " تالبوت " المقيم
السياسي في الخليج ، مع حكام إمارات الساحل المعشيقين لأسرهم الحاكمة
فيها (٢) ، وهي علي نسق معاهدات الحماية الأخرى المبرمة بين الحكومة
(١) راجع في هذا علي سبيل المثال :

- ١ - محمد غانم الرميحي : قضايا التغيير السياسي والاجتماعي في البحرين - ١٩٢٠ -
١٩٧١ ، مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع ، الكويت ، ١٩٧٦ ، ص ٣١ - ٢٢ .
- ٢ - أمل الزباني : البحرين من ١٧٨٢ - ١٩٧٢ ، مرجع سابق ، بيروت ص ٦٢ وما
بعدها .

٢ - ٨٥ - ٨٤ - John Kelly - Eastern Arabian Frontiers - Op cit PP 84 - 85 .

(٢) وقع المعاهدة عن إمارة أبو ظبي شيخها زايد بن خليفة ، وعن دبي شيخها راشد بن مكتوم ،
وعن الشارقة صقر بن خالد وعن رأس الخيمة حويد بن عبد الله بن سلطان وعن عجمان
حويد بن راشد وعن أم القيوين أحمد بن عبد الله ولم يوقع المعاهدة حاكم عن إمارة
الفجيرة ، حيث كانت هذه الإمارة تابعة للشارقة يومذاك ، إلي أن تمكن حاكمها الشيخ
حمد بن عبد الله من الاستقلال عن الشارقة بعد أن نقذ عدة تحالفات مع سلطنة عمان وأبو
ظبي وأم القيوين فضلاً عما لوثي من قوة وهيبة أخضع بعوجيها العشائر في الفجيرة
لإمرته لبايعت علي الإمارة
انظر في هذا بالتفصيل :

جزء منها . أما الإمارات الخليجية فقد اعترفت بريطانيا بالكيانات القبلية المحلية القائمة قبل عقد المعاهدات وكذلك بمركز الحكام الذي اعتبر التصرف البريطاني تجاههم بمثابة التأكيد علي مواصلة دورهم في السلطة وتثبيت نفوذهم علي مسرح الحكم فيها . أي بعبارة أخرى أظهرت السياسة البريطانية التعاون التام مع الحكام التزاماً بما ورد في نصوص اتفاقية الحماية ، طالما أن الحكام يلتزمون من جانبهم بما جاء في صلبها ، وتتلخص تلك الالتزامات التي أخذ الحكام علي عاتقهم تنفيذها والتي تمثل تنازلاً منهم للحكومة البريطانية عن حقوق السيادة في عدم الاتصال بالدول الأجنبية أو إنشاء علاقات دبلوماسية أو غيرها معها بدون معرفة بريطانيا ، كذلك عدم المفاوضة أو عقد معاهدات أو اتفاقيات مع الدول الأجنبية عدا بريطانيا بدون موافقة الحكومة البريطانية ، وأيضاً التنازل أو التخلي عن أي جزء من أراضي إماراتهم بأي طريقة كانت لأي دولة أجنبية بدون الحصول علي إذن الحكومة البريطانية ، فضلاً علي أن منح أية امتيازات خاصة بالنفط أو المعادن للدول الأجنبية لا يتم بدون استشارة الحكومة البريطانية (١) .

وفي مقابل هذه الالتزامات والتعهدات التي حصلت عليها بريطانيا التزمت الأخيرة للحكام بحمايتهم ضد أي اعتداء خارجي أو غزو أجنبي والمحافظة علي الاستقلال الذاتي لكياناتهم وعلي مصالحهم السياسية والاقتصادية ومصالح مواطنيهم في الخارج وتسيير شئونهم الخارجية علي أن الفقهاء لا حظوا بصدد هذه الالتزامات البريطانية أن أغلبها لا تقوم علي أساس نصوص صريحة في الاتفاقيات المذكورة ، وإنما هي نشأت وتطورت

(١) د . حسين محمد البعارنة : التطورات القانونية والسياسية في دول الخليج العربي [محاورة القيت في الدورة الدبلوماسية الثالثة وزارة خارجية الكويت ، ١٩٧٢ ، منشورة في كتاب صادر عن وزارة خارجية الكويت] ، مطبعة حكومة الكويت ١٩٧٢ .

نتيجة للعرف والممارسة الحكومية ، ذلك لأن نظام الحماية في رأي بعض هؤلاء الفقهاء لم يفرض فرضاً وإنما تطور ضمناً وتثبيتاً جذوره نتيجة اطالبة الحكام أنفسهم في استثماره وبقائه كوسيلة للمحافظة علي وجود كياناتهم التي اعترفت لهم بريطانيا رسمياً بالسيادة عليها ، واستنتجوا من ذلك عدم وجود نص صريح لمفهوم الحماية في هذه الاتفاقيات وأية ذلك أن هذه السيادة التي ظلت معلقة لفترة معينة قد استرجعتها هذه الإمارات بعد رغبة كل من حكومة بريطانيا وهؤلاء الحكام بطريقة ودية ، وهذا مما خالف إلي حد بعيد السياسة البريطانية تجاه مستعمراتها في آسيا وأفريقيا ، ولعل هذا هو ما حدا ببريطانيا لأن تصف علاقاتها مع دول الخليج بأنها علاقات خاصة (١) . وفي ضوء هذا التفرد الذي تكيفت به العلاقات بين بريطانيا ومشيخاتها في الخليج نستطيع أن نبين سرجة التدخل البريطاني وحيثه فيما يتعلق بالشأن الداخلي وانعكاسه علي الحكم في هذه المشيخات وما لذلك من تأثيرات علي سير الأمور فيها في النظر والتطبيق . مما يقرر في النهاية وإلي حد كبير دور السياسة البريطانية سواء في تثبيت كرسي الإمارة أو عرقلته في ضوء مصالحها العليا ، فمعها يكن من أمر فلا جدال أن للسياسة البريطانية في بعض الأحيان دورها في عزل كل حاكم لا يروق لها تصرفاته وإحلال حاكم

(١) لمعرفة التفاصيل حول طبيعة هذه المعاهدات من الناحيتين السياسية والقانونية انظر :

١ - د . عبد الفتاح حسن : النظام الدستوري في الكويت ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ص ١٠٢ - ١٠٤ .

٢ - د . حسين محمد البحارته : دول الخليج العربي الحديث : علاقاتها الدولية وتطور الأرضاع السياسية والقانونية والدستورية فيها ، بيروت ١٩٧٢ مرجع سابق . ص ص ٢٦ - ٢٧ .

٣ - C' U. A Aitichison - A collection of Treaties, engagements and sanads, opcit, PP. 231 - 267 .

٤ - أمل الزياتي : البحرين من ١٧٨٢ - ١٩٧٢ مرجع سابق ص ص ٦٧ - ٦٩ .

آخر محله يماشى مصالحها العليا في المقام الأول ، كما أنه من جهة أخرى يقتضينا الإنصاف أن نقرر كذلك أن الدور البريطاني في هذا المجال قد انكفأ في بعض المشيخات كما تستقره من المؤلفات الكثيرة . حيث كان موقفها موقف المحايد فيما كان ينشأ من خلاف داخلي بين الأسر الحاكمة داخل الإمارة ، وكان تعاملها يتم على أساس اتباع سياسة مقتضاها دعم الحاكم الشرعي الذي التزم بما ألزم به سلفه في الاتفاقيات المعقودة بينهما ، وعدم التدخل إلا بناءً على طلب الحاكم الشرعي لحسم الموقف .

وتفريعاً على ذلك نستطيع أن نستكشف هذه المواقف من خلال استعراض السياسة البريطانية تجاه الحكام ، منذ أن أتيح لبريطانيا إدخال هذه الإمارات في إطار التبعية ، وسيكون تحليلنا لهذه السياسة منذ بدأ الحماية الرسمية نظراً لاتخاذ العلاقات الطابع الرسمي دون إغفال الإشارة إلى ما سبق من تدخلات قبل فترة الحماية كلما اقتضى الأمر ذلك بما يساعد على تقييم هذا الدور تقييماً صحيحاً وموضوعياً وذلك على النحو التالي :

١ - لقد أظهرت الدبلوماسية البريطانية في بداية التدخل حسن النوايا للحكام ، والتشديد على دعم الحاكم وتنفيذ مشيئته فيما يطلب شريطة الوفاء بالتزاماته المنصوص عليها في الاتفاقية ، وهذا يعني اعتراف بريطانيا بالصفة الرسمية والشرعية للحاكم ولأسرته التي ينتسب إليها .

٢ - حينما تأكد لبريطانيا الانفراد بالأمر في المنطقة بدأت في تغيير سياستها بافتهاج تكتيك آخر ، مفاده تحية الحاكم الذي لايجاري سياستها ، وتنصيب آخر محله من نفس أسرته مع دعمه ومؤازرته طمعاً في كسب وده وتنفيذاً لمصالحها . والمثل البارز هنا في البحرين ففي عام ١٧٨٢ استتب المقام لآل خليفة فيها وحمل حكمهم للبحرين خصائص داخلية وخارجية زادت

من تعقيد الموقف في علاقات البحرين الدولية فلقد أسهمت الخلافات العائليه علي السلطة داخل البيت البحريني الحاكم في زعزعة الاستقرار في البلاد ، وادي هذا الخلاف إلي استتجاد كل فريق من فرقاء النزاع بالقوي الخارجية التماساً لتوطيد حكمه مما فتح المجال واسعاً للصراعات في البحرين ، فلقد أفضي التنافس الداخلي علي زعامة الإمارة إلي اضطراب الأمن واهتزاز حبله في الداخل وكان سبباً - كما قلنا - في الاستعانة أحياناً بالقوي الأجنبية وكذلك العربية لتأييد طرف علي آخر من حكام البيت . الأمر الذي هيأ الفرصة لبريطانيا - بسبب هذا الاضطراب - لإحكام قبضتها علي البحرين استهدافاً لمآربها الخاصة ، وتجلي ذلك بشكل قاطع في قدرة بريطانيا علي إقصاء كل حاكم بحريني لا يماشى سياستها وعدم التورع في استخدام كافة صور البطش والقوة في سبيل ذلك علي أن بريطانيا أفادت من الوضع القائم في البحرين عام ١٨٤٢ فبدأت في التدخل التدريجي بصورة غير رسمية إذ يشير الباحثون إلي أن ازواج السلطة في ممارسة الحكم كان سبباً جوهرياً في تعزيز فرصة التدخل ، فكان يحكم البحرين في هذه الفترة كل من الشيخ محمد بن خليفة وعمه الشيخ عبد الله آل خليفة ، وبلغ الصراع بينهما حداً مكن الشيخ محمد من إقصاء عمه عن الحكم بمؤازرة قوية من بريطانيا التي وقفت معه ضد عمه ، بالرغم من استتجاد الأخير بفارس وبالقبايل العربية في القسم الجنوبي لكنه لم يلق منها إلا الصلود ، مما جعل بريطانيا تعامل

(١) انظر ما يلي :

- ١ - أمل الزباني : البحرين من ١٧٨٢ - ١٩٧٢ ، مرجع سابق ص ص ٥٢ - ٦٢ .
- ٢ - محمود صبحي : البحرين وعوي ايران ، الاسكندرية ١٩٦٢ ، ص ١٢٢ وما بعدها .
- ٣ - Adamyat, (Study of British Iranian Controversy Frederick Apraeger) New York, 1955 P. 130.
- ٤ - John Phillipy - Sandi Arabia, Beirut, 1959 P. 50 .

الشيخ محمد كحاكم مستقل للبحرين عن سائر القوي ، وفي نفس الوقت نجحت في أن تبرم معه عام ١٨٤٧ معاهدة تتعلق بحظر تجارة الرقيق واستعدادها للتعاون معه في حفظ السلام في معاهدة أخرى عقدها معه أيضاً عام ١٨٥٦ ولكن هذا الحاكم المدعوم من قبل بريطانيا حينما حاول الابتعاد قليلاً عنها ووجدت بالفعل إغراضاً منه تجاهها استغلت هذا التصرف لوضع البحرين تحت الحماية وتقوية قبضتها عليها بعد هذا الإجراء فوقفت ضد السعودية الخاضعة يومئذ للباب العالي حين استنجد بها محمد بن عبدالله (والد الشيخ عبد الله الذي أقصاه ابن أخيه عن الحكم) رغم تحدي محمد بن عبد الله لبريطانيا وعدم مبالاة بها ومتابعة سيره إلى البحرين لغزو ابن عمه . وإزاء استفحال هذا التناحر وخطورته لم تجد بريطانيا محيصاً من مواجهة الأمور داخل البيت الحاكم ، فاتخذت قرارها بالتدخل العسكري استجابة للفرع المنشق من آل خليفة والفار إلى قطر وذلك باستخدام القوة فقبضت على الحاكم محمد بن عبد الله ومعه محمد بن خليفة وفتتهما إلى الهند ، ونصبت الشيخ عيسى بن علي الخليفة حاكماً (١) بعد لجونها إلى أسلوب يقوم على استشارة عدد من القبائل البحرينية بغية إسباغ صفة الشرعية والرسمية على خطورتها تلك . ولكننا مرة أخرى نرى المسلسل البريطاني لا يكف عن التدخل ما وسعه ذلك ، كلما لاحت له مصالح خاصة . فعندما تولى الشيخ عيسى بن علي الخليفة الحكم بتأييد من بريطانيا وعقد معها معاهدة الحماية عام ١٨٨٠ شرعت بريطانيا بالتدخل في الشأن الداخلي، فأبدت رغبتها في القيام بإدارة العوائد التي كان يشرف عليها شيخ

(١) يعتبر الشيخ عيسى بن علي آل خليفة هو الحاكم الذي دخلت البحرين في هذه الحماية بصورة رسمية ، عندما وقع مع بريطانيا معاهدة بذلك عام ١٨٨٠ ، ولذا يعتبر الحكم الآن محصوراً في نبرته ، كما أن العلاقات البحرينية البريطانية الرسمية تترجم من هذا العام .

انظر د . محمد غانم الرميحي قضايا التنوير السياسي والاجتماعي في البحرين ، ١٩٢٠ .

- ١٩٧٠ . من ص ٢٦ - ٢٢ مرجع سابق . الكويت . ١٩٧٦ .

البحرين منذ عام ١٨٠٠ ، ولكن الشيخ عيسى بن علي اعتبر هذا تدخلاً في شئونه يشكل انتقاصاً من سيادته فلوحت بريطانيا بالتهديد بالتدخل، مما اضطر شيخ البحرين إلي التنازل مجبراً عن الحكم لصالح ابنه وولي عهده الشيخ حمد بموجب وثيقة رسمية موقعة من وجهاء البحرين وبهذه الخطوة يكون الشيخ عيسى قد ضمن طريقة تولي الحكم في الأسرة بعيداً عن الصراعات والخصومات التي حفل بها تاريخ الأسرة في الماضي ومنذ ذلك التاريخ ، استقرت الأمور في البحرين وبدأ الحكم فيها يتوارثه السلف عن الخلف بعيداً عن العنف ، أي يمكن القول أن التدخل البريطاني في شئون الأسرة الحاكمة الداخلية قد انتهى بنهاية حكم الشيخ عيسى الذي تنازل عن الحكم لولده الشيخ حمد وذلك عام ١٨٩٧ (١) .

وهكذا نرى أن لبريطانيا كلمة الفصل في تنصيب الحاكم ودعمه أو عزله وفقاً لمصالحها منذ بدأت في التطلع إلي البحرين وفرض الحماية عليها .

٢ - ثمة موقف آخر لذلك التدخل في دولة الإمارات العربية المتحدة وقع في إمارتي أبو ظبي والشارقة بصفه خاصة وهو موقف يفصح بلا ريب عن الدافع الحقيقي للسياسة البريطانية ورغبتها في تكريس كل ما من شأنه دعم مصالحها . ففي إمارة أبو ظبي وتحديدأ في الستينات كان يحكم هذه الإمارة الشيخ شخبوط بن سلطان شقيق الحاكم الحالي ، الذي عرف بعقليته المتخلفة حيث وقف حجر عثره أمام التطور والبناء والانفتاح خاصة إبان المراحل الأولى لاستخراج النفط ، فبالرغم من الفائض الإنتاجي ووفرته في هذه الإمارة إلا أنها تخلفت عن ركب التقدم الحاصل في جاراتها كقطر والبحرين والكويت بسبب تعنت هذا الحاكم ومحاولته صد كل محاولة للانطلاق نحو البناء والعمران وعندما لم تغلح كل المحاولات معه بسبب إصراره علي موقفه

(١) يعتبر الشيخ عيسى بن علي آل خليفة هو الحاكم الذي دخلت البحرين في عهده الحماية بصورة رسمية ، عندما وقع مع بريطانيا معاهدة بذلك عام ١٨٨٠ ، ولذلك يعتبر الحكم الآن محصوراً في نريته ، كما أن العلاقات البحرينية البريطانية الرسمية تؤرخ من هذا العام انظر د . محمد غاتم الزميحي قضايا التغيير السياسي والاجتماعي في البحرين ١٩٢٠ - ١٩٧٠ . صص ٣١ - ٣٣ . مرجع سابق ، الكويت ، ١٩٧٦ .

الكاره لبناء الإمارة وعدم توظيف العائدات في سبيل ذلك لم تجد بريطانيا بداً من خلعه وتنصيب شقيقه الشيخ زايد (رئيس دولة الإمارات حالياً) والذي كان حاكماً لمنطقة العين لما لمسته بريطانيا فيه من استعداد للتعاون معها والانطلاق نحو تعجيل عملية الإصلاح والتحديث وتم ذلك - كما تشير الروايات - بالاتفاق بينها وبين الشيخ زايد ، وقد برر ذلك التصرف بأنه يرمي إلى مصلحة البلاد ، وإن كان هذا العزل قد تم بناءً على مرافقة الأسر الحاكمة ، إلا أنه حظي بدعم من بريطانيا التي كانت ترتبط مع الإمارة يومئذ باتفاقية حماية ، واتخاذ هذه الحماية كمظلة لإسباغ الشرعية على الوضع الجديد . لكن هذا الإجراء اعتبر شائناً داخلياً من شؤون البيت الحاكم ، ولذلك لم يثر أي رد فعل نظراً لأن عزل الشيخ شخبوط كان مطلباً وطنياً ، ودرغبة عائلته بسبب ما بدر منه من تصرفات ضد بناء البلد ونهضته (١) .

أما في إمارة الشارقة ، فكان يحكمها في الستينات الشيخ صقر بن سلطان القاسمي ، وقد عرف عنه تطلعاته الوطنية ، ومناصرته لقضايا الأمة العربية ، عبر تأييده لجهود جامعة الدول العربية ، ولذلك كان من أوائل المتحمسين لزيارة ولد الجامعة العربية الذي تقرر أن يزور الإمارات العربية للوقوف على ما بها من مشاكل والتعاس الحلول لها . وقد وقف بصلابة لوجه بريطانيا حين أرادت عرقلة جهود الجامعة العربية وإفشال زيارة وفدها ولكن ذلك لم يرق لبريطانيا ، فاتفقت مع بعض كبار أعضاء الأسرة علي إقصاء هذا الحاكم تحت ذريعة عدم قدرته علي الاستمرار في الحكم انطلاقاً من تصرفاته وسلوكه الشخصي الذي يتنافي مع الإمارة . فدبر خط لترحيله للخارج وتنصيب ابن عمه الشيخ خالد بن محمد القاسمي حاكماً بدونه (٢) .

(١) لا يزال الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة هو نفسه حاكماً

أبوظبي منذ الستينات حينما عزل أخاه شخبوط وتقلد الحكم مكانه

(٢) أمل الزياتي : البحرين من ١٧٨٢ - ١٩٢٢ ، مرجع سابق ، ص ١٩٢

وهو ما فتح الباب علي مصراعيه بعد لبزور الشقاق والفقته إذ رتب
الحاكم المخلوع حملة ودخل إمارة الشارقة وقتل ابن عمه الحاكم الجديد وذلك
في عهد النولة الحديث (دولة الإمارات بعد إنشائها عام ١٩٧١) مما حدا
بوزير الدفاع الاتحادي إلي قمع هذه الحركة والقبض علي الشيخ صقر ونفيه
إلي الخارج وتعيين الشيخ سلطان بن محمد القاسمي حاكماً علي الشارقة (١)
بعد اتفاق أفراد العائلة الحاكمة علي ذلك .

٤ - اتخذ منحي التأثير البريطاني في علاقته مع الحكام مساراً آخر
في الكويت وقطر عنه في إمارات الساحل والبحرين . فمض أن وقع الشيخ
مبارك الصباح (حاكم الكويت) اتفاقية الحماية مع بريطانيا عام ١٨٩٩ كما
المحناً عزلت بريطانيا عن التدخل في الشأن الكويتي باعتباره مسألة داخلية
تخص بيت الحاكم ومن شايعه من أقباء القبائل والعشائر المقيمين في الكويت
ولهذا لم تشر المصادر أو الوثائق إلي أي تدخل من هذا القبيل . بل كانت
بريطانيا تحرص علي تأكيد التزاماتها لكل حاكم من الأسرة الصباحية يتبوأ
عرش الإمارة ومباركة وتأييد ما اتفق عليه بين أعضاء الأسرة .

وتكاد قطر تتشابه مع الكويت في هذا الصدد ، إذ كانت السياسة
البريطانية عديمة الأثر ، لم يلمس لها أي موقف تجاه حاكم ، نون آخر فمض
أن أبرمت اتفاقية الحماية مع الشيخ عبد الله بن جاسم آل ثاني عام ١٩١٦ .
وهي تحافظ علي العلاقة الحميمة ، وتؤكد لها في الكثير من المناسبات سيما
إبان تولي الحاكم الجديد حكم الإمارة . وهو ما سنعرض له عند دراستنا
لولاية العهد في قطر .

(١) الشيخ سلطان بن محمد القاسمي هو شقيق الشيخ خالد بن محمد القاسمي الذي قتل علي
يد الشيخ صقر بن سلطان القاسمي الحاكم المخلوع .

وتأسيساً على هذه المعطيات ، فإننا نتناول بالتحليل ولاية العهد في دولنا الخليجية وتنظيمها في مرحلتين تاريخيتين من مراحل تطور أنظمة الحكم فيها لكل منهما أبعادها الخاصة وهما عهد الحماية البريطانية، وعهد الاستقلال المعاصر ، وذلك بعد التعرف على تحديد مفهوم ولاية العهد في هذه الدول .

أولاً : مفهوم ولاية العهد في الدول الخليجية :

يعني مفهوم ولاية العهد في دول الخليج وراثته الحكم في الأسر الحاكمة حيث يتوارث العرش السلف عن الخلف ومما لا ريب فيه أن ولي العهد هو أمير المستقبل والحاكم المنتظر الذي يتقلد مهام الحكم فور شغور سنده أياً كانت الطريقة التي تشغرها ، سواء كانت بالوفاة أو التنازل ، حتي لا تقع البلاد في فراغ دستوري قد يقضي إلي اضطراب النظام السياسي واعتزاز كيانه إذ أن ولاية العهد هي الضمان لانتقال السلطة بطريقة هادئة وتلقائية بعيداً عن العنف الذي قد يصاحب قيام الثورات والانقلابات .

وتنطلق الدول الخليجية في نظرتها إلي ولاية العهد من مفهوم خاص فحواه أن ولي العهد عندما تنعقد له البيعة الإجماعية من قبل الحاكم وأفراد أسرته وأهل الحل والعقد في البلاد - كما هي للحاكم - فإن هذه البيعة توجب علي الرعية السمع والطاعة له في جميع ما يتخذ ويقرره ، شريطة ألا يكون في ذلك ما يناهض شرع الله ويهدي نبيه ، انطلاقاً من القاعدة الشرعية التي تقول لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق (١) . وقد استقر هذا المفهوم في أذهان الشعوب الخليجية منذ تكونت هذه الدول وأصبح بها أسرها حاكمة يرتبط تاريخها بتاريخ هذه البلاد ويقترن باسمها ووجب علي الشعوب من ثم الرضا

(١) المذكرة التفسيرية لأحكام النظام الأساسي المؤقت للحكم في قطر ١٩٦١ - ١٩٨٥ ، وزارة العمل ، إدارة الشؤون القانونية ، النسخة (مجموعة قوانين قطر)

بالحاكم الذي يقع عليه الاختيار من أسرته ومن أهل الحل والعقد طالما التزم بما يجب عليه نحو الله ودينه ورسوله ورعيته لذلك يبدو الحرص شديداً في هذه البلدان علي اختيار ولي العهد قيمين يتوسم فيه الصلاح والجدارة والكفاءة التي تؤهل لقبول هذا المنصب الذي يتوقف عليه مصير البلد ، ومستقبل الشعب ولعل هذا الحرص مبعثه العمل علي إيجاد الضوابط التنظيمية لمسألة التعيين لئلا يكون هناك مجال للاجتهاد والتفريط بخصوصها فتقدم الدول علي حسم مسألة التعيين دونما إبطاء تلافياً لأي إشكال كما ذكرنا وإذا كانت هذه المسألة قد حظيت بالاهتمام منذ أن تكونت تلك الإمارات إلا أنها أضحت اليوم أمراً من الأهمية بمكان بحيث يتصدي لها بالتنظيم في عهد الدولة المعاصرة المستقلة وفي كتف النظام الأميري الذي ارتضته هذه الدول نظاماً للعيش في ظله ولحق ما نصت عليه الدساتير ولذلك عنيت النصوص الدستورية بهذه المسألة وتناولتها بالتنظيم والترتيب توكفاً لانتقال السلطة بطريقة تضمن استقرار نظام الحكم واستمراريته .

فعند أن ترسخت أقدام الأسر الحاكمة في الإمارات الخليجية ، وصار لها الكلمة النافذة واليد الطولى فيها وهي تحرص علي إيجاد نوع من الاستقرار في الحكم ، يحفظ التماسك لهذه الإمارات ، ووقايتها من مغبة المخاطر نتيجة الانقسام الذي قد يحدث بسبب عدم وضوح الرؤية في هذه المسألة ولقد حرصت هذه الأسر كذلك بعد تفككتها من الإمساك بزمام السلطة إلي جعل الحكم وراثياً فيها ووفقاً عليها . فلوأت مسألة الحكم ومداخله أهمية جوهرية ، نظراً لما لولاية العهد من نور في استدامة حكم الأسرة ، ووجودها الفاعل وانطلاقاً من هذه القاعدة تعتمد بعض الإمارات الخليجية إلي تشكيل مجلس للعائلة الحاكمة (١) ، يضم وجهاءها وعلية القوم فيها الذين يمثلون

(١) أنظر كتابنا : معالم التنظيم السياسي المعاصر في دولة قطر ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ٧٥

مختلف البيوت والأفخاذ، من ذوي النفوذ والسلطان فيها ، سيما وأن هناك من العائلات الحاكمة من تكون كبيرة العدد وتتشعب فيها الفروع ومهمة هذا المجلس في أغلب الأحيان ، هي اختيار ولي العهد الذي سيؤول إليه الحكم عند شغور سدته لأي سبب من الأسباب فيقوم الحاكم بطرح اسم الشخص الذي يقع عليه الاختيار علي هذا المجلس ، وقد يكون هذا الشخص هو ابن الحاكم ، أو شقيقه أو ابن عمه فلا قاعدة عامة في هذا الصدد ، إذ أن ذلك منوط باختيار الحاكم ورغبته . فإذا وافق المجلس علي هذا الترشيح ووافق الشخص المختار ، كان ذلك بمثابة الإجماع علي اختياره ، هذا الإجماع الذي يعكس السند الشرعي لولاية الحكم ، وفي الغالب فإن مجلس العائلة يدعم ترشيح الحاكم ، ويأخذ رغبته في الاعتبار ما لم يعترض أحد من أفراد الأسرة اعتقاداً منه بأحقية في الحكم بناءً علي قربي النسب ، وفي بعض الأحيان عند احتدام الخلاف في الرأي علي اختيار الشخص ، فإن الحاكم والمعترضين يلتزمون بما يستقر عليه رأي غالبية أعضاء مجلس العائلة ، وليس لهذا المجلس أية لوائح تنظم قواعد العمل فيه ، وإنما يحكمه العرف والتقاليد المستمدة من النظام المشيخي . ولكن معظم الأسر الحاكمة تحرص علي توسيع قاعدة المشاركة في اختيار ولي العهد ، بإشراك رؤساء القبائل وزعماء العشائر ، وعدد كبير من التجار والأعيان حتي لا يكون هذا الاختيار موقوفاً علي الأسرة الحاكمة وحدها لكن بعض الإمارات شذت عن هذا التقليد ، فتركزت اختيار ولي العهد لمشينة الحاكم وفوضته في الاختيار انطلاقاً من كونه ولي الأمر وتجب له السمع والطاعة ، وأن إرادة الحاكم إذا رشحت ولي العهد كان ذلك داخلاً في مفهوم هذا السمع وتبعاً لهذا فلا يوجد في هذه الإمارات مجلس للعائلة وفي رأينا أن هذا التنظيم البدائي المستند علي العرف والتقاليد يسير بالأمور في طريقها الصحيح ، وبلغت الفرصة علي أية محاولة لإحداث فراغ في الحكم أو اضطراب وفوضي في الإمارة بسبب الصراع مما يتيح

انتقال سلطة الحكم من السلف إلى الخلف بطريقة عادية وهكذا سارت النظم السياسية التقليدية القبلية في البلدان الخليجية على هذا النمط وأصبح الحكم في أسرها الحاكمة متوارثاً مما حفظ كيان النظام وديمومته .

ثانياً - ولاية العهد في عهد الحماية البريطانية :

استمر نمط المشيخة القائم على النسق القبلي التقليدي في الإمارات في عهد الحماية البريطانية فالشأن الداخلي - كما علمنا - هو من الأمور التي تركت بريطانيا للحكام البت فيه وبقريره دونما تدخل إلا حيث تدعو إليه حاجتها . وقد تبنت بريطانيا في هذه الإمارات تقليداً هو من مناهج سياستها مقتضاه إظهار حسن النوايا مع كل حاكم يرتقي عرش الإمارة عند نهاية مدة سلفه وتأكيدا على التعاون التام مع حاكم الإمارة الشرعي المبايع من قبل أسرته الحاكمة ومن أولي الحل والعقد والوجهاء والأعيان في الإمارة وكان الحاكم في بعض الأحيان يستعين ببريطانيا في قمع كل حركة مناوئة لسلطاته قد تظهر في أوساط أسرته ، وتستجيب بريطانيا بدورها لذلك المطلب دون تردد سيما إذا أظهر الحاكم التعاون معها ، وقد ساعد على ذلك أن بعض الإمارات أو معظمها ، لم يكن على مستوى من التنظيم الإداري والسياسي بل كان على عتبة الانطلاق نحو ميدان التحديث فلم يجد الحاكم مناصاً من الاستعانة بعدد من البريطانيين في المجال العسكري والأمن الداخلي ، وهذا ما يجعلنا نستنتج أن بريطانيا كانت عاملاً من عوامل المحافظة على الأمن والاستقرار في الإمارة بإظهارها التعاون مع الحاكم .

وتفريعاً على هذا نستطيع القول أن بريطانيا في عهد الحماية لم تفعل سوى أنها أعادت تأكيد اعترافها بشرعية حكم الأسر التي أبرمت مع رجالها الحكام اتفاقية الحماية واعتبرت هذه الحماية امتداداً لاستمرارية حكم هذه الأسر في المشيخات ، ولهذا كان طبيعياً بعد الاستقلال وبلوغ

مرحلة النولة أن يترجم هذا الاعتراف في دساتير مكتوبة تضيف الشرعية علي الحكم ، بالنص الصريح علي وقف الحكم في هذه الأسر وجعله مبدأ دستورياً لا يقبل التعديل أو التغيير .

ثالثاً : ولاية العهد في عصر الاستقلال :

جاء الاستقلال ليكرس ما كان سائداً في هذه الإمارات من نظم الحكم الوراثية الأسرية فعندما أعلنت بريطانيا عزمها علي الانسحاب من الخليج عام ١٩٧١ ، شرعت الدول الخليجية في أخذ الأهبة والاستعداد لمرحلة بناء الدولة المعاصرة بعد تكامل أركانها ويلوئ أبنيتها درجة التمام . وقد لوحظ أن بريطانيا قد أبرمت مع هذه الامارات معاهدات صداقه بعد تخلصها من اتفاقيات الحماية وأن إبرامها هذه المعاهدات مع الحاكم الشرعي إنما هو اعتراف منها بشرعية حكمه للإمارة . وما يسترعي الانتباه أن هذه المشيخات بعد تحولها إلي دول سرعان ما بدأت الدخول في مرحلة التنظيم الدستوري فطفت في إصدار الدساتير التي تترجم مكاسب شعوبها في وثائق مكتوبة ، وقد أجمعت هذه الدساتير علي إقرار قاعدة الحكم لأسرة الصباح في الكويت ، ولأسرة آل خليفة في البحرين و لأسرة آل ثاني في قطر ، ولم يرد شيء من هذا القبيل في الدستور المزمع لدولة الإمارات العربية المتحدة ، ولكن نستقريء ذلك من أسماء الموقعين علي ذلك الدستور من حكام الإمارات السبعة الذين يمثلون أسرهم الحاكمة في هذه الإمارات ، فالنهيان في أبو ظبي وآل مكتوم في دبي وآل القاسمي في كل من الشارقة ورأس الخيمة والنعيمي في عجمان والمعلا في أم القيوين والشرقي في الفجيرة .

بيد أن الفارق بين هذه الإمارات في هذه المسألة بدا واضحاً في تنظيم وتحديد القواعد والشروط اللازمة لوضعها في إطارها الصحيح بعد قيام الدولة الحديثة ، إذ من المعلوم أن هناك دساتير عديدة تنص نصاً قاطعاً علي

المحافظة على نظام الحكم وعدم المساس به ، كما كان شرعياً ، سواء كان ملكياً أو جمهورياً ، شرقياً أو غربياً كما يلاحظ ذلك في دستوري الدولتين اللتين تمثلان طرفي التنظيم السياسي الدولي وهما الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتي (١) . ونظراً لأن دول الخليج قد ارتضت النظام الأميري نهجاً لحكمها وإطاراً تعيش في داخله ، فقد أقرته مبدأً جوهرياً ثابتاً لتنظيم الأمر في الدولة الخليجية المعاصرة وأحاطته بالضمانات والإجراءات القانونية التي تكفل صيانتها ، وذلك بالنص على هذا المبدأ في الدساتير بصريح العبارة بإقرارها الحكم في الأسر المشار إليها التي تولت شؤون الحكم من قبل ، وتواصل القيام بأعبائه في عهد الاستقلال مضمية على نظام الحكم في عهد الجديد صفة الاستمرار والاستقرار الذي يمتد من الماضي فالحاضر فالمستقبل (٢) ، وتأكيداً لتأييد هذا المبدأ الوراثي فقد أسبغت عليه الدساتير من القوة القانونية العليا ما جعلته يتساوى معها في المرتبة ، فلا يجوز تعديله إلا بالطريقة المقررة لتعديل الدستور .

ففي الكويت صدر قانون توارث الإمارة رقم (٤) لعام ١٩٦٤ المنظم للحكم ، وانتقال السلطة وله صفة دستورية ، ومطالعة نصوص هذا القانون يتضح أن ردة الحكم تنحصر في ذرية المرحوم الشيخ مبارك الصباح الذي أبرم أول اتفاقية مع بريطانيا عام ١٨٩٩ (٣) ، لكن أهم ما في هذا القانون هو اتجاه مواده نحو المعالجة الشمولية لمسألة ولاية العهد ، إيراًكاً من المشرع الكويتي بأهميتها وذلك لقطع دابر كل لبس أو تفسير خاطيء قد يعرض للعادة

(١) رسالتنا للدكتوراء : نظام الحكم في دول الخليج : دراسة مقارنة لكل من قطر والكويت والبحرين ، مرجع سابق ، ص ٧٢ - ٧٦ .

(٢) رياض نجيب الريس : صراع النقط والواحات : صوم الخليج العربي ١٩٦٨ - ١٩٧١ ، الطبعة الأولى ، مطابع إغرائيك بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٣) يلاحظ أن الحكم في الكويت ينحصر في فرع واحد فقط من الأسرة برن باقي الفروع .

الرابعة من الدستور والتي تنص علي ما يلي : الكويت إمارة وراثية في ذرية المغفور له الشيخ مبارك الصباح ويعين ولي العهد خلال سنة علي الأكثر من تولية الأمير ، ويكون تعيينه بأمر أمير بني علي تزكية الأمير ومبايعة من مجلس الأمة تتم في جلسة خاصة بموافقة أغلبية الأعضاء الذين يتألف منهم المجلس ، وفي حالة عدم التعيين علي النحو السابق يزكي الأمير لولاية العهد ثلاثة علي الأقل من الذرية المذكورة فيبايع المجلس أحدهم ولياً للعهد ، ويشترط في ولي العهد أن يكون رشيداً عاقلأً وابناً شرعياً لأبوين مسلمين (١) . كما نصت المادة (٦) من قانون توارث الإمارة علي ألا تقل سن ولي العهد يوم مبايعته عن ثلاثين سنة ميلادية .

وباستقراء المادة الدستورية الرابعة أنفة الذكر نجد أنها قد انطوت علي بعض القواعد المنظمة لهذه المسألة ، فلقد حصرت ولاية العهد في نوع واحد من الأسرة الحاكمة هو الفرع الذي ينتمي إلي الشيخ مبارك الصباح كما سبقت الإشارة مما يمكن معه القول بحظر ترشيح من لا ينتمون بالنسب إلي هذا الفرع ومن جهة أخرى ، فإن الدستور الكويتي لا يكفي بتزكية الأمير لولي العهد وإنما يشرك معه في هذه التزكية كذلك مجلس الأمة ، الذي يجب أن يعقد جلسة خاصة يبايع فيها ولي العهد بأغلبية الأعضاء الذين يتألف منهم المجلس ، بل لقد ذهبت المادة أنفة الذكر في علاجها لهذه المسألة إلي أبعد من ذلك ، فراعته في حساباتها ما قد يطرأ من خلاف وانقسام في الرأي بين أعضاء الأسرة الحاكمة ، فأجازت للأمير علاجاً - لهذا الانقسام - تزكية ثلاثة من الذرية الصباحية يقوم مجلس الأمة بمبايعة أحدهم ولياً للعهد (٢) ،

(١) د. عبد الفتاح حسن : مبادئ النظام الدستوري في الكويت ١٩٦٨ ، مرجع سابق ، ص ٥٥

(٢) د. يحيى الجمل : النظام الدستوري في الكويت ، مع مقدمة في دراسة المبادئ الدستورية

وهنا نرى أن الدستور الكويتي قد جعل من مجلس الأمة وهو السلطة التشريعية جهة فصل في حسم هذه المسألة عند بروز الخلاف واحتدام الشقاق . وبذلك يشكل هذا القانون إلى جانب الدستور الضمانة الواقية للحكم ضد أي نزاع أو فراغ دستوري قد يقع فيه .

وفي رأينا أن الطريقة التي ابتكرها الدستور الكويتي لاختيار ولي العهد تعد نموذجاً فريداً في البلدان الأخذة بالنظم الوراثية فهذه الطريقة وإن هي حافظت على مبدأ الوراثية داخل أسرة معينة إلا أنها تتيح لممثلي الشعب إبداء رأيهم ليمن سيكون أميراً عليهم ، وهي مشاركة شعبية تبدو جلية عندما لا يستقر الرأي على تعيين ولي العهد في المرة الأولى عند تزكية الأمير له فيزكي الأمير حينئذ - عند إخفاق المحاولة الأولى - ثلاثة أو أكثر من الذرية المذكورة ممن تنطبق عليهم الشروط المنصوص عليها في الدستور وفي قانون توارث الإمارة يبايع مجلس الأمة أحدهم ولياً للعهد ، مما يتيح فرصة كبيرة للاختيار من قبل ممثلي الشعب ، ولا ريب أن هذه الطريقة تعد قياساً على الأنظمة الوراثية طريقة تقدمية ، تعكس نوعاً من التأثير الإسلامي إذ تجعل للبيعة من قبل أهل الحل والعقد الممثلين في العصور الحديثة في نواب الشعب وزنها في طريقة اختيار ولي الأمر .

أما في البحرين فنجد تنظيمًا مماثلاً لما اتبع في الكويت بصدد هذه المسألة إلا أن الدستور البحريني امتاز عن الدستور الكويتي بإيضاح قواعد هذه المسألة بالإعلان صراحة عن انتقال الحكم من الأب إلى الابن الأكبر إلا إذا اقتضت إرادة الأمير اختيار خلف له في حياته غير ابنه الأكبر . فلقد نصت المادة الأولى من الدستور في فقرتها الأولى على أن حكم البحرين ورثي ، ويكون انتقاله من حضرة صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل

خليفه إلى ابنه الأكبر ثم إلى أكبر أبناء هذا الابن . وهكذا طبقة بعد طبقة إلا إذا عين الأمير قيد حياته خلفاً له غير الابن الأكبر وذلك طبقاً لأحكام التوارث (١) .

ونحن نرى أن الدستور البحريني بإقراره هذه القاعدة الدستورية إنما أراد القضاء علي ما قد ينشعب من خلاف بين الأسرة الحاكمة بوجه عام ، وأبناء الحاكم الفعلي بوجه خاص ومن هنا كان النص علي تولية الابن الأكبر قاطعاً لكل الاجتهادات بعد ما أصبح مبدأ دستورياً . وما النص الاستثنائي الوارد في الفقرة المتعلقة برغبة الأمير إذا شاء في تعيين ابن آخر من أبنائه غير الابن الأكبر ، في رأينا إلا من قبيل الاحتياط ، إذا ما ثبت لديه عدم قدرة هذا الابن علي التفرس بأعباء الحكم أو فقدان بعض الصفات التي تعيقه عن أداء مهمته وذلك دونما اشتراط موافقة المجلس الوطني أو عرض الأمر عليه علي نحو ما سلكه الدستور الكويتي ، اكتفاء بالاستئناس فقط برأي مجلس العائلة الحاكمة وفقاً لقانون التوارث (٢) واستكمالاً لجوانب هذه المسألة ، أصدر المشرع البحريني المرسوم رقم (١٢) لعام ١٩٧٣ بنظام توارث الإمارة وأعقبه الأمر الأميري رقم (٤) لعام ١٩٧٤ بشأن تشكيل مجلس العائلة الحاكمة في البحرين ، وهما نقطة الارتكاز في تنظيم ولاية العهد .

وإذا أمعنا النظر في قانون التوارث سنجد أن مواده قد عرضت في مجملها لطريقة تعيين ولاية العهد ، وكونها تنحصر في الابن الأكبر أو في نسل الحاكم الأب إذا كانت هناك موانع كعدم وجود عقب فتكون الولاية لنوي القربي الأقرب ، كما أبانت الشروط الواجبة في ولي العهد وكيفية انتقال الحكم إليه وكيفية فقدانه لمنصبه في حال الوفاة أو في حال فقدانه القدرة

(١) المادة ١/٨ من الدستور البحريني .

(٢) المادة (١٥) من قانون التوارث الجريدة الرسمية ، دولة البحرين ، العدد (١٠٣٣) السنة ٢٦

بتاريخ ١٩٧٣/٨/١٦ .

الصحية ، ولقد حرص قانون التوارث رغبة منه في التحوط في هذه المشاركة أن يوسع من اختصاصات مجلس العائلة فعهد إليه الحفاظ على كيان الأسرة الحاكمة وتقاليدها ، وتعيين وجهة تعليم القاصرين القريبين من وراثته الحكم إلى الدرجة الرابعة ، وهنا تجدر الإشارة إلى أن المشرع البحريني في معرض سرده للمتطلبات التي ينبغي توافرها في ولي العهد البحريني قد اشترط أن يكون ولي العهد مسلماً وابتناً شرعياً لأبوين مسلمين وأن يكون بالغاً من العمر ثمانية عشر سنة قمرية ، وهو في هذه السن قد خالف ما اتجه إليه المشرع الكويتي حين اشترط أن يكون بلوغ ولي العهد ثلاثين سنة ميلادية . لكن الخلاف بينهما ظهر في أن المشرع البحريني في نصه على تعيين الأمير قد قضى بتجاوز شرط السن المقررة عند انتقال الحكم إلى حاكم بون هذه السن كما لو توفي الحاكم بون أن يبلغ ابنه الأكبر هذه السن ففي هذه الحالة يعين وصي أو مجلس وصاية يعارس صلاحيات الأمير ^(١) وإذا توفي الأمير دون تعيين هذا الوصي يقوم مجلس الوزراء بتعيين الوصي أو مجلس الوصاية في ضوء الشروط الواجب توافرها في هذا الوصي أو مجلس الوصاية بعد استشارة مجلس العائلة الحاكمة ^(٢) ، هذا فضلاً عن أن الدستور البحريني قد سار على ماسار عليه الدستور الكويتي من إسباغ الصفة الدستورية على قانون التوارث وحظر التفكير في تعديله وتنقيحه .

ومما هو جدير بالذكر أن وراثته الحكم في البحرين تنحصر في ذرية المفطور له الشيخ عيسى بن علي آل خليفة الذي أبرم معاهدة الحماية مع

(١) المواد ٦ ، ٧ ، ٨ ، من قانون توارث الحكم في البحرين ، الجريدة الرسمية ، دولة البحرين ، العدد (١٠٢٢) السنة ٢٦ بتاريخ ١٦/٨/١٩٧٣ .

(٢) يتكون مجلس الوصاية من أفراد العائلة الحاكمة ومن رئيس مجلس الوزراء وعضاء مجلس الوزراء السابقين ومن رئيس المجلس الوطني وعضاء المجلس الوطني السابقين ومن الوزراء الحاليين أو السابقين ومن رؤساء المحاكم العليا أو السابقين (المادة ٩ من قانون التوارث)

بريطانيا عام ١٨٨٠ م وهو أمر وإن لم يرد النص عليه بصريح العبارة في الدستور علي نحو ما سلكه الدستور الكويتي إلا أننا نستنتج ذلك من الحكام الذين تولوا العرش بعد المذكور وحتى الأمير الحالي فكلهم من الذرية المذكورة.

أما في دولة الإمارات العربية المتحدة ، فإن دستورها المؤقت المعمول به منذ عام ١٩٧٢ ، لم يأت علي ذكر تنظيم مسألة ولاية العهد ، ولعل ذلك يرجع إلي طبيعة الدولة الاتحادية ، المكونة من سبع إمارات لكل إمارة منها حاكم يمثل أسرة حاكمة في إمارته ، ونحسب أن الدستور المؤقت عزف عن الخوض في تفاصيل هذه المسألة ، أو النص الصريح علي تأكيد مبدأ الحكم الوراثي في الأسرة ، نظراً لتلك الصفة الاتحادية ، تاركاً تنظيم هذه المسألة للعرف المتبع في كل إمارة وما يسترعي الانتباه أن الأسرة الحاكمة في هذه الإمارات تتميز بالقلة العددية مما يجعل الاتفاق سهلاً علي ترشيح ولي العهد ويضعف احتمالات الانقسام ، ومن المشاهد أن الإمارات تختلف في مسلك تنظيم الحكم وانتقاله ، فبعضها يقر قاعدة تولي الأبناء كما هو الحال في أبو ظبي ودبي وعجمان وأم القيوين ، وبعضها لا يشترط ذلك كما هو الحال في الفجيرة ، والشارقة ،

رابعاً : ولاية العهد في قطر :

للإحاطة التامة بمسألة ولاية العهد في قطر ، يحسن بنا أن نعرض للخلفية التاريخية لها بدءاً من عهد الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني مؤسس قطر الحديثة ، ومروراً بدخول الإمارة في فلك الحماية البريطانية وانتهاءً بعهد الاستقلال .

وذلك لأن الإلمام بهذه الخلفية يلقي الضوء علي واقع الحكم في عهده المعاصر ونستعرض هذه الخلفية من خلال عهود الحكام الذين تعاقبوا علي

حكم الإمارة علي النحو التالي :

أولاً : الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني :

نحنينا تولي الحكم الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني بعد وفاة والده الشيخ محمد بن ثاني عام ١٨٧٨ كانت قطر تابعة للسيادة الاسمية للدولة العثمانية باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية التي تتميز بالمركز الروحي شأنها في ذلك شأن بقية الإمارات الخليجية ، ولم تنجح بريطانيا في إبرام أية معاهدة مع الشيخ جاسم بإدخالها تحت حمايتها ، إذ رفض المذكور الإذعان للمطالب البريطانية والاستجابة لها رغم محاولاتها معه بالرغم من أن والده الشيخ محمد بن ثاني كان قد أبرم كغيره من مشايخ الإمارات أول اتفاقية مع بريطانيا للسلام البحري منذ عام ١٨٦٨ ضمن معاهدات أطلق عليها "المعاهدات البحرية" وقعتها بريطانيا مع شيوخ الخليج^(١) . بيد أن هذه المعاهدة لم تكن ذات أثر علي سيادة قطر في الداخل والخارج . وبذلك استطاع الشيخ جاسم رغم هذه المعاهدة تجنب البلاد ويلات الوقوع في منزلق الحماية . ويذكر المؤرخون أن الشيخ جاسم حوى صفات شخصية ومواهب نادرة جعلته يحظى من القطريين بالسمع والطاعة والمباينة ، فقد كان ثراؤه الواسع باعتباره من أكبر تجار اللؤلؤ في المنطقة وتدينه الصادق وشجاعته النادرة سبباً في اختيار القطريين له ، فضلاً عما انتهجه من سياسة حكيمة معتدلة حفظت للبلاد المكانة والهيبة ، إذ حارب الإنجليز والأتراك وتقلب عليهم ، وكذلك حارب خصومه من الشيوخ والأمراء الذين هاجموا ، وإليه يعود الفضل في القضاء علي تبعية قطر للبحرين واستقلالها عنها استقلالاً تاماً ، والتمرد عليها بالامتناع عن دفع الضريبة بعد أن كان

(١) د . خالد المعني : الخليج العربي في ماضيه وحاضره ، مرجع سابق . ١٩٧٢ ، ص ١٦٢

يتعامل معها علي أساس دفع هذه الضريبة ، بل كاد أن يستولي علي البحرين ويخضعها لتبعيته لولا وجود الحامية البريطانية علي شواطئها . كما حاول أن يوسع من حدوده الجغرافية بالسيطرة علي إقليم الإحساء لولا أن عاجلته الوفاة (١) مما جعله بحق أعظم شخصية في تاريخ قطر .

علي أن ما يهمنا أن نلمح إليه ، أن هذا الشيخ ومنذ توليه الحكم بعد وفاة والده عام ١٨٧٨ كما ذكرنا ، مضى في قيادة دفة الحكم بكل حنكة ودهاء عاملاً علي وقاية البلاد شرّ التدخلات الأجنبية التي عانت منها الإمارات الأخرى عبر تاريخها السياسي مما جعل للبلاد مكانتها الفريدة بين جاراتها الإمارات الأخرى .

ويردني انسايرون لأغوار التاريخ ، أنه كان لهذا الشيخ مجموعة من الأبناء الذين عمل علي تربيتهم وتأهيلهم ، وقد ارتأي أن يولي بعضاً منهم الإمارة بقصد اكتشاف مواطن الكفاءة والجدارة فيهم ، فكان يعين هؤلاء لفترة معينة ثم يعفيهم بعد التجربه إلي أن وجد في ابنه المنثور له الشيخ عبد الله بن جاسم آل ثاني (٢) (جد الأمير الحالي) ضالته المنشودة إذ لمس فيه الصلاحية والقدرة علي ممارسة الحكم فضلاً عما حواه من صفات حسنة كالتيدين والورع والتقوى والزهّد ، مما جعل والده مطمئناً إلي تسليمه الأمانة . ولهذا اقتضي فطر الشيخ جاسم تولية هذا الابن ليكون خليفة له في الحكم وانهقد عليه إجماع أهل الحلّ والعقد من كبار أفراد العائلة الحاكمة ورؤساء القبائل والعشائر الذين باركوا هذا الاختيار لما لمسوه هم أيضاً في الشيخ

(١) مصطفى مراد الببّاع : قطر ماضيها ، وحاضرها ، مرجع سابق ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦١ ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) يأتي ترتيب الشيخ عبد الله بن جاسم آل ثاني الرابع ضمن أولاد الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني .

عبد الله من صفات وما تسموه فيه من صلاح ، وعندما توفي الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني عام ١٩١٣ ، خلفه ابنه الشيخ عبد الله في الإمارة ، واستمر في الحكم من عام ١٩١٣ حتى عام ١٩٤٩ .

ثانياً : الشيخ عبد الله بن جاسم آل ثاني :

تميز عهد الشيخ عبد الله بن جاسم آل ثاني الذي استمر قرابة ستة وثلاثين عاماً بحدثين جوهريين لهما أبعادهما في تاريخ قطر :

الحدث الأول : هو التحول إلى الحماية البريطانية ، فهو وإن بقي لفترة طويلة يحجم عن عقد اتفاقية الحماية معها كما فعلت سائر الإمارات الخليجية ، إلا أنه اضطر مرغماً في نهاية الأمر لعقد تلك الاتفاقية استجابة للظروف الدولية والإقليمية والمحلية ، وذلك في عام ١٩١٦ .

أما الحدث الثاني : فهو منح امتياز التنقيب عن البترول في الأراضي القطرية عام ١٩٣٢ ، ثم استخراجه وتصديره عام ١٩٤٩ وأثناء فترة حكمه لس الشيخ عبد الله في ابنه الشيخ حمد بن عبد الله ^(١) (والد الأمير الحالي) صفات النجابة ، وأمارات الذكاء والفطنة والشجاعة ، فقرر أن يخصصه بولاية العهد ليساعده في شؤون الإمارة ويكون حاكماً على البلاد من بعده ذلك أن الشيخ عبد الله بعد وفاة والده ، ومياعته بالإجماع استطاع أن يحصر الحكم في نريته . وهو ما أصبح منذ ذلك الوقت وحتى الوقت الحاضر تقليداً ثابتاً ومبدأً دستورياً . وقد تفرس الشيخ حمد بن عبد الله الحكم بسداد رأي ورجاحة عقل فكان ينوب عن والده في تصريف معظم شؤون الإمارة ولا سيما التفاوض مع بريطانيا ، وإدارة الشأن الداخلي وتحصيل العبد الأكبر من

(١) كان للشيخ عبد الله ثلاثة أولاد هم للشيخ علي بن عبد الله (الأكبر) ثم الشيخ حمد بن عبد الله (الأوسط) ثم الشيخ حسن بن عبد الله (الأصغر) .

المسئولية عن والده فضلاً عما تميز به من حسن صادق تجاه بلده وإيثار مصلحته ، مما كان موضع تقدير وإجلال ومحبة من قبل الشعب غير أن المنية عاجلت الشيخ حمد عام ١٩٤٧ ، ولما يزل والده الشيخ عبد الله علي قيد الحياة ، وعندئذ أيقن الشيخ عبد الله بثاقب فكره إزاء هذا الظرف الطارئ أن لا مناص من حسم مشكلة الحكم وولاية العهد خاصة بعد أن تقدمت به السن ، وأضحت البلاد علي وشك تصدير البترول وبدء مرحلة التحديث والبناء، لكن واجهته مشكلة قانونية إذ أن أولاد الشيخ حمد بن عبد الله المتوفي لم يبلغوا سن الرشد حيث توفي والدهم ولما يزالوا صغاراً ، فأنبدي الشيخ عبد الله بعد اجتماعه بأكابر القوم من وجهاء الأسرة ورجالاتها ، وكذلك سائر رؤساء القبائل رغبته في تولية ابنه الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني (عم الأمير الحالي) الحكم في البلاد ، ورغبته كذلك في اختيار الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني (الأمير الحالي) الذي قصرت به السن يومئذ عن تولي الإمارة ليكون ولياً للعهد وخليفة للشيخ علي في الحكم من بعده . وكتبت الوثائق علي هذا الأساس ، وهذه حقيقة يؤكدتها كذلك شهود العيان ممن حضروا حفل التتويج والمبايعة ، كما أن بريطانيا من جهة أخرى ، اعترفت بما اتجهت إليه رغبة الشيخ عبد الله ، فافترت ما انعقد عليه الإجماع بتولي الشيخ علي الحكم وتأكيد تثبيت ولاية العهد للشيخ خليفة ، ويقول شهود العيان الحاضرون لتلك البيعة ، أن بريطانيا عبرت عن مباركتها وتأييدها للحكم عن طريق حضور مندوب عنها في ذلك الحفل هو المقيم السياسي في الخليج وذلك كدأب بريطانيا علي اتباع مثل هذه السياسة عند تولية أي حاكم في أي إمارة خليجية ، تعبيراً عن استمرار تعاونها مع الحكام وخلفائهم .

وتأسيساً علي ذلك أصبحت البيعة الوطنية ، والمباركة البريطانية هي الأساس الذي تولى بموجبه الشيخ علي بن عبد الله الحكم ، وانحصار ولاية

العهد في الشيخ خليفه بن حمد .

ثالثاً : الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني :

استمر الشيخ علي بن عبد الله في الحكم من عام ١٩٤٩ إلى عام ١٩٦٠ وفي عهده زاد دخل البلاد من النفط ، وبدأت عجلة العمران والبناء في الكورن ، ولكن الشيخ علي في العام ١٩٦٠ عندما تقدمت به السن أيضاً وأثر الإخلاء للراحة ، أفصح عن رغبته في التنازل عن الحكم لصالح ابنه الشيخ أحمد بن علي وأن يخصه به دون الشيخ خليفه آلورث الشرعي للحكم ، مما يناقض ما أئفق عليه عام ١٩٤٩ ، بيد أن الشيخ خليفه بما أوتي من حكمة الرأي ، بعد التاور ، والتشاور والاتزان ، أن التويت - فرصة علي أية تدخلات خارجية قد يترفع بها ، ناهيك عن خشيته من وقوع الانقسام في الصفوف والفوضى في البلاد فقبل مكرهاً العرض الذي قدمه عمه الحاكم الشيخ علي ، ونزل علي رغبته ، فانهقدت بيعة الحكم للشيخ أحمد بن علي ، كما أعيد تأكيد ولاية العهد هذه المرة أيضاً للشيخ خليفه بن حمد آل ثاني وتم ذلك أيضاً بحضور كبار أفراد العائلة الحاكمة ، ووجهاء البلاد وأصحاب الشأن فيها ، وحررت الوثائق علي أساس ذلك . وقد اقتصر دور بريطانيا أيضاً علي مباركة ماتم الاتفاق عليه داخل البيت باعتبارها مسألة من صميم الاختصاص الداخلي شاعت بريطانيا ترك أمرها للأسرة الحاكمة وقد حضر حفل التتويج هذا المعتمد السياسي البريطاني في قطر الذي قام بالتوقيع علي الوثائق التي اتفق علي محتواها باختيار الشيخ أحمد بن علي كحاكم للبلاد واختيار الشيخ خليفه بن حمد ولياً لعهد .

ويصف قائد الشرطة البريطاني في قطر عام ١٩٦٠ وقائع هذا الحفل بقوله " عندما اجتمع كبار وجهاء الأسرة الحاكمة وأعيان البلاد والمعتمد

البريطاني في قصر الحاكم بالريان ، أبلغهم الحاكم الشيخ علي بن عبد الله برغبته في التنازل عن الحكم بسبب ظروفه الصحية وتقدمه في السن لصالح ابنه الشيخ أحمد حاكماً للبلاد خلفاً له واختيار ابن أخيه الشيخ خليفة بن حمد نائباً للحاكم رولياً للعهد وخليفة للشيخ أحمد من بعده . ثم قام الحاكم الشيخ علي من علي كرسيه وأجلس الشيخ أحمد مكانه وبجواره ولي عهده وصالحهما وبارك لهما ، وأوصاهما بالحكم بالعدل وتقوي الله ثم انصرف الحاكم الشيخ علي من المجلس تماماً ، وبعد إتمام وقائع الحفل - كما يروي قائد الشرطة البريطاني - توجه الحاكم الجديد إلي دار المعتمد البريطاني لزيارته وأدت له ثلة من حرس الشرف التحية عند وصوله إلي دار المعتمد (١) من هذا يتبين لنا أن حكمة الشيخ خليفة بن حمد وبعد نظره كانت عاملاً حال دون الفرقة وأدي إلي تماسك وحدة البلاد وذلك بالرغم من أحقية الحكم للشيخ خليفة حسبما هو متفق عليه في الوثائق والمستندات ، كذلك يظهر لنا بوضوح كيف أن بريطانيا نزلت علي ما تم الاتفاق عليه بين الأسرة الحاكمة دونما تدخل منها بعد موافقة الشيخ خليفة علي ذلك ، كما نلاحظ أن هذا التنازل حدث والإمارة لازالت تحت الحماية البريطانية .

رابعاً : قيام الحركة التصحيحية وتولي الشيخ خليفة مقاليد الحكم :

استمر الشيخ أحمد بن علي آل ثاني في سدة الحكم من ٢٤ أكتوبر عام ١٩٦٠ وحتى ٢٢ فبراير عام ١٩٧٢ ، وخلال هذه الفترة - وبإيعاز من الشيخ خليفة ولي عهده - صدر أول نظام أساسي مؤقت للحكم في قطر في ٢٤/٤/١٩٧٠ متضمناً (٧٧) مادة هو بمثابة دستور مؤقت للبلاد يعمل به في فترة انتقالية بعد بعدها نظاماً أساسياً كاملاً ودائماً . ومن الملاحظ أن هذا

(١) إبراهيم أبو نواب : قطر ، قصة بناء دولة ، بدون تاريخ ص ص ٢٠ - ٢٢ .

الدستور صدر والبلاد لازالت بعد لم تنفك من إفسار التبعية البريطانية ، لأن هذا الدستور المؤقت أريد به أن يكون تمهيداً لمرحلة أخرى من التنظيم السياسي فيما بعد الرحيل البريطاني عن المنطقة عام ١٩٧١ . ومما يسترعي الانتباه أن هذا النظام الأساسي المؤقت للحكم قد أعاد تأكيد ما تم الاتفاق عليه في ٢٤ أكتوبر ١٩٦٠ من مبايعة الشيخ خليفة بن حمد ولياً للعهد وذلك قطعاً لكل نزاع وحسماً لكل جدل (١) . فلقد نصت المادة (٢٢) من هذا النظام علي ما يأتي : حكم الدولة وراثي في أسرة آل ثاني وولي العهد هو نائب الحاكم الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني وذلك إعمالاً وتنفيذاً لمبايعة أولي الحل والعقد في قطر الصادرة بتاريخ ١٠/٢٤/١٩٦٠ وينظم سائر الأحكام الخاصة بتوارث الحكم في الدولة قانون خاص وذلك وفقاً للعباديء الأساسية المقررة في المبايعة المذكورة ، ولا يجوز تعديل هذا القانون إلا بالطريقة التي ينص عليها فيه .

وواضح أن هذه المادة الدستورية في النظام الأساسي المؤقت الذي أصدره الشيخ أحمد بن علي آل ثاني إبان عهده في صورة منحة منه لشعبه تنطوي علي تقرير ثلاث حقائق جوهرية هي :

١ - تثبيت مبدأ توارث الحكم في أسرة آل ثاني كإسرة حاكمة وفقاً للأوضاع القائمة فعلاً .

٢ - إعادة تأكيد ولاية العهد للشيخ خليفة بالنص الصريح طبقاً لما تم الإجماع عليه . مع ما يعنيه هذا من حقه الشرعي في الحكم بعد الشيخ أحمد لأي سبب من الأسباب .

(١) المذكرة التفسيرية لبعض مواد النظام الأساسي المؤقت [في مجموعة قوانين قطر ١٩٦١ - ١٩٨٥] وزارة العدل ، إدارة الشؤون القانونية

٢ - النص علي صدور قانون تنظيم توارث الحكم في ضوء المبادئ الأساسية الشرعية المقررة .

وبذلك يكون الحق الشرعي للشيخ خليفة في الحكم قد أصبح حقاً دستورياً . غير أن الأمور سارت علي غير ما أريد لها ، ووضح للشيخ خليفة أن ثمة تطورات قد يحملها المستقبل ، تشكل نكثاً بالعهد ، ونقضاً لما اتفق عليه ، ولذلك كان لزاماً اتخاذ خطوة من شأنها تصحيح الأوضاع المغلوطة سبباً بعد أن تردت هذه الأوضاع في البلاد وأصبحت تنور في حلقة مفرغة مما ينذر بأوخم العواقب وانطلاقاً من هذه الاعتبارات وحرصاً علي قطع دابر الفتنة فقد قام الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني صبيحة يوم ٢٢ فبراير ١٩٧٢ بحركة تصحيحية ، تولى بها مقاليد الحكم في البلاد ، وحظي بإجماع الأسرة الحاكمة والقوات المسلحة وأفراد الشعب . وقد أذاع الأمير مساء اليوم ذاته بياناً أوضح فيه مبررات هذه الخطوة والأسباب التي أملت عليه ذلك ، فلقد أبان أن الدافع لقيامها كان ما يلي :

١ - الحفاظ علي نهضة البلاد التي تعد محصلة ثمرة من ثمرات التعاون بين السلطة والشعب التي خاض بسببها الآباء والأجداد الحياة لتحقيق مايتطلع إليه الشعب لبناء الوطن المعصري .

٢ - اصطدام تلك النهضة بعقبات من قبل عناصر تجردت من المسؤولية وكان همها فقط جني المصالح الشخصية علي حساب الوطن الأمر الذي أدي إلي تأخر البلاد بسبب انعدام روح المسؤولية .

٣ - توجيه النصيحة والإرشاد للحاكم السابق ولفت نظره إلي خطورة مايجري علي ساحة البلاد ، ولكن دون جدوي رغم تكرار مثل هذه النصائح التي كانت تتم بالإقناع تارة ، وبالنصح والإرشاد تارة أخرى .

٤ - تذمر أفراد الأسرة الحاكمة والشعب من جراء ماوصلت إليه الحال نتيجة اللامبالاة ومن ثم مباركتهم لهذه الخطوة (١) .

بيد أن الاعتبار الشرعي يكاد يكون هو الدافع الجوهرى الذى حدا بالشيخ خليفة لاستلام مقاليد الحكم . فهو عندما قبل ولاية العهد فى عام ١٩٦٠ حرصاً على وحدة البلاد وصوناً لتقدمها ونهضتها إنما كان ذلك من قبيل الإكراه مع ثبوت حقه الطبيعى والشرعى فى الحكم وفق ما صيغ فى الوثائق والمستندات التى حررت عام ١٩٤٩ وأعيد تأكيدها فى ٢٤ أكتوبر عام ١٩٦٠ ، ولهذا فإن تسلم الشيخ خليفة لزام الحكم لايعنى كونه استرداداً لحقه الشرعى كوريث للحكم ومن ثم يصبح لهذا الاعتبار مكان الصدارة فى جملة الأسباب التى سارعت فى القيام بتلك الخطوة .

تنظيم ولاية العهد فى قطر :

بعد تولي الشيخ خليفة بن حمد سلطة الحكم ، وضع نصب عينيه أن مسألة ولاية العهد هي من البديهيات التي يجب أن تعالج بالطرق التنظيمية تلافياً لما قد ينشأ من اختلاف يصدها كما أدرك بخبرته الطويلة في ميدان السياسة والحكم أن ترك مثل هذه المسألة للعرف دون التشريع المحدد والمنظم قد يترك المجال واسعاً للاجتهادات ويسنح في الفرصة لظهور الانقسام في الرأي بين صفوف الأسرة الحاكمة علي نحو ما جرى منذ عام ١٩٤٩ وتعريض البلاد لهزات وأزمات ، لذلك لاغرو أن كانت هذه المسألة في طليعة اهتماماته ، فما أن تولي الحكم حتى أصدر نظاماً أساسياً مؤقتاً عام ١٩٧٢ معدلاً للنظام الأساسي المؤقت الصادر عام ١٩٧٠ وبديلاً عنه أطلق عليه

(١) خطاب أمير قطر بمناسبة توليه مقاليد الحكم يوم ٢٢ فبراير ١٩٧٢ [منشور في مجموعة خطب الأمير ، وزارة الإعلام] قطر .

النظام الأساسي المؤقت المعدل للحكم في قطر ، حيث اقتضت المصلحة العامة أن يعدل هذا النظام بعد حصول الدولة علي استقلالها وانفتاحها علي العالم من جهة ، وقيام الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني بحركته وتولييه مهام الحكم من جهة أخرى (١) .

علي أن الذي يعنينا من هذا التعديل هي تلك المادة التي رسمت الإطار التنظيمي لمسألة ولاية العهد ، فلقد نصت المادة (٢١) من النظام الأساسي المؤقت المعدل الصادر عام ١٩٧٢ علي ما يأتي : " حكم الدولة وراثي في أسرة آل ثاني . ويعين ولي العهد خلال سنة علي الأكثر من تاريخ صدور هذا النظام الأساسي المؤقت ، ويكون تعيينه بأمر أميري بعد التشاور مع أهل الحل والعقد في البلاد ومناقشة رأيهم في هذا التعيين . وينظم سنن الأحكام الخاصة بتوارث الحكم في الدولة قانون خاص يصدر خلال مدة لاتجاوز سنة من تاريخ صدور هذا النظام الأساسي . ولايجوز تعديل هذا القانون إلا بالطريقة التي ينص عليها فيه " وواضح من سياق هذا النص أن المادة أنفة الذكر تنطوي علي جملة من المبادئ والشروط الواجب مراعاتها عند تعيين ولي العهد القطري ، تركز علي الأسس التالية :

١ - أن حكم الدولة وراثي في أسرة آل ثاني ، وهي الأسرة الحاكمة في البلاد وهذا المبدأ مقطوع به لايقبل الجدل ولا يكون موضع نقاش بعد إقراره دستوريا وقد ائقفي النظام القطري في اتباعه لهذا المبدأ أثر الدستوريين الكويتي والبحريني في إقرارهما الحكم للأسرتين الحاكمتين في كل من الكويت والبحرين .

(١) أنظر ديباجة النظام الأساسي المؤقت المعدل للحكم في قطر ١٩٨٢ [مجموعة قوانين قطر - المجلد الأول] مرجع سابق .

٢ - إن المادة توجب أن يعين ولي العهد خلال سنة علي الأكثر من تاريخ صدور هذا النظام الأساسي ، وهذا في رأينا يرجع إلي استشارة الحكم بخطورة هذا المنصب وعدم شغوره مدة طويلة تحسباً لكافة الاحتمالات التي قد تعصف بالبلاد وتلقي بها في متاهات الفراغ الدستوري . كما اشترطت المادة أن يكون التعيين بعد التشاور مع أهل الحل والعقد وموافقة أغليبيتهم علي هذا التعيين . فهذا النص في نظرنا يوسع من نطاق الاستشارة ، لأن مفهوم أهل الحل والعقد هنا مفهوم مرن ومتسع فلا يقتصر علي استشارة كبار أفراد الأسرة الحاكمة فحسب وإنما يمتد نطاق الاستشارة ليشمل من في البلاد من وجهاء وأعيان وكذلك أعضاء مجلس الشوري ، وذوي المكانة الاجتماعية في الدولة ، وهو ما يمثل في رأينا نوعاً من الديمقراطية يجري إعماله بين فئة خاصة هي فئة أهل الحل والعقد بالمفهوم الواسع لها إذ لم تشر المادة إلي تكوين مجلس للعائلة الحاكمة ليختار ولي العهد علي نحو ما فعل الدستور البحريني علي سبيل المثال ، وإنما أدخل النظام القطري أعضاء الأسرة الحاكمة ضمن أهل الحل والعقد متخذاً طابعاً خاصاً به في هذا الصدد .

٣ - أشارت المادة سالفة الذكر إلي صدور قانون خاص ينظم الأحكام الخاصة بتوارث الحكم في الدولة خلال مدة لا تجاوز سنة من تاريخ صدور النظام الأساسي ، وعدم جواز تعديل هذا القانون إلا بالطريقة التي ينص عليها فيه . وقد جاري النظام القطري في اتباع هذه الخطوة كلاً من الدستورين الكويتي والبحريني في النص علي هذا القانون توخياً لتنظيم هذه المسألة ، إلا أنه من الجدير بالذكر علي سبيل المقارنة أنه في الوقت الذي صدر فيه قانونا التوارث في كل من الكويت والبحرين إلا أن هذا القانون لم يصدر بعد حتي هذه اللحظة ونحسب أنه محل اهتمام الحكم في قطر ، سيما إذا أخذنا في الحسبان أن النظام الأساسي

لا زال يتصف بصفة التأقيت في مرحلة انتقالية لما ينتهي أمدّها بعد ،
خصوصاً وأن المادة (٦٩) من النظام الأساسي المؤقت المعدل قد نصت
علي أنه كلما استلزم هذا النظام الأساسي قانوناً لتنظيم مسألة معينة ،
ولم يكن مثل ذلك القانون قائماً بالفعل في تاريخ العمل بهذا النظام
يستمر العمل بالتدابير التنظيمية السائدة في ذلك التاريخ حتي يصدر
القانون اللازم .

وتقريباً علي هذا يمكن القول أنه لحين إصدار ذلك القانون المشار إليه
يظل العرف هو الذي يهتدي به في الفترة الانتقالية في صدد مسألة تعيين ولي
العهد القطري استرشاداً بالمبادئ الواردة في المادة (٢١) كما رأينا .

تعيين ولي العهد القطري :

إن الظروف التي مرت بالحكم في قطر منذ عام ١٩٤٩ كما تبين لنا قد
ولدت لدي الأمير الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني قناعة تامة بعدم السماح لتلك
الرواسب أن تطفو ثانية علي السطح ، فرغب في أن يواجه هذه المسألة
بالتنظيم حرصاً منه علي ديمومة الاستقرار في البلاد ، سيما وأن عهده يعتبر
العهد الدستوري المعاصر . الذي تكاملت فيه أركان الدولة وشيدت المؤسسات
التنظيمية فيها ومن ثم برزت هذه المسألة كأحد اهتماماته الكبرى . ففي عام
١٩٧٧ اتجهت إرادة الأمير إلي تعيين ولي عهد للدولة يكون وريثاً شرعياً له ،
وأميراً للبلاد في المستقبل فرأى بفطنته وبعد التجربة ، أن الصفات تكاملت
في نجله الأكبر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني وهي صفات تؤهله لتقلد هذا
المنصب وسرعان ما بدأ المشاورات واستطلاع الآراء من قبل رموز الأسرة
الحاكمة وعلية القوم من الوجهاء والأعيان وأعضاء مجلس الشورى ، حيث
اجتمع بهم وأبلغهم برغبته في اختيار نجله الشيخ حمد لولاية العهد لما لمسه

فيه من الصلاح والجدارة . فبارك الجميع هذا الاختيار ، ومن ثم صدر الأمر الأميري رقم (١) لسنة ١٩٧٧ بتعيين الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني ولياً للعهد .

ومنذ ذلك التاريخ أصبح الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني هو ولي العهد طبقاً للاختيار والتوافق في البيعة التي تمت بحضور الأمير مع أهل الحل والعقد . هذا وتجدر الإشارة إلي أن ولي العهد القطري وحسبما جري عليه العرف منذ توليه هذا المنصب عام ١٩٧٧ هو وزير الدفاع والقائد العام للقوات المسلحة حيث احتفظ بهذين المنصبين إلي جانب منصبه كولي للعهد كما أنه - وطبقاً لما جري عليه العمل - يتولي منصب نائب الأمير عند غياب الأمير خارج الدولة بناءً علي الأمر الأميري الذي يصدر في هذا الخصوص . وفي هذه الحالة تتول إلي كافة صلاحيات وسلطات الأمير أثناء قيامه بمهام الحكم بما في ذلك رئاسته لمجلس الوزراء حيث أن الأمير يجمع في شخصه بين منصب رئيس مجلس الوزراء وبين منصب رئيس الدولة .

وهكذا يبدو لنا جلياً أن ولاية العهد في قطر قد دخلت مرحلة جديدة من التنظيم في المرحلة الدستورية الانتقالية الحالية بما يحافظ علي استقرار نظام الحكم . وضمان انتقال السلطة بصورة سليمة ونحسب أن القواعد ستكون أكثر تفصيلاً ووضوحاً حين يصدر قانون التوارث الذي وعد به النظام الأساسي المؤقت المعدل ليكون تشريعاً له صفة دستورية يعالج مسألة ولاية العهد بطريقة صحيحة وموضوعية .

وأخيراً نري أن الحكم في قطر ينحصر في ذرية المغفور له الشيخ عبدالله بن جاسم آل ثاني الذي أبرم اتفاقية الحماية مع بريطانيا عام ١٩١٦ وهو في هذا يتوافق مع ما اتجه إليه الحكم في كل من الكويت والبحرين .

وسائر الإمارات العربية من حصره في ذرية الحاكم الذي وقع اتفاقية الحماية مع بريطانيا وإن كان النظام القطري لم ينص علي ذلك صراحة علي نحو ما فعله الدستور الكويتي ، إلا أن ذلك يستتبع من المتعاقبين علي الحكم في قطر، حيث أن النظام القطري اكتفي بالنص فقط علي وراثة الحكم في أسرة آل ثاني كما أنه من الملاحظ أن قطر بتعيين النجل الأكبر للأمير ولياً للعهد قد أخذت بعبء تعيين الأبناء أولياء العهد وهو وضع مماثل لما هو مطبق حتي هذه اللحظة في كل من البحرين وأبو ظبي وعجمان وأم القيوين ورأس الخيمة دبي .

ونخلص في نهاية بحثنا عن ولاية العهد في الدولة الخليجية إلي تسجيل بعض الملاحظات التي توصلنا إليها من خلال التحليل علي النحو التالي :

١ - أن دول الخليج العربية تتميز ببروز أسرة حاكمة فيها اجتمعت لها الرياسة والصدارة وارتبط تاريخها السياسي بتاريخ البلاد ، عن طريق اسهامها الكبير في تاريخ الإمارة علي نحو مكنها من الإمساك بزمام السلطة والحكم بعد كفاح شاق مع القوي المحلية المناوئة والقوي الإقليمية والدولية .

٢ - أن ولاية العهد في الدول الخليجية ذات شأن خطير في كيان نظام الحكم، لما قد يؤدي إليه التريث في البت فيها أو التلؤك في حسمها من قيام الاضطراب والفوضى في النظام السياسي ، لاسيما وأنه قد ارتبط في الأذهان أن ولي العهد هو الحاكم المنتظر وأمير المستقبل الذي يجب له السمع والطاعة من قبل الرعية مالم يأمر بمعصية تتنافي مع شرع الإسلام .

٤ - اختلفت حدة التدخل البريطاني في تثبيت الحكم من إمارة إلى أخرى تبعاً لاستجداد كل فريق بطلب المساعدة من بريطانيا ، مما فتح الباب علي مصراعيه للتدخلات الأجنبية في مناصرة فريق علي آخر في داخل الأسرة الحاكمة . ويبرز هنا مثال البحرين وأبو ظبي والشارقة ، في الوقت الذي كان فيه التدخل البريطاني عديم الأثر في بعض الإمارات بفعل الاتفاق والرضا الذي تم بين أفراد الأسرة الحاكمة واتباع الحكمة والعقلانية في معالجة الأمور . وظهر هذا جلياً في كل من الكويت وقطر وسائر الإمارات الخليجية الأخرى .

٤ - لاشك أن التدخل البريطاني واختلاف درجته يحتم أن يؤخذ في الحسبان عند التصدي لدراسة مثل هذه المسألة ، لأن التاريخ البريطاني جزء لا يتجزأ من تاريخ هذه الإمارات . وذلك بالرغم من أن بريطانيا قد تركت تقدير مثل هذه المسألة الداخلية لأولي الشأن في الإمارة وعدم التدخل فيها إلا حيث تحركها مصلحتها فتسعي من ثم للتأثير علي مجري الأمور بما يعيد لها تلك المصلحة ، ومن هنا كانت مسارعته إلي تأكيد حسن التعاون مع كل حاكم يتبوأ عرش الإمارة خلفاً لسلفه في ظل الحماية .

٥ - عندما بزغ فجر الاستقلال في الستينات في الكويت والسبعينات في كل من قطر والبحرين والإمارات العربية المتحدة دخلت مسألة ولاية العهد في طور جديد يتسم بقواعد منظمة إذ حرص المشرعون الدستوريون علي تسجيلها دستورياً ، وإيراد الشروط اللازمة لشغل المنصب ، كما أعادت هذه النول صراحة الحقيقة التي كانت قائمة من قبل بتأكيدهما إقرار الحكم في كل من الكويت والبحرين وقطر للأسر الحاكمة فيها كقاعدة مسلم بها ، كما نص علي ذلك في دساتير كل من الكويت والبحرين وقطر بخلاف الدستور المؤقت لدولة الإمارات العربية المتحدة الذي لم يشأ

الخوض في التفاصيل اكتفاءً بما انعقد عليه توافق حكام الإمارات في إصدار الدستور نظراً لطبيعة الدولة الاتحادية حيث أن كل حاكم يمثل أسرته الحاكمة في إمارته .

٦ - تباينت نزعة الدساتير في تنظيم هذه المسألة ففي حين فضل بعضها النص عليها في الدستور كمبدأ عام واستكمال جوانبها التفصيلية الأخرى في قانون التوارث ذي الصفة الدستورية ويبرز هنا مثال الدستوريين الكويتي والبحريني ، عمد بعضهما إلى تركها للعرف سواء في الفترة الانتقالية الدستورية (كما هو الحال في النظام القطري) أو تركها للعرف في كل بلد علي حده مع تعمد ترك الدستور النص عليها صراحة كما هو عليه الحال في الدستور الإماراتي المؤقت .

٧ - يلاحظ أن الحكم قد انحصر في فرع معين ، وذرية محددة في الأسرة الحاكمة بكل دولة وليس في الأسرة عموماً ^(١) كما يفهم من نصوص الدستور الكويتي ، بينما يفهم ذلك ضمناً في كل من دستور البحرين والنظام القطري باعتبار ذلك أمراً بديهياً . كما استبان لنا أن الدول اختلفت كذلك في تولية ولاية العهد ، فبينما نرى بعضها اتبع قاعدة اختيار الأبناء أولياء للعهد كقطر والبحرين وبعض إمارات الخليج ، لم تراعي هذه القاعدة في الكويت التي أحالت في ذلك إلى ما يتم الاتفاق عليه داخل البيت الحاكم شريطة أن يكون ولي العهد من ذرية الشيخ مبارك الصباح .

٨ - تفاوت دور الشعب أو ممثليه في اختيار ولي العهد في كل بلد من بلدان الدراسة . فعلي حين جعل الدستور الكويتي مجلس الأمة طرفاً في هذا

(١) د عبد الفتاح حسن : مبادئ النظام الدستوري في الكويت مرجع سابق ، ص ١٦٦ .

الاختيار ، وإسناد الحكم إليه عند احتدام الخلاف حول الترشيع بسبب عدم توافق الكلمة علي المبايعة والاختيار لم يرد شيء من هذا القبيل في الدستور البحريني مكتفياً بإيكال مثل هذا الأمر إلي الأمير لمعالجته داخل الإطار الأسري من خلال مجلس العائلة الحاكمة .

أما النظام القطري فقد تطلب - كما عرفنا - ضرورة أخذ موافقة أهل الحل والعقد جميعاً علي هذا التعيين ، والتوسع في عملية المشاركة والاستشارة من خلال مفهوم فئة أهل الحل والعقد وهو ما يدفعنا إلي القول بأن الأمير مقيد في صدد التعيين بما يستقر عليه رأي غالبية هذه الفئة .

ولم يأت الدستور الإماراتي المؤقت بشيء من هذا القبيل إذ اعتبر أن هذا التعيين مسألة متروكة لكل إمارة علي حده وفق ما يحكمها من عرف في هذا الصدد .

٩ - ظهر لنا أن ولاية العهد في قطر منذ عام ١٩٤٩ كانت عرضة للاختلاف والتغاير نتيجة عدم تطبيق القواعد المقررة المتفق عليها ، مما كان سبباً في ازدواجية السلطة أدت إلي دوران البلاد في حلقة مفرغة انعكس علي مسيرتها .

١٠ - تبين أن قيام الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني (الأمير الحالي) بتولي مقاليد الحكم في ٢٢ فبراير عام ١٩٧٢ إنما هو تأكيد لحقه الشرعي في وراثة العرش ولعل هذا ما يفسر الإجماع من قبل الأسرة الحاكمة والشعب علي مباركة هذا المسمي إضافة إلي أن خطورة الوضع في البلاد دفعته إلي الإسراع في التعجيل بهذه الحركة .

١١ - لا ريب أن ولاية العهد في قطر قد أصبحت في الوقت الحاضر تسير في

اتجاهها الصحيح بعد النص عليها في النظام المؤقت ، وإن كان نص المادة (٢٢) من هذا النظام يشوبه قصور بسبب عدم إصدار القانون المنظم لتوارث الحكم الذي وعد به حتي هذه اللحظة ، إلا أن ما يشفع لذلك أن النظام الأساسي لا يزال مؤقتاً وفي مرحلة انتقالية ، وقد أجاز هذا النظام للأمير حق تنقيحه بالإضافة أو الحذف بالإرادة المنفردة في هذه الفترة ، ونحن نعتقد أن هذا القانون هو محل اهتمام الحكم ، سيما وأن الفترة الانتقالية الدستورية التي لم ينته أمدّها بعد تحاول معالجة الثغرات علي ضوء الممارسة العملية لأحكام النظام الأساسي توطئة لإصدار النظام الأساسي الدائم الذي أخذ الأمير علي نفسه العهد بإصداره كما تشير ببياجة النظام المؤقت ، وعن ثم سيكون النظام الدائم كاملاً وشاملاً لكل الأحكام والقوانين .

المراجع

أولاً : المراجع العربي :

١ - د . السيد محمد إبراهيم : أسس التنظيم السياسي والمستوى لنواة الإمارات العربية المتحدة ، أبو ظبي ، مركز الوثائق والدراسات ، ١٩٧٥ .

٢ - إبراهيم أبو ناب : قطر ، قصة بناء دولة ، بدون تاريخ .

٣ - د . أحمد مصطفى أبو حاكمه : تاريخ شرق الجزيرة العربية في العصر الحديث ، مطبعة النهضة ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٤ - أمل الزباني : البحرين : دراسة في محيط العلاقات الدولية وتطور الأحداث في منطقة الخليج ، مطابع دار الترجمة والنشر لشتون ، بيروت ، ١٩٧٣ .

٥ - د . جمال زكريا قاسم : الخليج العربي ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوربي الأول ، ١٥٠٧ - ١٨٤٠ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٥ .

٦ - د . جمال زكريا قاسم : الأسس التاريخية لوحدة الإمارات ودور الاستعمار في تجزئتها [مجموعة بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بعنوان : التجارب الوجودية العربية المعاصرة : تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٨١] .

٧ - ج . ج لوريير : دليل الخليج ، القسم التاريخي ، الجزء الثاني مكتب الأمير - قطر ، النوحه مطابع علي بن علي بدون تاريخ .

٨ - د . حسين محمد البحارنة : دول الخليج العربي الحديثه علاقاتها الدولية
وتطور الارضاع السياسية والقانونيه والدستورية فيها كتلة
مؤسسة الحياة بيروت ١٩٧٣ .

٩ - د . حسين محمد البحارنة : التطورات القانونية والدستورية في دول
الخليج العربي [محاضرة القيت في الدورة الدبلوماسية الثالثة ،
وزارة خارجية الكويت - مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٧٢] .

١٠ - د . حسن سليمان محمود : الكويت ماضيها وحاضرها ، منشورات
المكتبة الاهلية ، بغداد ، ١٩٦٨ .

١١ - حافظ وهبه : جزيرة العرب في القرن العشرين ، مطبعة لجنة التأليف
والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

١٢ - حكومة البحرين : أعداد الجريدة الرسمية .

١٣ - د . خالد العزي : الخليج العربي في ماضيه وحاضره ، مطبعة
الجاحظ ، بغداد ١٩٧٢ .

١٤ - رياض نجيب الريس : صراع النفط والواحات ، هموم الخليج العربي
١٩٦٨ - ١٩٧١ ، مطابع إغرافيك بيروت الطبعة الاولى ،
١٩٧٣ .

١٥ - راشد الفرخان : مختصر تاريخ الكويت ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

١٦ - زهرة ديكسون فريث : الكويت كانت مفزلي ، دار الكاتب العربي ، بدون
تاريخ .

١٧ - سيف مرزوق الشمعان : من تاريخ الكويت ، القاهرة ١٩٥٩ .

١٨ - د . سيد نوفل : الارضاع السياسية لإمارات الخليج العربي وجنوب
الجزيرة ، الكتاب الثاني ، الطبعة الثاني ، معهد البحوث

والدراسات العربية المنظمة للتربية والثقافة والعلوم ،
جامعة الدول العربية ١٩٧٢ .

١٩ - د . سيد نوفل الخليج العربي أو الحدود الشرقية للوطن العربي دار
الطبعة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٩ .

٢٠ - صالح العابد : دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧ - ١٨٢٠ ، بغداد
١٩٧٦ .

٢١ - عبد الرحمن بن محمد بن خلدون : مقدمه ابن خلدون ، الجزء الثاني
القاهرة ، لجنة البيان العربي ، ١٩٥٨ .

٢٢ - عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت ، منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - ١٩٧٧ .

٢٣ - د . عبد الفتاح حسن : مبادئ النظام الدستوري في الكويت ، دار
النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٨ .

٢٤ - فريد هاليدى : المجتمع والسياسة في الجزيرة العربية ، تعريب د .
محمد غانم الرميحي ، مطابع دار الوطن ، الطبعة الأولى ،
الكويت ١٩٧٦ .

٢٥ - قدري قلججي : أضواء على تاريخ الكويت ، دار الكاتب العربي . مطابع
الجهاد ، بيروت ١٩٦٢

٢٦ - محمود بهجت سنان : تاريخ قطر العام ، مطبعة المعارف ، الطبعة
الأولى بغداد ، ١٩٦١ .

٢٧ - د . محمد غانم الرميحي : قضايا التغيير السياسي والاجتماعي في
البحرين ، ١٩٢٠ - ١٩٧٠ منشورات مؤسسة الوحدة للنشر
والتوزيع ، الكويت ، ١٩٧٦ .

- ٢٨ - د . محمد مرسي عبد الله : دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها
الطبعة الأولى ، دار القلم ، الكويت ، ١٩٨١ .
- ٢٩ - مصطفى مراد الدباغ : قطر ماضيها وحاضرها ، منشورات دار
الطبعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦١ .
- ٣٠ - محمود صبحي : البحرين ودعوى إيران ، الاسكندرية ، ١٩٦٢ .
- ٣١ - وزارة الإعلام القطرية : مجموعة خطب الأمير ، إدارة المطبوعات
والنشر بدون تاريخ ١٩٦١ - ١٩٨٥ .
- ٣٢ - مجموعة قوانين قطر : وزارة العدل ، إدارة الشؤون القانونية . ١٩٦١ -
١٩٨٥ .
- ٣٣ - د . يحيى الجمل : النظام الدستوري في الكويت مع مقدمة في دراسة
المبادئ الدستورية العامة ، مطبوعات جامعة الكويت كلية الحقوق
والشريعة ، المطبعة العصرية بالكويت ، ١٩٧٠ - ١٩٧١ .
- ٣٤ - د . يوسف محمد عبيدان : نظام الحكم في دول الخليج . دراسة مقارنة
لكل من قطر والكويت والبحرين ، مقدمة إلى كلية الاقتصاد والعلوم
السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٢ .
- ٣٥ - د . يوسف محمد عبيدان : معالم التنظيم السياسي المعاصر في قطر :
دراسة تحليلية لأحكام النظام الأساسي الموقت المعدل للحكم ، بيروت ،
١٩٧٩ .
- ٣٦ - د . يوسف أبو الحجاج : دولة الإمارات العربية المتحدة ، دراسة
تحليلية للملامح العامة ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم معهد
البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

ثانيا : المراجع الاجنبية :

- 1 - Adamyat, Frydom - Bahrain Islands, Legal and Diplomatic (study of British Iranian Controversy Frederick Apraeger) New York 1955 .**
- 2 - C. U. A. Aitchison - A collection of Treaties Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring Countries, Fifth Edition, 1919 .**
- 3 - Dickson, H. R. P - Kuwait and her Neighbours, London George Allen and Unwin LTD, 1965 .**
- 4 - John Phillipy - Saudi Arabia, Beirut, 1959 .**
- 5 - Kelly, J. B. - Eastern Arabian Frontiers, Clarendon Press, London 1964 .**
- 6 - Kelly, J. B. - Britain and the Persian Gulf 1759 - 1880. Oxford Clarendon Press, 1968 .**
- 7 - Ramahi, Seif A. Elwady - Economics and Political Evolution in The Arabian Gulf States. New York Carlton Press, Inc., 1973 .**
- 8 - S. B. Miles - Countries and Tribes of the Persian Gulf, London Frank Cass, 1966 .**
- 9 - Zahlan, Rosemarie Said - The Creation of Qatar, Croomhelm London, 1979 .**

بسم الله الرحمن الرحيم الأسس الإنسانية للحضارة العربية

الأستاذ الدكتور/ السيد محمد بدوي

تعتبر الحضارة العربية إحدى الحضارات الكبرى التي ظهرت في تاريخ البشرية . بل إن هناك فريقاً من العلماء يؤكدون أنها أطول الحضارات العالمية عمراً وأعظمها أثراً في المدينة الحديثة . إذ سيطرت هذه الحضارة على الفكر الأوربي طوال القرون الوسطى ، وذلك حين أحيى العرب التراث الفلسفي لليونان ، ثم نشره في قالب جديد بعد أن صهره في بوتقة عبقريتهم الفذة ، وأضافوا إليه إضافات جديدة ترمز على ملكاتهم الفكرية الخلاقة .

فقد كان العرب يشغلون بالفلسفة والعلم ، ويؤسسون أعظم الحضارات في الوقت الذي كانت أوروبا يخيم عليها الظلام والجهل . ويصور هذه الحقيقة أبلغ تصوير الأستاذ ، فيليب حنّى ، في كتابه « موجز لتاريخ العرب » ، إذ يقول : « إن مفكرى العرب كانوا يدرسون أرسطو ، ويكتبون الشروح على فلسفته ، في الوقت الذي كان فيه الامبراطور « شارلمان » ورجال بلاطه لا يعرفون كيف يكتبون أسماءهم . وفي الوقت الذي كانت فيه « قرطبة » ، مركز حضارة الأنطلس ، تزهر مكتباتها السبع عشرة المليئة بالكتب والمؤلفات العلمية ، وكان علماءها وكبرائها يقضون أوقات فراغهم في حمامات فاخرة . في ذلك الوقت كان أساتذة جامعة أكسفورد يعتبرون غسل الجسم من أكبر الأخطار التي تهدد حياة الإنسان .

وليس بالمرء حاجة إلى أن يكون فيلسوفاً عميق الفكرة ، بعد المقدمات لكي يستنتج من هذه الظاهرة العجيبة ، وهي ظاهرة الانتشار السريع للحضارة العربية ، أنها لا بد أن تكون قد حوت من عناصر الحق والخير والجمال كل ما تتطلبه النظر السليمة ، على اختلاف مشاربها وأساليبها في الحياة ، وأنها لا بد محققة لكل ما تطمح إليه الأمم والشعوب من أسباب القوة والرفد .

ان فى سرعة انتشار هذه الحضارة ، فى عالم يبلغ خمس الكتلة البشرية على الأقل ، وبين شعوب وجماعات مختلفة فى أسلحتها وألوانها ونزعاتها ، وطبيعة أرضها ، وطبيعة جوها ، وأسلوب حياتها ، وإن فى قابليتها لزيادة الانتشار على الدوام كلما رفعت الحواجز المصطنعة من طريقها . إن فى ذلك كله لآية بيّنة على مبلغ ما فى طبيعة هذه الحضارة من إشباع لحاجات العقل والقلب ، وتوفير مطالب الأفراد والجماعات ، ومجاورة للفطرة الإنسانية السوية .

وقد كان العرب ، فى انتشارهم ، ينشرون دينهم ولغتهم ، بل إن ثقافتهم ونموذج حياتهم كانا بطغيان على الحضارات الأخرى التى سبقت حضارتهم كحضارة اليونان والرومان والفرس . وازدهرت الحضارة العربية فى الأندلس مدة ثمانية قرون ، لم يشهد التاريخ فترة مثلها حضارة وازدهاراً . وإذا كان العرب قد فارقوها ملكاً وحكماً فإنهم لم يفارقوها أثراً ورماً .

وتتصل جذور التراث الحضارى العربى بنظامين متباينين من نظم المعيشة : التقاليد البدوية ، وحضارة مجتمع حضرى ثابت قديم . فمن حياة البدو أخذ العرب مجموعة من الصفات ذات قيمة إنسانية عظيمة : حبه للحرية ، وشعوره بالمساواة ، والمحافظة على الكرامة . ولقد حاول الاستعمار أن يطمس هذه المعانى من نفوس أبناء العرب ، من أجل أن ينسبهم حقيقة ماضيهم . وعهد بعض المؤرخين الأجانب أن يشبهوا البدوة بالهمجية التى حطت على أوروبا ، وخربت الحضارة الرومانية إبان القرن الخامس للميلاد . وحاولوا أن يجتروا نوعاً من الرابطة أرائشابه بين بدوة العرب وهمجية ، الهون ، و . الوندال ، و . القوط . . . ولكن الحقيقة أن بدوة العرب لم تكن بالصورة التى صورها المؤرخون لمخرمون . فمن المعروف أن الهمج الذين خربوا الحضارة لم يكن لهم تقاليد ، ولم يعرفوا غير حمل السيف للذهب والذهب . أما العرب فقد كان لهم آداب من شعر ، وخطابة ، وبلاغة أصبحت مضرب الأمثال . وكانت لهم تقاليد القروسية

التي نقلتها عنهم أوروبا . وقد حمل العربُ مشعلَ الحضارة وحدهم مايتيف على ستة قرون . فهم الذين عملوا في الواقع على تراجع الهمجية التي أنتشرت في أوروبا إذ كانت غزوات أهل الشمال قد هزتها هزاً عتيقا .

والى جانب هذه الأصول البدوية للثقافة ، نمت في الجزيرة العربية مدينة «محصنة» ، قيل الإسلام بمقات السنين . وكان مقر هذه المدينة الركن الجنوبي من الجزيرة حيث ازدهرت مدة ألفي سنة ، من حوالي ١٥٠٠ ق . م . إلى عام ٥٠٠ ب . م . ومن أشهر الحضارات التي ازدهرت في ذلك الحين حضارة مملكة سبأ . ويسدل من السدود التي بنيت لحصر المياه ، وللشبكات الواسعة التي انشئت لتأمين الري على أن هؤلاء القوم كانوا على علم واسع بالهندسة .

وتوطدت دعائم المجتمع العربي على أسس إنسانية قوامها : «المساواة» ، «والعدالة» . فلم يجعل فروقا بين الأسود والأبيض ، أو الغنى والفقير ، أو السيد والعبد . وكان هذا أكبر عامل على اتحاد جميع الشعوب التي انضمت تحت لواء العرب على اختلاف أجناسها وألوانها . ونتج عن هذا الاتحاد في الفكر والعاطفة تحطيم الحواجز التي كانت تحول دون ظهور الكفاءات ، وأصبحت فرص التقدم مهياة أمام كل إنسان بعد أن كانت وقفا على طبقة محظوظة . فأصبح للحياة معنى ، وبرز الشعور بالكرامة ، وبالقيمة الإنسانية . وقد أكد هذه الحقيقة الأستاذ «هاريسون» ، في كتابه : «العرب في وطنهم The Arab at Home» ، إذ يقول : « فحيث حلت حضارة العرب تأكدت قيمة الفرد ، ونهض الناس معترين بكرامة لا تقهر» . كذلك فإن من أهم الأسس الإنسانية للحضارة العربية ظاهرتين لم يسع المحققون من علماء أوروبا إلا الاعتراف بهما والتنويه بشأنهما : فأما الظاهرة الأولى فهي ظاهرة «الأخوة» ، التي تسمو على كل الفوارق العنصرية ، وتمحو كل الحواجز الإقليميه وإن اختلفت إنارتها ورياستها العليا . فلقد أتى على العالم العربي حين من الدهر ، في مدى القرنين الرابع والخامس من الهجرة

(العاشر والحادى عشر الميلاديين) ، كان يتولى الخلافة فيه ثلاثة خلفاء فى وقت واحد : خليفة عباسى فى العراق ، وخليفة أموى فى الأندلس ، وخليفة فاطمى فى مصر . ومع ذلك كان المواطن العربى الذى يتنقل فى سفره من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، فى امتداد يقطعه الراكب . فى ذلك الوقت . فى عشرة أشهر على الأقل . كان لا يجد حيثما حلّ إلا أخوة ، ولا يشعر حيثما حلّ إلا بأنه فى قلب وطنه . أما الظاهرة الثانية فهى ظاهرة التسامح ، بإزاء الأديان الأخرى . فمع أن الرابطة التى تجمع بين هذا العديد من الشعوب كانت دينية ، ثم لغوية ، إلا أن هذا المجتمع كان يؤمن لأتباع الديانات الأخرى مكانا معترفا به داخل إطار الوحدة الكبرى . وكان هذا التسامح العربى على نقيض ما انطوى عليه الحكم البيزنطى من تعصب طائفى ، وهو أحد العوامل الرئيسية التى مهدت السبيل أمام التوسع العربى وساعدت على الإسراع فيه . ولقد حاول المؤرخ الألمانى ، كريمر Kermer ، أن يحلل طبيعة هذا التسامح ويعرف على أسبابه . فنفى نفيا قاطعا أن تكون له بواعث سياسية ، وأن يكون هدفه ، فى نظر أولى الأمر ، هو تسكين قلوب الرعايا غير المسلمين حتى لا يثوروا على الحكم . قال كريمر : : كلا . فإن هذه الفصولة - فصولة التسامح - لم تكن خاصة بالخلفاء والروساء وحدهم بل كانت سارية فى الشعب عامة ، ثم إنها لم تقتصر على عصر المسلمين الأوائل فحسب ، بل شملت سائر العصور . وينتهى المؤرخ من تحليله إلى هذه النتيجة : وهى أن من الأسس الوطنية التى أرسى أركانها الحضارة العربية ، الفصل فصلا تاما بين العقيدة التى يجب احترام حريتها عند الآخرين ، وبين المصالح الدنيوية التى تعتمد على الكفاية والأمانة ، والتى لا تميز بين دين ودين ، فى سبيل التعارن لتحقيق المثل العليا الإنسانية .

وقد قيل إن العرب قد اعتزوا بعصبيتهم . وإذا . كان صحيحا إلا أنهم مع ذلك لم يعرفوا التعصب . . وشتان بين العصبية والتعصب . فلم يعرف العرب

التعصب كما عرفه غيرهم من الأمم ، وإنما امتازوا برحابة إنسانية رائعة ،
وضمير هو ضمير الإنسان .

والإنسان إنما يتميز عن الحيوان بضميره قبل أن يتميز بعقله . فالعقل
يشارك بعض الحيوان الإنسان فيه ، ولو بأقدار قليلة أو متفاوتة . أما الضمير فينفرد
به الإنسان .

ولم تقتصر الحضارة الإسلامية على نشر العدل ، و المساواة ، و
التسامح ، بل تعدت ذلك إلى الإقرار بفوائد الاختلاف داخل نطاق الإطار العام .
فكانت ترحب باختلاف الآراء والأفكار ، وتشجع الذكاء وتستفيد منه أيا كان
مصدره . وبذلك استطاع أهل الذمة (وهم أصحاب العقائد الأخرى ، أو الجسبات
الأخرى الذين انضموا في المجتمع العربي) الإسهام في إغناء الثقافة المشتركة ،
إذا كان تاريخهم يؤهلهم للقيام بدور حملة تراث البحر المتوسط .

عرفنا نحن العرب ، أننا جزء من الإنسانية جمعاء ، وأنها متوسط العالم ،
وأنا نحظى الناس كما نأخذ عن الناس . وفي الحالات التي شد فيها عنصر من
العناصر التي تقطن المشرق العربي عن هذا الطابع ، أصبح هذا العنصر متبونا ،
ونعنى به طائفة اليهود . فطائفة اليهود شئت عما تقتضى به طبيعة سكان هذا
الإقليم من أنهم جزء من العالم ، يعيشون لأنفسهم وبغيرهم ، ويعيشون بأنفسهم
وبغيرهم ، وتقوم صلات التبادل بينهم وبين غيرهم على أساس من العدل
والإنصاف والمحبة . فأما اليهود فقد أنطروا على أنفسهم ، بل تنكروا في كثير من
الأحيان لرسولهم لأنفسهم . وترتب على هذا أن الديانة اليهودية لم تنتشر في الأرض
، وإنما الذي انتشر أو الذين انتشروا هم اليهود . وشتان بين أن ينتشر الناس وبين
أن تنتشر أفكارهم وعقائدهم .

انتشار الحضارة العربية :

وانتشرت الحضارة العربية لأنها كانت . كما قدمنا . تدعو إلى الإنسانية :
انتشرت إلى قلب آسيا إلى أرض السغول ، ووصل الإسلام إلى أندونيسيا عن طريق

البحر أى عن طريق التجارة . كما أنتشرت الحضارة العربية فى أرض السودان ، ومن شمال أفريقيا أنتقلت إلى أرض السنغال . انتشرت هذه الحضارة لأن الذين حملوا لواء الثقافة العربية والإسلامية كانوا يمثلون ، الإنسانية ، ويمثلون الضمير الإنسانى .

لقد كنا نحن العرب نعتز بحضارتنا ، وكنا فى الوقت ذاته نعرف تغير حضارتنا من الحضارات قيمتها . وهذه صفة انفردنا بها بين الأمم والشعوب . أما الحضارات الأخرى فكانت تتطور على نفسها ، أو كانت تزدى حضارات الآخرين فى كثير من الأحيان : فالصين كانت لها حضارة ، ولكنها بقيت للصين على مر العصور . وكانت الهند حضارة ولكنها اختلطت حتى أصبحت الهند مستودعا لسلسلة من الحضارات المتعاقبة والمتعاصرة فى آن واحد ، كاد معها طابع الحضارة الهندية أن يزول . فالهند اليوم لا يتفاهمون بلغة واحدة ، وإذا أراد هندی جنوبي أن يتفاهم مع هندی شمالي فكثيرا ما يستخدمان لغة غريبة عن الاثنين كاللغة الانجليزية . وكانت للفرس حضارة ولكنها بقيت ضيقة النطاق تكاد تقتصر من حيث اللغة على أرض الفرس نفسها . وكانت لليونان حضارة ، ولكنها ماتت على مر الزمن ، ولم تبق ولم تستمر . وكانت للروم حضارة ، ولكنها تمثلت على الخصوص فى نواحي الإدارة أو نواحي التشريع ، أو فى بعض النواحي المادية كمد الطرق . فأما العرب فحضارتهم عريقة ، وحضارتهم فى الوقت ذاته مستمرة ، وباقية على الزمن . ولغتنا العربية لغة بقيت حوالى خمسة عشر أو ستة عشر قرنا لغة حية . فنحن اليوم لا نزال نقرأ الشعر الجاهلى وننطقه ، فى حين أن الانجليزى أو الفرنسى إذا قرأ شعرا مضت عليه بضعة قرون فإنه لا يكاد يفهم منه حرفا واحدا . وإن فهم شيئا فإنه لا يتذوقه . أما لغتنا فقد احتفظت بحيوية عجيبة : هى قديمة وهى مستمرة ومتطورة مع الزمن . وسر احتفاظها بحيويتها أنها لغة القرآن الكريم .

أصالة الحضارة العربية :

وقد ادعى المفرضون من الكتاب الأجانب أن الحضارة العربية ما هي إلا حضارة ناقلة ، لم تفعل أكثر من نقل علوم اليونان . وهذا الادعاء أبعد ما يكون عن الحقيقة . فالإضافات التي أضافها العرب إلى علوم اليونان ، ومعالم الحضارة التي ابتكروها مع حفظهم لزوج البحث العلمي في عصر عرفته أوروبا بعصر الظلام ، كل ذلك إنما يضفي على الحضارة العربية صفة الأصالة والخلق والإبداع .

ولم نصل هذه الحضارة إلى ما وصلت إليه من ازدهار إلا بفضل ، تقديس العلم وتشريف العلماء ، ، حتى لقد ذهب الناس في ذلك الزمان إلى القول بأن الكتابة أشرف المراتب بعد الخلافة . وترتب على ذلك أن اشاع . الحركة الفكرية عم العالم المتحضر في ذلك الوقت . وكان الخلفاء يدفعون في الكتاب وزنه ذهبا . وبينما حاول ، شارلمان ، أن يوقظ أذواق الناس ويوجهها نحو العلم والأدب بدون جدوى ، كان خلفاء بني العباس يجمعون حولهم أكثر الرجال ثقافة وعلماً من جميع الأقاليم ، وعملوا على ترجمة أعظم المؤلفات ، وجمعوا مكتبات غنية ذاخرة . ويقال إن ، الحكم ، الأموي في قرطبة كان يمتلك مكتبة تحوى أكثر من أربع مائة ألف مجلد ، على حين أن ملك فرنسا ، شارل الخامس ، الذي كان يلقب ، بالحكيم Le Sage ، لم يستطع بعد ذلك بأربعة قرون أن يجمع أكثر من ألف مجلد .

ولم يقتصر العرب على حفظ كنوز المعارف السابقة ، بل أضافوا إليها وفتحوا طرقاً جديدة نحو دراسة الطبيعة . وكما يقول ، جورج سارتون ، في كتابه ، مقدمة تاريخ العلوم ، ، كانت اللغة العربية من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادى عشر لغة العلم والحضارة للبشرية ، وكان يقين على من يبنى الإمام بثقافة عصره ويأحدث صورها أن يتعلم العربية ، وذلك تماماً مثلما يحدث في عصرنا من حيث ضرورة الإمام بإحدى اللغات الغربية إذا أراد المرء أن يتتبع التطور الفكرى في العالم .

فصل العرب فى ميادين الفكر والعلوم والفنون :

ونريد الآن أن نجول جولة سريعة لنظهر أثر الحضارة العربية فى التراث الفكرى الإنسانى . ونبدأ بإظهار فضلهم على الحركة الأدبية فى أوربا :

يقول المير ، جب ، فى كتابه ، تراث الإسلام - The Legacy of Islam ، إنه فى نهاية القرن الحادى عشر نشأ فى جنوبى فرنسا نوع جديد من الشعر يتهج ملهجا جديداً ، وتميزه صفات نفسية واجتماعية جديدة ، وتصوير خيالى فنى جديد ... وكان هذا الشعر الجديد كثير الشبه بنوع من الشعر المعاصر فى أسبانيا العربية . وهذه القرائن كلها تؤيد ما قد نفترضه من أن الشعر البروفانسى الأول قد تأثر بالتعاضج العربية .

والواقع أن العرب أقاموا فى جنوبى فرنسا ، وبخاصة فى مقاطعة بروفانس ابتداء من منتصف القرن الثامن . فإذا علمنا أن العربى كان يقرض الشعر بسليقته ، وأنه كان دائم التفتى بمحبيته ، أفلا نستطيع أن نستنتج من ذلك أن هذه الجماعة من العرب قد لعبت دوراً فى نشوء شعر ، التروبادور ، الذى نشأ فى بروفانس بالذات ؟

وقد ثبت من البحوث العلمية كذلك أن ، داننى ، شاعر إيطاليا العظيم قد استوحى فكرة ، كوميدية الإلهية ، التى مثلت ثقافة أوربا المسيحية برمتها فى القرون الوسطى ، استوحاها من مصادر عربية إسلامية ، وبالذات من قصة الإسراء والمعراج ، ومن تعليقات ، وتفسيرات ، المفكرين العرب ، ومن مذاهب الصوفية وعلى الأخص كتابات ، محبى الدين بن عربى . وقد أثبت هذا الرأى عالم أسبانى هو ، ميجل آسين بالاتيوس ، Miguel Asimel Palacios فى كتاب ترجم إلى الانجليزية بعنوان : الإسلام والكوميديا الإلهية Islam & The Divine Comedy ، (١٩٢٦) . وقد كرس آسين بالاتيوس أكثر من خمسة وعشرين عاماً من حياته فى بحث وتمحيص الفكر الإسلامى الفلسفى والدينى فى

القرون الوسطى - سواء في الشرق أم في أسبانيا - وتأثيره في ثقافة أوروبا المسيحية .
ومكنته خبرته بفقہ اللغة العربية ، بالإضافة إلى تمكنه من فلسفة الكلام ، أن
يكشف كشفاً هامة فيما يتعلق باللاهوت ، وكيف أثر ابن رشد في القديس ، توما
الأكويني ، وابن عريى فى ، ريموند لائى ، وإخوان الصفا فى ، أرسلمو دى
تورميدا ، ألخ ... ولكن أهم اكتشاف قامت عليه شهرته هو موضوع الكتاب الذى
ذكرناه ، ونعنى به اكتشافه أن النماذج العربية ، هى التى أوحى لدانتى بكوميديته
الإلهية .

ومن المؤلفات التى أثرت كذلك فى الأدب الأوروبى ، مقامات ، الحريري ،
، ويرى بعض النقاد شبهاً كبيراً بين شخصية ، فيجارو ، التى صورها ، بومارشيه ،
فى مسرحيته المعروفة ، حلاق الشيبليه ، وبين شخصية ، أبى زيد ، بطل المقامات
، فكلا الشخصيتين تتألف عناصرها من الدهاء والخبث وسعة الحيلة وحسن
التصرف ، كل ذلك ممزوجاً بخفة الدم والمرح .

وقصة ، دون كيشوت ، للمؤلف الأسباني ، سرفانتس ، ترجع إلى أصول
عربية ، فقد كان المؤلف سجيناً فى الجزائر ، وكثيراً ما صرّح بأن مسودات كتابه
قد كتبت أولاً بالعربية .

وأخيراً لا ننسى أن قصة ، روبنصن كروزو ، المشهورة التى كتبها ، ديفو
Defoe ، مأخوذة من القصة الفلسفية لابن طقيل ، حى بن يقظان ، . وقد
ترجمها إلى اللاتينية ، بوكوك ، فى عام ١٦٧١ تحت عنوان ، الفيلسوف المعلم
لنفسه ، Philosophus autodidactus .

أما فى ميدان الدراسات الإنسانية فيكفى أن تشير إلى جهود المفكر
والفيلسوف العربى الكبير العلامة عبد الرحمن بن خلدون الذى شهد له كبار علماء
الغرب فى العصر الحديث ، بأنه كان الرائد الأول لعلم الاجتماع وفلسفة التاريخ .
إذ سبق فى ذلك ، أوجست كونت ، بخمسمائة سنة تقريباً حين كتب ، مقدمته ،

الخاتمة في القرن الرابع عشر الميلادي (أى الثامن الهجري) .

فقد أراد أن يكتب تاريخ الدولة الإسلامية ككتابة تعتمد على الوثائق وعلى الدراسة الموضوعية . غير أنه رأى بثاقب نظره أن كتابه التاريخ لا تستقيم إلا إذا سبق ذلك دراسة للبيئة والحضارة ، والظروف الاجتماعية التي انبثقت منها حوادث التاريخ . وأصبحت هذه المقدمة فيما بعد أشهر ماكتب ابن خلدون لأنها وضعت أسس ، علم العمران ، أو علم الاجتماع كما نسميه اليوم . وتشتمل هذه المقدمة على دراسة الظواهر التي تتصل بالبيئة سواء أكانت بدوية أم حضرية ، وأثر حياة البادية أو الحضارة في طباع الناس وفي عقلياتهم ، ثم دراسة نظام الأسرة والقبيلة ، ودراسة العوامل التي تسمح لبعض الشعوب بالتفوق على غيرها ، ودراسة الاختلافات في الطبقات وفي الحرف ، وأخيراً دراسة العلوم والفنون وجميع التغيرات التي تنتج عن طبيعة الظروف المحيطة بالمجتمع ، والتي تميز المجتمع بطابع خاص .

ومن العجيب أن علماء الغرب لم يفتنوا إلى القِيعة العلمية لهذه المقدمة إلا منذ وقت قريب . فمكفوا على دراستها دراسة دقيقة ، وكتبوا عليها التعليقات والشروح التي تنيد كلها بأن ابن خلدون كان رائداً لكثير من علماء الغرب في ميادين الاجتماع والسياسة والاقتصاد .

فيقول « جاستون بونول » - وإليه يرجع الفضل في توجيه أنظار الغرب إلى أهمية آراء ابن خلدون - يقول : « إن ابن خلدون قد أبدى من الآراء ما جعله مبشراً بالأفكار الاجتماعية الحديثة ، وعلى الأخص تلك التي نشرها « منتسكيو » في أوربا . وإن حديث المفكر العربي العظيم عن صلة الأخلاق بالحضارة تجعله رائداً بالنسبة لآراء « روسو » في هذا الصدد .

ويقول العالم الأمريكي « ناتانيل شميت » الأستاذ بجامعة كورنيل بأمريكا : « إن حديث ابن خلدون عن خواص الإقليم والأرض والغذاء تجعله مفكراً سابقاً »

على مفكرى العصور الحديثة من أمثال سبنسر ، ويشهد العالم الإيطالى ، استفانو كلوزيو ، أن ، المؤرخ العربى العظيم استطاع فى العصور الوسطى أن يكشف مبادئ العدالة والاقتصاد السياسى قبل ، كونسيدران ، ، و ، ماركس ، و «باكونين» .

وأخيراً يتوج المؤرخ البريطانى الشهير ، أرنولد توينبى ، هذه الآراء بتأكيدہ أن ، مقدمة ابن خلدون ، أعظم عمل من نوعه أبدعه أى عقل بشرى فى أى زمان ومكان .

....

ننتقل الآن إلى ذكر فضل العرب فى ميدان العلوم التجريبية والطبيعية . ولا نستطيع أن نذكر قائمة علماء العرب جميعا ، ولذلك سنقتصر على أهمهم :
أهم العرب بالطب وتفرقوا فيه . وتفرق العرب كذلك فى استنباط كثير من أنواع العلاج ، وكانوا أول من أنشأ الصيدليات ، وكتبوا أول كتاب فى «الفارماكوپيا» .

وأول مستشفى فى العالم الإسلامى أنشأه هارون الرشيد فى مطلع القرن التاسع الميلادى (أى الثالث الهجرى) .

وأهم الشخصيات التى ظهرت فى محيط الطب فى العالم العربى ، «الرازى» ، «وابن سينا» . وقد اعترف علماء الغرب بقضلهما ، وخلدت كلية الطب بجامعة باريس ذكراهما بلوحتين كبيرتين مازالتا حتى اليوم تحتلان مكانا بارزا فى الصالة الكبرى بالكلاية . ومازلنا نحفظ من مؤلفات الرازى بمخطوطات منها دراسة عن «العصبة» ، وأخرى عن «الجدرى» . على أن أهم مؤلفات الرازى هو كتابه الجامع الذى سماه «الحاوى» ، وقد ترجم إلى اللاتينية فى عام ١٢٧٩ ، وترجمه طبيب يهودى من جزيرة صقلية يدعى «فرج بن سليم» . وهو معروف فى العالم الغربى تحت اسم «Continens» . ربعد أن اخترعت

طباعة ظهرت منه عدة طبعات أولها في عام ١٤٨٦ . وظهرت الطبعة الخامسة في فينسيا (البندقية) عام ١٥٤٢ . وكما يدل عليه اسمه ، كان هذا الكتاب يهدف لأن يكون موسوعة (انسيكلوبديا) تضم جميع ما عُرِف في ذلك العصر عن مادة الطب .

ويأتى بعد الرازى - بالنسبة للطب - الفيلسوف ابن سينا ، وقد اعتبرت مؤلفاته الأساس الذى لا بد من استيعابه لكل دارس في هذا الميدان . وتعدد نشر هذه المؤلفات الطبية باللاتينية والعبرية طوال العصور الوسطى . وفى العصر الحديث ترجمت أجزاء منها إلى الإنجليزية . وتحتوى تصنيفاته فى « الفارماكوپيا » على ما يقرب من مئمة وستين عقاراً . ويقول الدكتور « وليم أوسلر » إن كتاب « الشفاء » لابن سينا قد اعتبر « انجيل الطب » واحتل هذا المركز مدة تفوق بكثير المدة التى احتلها أى كتاب آخر .

ويعد « الحسن ابن الهيثم » أعظم عالم فى الطبيعيات والبصريات . وقد عاش فى القاهرة بين سنتى ٩٦٥ - ١٠٣٩ ميلادية . ويمثل وحده طفرة كبرى فى تطور البصريات وفسيولوجيا النظر . وقد ترجم مؤلفه فى « البصريات » إلى اللاتينية والإيطالية ، وأصبح المرجع الأساسى لعلماء الطبيعة . كما كانت أبحاثه التى كرمها لاختراع العدسة المكبرة هى الأساس الذى اعتمد عليه كل من « روجر بيكون » ، وفيتالرو vitello ، البولونى ، بعد ذلك بثلاثة قرون فى أبحاثهما الخاصة بالميكروسكوب والتلسكوب . ويمكن القول - دون مبالغة - إن أبحاث ابن الهيثم فى علم البصريات كانت النواة الأولى التى انبثقت منها جميع النظريات الأروبية الحديثة ، وأنه حتى ظهور أبحاث « كيلر » ، و « وليونارد » ظلت البحوث فى علم الضوء والبصريات تعتمد كلها على كتابات ابن الهيثم .

ويعتبر « جابر بن حيان » أشهر اسم عربى فى مجال علم « الكيمياء » . وقد عاش فى الثلث الأخير من القرن الثامن (حوالى سنة ٧٧٦) . وبدأ بحرقه كمن

سبقه من علماء اليونان والمصريين من الفكرة التي كانت تقول بأن جميع المعادن الشائعة كالتصدير ، والرصاص ، والحديد ، والنحاس يمكن تحويلها إلى ذهب أو فضة بعد معالجتها بطريقة كيميائية . ولكن فضله الأساسي هو في إظهار أهمية الوسائل التجريبية وتوضيح طرق استخدامها . ولذا فقد تقدمت الكيمياء على يديه نظريا وعمليا . وظلت آراؤه مقبولة في عمومها حتى ظهور الكيمياء الحديثة أي حتى القرن الثامن عشر .

أثر العرب في ميادين الفن والعمارة :

يعتقد الكثيرون أن العرب الذين برزوا في الميادين العلمية التي ذكرناها قد قصروا كل التقصير في ميدان الإبداع الفني . ويذكرون في ذلك قول ابن خلدون نفسه في مقدمته : « ليس للعرب فن إلا فن الشعر » ، والحق أن ابن خلدون خلط في هذا الحكم بين العرب الذين عرفوا جميع الفنون الحضارية وبين الأعراب الذين عاشوا في البادية .

والواقع أن العرب قد أمدوا الأوربيين بمعارف فنية وأصول معمارية تأثرت بها حضارة الغرب إلى حد كبير^(١) ومن المعلوم أن فن التصوير والنحت لم يجد رواجاً بين العرب الذين كرهوا انتمائيل والصور لملافتها بالوثنية ، ولكن وطأة هذه الكراهية خفت كثيراً في مراحل تطورها الحضارية . وقد خلّد العرب مجدهم في تاريخ الفنون بما أبدعوه من أشكال زخرفية تبرز في الجوامع والأضرحة والقصور العربية ، ولا ينكر أحد روعة ما عكسته هذه الزخارف من جمال شكلي ، ومدى ما أحدثته مبتكراتها الطريفة من أثر في الذوق الأروبي .

ولعل للصور العربية التي تزين سقف ، قاعة الملوك ، في قصر الحمراء (وهي صور تمثل فرسان العرب ، وقد امتطى بعضهم صهوات جيادهم العربية ،

(١) اقتبسنا المعلومات الخاصة بأثر العمارة العربية في العمارة الغربية من البحث القيم الذي نشره الزميل الدكتور السيد عبد العزيز سالم في « دائرة معارف الشعب » ، رقم ٦٤ عام ١٩٥٩ . القاهرة .

وستد بعضهم الآخر رمّاحه إلى صدر اعدائه ، وتمثل كذلك حسان العرب ، وحيوانات وأشجار ونباتات مختلفة) ، لعلها كانت نماذج تعلم منها رسام أوروبا طريقة ترتيب أسقف الكنائس والقصور بالصور الملونة واتخذوا منها نقطة انطلاق للتجديد الفني الذي حققه بعد ذلك .

وهناك تحفة فنية في متحف التوفر تدل على مبلغ ما وصل إليه العرب من مستوى رفيع في فن الحفر . هذه التحفة التي عثر عليها الأسبان في قرطبة ، والتي يدل تاريخها على أنها صنعت في عام ٩٦٨ ميلادية عبارة عن عتبة خشبية اسطوانية حُفرت على جدرانها صور نساء يعزف بعضهن على العود ، وتغنى الأخريات ، وصور غزلان وفهود ونمور .

على أن أهم ما يستحق التنويه في هذا الصدد هو الأثر الكبير الذي أحدثته فنون الموسيقى والغناء والرقص في فنون أوروبا المعاصرة لها . إذ يحسب أكثر الناس أن هذه الفنون الثلاثة مختلفة عند العرب ، أو أنها عندهم من لون مختلف كل الاختلاف عن لون نظيراتها في أوروبا ، ولا صلة بين هذه وثلاث . ومن ثم لا يكون للأولى أي تأثير في الثانية . ولكن الذي يدرس تاريخ الموسيقى الأوروبية يدرك مدى خطأ هذا القول . ونحن نكتفي هنا للتدليل على صحة ما نذهب إليه بنقل ما ورد في هذا المجال عن مفكر أسباني إذ يقول : « لم يكف العرب عن تجديد آلاتهم الموسيقية التي نقلوا أصلها البدائي عن بلاد فارس وغيرها . ثم ابتدعوا ، الربابة ، من آلة القوس ذي الوتر الواحد ... ومن الربابة العربية عرفت أوروبا ، الكمنجة ، وقد أدخلوا كذلك تحسينات جوهرية على العود والغانون ... ولولا ، الكلافسان ، التي تولدت من ، قانون النخت ، ، ولولا ، الكمنجة ، التي تولدت من ، الربابة ، لظلت عبقرية ، باخ ، ، وموزار ، خرساء .

ويقول ، فيتسي ، بصراحة في كتابه ، التاريخ العام للموسيقى ، : « إن الموسيقى الأوروبية بنيت في أواخر القرنين الوسطى من أصل عربي ، وقد واصل

الشعراء في الأندلس تطوير الشعر لجعله أكثر ملاءمة للقاء فنظموا الموشحات ذات القوافي المتبدلة فازداد فن الغناء وفن الموسيقى ارتقاء . ويقول « جون روى » في كتابه « منابت الشعر الغنائي » : « كانت الأغاني العربية الأندلسية تنتشر في سرعة تفوق سرعة انتشار الكتب . وقد ارتقى فن الرقص في أوروبا بتوجيه الأندلس وذلك منذ أخذت الأندلسيات يرقصن في قانس لأول مرة على أنغام الصاجات ومختلف الآلات الموسيقية .

خاتمة :

ويعد فهذه أطراف من أمجاد العرب ، ولو استطرفنا في حصرها والإلمام بجوانبها المتعددة ، في شتى ميادين العلوم والفنون ، لاحتجنا في ذلك إلى عدة مجلدات .

فما هي الدروس المستفادة من عرضنا لهذه الأسس الإنسانية للحضارة العربية ؟ ما هي الدروس المستفادة بالنسبة لحاضرنا الذي لا يعكس - بكل أسف - الصورة المشرفة لماضيها ؟

لقد عمّت حضارتنا العالم في العصور الوسطى ، وكانت ملء السمع والبصر، ونحن اليوم لا في الحير ولا في النفي . وتبدلت الصورة المشرفة إلى صورة مظلمة ، وحلّ محلّ الازدهار الذبول والإنكسار .

ما السبب في كل هذا ؟ السبب هو أننا أعملنا هذه الأسس الإنسانية التي تكلمت عنها ، وباليقينا أعملناها فقط ، بل إننا أحللتها محلها مبادئ خاطئة مفسدة : فحلّ محلّ التسامح والسماحة التزمّت والتعصب ، وحلّ محلّ العدل ، الظلم والجور ، وحلّ محلّ الانفتاح على العالم والاستنارة (وأقصد بالانفتاح الانفتاح الثقافي لا الانفتاح الاقتصادي) حلّ محله الانغلاق وضيق الأفق . وحلّ محلّ الإخاء والوحدة ، التناوب والفرقة .

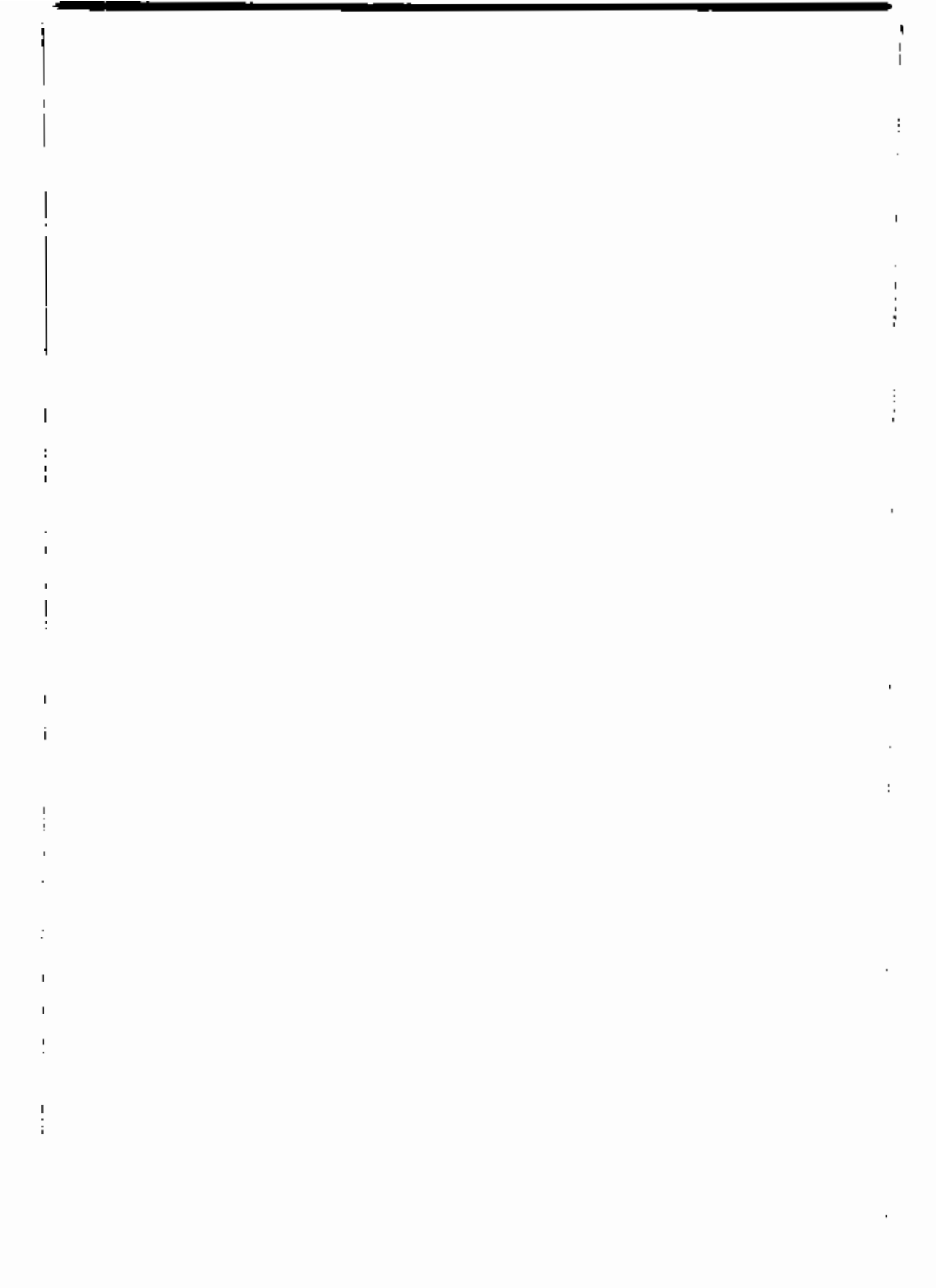
وأصبحنا سمع اليوم عبارات غريبة مثل : إدانة ونبذ العلم «الستوردي

متناسين قول نبينا الكريم (صلوات الله عليه) : « اطلبوا العلم ولو فى الصين » :
ونسمع عن الدعوة إلى « الأصولية » التى اقتصر أصحابها فى فهمها على الفقه
ونطبق الشريعة وعلى بعض المظاهر الشكلية المتصلة بالعباس والهندام . ونحن
نقول لأصحاب هذه الدعوة : ولماذا لا تشمل الأصولية العودة إلى الأصول أى إلى
الجذور التى أنبتت حضارتنا فأنت أكلها بعد حين بإذن ربها ؟ وأعلن الأصوليون
الحرب على الفنون والموسيقى مدعين أنها تثير الغرائز وتصرف الناس عن ذكر
الله ، مع أن المسلمين فى أوج حضارتهم وأيمانهم قد ضربوا بسهم وافر فى شتى
مجالات الفنون والموسيقى . وأهمل العلم ، وحل محلّه خلبط من الدروشة
والشعوذة ، مع أن حضارتنا الحقيقية ، ما قامت إلا على تقديس العلم وتشريف
العلماء .

نحن لا نكر أن التطور الذى تحتمه طبيعة الحياة الحديثة ، فى عصر العلم
والاختراعات ، يجب ألا يسيدا تقاليدنا القريمة . غير أن المجتمع الذى يتعلق
بأهداب التقاليد دون أن يكون له من المرونة ما يجعله يساير روح العصر ،
ويتعشى مع الأوضاع الجديدة للحياة ، مجتمع متضى عليه بالتأخر والتخلف .
إن الحضارة التى نريد أن نشيدها على أنقاض تخلفنا الحالى لا بد أن تقوم
ولا بد أن تستند إلى أسس إنسانية عميقة ، يتصل من خلالها الشعب العربى اتصالا
صحيحا بالإنسانية كلها ، وينفعل انفعالا صادقا بالآمها وآمالها ، ومشكلاتها
وأهدافها ، ويترجم هذا الانفعال إلى عمل إيجابى ومواقف عملية .

إن الفهم الصحيح الرأى للوجود العربى لا بد أن يستمد من عناصر
حضارتنا الإنسانية التى تقوم على أساس احترام الإنسان ، واحترام حقّه فى الحياة
الحرّة الكريمة . ولا بد أن يستهدف هذا الوجود إرساء جميع العلاقات الإنسانية
على أسس الحق والعدل ، والبعد عن التعصب والإنزالية ، والاعتراف بمبدأ الأخذ
والعطاء القائم على الإفادة من تجارب الإنسانية .

إن العرب في ماضيهم قد عملوا على نشر رسالة الحضارة والإخاء ،
وتطوير العلوم والمعارف خدمة للإنسانية . فهل لنا أن تأمل في أن يتخذ علماء
اليوم وقادته من هذا المثل الأعلى نبراساً لهم يهتدون به لتحقيق ما تصبر إليه
الإنسانية من خير وسلام ؟



علم النفس والتنمية

الدكتور عبد الرحمن محمد العيوي

أستاذ علم النفس بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية

في هذا البحث الموضوع محاولة لإبراز الدور الذي يمكن أن يقوم به علم النفس الحديث في معركة التنمية الشاملة ، ونعني بها التنمية الاقتصادية والاجتماعية والبشرية . تلك التنمية التي لا تهتم بمنطقة بون أخرى ، وإنما تهتم بالقري ، كما تهتم بالمدينة . ومن الجدير بالتأكيد أن مسئولية التنمية الشاملة لاتقع علي عاتق الدولة وحدها ، وإنما هي عملية مجتمعية تتضافر وتتعاون فيها جميع طبقات المجتمع وأفراده مع الدولة . وسوف يتضح للقارئ الكريم أن غلبة التنمية تعتمد علي مقومات سيكولوجية ، من بينها تعديل إتجاهات الناس نحو التنمية : فلسفة ومنهجاً وسلوكاً بحيث تصبح هذه الإتجاهات مؤيدة ومساندة للتنمية . تلك التنمية التي من أبرز خصائصها أنها عملية مستمرة متصلة، ذلك لأن المجتمعات الأخرى لاتقف ساكنة وإنما تلاحق الزمن في سعيها نحو التقدم والتنمية والإزدهار . كذلك لابد لمشروعات التنمية من نسق أخلاقي قويم يساندها ويؤازرها ويحمي عائداتها ومردوداتها ويحميها من برائث الفساد والتسبب والانحراف والرشوة والاختلاس والإهمال واللامبالاة . وتتضح أهمية عملية علم النفس من حيث أن الإنسان هو صانع التنمية وهو أيضاً غايتها ومهدفها الاسمي ، وعلم النفس هو العلم الذي يهتم بصنع الإنسان المتكيف مع نفسه ومع المجتمع الذي يعيش في كنفه ، والقادر علي الإسهام الإيجابي والفاعل في معركة الإنتاج والتنمية والخلق والإبداع ، والمهيأ للبذل والعطاء والمتحرر من الأمراض والأزمات والصراعات والتوترات تلك التي تمتص طاقته وتبدد جهده .

ويتضح دور علم النفس من حيث إقناع أبناء المجتمع بإحتضان المشاريع التنموية والتحمس لها والدفاع عنها والإستفادة مما تقدمه هذه المشاريع من خدمات . فقلد كنا نرى في الماضي أن النولة تنشئ المصحات والمستشفيات والوحدات الريفية فكان يجرها ويقاطعها الناس . ويتدخل علم النفس من خلال وضع معالم الإدارة التنموية ، تلك التي تتسم بالديمقراطية والشورى والتي يسودها جو من العلاقات الإنسانية والتي تشجع الأفراد علي بذل أقصى مايمكن أن يبذلوه من الجهد والعرق وهم راضون .

ونظراً لأهمية الدور الذي يمكن أن يؤديه علم النفس الحديث في مجال التنمية ، تنمية الإنسان وتنمية المجتمع والتنمية الزراعية والصناعية والتجارية والاقتصادية والتربوية ، فإن الباحث يقترح إدخال مادة علم النفس التنموي ضمن البرامج والمقررات الدراسية في أقسام علم النفس ، كذلك يقترح أن يتم إنشاء مركز لبحوث التنمية يلحق بالجامعة ويعهد إليه دراسة مشاكل التنمية وأساليب تطوير الإدارة والإنتاج والتربية والعلاج .

دور علم النفس في الحياة المعاصرة :

في هذا البحث - المتواضع - أتقدم بإقتراح للمسؤولين عن الدراسات النفسية في مصر والعالم العربي لإدخال مادة جديدة ضمن المقررات والبرامج الدراسية لطلاب علم النفس ، تتناول مايمكن أن نسميه علم نفس التنمية Psychology of Development مواكبة لتطور المجتمع . وليس ذلك بغريب عن ذلك العلم الناشئ والوثاب الذي أخذ في التطور السريع منذ إنسلاخه عن أمه الفلسفة ، ورغم حداثة تاريخه ، إلا أنه سريع الخطي في مواكبة التطورات العلمية والتكنولوجية والإقتصادية والاجتماعية والسياسية ، التي تطرأ حوله في المجتمعات المحلية والعالمية . بل إنه كان وما يزال هو ذاته

أحد أدوات المجتمع في التقدم والرفق والتحصير والتدين Moderlization .
كما أأقدم بأأقأراح بأأنشاء مركز لأبحوث الأأأمة كأأدة مسأألة أأأعة
للأأمة أأوم بأأاسة أوانب الأأأمة الأأأة .

أأأاع آأاق علم النفس الأأأ :

أأد أأأأ الأأأمة السأكأأأأة لأأأل كأفة أوانب الأأاة العأأرة .
ألم أعد كأأرة على أأأأم الرأاة للأأأ الشأدة من أأأاء الأأأع كألمرضأ
والأأأأأأ والأأأأأأ والأأأأ العأأ^(١) Abnormal groups .

وأأس أأاك أأل من مواأبة علم النفس وأأأأه بالمأأنة من إأسأأه
الإأأأأ والأأأل فأ الأأأأ العأأأأأ اللأأ أأأأ رأأأأ فأ أأل أأأأ ،
أأأأأ وأأأأ وأأأأ علم النفس الأأأ أو العأأأ Military
Psychology إأأ الأأأأ ، وأأأأ الأأأ والأأأأ النفسأة لأأأل :
علم النفس الأأأأ ، والأأأأ ، والأأأأ ، والأأأأأأ ، وعلم نفس
الأأأ ، والإأأأ ، والإأأأأ ، والأأأأ ، والأأأأ ، والأأأأ أو
الأأأ ، علم النفس الأأأ ، والإأأأأأ ، وعلم نفس الأأأ والأأأ ،
وأأأأأأ ، وعلم النفس الأأأأ ، والإأأأأأ ، وعلم النفس العأأأ والأأأأ ،
وأأأ إأأ أأأأ علم النفس وأأأأه وأأأأ الأأأ فأه ، والأأأأ
وأأأأ والأأأأ السأكأأأأ وأأأأأه .

علم النفس الأأأأ وعلم نفس الإأأأ :

وأأأأ إأأ أأل علم نفس الأأأ ، أأل الأأأ الأأأ أأأأ إأأه
بأأأأأ أأأأ الأأأ وأأ أأأأأ من أأأأ الأأأ Pollution والإأأأأ

والضوضاء وبناء ناطحات السحاب والتكدس السكاني ومافيه من ضوضاء
وتلوث الهواء والماء والتلوث النووي والتلوث بالضوضاء

(التلوث مشكلة العصر للدكتور أحمد مدحت إسلام - عالم المعرفة -
١٩٩٠).

وفي ضوء المتغيرات الاجتماعية التي تطرأ علي المجتمع العربي، يمكن
إضافة علم نفس الإدمان Psychology of Addiction نظراً لتفشي
ظاهرة الإدمان وسقوط مئات الضحايا في مستنقع الإدمان وفي ظلماته .

وعلم النفس ، شأنه في ذلك شأن شتي العلوم والمعارف الأخرى ، لا يمكن
أن يقف ساكناً حتي يتغير المنظر الاجتماعي من حوله ثم يأخذ في تطوير
نفسه ، إنما لابد أن يكون للسيكولوجيين نور المبادأة وأخذ المبادرة في الدعوة
للإصلاح والتطوير والتصدي لما يجابه المجتمع من المشكلات والأزمات والعمل
علي دراستها وإقتراح الحلول الملائمة لها أولاً بلول .

وإذا كنا نجتاز مرحلة الصراع مع الزمن ، ونلهث الأنفاس لكي نواكب
ركب حضارة العصر ، فلا يمكن أن تكون جهود علماء النفس ضرباً من الترف
العملي والإستغراق في النظر والتتظير ، وإنما يجب أن توجه جهودهم ، في
المقام الأول لمعارك المجتمع وملاحم نضاله .

ولكي يتسني للعلم القيام بخدمة المجتمع علي الوجه الصائب لابد من
التعرف أولاً علي أهداف المجتمع في الوقت الحاضر لأن ذلك يضئ الطريق
ويوضح الرؤية أمام المشتغلين بالعلم في وطننا العربي الكبير لكي تتجه جهودهم
وطاقتهم نحوها .

أهداف المجتمع الراهنة :

لكل مجتمع ، في كل حقبة التاريخ ، أهداف أو أولويات يضعها نصب عينيه محاولاً تحقيقها ، ونستطيع أن نقول إن مجتمعاً كالمجتمع المصري لا بد وأنه يستهدف مايلي :

١ - تحقيق الرخاء ، ومايتبع ذلك من سداد المديونية ، وتحسين ميزان المدفوعات ، وزيادة الدخل القومي والفردى ، ورفع مستوي معيشة الأفراد....الخ.

٢ - تدعيم الديمقراطية فكرياً وسلوكياً وإرساء سيادتها في الحرية والحق والعدل والمساواة والإخاء وتكافؤ الفرص والتعاون والمشاركة الخ .

٣ - صيانة السيادة والإستقلال وعدم التبعية السياسية أو الإقتصادية ، ويتطلب ذلك تحقيق القوة العسكرية الوطنية وتطويرها باستمرار واستنادها إلى قاعدة اقتصادية وسياسية واجتماعية وعلمية سليمة .

٤ - نشر العلم والقضاء على الأمية وتحقيق آمال الجماهير المتطلعة إلى الإرتواء بماء التعليم العالي الذي تتخذ منه طبقات المجتمع ، ولا سيما الطبقات الكادحة ، مصعداً اجتماعياً ترتقيه للصعود دائماً إلى الطبقات الاجتماعية الأعلى، ولاشك أن التعليم في الوقت الحاضر مطلب اجتماعي ملح تصر عليه كافة طبقات المجتمع .

٥ - نشر الوعي الأمني والصحي والديني والخلقي ، وتنمية القيم الإسلامية الخالدة في الحق والخير والجمال والعدل والإنصاف والشورى والبر والإحسان والأمانة والصدق والولاء والوفاء والتضحية والبذل والعطاء والاستشهاد..... الخ .

٦ - مواكبة حضارة العصر واللاحق بها ونقل التكنولوجيا المتقدمة واستيعابها ، وعدم التخلف عن مسايرة العصر بما فيه من علم وفكر مع المحافظة علي مالدينا من تراث وقيم ومبادئ نابعة من ديننا وتاريخنا وأمجادنا الخالدة بل العمل علي إنكائها .

٧ - تحقيق مزيد من الأمن والاستقرار والقضاء علي كل مظاهر الجريمة والإهاب .

٨ - تحقيق مزيد من الوحدة الوطنية والتماكك الاجتماعي .

وسائل تحقيق أهداف المجتمع :

إذا كانت هذه أهداف مجتمعنا ، أو بعضاً منها ، فإن تحقيقها يتطلب إتخاذ العديد من الوسائل والإجراءات وإنتهاج كثير من المناهج وإعتناق الفلسفات المؤدية إلي تحقيق هذه الغايات ، ومن ذلك الاهتمام بزيادة الإنتاج ، وتحسين جودته ، حتي يقي بالإحتياجات المتزايدة لأبناء المجتمع ، وحتى يقوي علي المنافسة في الأسواق العالمية ، وفي سبيل تحقيق الإكتفاء الذاتي يلزم غزو الصحراء واستقطاع مساحات شاسعة من جوفها وضمها إلي الرقعة الخضراء ، ومد أضواء العمران إلي أعماق الصحراء ، ويتطلب غزو الصحراء هذه ، من بين مايتطلب تغيير إتجاهات الناس العقلية نحوها . كذلك يتطلب إتباع سياسة فعالة في تحديد النسل وتنظيم الأسرة حتي لاتلتهم الزيادة المضطردة في أعداد السكان عوائد التنمية ومردوداتها .

كذلك يتطلب هذا الهدف تغيير الأنماط الاستهلاكية لدي أفراد المجتمع وإتباع أنماط أكثر توعية واقتصاداً ، وغير ذلك من الوسائل والإجراءات التي تكفل تحقيق هذه الأهداف .

التنمية وسيلة المجتمع فى تحقيق الأهداف :

ولا شك أن التنمية وخططها ومشروعاتها من بين الوسائل المهمة التي اتخذتها الدولة في كل مجتمعاتنا العربية سياسة لها لتحقيق هذه الأهداف وغيرها وتتطلب التنمية تغيراً فكرياً وسلوكياً وإدارياً وجذرياً ، وفوق كل ذلك تتطلب قيماً خلقية خاصة تكفل لها النجاح وتصون عائداتها . كذلك تتطلب التنمية استخدام العلم والتكنولوجيا في المشروعات العمرانية والإنتاجية المختلفة . وتحسين سبل الإدارة وإسهام أفراد الناس في مشروعاتها .

التنمية معناها الشامل :

التنمية ، بدهاء ، التطوير العمدي المقصود والهادف ، وتحسين الأشياء ، والإرتفاع بجودتها ، أو إنشاء الأشياء الجديدة ، والعمل علي تقدمها وحسن تطويرها ، وإزدهارها ، ومن معانيها التوسع والامتداد ، والكشف عما يكمن في باطن الأرض أو في سماء الوطن أو في مائة من خيرات واستغلالها أو ما يوجد من قوة وطاقت والعمل علي تحسينها وجعلها تعطي أقصى ماتملك من خيرات . وتتضمن التنمية تقوية مصادر الخير والإنتشار والنمو والتطوير وجعل الأشياء أو الأشخاص أكثر نضجاً وأكثر عمقاً وأكثر فهماً . وقد تعني التدقيق والضبط والتشغيل والاستعمال والاستكشاف وارتقاء الأماكن المجهولة واكتشافها واستغلال الإمكانيات واستثمارها أو القدرات الكامنة وتتضمن معني التعمير والتشييد ، ونشر العمران في الأماكن الخالية ، وكذلك عمليات التعدين أو استخراج المعادن من باطن الأرض ، وتتضمن عملياً التنمية تحويل الأشياء من شكل إلي شكل آخر أكثر تطوراً كما هو الحال في الصناعات البتروكيميائية . وعلي ذلك يمكن النظر للتنمية علي أنها عملية تؤدي إلي تنمية الأشياء والناس . ويمكن النظر إليها علي أنها نتائج هذه العملية ، أي عملية التنمية ، وقد تشير

إلى عمليات التعديل والتغيير والتركيب أما ما يعرف باسم مناطق التنمية ، فهي تلك المناطق التي يستشعر المجتمع أنها غير نامية ، ولذلك يعد إليها يد العون في شكل مزيد من العمران والتصنيع .

وقد تتطلب عمليات تنمية المناطق المحرومة تقديم المساعدات للتدريب والتأهيل ، وإعادة التأهيل للسكان وتحسين ظروف المعيشة بما في ذلك من إمدادات المياه والإضاءة والنظافة وتعليم الحرف ونشر المهن والصناعات النافعة . ولقد تبينت المملكة المتحدة البريطانية حاجة بعض مناطقها إلى التنمية في وقت مبكر يرجع إلى عام (١٩٢٤م) . وفي عام (١٩٤٥م) تحول اسم هذه المناطق من المناطق غير النامية إلى المناطق النامية بعد أن امتدت إليها يد التنمية والتعصير . ومن الوسائل التي استخدمتها انجلترا لتنمية هذه المناطق تقديم العون والمنح والقروض لإنشاء المصانع الجديدة .

والعمل التنموي ، بمختلف أبعاده ، ليس غريباً على أرض الإسلام ، فلقد حرص الإسلام الحنيف على تنمية مواهب الفرد وقدراته وخبراته ومعارفه ومختلف قواه الجسمية ، وتدعيم إيمانه بالله الخالق^(٢) وكذلك تنمية المجتمع الإسلامي وتقويته وتدعيمه .

الطرق بين التنمية والنمو الطبيعي :

التنمية من أكثر المفاهيم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والبشرية إتساعاً في عصرنا الحالي ، ولا سيما في دول العالم الثالث التي اتخذت منها منهجاً للتقدم والرفق والتخلص من وهدة التخلف ، والحاق بركب حضارة العصر .

والتنمية لغة معناها (النماء) أي الأزياد التدريجي في الأجسام الحية.

ويقال نما المال نمواً . ويستخدم اصطلاح التنمية بمعنى الزيادة في رفع مستوى المجتمع اقتصادياً واجتماعياً . وهناك أنواع أو أبعاد مختلفة من التنمية ، منها التنمية الاقتصادية Economic development ويختلف مدلول التنمية الاقتصادية عن النمو الاقتصادي Economic growth الذي يشير إلى التقدم الاقتصادي التلقائي أو الطبيعي أو العفوي .

ويختلف مفهوم التنمية أو النماء عن مفهوم التغير ، لأن التغير لا يؤدي ، بالضرورة ، إلى التقدم والإرتقاء في المجتمع ، كما هو الحال في حالة الحرب الذي يؤدي إلى تغيير أوجه الحياة في المجتمع ، ولكن إلى الأسوأ .

أما النمو فيختلف عن مفهوم التنمية ، لأنه قد يحدث بصورة تلقائية دون التدخل المتعمد من قبل المجتمع . والتنمية يقصد بها التدخل المقصود لتحقيق النمو بصورة سريعة الخطي في حدود فترة زمنية تحددها خطط التنمية ، لزيادة السكان في مجتمع ما قد تنمو وتتزايد دون تدخل من قبل الدولة أو المجتمع . والحقيقة أن الفرق بين مفهوم النمو والتنمية كالفرق بين التطور وعملية التطوير المقصودة .

وبينما يحدث النمو من خلال تطور تدريجي بطيء ، فإن التنمية تحتاج إلى دفعة قوية تحركها قدرات إنسانية خبيرة ، تخرج المجتمع من حالة الركود إلى التقدم ، كما أن الفرق بين التغير والتنمية يتمثل في أن التنمية يفترض سيرها في خط مستقيم صاعد يميزها عما كان ، كما تفترض حكماً تقويمياً يصفها بأنها تسير إلى الأفضل ، بعكس التغير الذي لا يفترض فيه الأحسن علي طول الخط ، وإنما قد يكون تغيراً إلى أسوأ^(٤) .

والحقيقة أن التنمية عملية شاملة متكاملة تتضمن كافة الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والبشرية والقانونية والتعليمية والسياسية^(٥)

والأخلاقية. وعلى ذلك فالتنمية لا تقتصر على مجرد تقديم الخدمات الاجتماعية. ويذهب بعض المفكرين إلى جعل موضوع التنمية من مهام العديد من العلوم الإنسانية كعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم السياسة والإدارة والطب الاجتماعي والزراعة وتخطيط المدن والدين والتربية ويغفلون بذلك فرعاً هاماً من العلوم الإنسانية ألا وهو علم النفس والدراسات النفسية التي تقوم بالنصيب الأكبر في إعداد أهم عنصر من عناصر العملية الإنمائية ألا وهو الإنسان نفسه. فيسعي هذا العلم للتعرف على طبيعة نموه ، وأساليب تفكيره ، وطرق إعداده ، وتعليمه ، وأساليب علاجه ، وتحريره من المشكلات والأزمات. وتنمية قواه العقلية والنفسية والصحية وصقل شخصيته وتنمية سماته . ولذلك فإن لعلم النفس دوراً لا يقل عن العلوم الأخرى في معارك التنمية وفي تحقيق أهدافها إن لم يكن أكثر منها .

تعريف هيئة الأمم للتنمية :

ومهما تعددت مفاهيم التنمية ، فإنها تتفق في الهدف العام منها وهو تحقيق سعادة الإنسان ورفاهيته ، فالتنمية ، وفقاً للمفهوم الذي تتبناه هيئة الأمم المتحدة ، تشير إلى العمليات التي تؤدي إلى تقدم المجتمع اقتصادياً واجتماعياً ، وذلك عن طريق تضافر الجهود الحكومية والشعبية . ويشار ، أحياناً، إلى التنمية Development على أنها التغيير الاجتماعي Social change الذي يتضمن إضافة أفكار جديدة إلى النظام الاجتماعي Social system بهدف تطوير أحوال الناس ، وتوفير الخير الاجتماعي Social wellbeing بينما يرى بعض مفكري التنمية أن التنمية عبارة عن زيادة فرص الحياة أمام الناس . ويهتم الفكر التنموي الحديث بتحقيق الرفاهة البشرية أو تحقيق الحياة الجديدة .

وهناك أبعاد كثيرة لهذه السعادة منها البعد المادي ، أو البعد الاقتصادي والبعد البشري أو البعد الإنساني ، والبعد الاجتماعي ، والبعد البيئي . ومؤدى هذا أن العملية التنموية عملية متعددة الأبعاد ، حيث تتضمن البعد السياسي والاجتماعي والاقتصادي والبيئي .

جهود الدولة وجهود الأفراد :

ومن الجدير بالذكر أن تشير إلى مفهوم التنمية في إطار الفكر التنموي الشامل. فالتنمية (هي النمو المدروس على أسس علمية ، والذي قيست أبعاده بمقاييس علمية سواء كانت تنمية شاملة ومتكاملة أو تنمية في أحد الميادين الرئيسية مثل الميدان الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي أو الميادين الفرعية كالتنمية الصناعية أو التنمية الزراعية ،... الخ (٦) .

ومن التعاريف التي قبلتها هيئة الأمم المتحدة في عام (١٩٥٦م) للتنمية ، ذلك التعريف الذي يعتبر التنمية (العملية التي بمقتضاها توجه الجهود لكل من الأهالي والحكومة لتحسين الظروف الاجتماعية والاقتصادية في المجتمعات المحلية لمساعدتها على الاندماج في حياة الأمم والإسهام في تقدمها بأفضل ما يمكن (٧) .

والحقيقة أن مفهوم التنمية ، بمعناها الشامل ، لا ينتمي إلى علم واحد من العلوم ، ولكنه يتطلب تضافر مجموعة من العلوم والتخصصات الحديثة . ويعتبر الإنسان الهدف الرئيسي للتنمية الاجتماعية . كذلك فعما لا شك فيه أن العنصر البشري هو أقصى العناصر المؤثرة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، فهو العنصر الذي يساعد على تحقيقها ، وهو أيضاً الهدف الذي توجه التنمية من أجله (٨) .

ومن تعاريف التنمية ، بصفة عامة ، أنها التحريك العلمي ، المخطط لمجموعة من العمليات الاجتماعية والاقتصادية من خلال أيديولوجية معينة لتحقيق التغير المستهدف من أجل الانتقال من حالة غير مرغوب الوصول إليها . وترتبط التنمية من حيث أهدافها وتصوراتها وعملياتها بالإطار الفكري للمجتمع^(٩).

وعلى الرغم من أن التنمية عملية موحدة تسعى لإحداث تغير كمي ونوعي في المجتمع على مراحل زمنية مخطط لها ، إلا أنه قد جرى العرف على تقسيمها إلى تنمية اجتماعية وتنمية اقتصادية ، ويمكن إضافة أقسام أخرى كالتنمية البشرية .

قصور التنمية الاقتصادية وحدها :

والحقيقة أن مفهوم التنمية هو نفسه قد نما وتطور واتسعت آفاقه . والمأمول أن تزداد دائرة هذا الإتساع . فلقد نشأت الدراسات التنموية ، أول ما نشأت ، في الإطار الاقتصادي ، حيث استهدفت التعرف على الأساليب التي أدت إلى تغير شكل الحياة في المجتمعات الأوربية من نظام الإنتاج التقليدي المتخلف إلى نظام الإنتاج الرأقي والمتطور . ولقد كان ، في الماضي ، يسود الاعتقاد بأن التنمية الاقتصادية التي تتمثل في رفع مستوى دخل الأفراد ، كفيلا وحدها لتحرير الناس من مشاكلهم الاجتماعية والسياسية والتعليمية ... الخ ، وكان مما يساق في تأييد هذا الرأي الاستشهاد بالثورة الصناعية الأوربية التي أدت إلى انخفاض معدلات الوفيات ، وارتفاع متوسط عمر الفرد ، وتحسين الغذاء ، وارتفاع مستوى الدخل الفردي ، وزيادة عدد المساكن الصحية وما إلى ذلك .

والحقيقة التي كشفت عنها دراسات كثيرة ، أن التكنولوجيا فشلت في

حل مشكلة الإنسان الأوربي ، فلقد حدث تطور كبير في جانب واحد من حياة المجتمع ، وهو الجانب المادي أو التكنولوجي ، ولم يواكبه تقدم في الجوانب المعنوية والقيم الأخلاقية . ومن ذلك أن إنتشار الآلة أدى إلي إنتشار البطالة التي أدت ، بدورها ، إلي العديد من الأمراض الاجتماعية الخطيرة . ونتج عن الثورة الصناعية ، كذلك ، ضعف الروابط الأسرية ، وضعف سلطان الرجل ، ونزول المرأة لميدان العمل الخارجي ، ومن ثم قلت الرعاية الوالدية للأبناء مما كان له أسوأ الأثر في التنشئة الاجتماعية . ومن هنا يتضح ضرورة مواكبة التنمية الاجتماعية للتنمية الاقتصادية . فالتنمية الاقتصادية ، وحدها ، تشبه الآلة التي لاتجد من يديرها من القوى البشرية ، كما تشبه التنمية الاجتماعية التي لايجد سنداً اقتصادياً المخبز الذي لا يوجد به دقيق (١٠) .

بل إن تضافر العناصر الاقتصادية والاجتماعية لا يكفي لتحقيق التنمية الشاملة ، إلا إذا كان المجتمع النامي نفسه متمتعاً بالحساسية الأخلاقية النابعة من أداء الواجب للواجب ، ومراعاة الضمير ، والبعد عن السلبيات العديدة التي تتخر في عملية التنمية نخر السوس في العظام المتهالكة ، كالإنتهازية ، والأنانية ، والوصولية ، والرشوة ، وعدم تقدير المسؤولية ، والبحث عن الثراء الحرام ، والإنحرافات الجنسية وقضايا الفساد والتسيب ، فكل سلبيات لا يمكن أن تتحقق معها تنمية مجتمع ما مهما توافرت له سائر العناصر الاقتصادية والاجتماعية (١١) .

فالتنمية الاقتصادية ، مهما بلغت نقّة الأنوار المستخدمة فيها ، لا بد لها من تحريك النظم الاجتماعية والإدارية وترشيدها ، ولا بد من الوعي ونشر روح تحمل المسؤولية وتنمية قدرة الأفراد علي استيعاب التكنولوجيا ومستحدثاتها الجديدة ، التي تكفل إشراك الناس في التخطيط التنموي ، والتنفيذ والمتابعة ،

واتخاذ القرارات والإشراف ، ثم الإنتفاع الأمل بشمرات التنمية .

أهمية العنصر البشري :

ومهما اختلف العلماء حول أهمية العنصر الاقتصادي والاجتماعي فإنه يمكن القول بأن قيمة العنصر البشري في التنمية لايمثلها أية قوة أخرى ، لأن الإنسان هو صانع التنمية ، وليس العكس ، والإنسان المشار إليه هنا هو ذو الكفاية الإنتاجية والأخلاقية المرتفعة والذي ينال قسطاً وافياً من التعليم ، ويتمتع بصحة جيدة ، وتتوفر له وسائل الحياة الآمنة في حاضره ومستقبله (١٢).

ولقد بلغ من تقدير أهمية العلم في التنمية أن قال أحد علماء الاقتصاد وهو (مارشال) أن فئة متعلمة من الناس لايمكن أن تعيش فقيرة ، ذلك لأن الإنسان بالعلم والمعرفة والوعي والطموح والقدرة علي العمل والإنتاج والإبداع ، يستطيع أن يسخر كل قوي الطبيعة ومصادرها وكل مافي باطن الأرض ، ومافاتها لصالحه ، والإرتفاع بمستوي معيشته ، وتوفير الحياة الكريمة له (١٣).

« وإذا كان علماء الاقتصاد يركزون ، في عملية التنمية ، علي الاقتصاد والتكنولوجيا ، إلا أن علماء الاجتماع ، يرون أن أساس العملية التنموية ينبع من العنصر الإنساني أساساً ، من حيث المهارات والخبرة والمستوي التعليمي ، وإعداد البرامج وتخطيط الأهداف وتقدير الحاجات والإحتياجات ، من منطلق موضوعي مدروس » (١٤) .

ويشاركهم في ذلك رجال الدين الذين يرون أن التنمية الاجتماعية يجب أن تهتم أولاً بالمحافظة علي كرامة الإنسان ، باعتباره خليفة الله في الأرض .

ويرى أن أساس التنمية هو التعاون المثمر لخير المجتمع ونفعه ومن هنا كان لابد للتنمية ، في نظرهم ، أن تقوم على أساس المشاركة والشورى وتستهدف التنمية استخلاص مافي الأرض من خيرات وثمار ، وأن العمل التنموي يقوم على الإبتقان والتحسين والتجويد والإجادة .

ومن خصائص العملية التنموية أنها مستمرة ومتصلة ومتجددة ، ذلك لأن طموحات الإنسان لاتعرف الحدود . وإذا كانت التنمية ضرورية في كل المجتمعات ، فهي أكثر ضرورة في المجتمعات الفقيرة حتي تتخلص من الفجوة التي تفصل بينها وبين دول العالم المتقدم .

أهداف التنمية :

للتنمية أهداف متعددة ، وتؤدي هذه الأهداف إلي نجاح التنمية . ويمكن تحديد أهداف تنمية المجتمع فيما يلي :

١ - استثمار الموارد البشرية أو القوي البشرية في المجتمع وتنميتها .

٢ - تحسين المستوى المادي للمجتمع وأفراده (١٥) .

وهكذا يتضح لنا أن التنمية هي فلسفة المجتمعات النامية المعاصرة وهي سبيلنا الأوحـد في التقدم والرقـي والتطـور والقـوة والمنـعة .

المراجع

- ١ - عبد الرحمن العيسوي ، علم النفس في الحياة المعاصرة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٨٦ .
- 2 - The Pinguin Encyclopdia, P. 173, 1965.
- ٢ - عبد الرحمن العيسوي ، الإسلام والتنمية البشرية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٨ .
- ٤ - زكي محمد إسماعيل ، التنمية بين المفاهيم الاجتماعية والقيم الأخلاقية ، مجلة كلية العلوم الاجتماعية ، العدد الرابع ، ١٤٠٠ هـ ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ص ١٥٠ .
- ٥ - المرجع السابق .
- ٦ - عبد الهادي الجوهري وآخرون ، دراسات في التنمية الاجتماعية ، «مدخل إسلامي» ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٨٢ .
- ٧ - المرجع السابق .
- ٨ - المرجع السابق .
- ٩ - المرجع السابق .
- ١٠ - زكي محمد إسماعيل ، مرجعه السابق ، ص ١٥٢ .
- ١١ - نفس المصدر .
- ١٢ - نفس المصدر ، ص ١٥٤ .
- ١٣ - نفس المصدر ، ص ١٥٤ .
- ١٤ - نفس المصدر .
- ١٥ - عبد الهادي الجوهري ، مرجع السابق .

NOTES

- 1 - Louis Awad, "Introduction" to **The Phoenix or The History Of Hassan Mouftah**, Al Taliaa Publishing House (Beirut, 1966), p.7. This quotation as well as subsequent quotations are translated from the Arabic by the writer. All page references will be given after quotations in the text.
 - 2 - Latifa El Zayyat, a contemporary of Louis Awad's, writes about this era : "At university there were two options open before anyone wishing to oppose the government in the hope of a better alternative. There were the Moslem Brothers and there were the communists, the Wafd having already begun to relinquish its revolutionary ideals. It was natural for me to choose the communists, being a woman of a special bent of mind who was fascinated by the idea of equality among all men, males and females, an equality which extends beyond colour, race or creed. The beautiful future of humanity envisaged by the Marxists and picturing man as enaging with all his energy in the rebuilding of his world, made communism appear as a superb utopia. "See"Latifa El Zayyat in the Mirror of Latifa El Zayyat", **Ibdaa**, 1, Janaary 1993, p.55.
- The quoted text has been translated from the Arabic by the writer.
- 3 - Raymond williams, **Culture and Society 1780-1950** (Harmondsworth, 1961), p.262.
 - 4 - Philip Rav, "Dostoevsky in **Crime and Punishment**" in **Dostoevsky, Twentieth Century Views**, ed Rene Wellek (N.J., 1962). p.35

open before him to atone for his crime. It is represented as an admission on his part that crime has to be punished even if this crime has been committed for the best and most elevated of reasons. Violence is, and will always be, a transgression against the laws of nature and can never be morally justified. The whole-sale destruction envisaged by Hassan Mouftah and, implicitly, by the Communists of the forties contains Louis Awad's most vehement critique of communist practice as he himself witnessed it during the period of his involvement with the Left. The novel is, perhaps, the most outspoken document on the Egyptian Left at a very difficult era in Egyptian history.

religious word, or super-ego, to use a favourite Freudian term.

In **The Phoenix** Louis Awad draws on three different sets of symbols. In the first place, he relies quite heavily on Ancient Egyptian mythology and the novel abounds in references to the myth of Isis and Osiris, the Ancient Egyptian myth of death and resurrection. In the second place, he draws extensively on the Christian idea of resurrection and at one point Hassan Mouftah compares himself to Christ when, before the end, he expresses his regret at not being able to have his last supper with his comrades. In the third place he draws on the Western intellectual heritage represented by Faustus who bargains away his soul to the Devil. In the novel, the three sets of symbols fuse together to make plain Louis Awad's abhorrence of violence and to show the extent to which Hassan's existence falls short of what all these myths represent. Firstly, the cycle of Hassan Mouftah's life, death and re-birth is a distortion of the Ancient Egyptian myth of Osiris which is basically a myth of vegetation, growth and life. He develops in the course of the novel into a figure of darkness and death. His new life is not a life of renewal and growth. It is tainted by greed and egoism. Secondly, although he compares himself to Christ, it is made quite clear that all the Christian virtues of humility are absent in him. The act of murdering his peasant cousin is a flagrant transgression against one of the ten Commandments. Thirdly, when compared to Faustus, he appears all the more selfish. Faustus' thirst for Knowledge, though going beyond the bounds of normal human aspirations, is basically rooted in a healthy human demand. Hassan Mouftah's actions, on the other hand, are shown to be utterly selfish and therefore completely unworthy of respect.

Hassan Mouftah's final suicide is seen as the only way

Hassan Mouftah did not hear a word said but continued in his reveries, "Then get lost. Tell your master that neither the treasures of the earth and skies nor the devils of Heaven and Hell are capable of shaking Hassan Mouftah's heart. Tell him that the Revolution is no doubt coming. And will the people forgive Hassan Mouftah if he betrayed the great cause? At dawn the day after tomorrow, the rats will emerge from their holes and the caged lions will roar and break down the bars. The owls will sing and human beings will befriend snakes. The heavy elephants will fly in freedom and the slaves will dance round the graves of their masters and every debased liar will be hanged. After tomorrow all the fingers will be the same size and the miracle will happen. . . Hassan Mouftah has said, "At dawn the day after tomorrow the miracle will happen" and what he has said is true. He has said "At dawn after tomorrow heavenly justice will recede before earthly justice and the gods will know that they have spoilt the peaceful valley" (pp. 345 - 46)

Hassan Mouftah's encounter with the devil seems to owe a good deal to Dostoevsky. Like Raskolnikov in *Crime and Punishment* who is "prostrate with guilt and the yearning for punishment"⁴, Hassan Mouftah's sense of guilt is made concrete through the externalized figure of the devil. The figure that sits on judgement on him is no other than a part of himself which may be called conscience. to borrow a

of an intellectual, a mind that can appreciate not only the best of human thought but also the refinement of culture. In his last meeting with the Devil, Hassan mouftah argues that he has not killed but has given life. The encounter between him and Mephistopholes represents the climax of the novel. The devil comes to him as an uninvited guest, a limping dwarf wearing a curious necktie on which two intersecting bones are woven:

"And who is the gentleman?"

"A messenger from Heaven. I am Mephistopholes, King of Hades, Gapo, the darkness and the extinguished five towers," the visitor said with infinite gentleness.

"Just what I thought"

"Do you forgive me for disturbing you ?"

Hassan Mouftah did not answer him but said instead, "Why do you come, then?"

Hassan Moutah had a strange thought which left him in a state of extreme anger. He thought that he was looking at a scene from the Bible, Christ on top of Mount Zion arguing with the Devil. He remembered what he had read about the conversation between Faustus and Mephistopholes.

"You have come to bargain with me", he said. Mephistopholes looked up into Hassan Mouftah's face and realized what was going on inside him. He answered laughing, "No, Hassao Mouftah".

education and the fruits of civilization. The people are nonetheless still patient. They understand all this but stay patient. They bubble over like a bottle of soda water which dies down fast. They should have erupted instead like a volcano. Are these the offspring of giants? The giants were giants when they felled down forests, turned swamps into solid earth and changed the course of the River Nile. They were giants when they tamed nature. They got their strength from the struggle with nature. Once they succeeded in taming nature, they threw the seeds of love and they bore fruit. They sowed love but have been reaping evil for four thousand years. They lost their vitality and meekness became their mark. The giants have died out little by little and their offspring are these mild and meek people. The struggle with nature will give back these people their lost strength. When they manage to build the Industry in the same way they developed agriculture, the struggle with nature will start all over again. (p. 229)

Thousands of years of history, according to Hassan Mouftah, have emasculated the Egyptian people and led them to a state of docile submission. A little savagery is needed to redress the balance and return the rights of the people. The call for violence is thus given a rational backing.

When Hassan Mouftah arrives in Cairo, he has the healthy and muscular body of the dead peasant but the mind

sanatoriums for the young. Sanatoriums all along the Red Sea and all along the Mediterranean. The air of the valley has become infested and its land has turned into an open grave. The people of the valley are corpses. Guillotines should be placed everywhere, in every square and on the dung heaps of every village. The first five-year plan will consist of guillotines and sanatoriums. . . The People's Commissariat will not put statues in the squares. It will put guillotines first. Guillotines first, statues second and whipperies last. Who has ever heard of whipperies? This is a new invention for lazy employees and people who sit languidly at cafes in the day - time. The guillotines are for the conscious enemies of the people and the whipperies for the unconscious enemies.

(pp. 227-28)

What is terrifying about Hassan Mouftah's futuristic vision is the degree of generality it attempts. It is the nightmare Machiavellian world where the end justifies the means and where the niceties of moral judgement are overlooked for a purportedly higher good. The picture of Egypt scattered all over with guillotines and sanatoriums is dismally terrifying, to say the least. Hassan Mouftah also gives his own interpretation of the socio-economic factors shaping the history of Egypt, an interpretation which is largely based on the view of history from the perspective of dialectical materialism:

Capitalists and land-owners have deprived the people of basic sustenance, clothes,

helpless and innocent man . Taking advantage of kandil's closeness to a canal, he pushes him into the water and kills him. The man that emerges from the water has the body of Sayed Kandil and the mind of Hassan Mouftah.

On the train that carries the new Hassan Mouftah from the countryside to Cairo, the violence lying at the core of totalitarian dogma is exposed through the reveries of the re-born communist. The vision is no doubt horrifying:

The countryside looks beautiful from the window of the train, at a distance. At close quarters, however, it is depressingly ugly and polluted. {Hassan Mouftah} will say to the Committee: "The People's Commissariat will destroy all the villages, all four thousand of them, together with neighbouring hamlets and shack houses. The People's Commissariat will mobilize ten per cent of the people of every village to work on the re-building of Egypt. It will supply them with all the necessary maps, builders and engineers. It will give each family a house of stone or red brick surrounded by a small garden. . . The People's Commissariat will make people work day and night. Good productive work will have to be done even through compulsion, whippings or hangings. In the past, compulsion had built the graves of kings, so let it build houses for the people now . . . Laws are not enough . . . Legislations are not enough. Guillotines are the answer. The new generation will have to be kept at a distance. That's right. Guillotines for the old generation and

seeds of corruption arising from an unbalanced emphasis on the self are presented as the reason behind the corruptions underlying totalitarian systems.

Hassan Mouftah's arguments for the necessity of killing his peasant cousin who resembles him in looks finally win the day. Sayed Kandil, he argues, is no more than a number whose very presence is of no significance whatsoever:

Sayed Kandil's is an old repeated existence. He is just one copy of the eternal peasant in the world of Ideals. He may not be Sayed Kandil at all but Gaby Hurtib who wandered near this stream four thousand years ago. If so, he had lived longer than he should. He will have to die, then, to make way for a new generation. Sayed Kandil will always stay at the cross-roads of time and space. But the shadow must turn into matter and the matter must learn to move in time and space. Sayed Kandil is a hollow, two-dimensional spectre. He must acquire a third dimension. Otherwise, his place will be within one of the frames decorating the walls of museums and not between the earth and the sky. Sayed Kandil is the ancient symbol of twenty million Sayed Kandils. This symbol has to go to make way for a new symbol. (pp. 204 - 205)

With this piece of rationalization, Hassan Mouftah has taken his first step towards committing a crime. By depriving Sayed Kandil of his individuality and uniqueness, he has made it easy for himself to undertake the murder of that

the responsibilities and take the consequences. They needed Hassan Mouftah and Hassan Mouftah would come back to them. Yes, he would come back to them even though he might have to trample on the graves of millions. Crime was inevitable. The destiny of the people was in danger and the people must be saved. This was the first serious sacrifice the people would ask of him and how could he turn them down? This was the first difficult test he had to pass in order to prove his worth. He was no killer but he would kill. Was he a killer? Certainly not. If he were, he would have killed Aly Abdullah as a token of friendship for Fouad Mankarios. But he did not kill Aly Abdullah and neither would he kill Rabie Bey for the sake of Mona Rabie. He was not a killer but a saviour. . .

All this the soul of Hassan Mouftah would do for the people because the end was near and the day of salvation was close by. His death was a blunder of fate and he would redress the wrong. This was the will of the people and the will of the people was the will of God. He would murder on divine orders, on commands from the high heavens above. (pp.192-93)

Hassan Mouftah's willingness to commit murder places him in a comparable position to that occupied by the numerous dictators and corrupt politicians the history of mankind is full of. How many crimes in history have been committed in the name of the people and in the name of divine will? The

going to roam as aimlessly and stupidly as the souls of Kladakis and Kaptanakis had done and eventually surrender itself to eternal darkness? This is certainly not the way for Hassan Mouftah. In his disembodied state he roams madly around, thinking of nothing but coming back to life. His only means of achieving this goal is murder. He does not call it murder, though. Instead, he justifies this decision to murder and usurp the body of a living human as an altruistic act to be undertaken for the sake of the people:

No. The soul of Hassan Mouftah will not flutter, will not wander, will not spend itself and will not depart. The soul of Hassan Mouftah will do nothing of the kind. It thought incessantly of crime and did not know the reason. Now it understands. The Central Committee is waiting for it. If Hassan Mouftah's soul disappeared from the Central Committee, the Committee would simply disintegrate. Its members will seem to fight over ideologies while in fact they will be fighting over power and end up ruining the creed as well as the movement. If Leaders competed and fought against each other, they would destroy the creed and would multiply programmes. The members of the Central Committee would no doubt compete and fight with each other. Without him, they would fight over power since they all stand on an equal footing. They needed a successful and flexible leader, a strong personality whom they could rally around and who would command their allegiance. This personality would lead the way, shoulder

the rock could not understand Greek and he kept sitting on the rock. The rest of her body stiffened and she disappeared under water. As for Kaptnakis, she did not beat the water, nor coughed, nor cried out in Greek. Her dress got hooked in the boat and she went down with it for ever. Everything disappeared under the water except for a couple of sandwiches, Mrs Kladakis's scarf, Hassan Mouftah's newspaper and the beautiful boatman who did not understand any Greek. Everything was over in ten minutes, and with as little noise as possible. The sea was beautifully blue and the sky was also beautifully blue and the rocks were beautifully black. Everything remained just as beautiful despite what had happened. And had anything really happened? The boatman on the rocks sat contemplating but he hardly seemed to be contemplating the destruction of life. he was twice about to jump into the water to save the drowning but he persuaded his good self against its inclination because he remembered how he was about to drown a month earlier while trying to save a drowning lady. . . .
(pp.181 - 82)

This is the manner in which Hassan Mouftah meets his death, an event which cuts short his ambitions and his struggle. It is significant that his death takes place in the salty waters of the Mediterranean and not in the waters of the Nile. A rebirth is a distant, if not an impossible, event.

But is he going to give up life that easily? Is his soul

And then an insignificant event happened: In the morning, Hassan Mouftah woke up and went on a sea trip. He went in the company of the beautiful Mrs Kladakis and her niece, the beautiful Miss Kaptnakis, the daughter of the beautiful Mrs Fotis from her first husband, the beautiful navy officer who got eaten up by the fish in the area between Dakkar and the Immortal Islands. The weather was beautiful according to plan. They went out at ten according to plan, bought the lovely sandwiches from the beautiful Tournazkis according to plan, reached the beautiful harbour according to plan and boarded the beautiful boat also according to plan. They did not, however, come back according to plan. The only person to come back was the lovely boatman who did not take part in laying out the plan.

The boat having hit rock got filled with water and sank. The boatman who knew his duty very well swam to the nearest rock and clung to it. As for Hassan Mouftah who could not swim, he beat the water with his arms several times and then went under. He floated again, beat the water with his arms several times and coughed badly a few times. The last thing he saw was Mona Rabie sitting among the rocks. Then he disappeared under water not to come back again. Mrs Kladakis swam one meter and her left leg stiffened in the January water. She cried out for help in Greek but the boatman sitting on

young people of aristocratic descent and young intellectuals with a middle class background.

Louis Awad's novel **The Phoenix or The History of Hassan Mouftah** draws on his involvement with the Egyptian left of the forties. The main character in the novel, a man named Hassan Mouftah, is the secretary of the Central Committee of the Egyptian Communist Party. The questions of violence and the legitimacy of undertaking violent actions are posed very urgently by the novel. "I wrote **The Phoenix**", affirms Louis Awad, "as a symbolic message against the philosophy of violence". (p.46)

The novel opens on the death, or suicide, of Fouad Mankarios, a coptic friend of Hassan Mouftah's. On his death bed, the dying man tells his communist friend, Hassan Mouftah, about his firm belief in the reincarnation of the soul. The spirit of the dead person, he tells him, roams aimlessly for forty days looking for a new body to inhabit in order to live again. If it does not find the required body, it vanishes eternally. Fouad Mankarios asks Hassan to perform the task of killing a man who resembles him in looks so that he may be able to live again. At first, Hassan believes it to be no more than the hallucinations of a dying man. Later, he becomes obsessed with the idea of Fouad's soul haunting him and pushing him to commit murder. It is easy for Hassan Mouftah to refuse to undertake such a violent action since it does not touch him personally.

Shortly afterwards, Hassan is made to face the test. On a visit to Alexandria and in the company of two ladies, Hassan Mouftah meets his death drowning in the waters of the Mediterranean. His death is rendered in a superbly ironic manner:

adherents of each party had the necessary ideological arguments with which to fight their opponents. For a young intellectual to decide to follow one rather than the other was by no means an easy choice. Many opted for fundamental Islam since religious sentiments have always been deeply rooted in the Egyptian character. There were others, however, who found the answer to lie in socialist and communist doctrines. Like their counterparts in Europe, their fascination with the doctrine was nothing but the response to the political and economic conditions of their society. "The political writings of the thirties", writes Raymond Williams, "was primarily a response to actual conditions in England and Europe, rather than a conscious development of Marxist studies".³ The same can very well be said to apply to the leftist movement in Egypt in the forties of this century.

The history of underground leftist movements in Egypt dates back to the twenties when, for a brief period, there was a growing belief among a limited number of Egyptian intellectuals that the socialist ideal might be the proper panacea for most of the problems facing Egypt at the time. But with the onslaught of the Second World War, there was a noticeable proliferation of communist organizations and cells which mostly hid behind the facade of cultural clubs. Louis Awad notes that in 1940, the year he came back home from a study scholarship in Britain, most of the members of these groups and clubs were local foreigners or Egyptians of foreign extraction. The Jewish element was noticeably high. These gatherings were made up of men as well as of women, a phenomenon which was virtually unknown in Egyptian cultural life at the time. The percentage of Egyptians getting involved in these activities was gradually on the increase. The working class element, however, was conspicuously missing and most of the Egyptians frequenting these clubs were a mixture of

The Phoenix or The History of Hassan Mouftah

was written between October 1946 and September 1947 but was published twenty years later in 1966. In his introduction to the novel, Louis Awad tells the story of how he jealously guarded the manuscript of the novel for the period of twenty years during which time he allowed only about ten of his closest friends to read it. "For twenty years", he writes, "this novel has seldom been away from my thoughts or my heart".¹ He considers it to be a witness to a stage in his life which came to an end in 1947. This was an important stage in his life since it was during this period that he decided to renounce public and political activities altogether and to dedicate himself whole - heartedly to a life of scientific enquiry and research.

It is a matter to be wondered at that very little critical attention has been paid to Louis Awad's novel since its publication. The significance of this novel does not merely reside in its artistic merits, which are no doubt considerable, but also in the way it faithfully reproduces and chronicles an important era in Egyptian history. The nineteen forties saw an unprecedented fascination on the part of Egyptian intellectuals for socialist and communist ideologies. It was also an era of unrest and violence. Secret camps were set up in the desert and young Moslem brothers were trained to use arms there. On the other hand, elements from the armed forces were discovered handing out communist leaflets. Discontent with social conditions as well as protest against the alliance between the Palace and the British resulted in sentiments of bitterness which vented themselves, broadly speaking, in one of two ways. Young Egyptian intellectuals found themselves faced with the necessity of choosing between socialism and fundamental Islam, two poles which are diametrically opposed.² The solution of the pressing problems of the Egyptian society seemed to lie with either the one camp or the other. The

Communist Nightmares
in
Louis Awad's Novel
The Phoenix or The History of Hassan Mouftah

by

Amira Hassan Nowaira
(Ph. D. Birmingham)
Assistant Professor
Department of English
Faculty of Arts
University of Alexandria

more or less forced, mistaken, embittered,
incomplete - not of the heart. (*Modern
Painters*, Part IV 1856, ch. xvi., sect. 8)

Hard Times is, among other things, about the drab depressing joyless quality of life in contemporary England, which Dickens seeks to counteract in Sleary's words to Gradgrind at the end of the novel : " People must be amused. They can't be always a learning, nor they can't be always a working. They an't made for it. You must have uth, Thquire . " "Uth" here is Sleary and his circus who provide innocent fun and pure entertainment, bringing joy into the lives of young and old alike. But "us" is also Dickens, the novelist and all creative artists who, through the imagination, transform the hard facts of life into a source of enjoyment and enrichment.

This is what Dickens achieves in *Hard Times*. What might have been a dreary naturalistic piece of writing, comes to life on the page through his versatile, energetic, quick, wide - ranging imagination which manifests itself in a command of word and image, a masterly use of irony and an endless variety of technical devices, all of which add up to a work which provides both entertainment and food for thought. Like all Dickens's novels *Hard Times* is a synthesis of fact and imagination, this being his aim in all his works :

The fusion of the graces of the imagination with the realities of life, which is vital to the welfare of any community, and for which I have striven ... as honestly as I could. (Announcement of *All the Year Round*, *Household Words*, 28 May 1859).

NUR SHERIF

EMERITUS PROFESSOR OF
ENGLISH LITERATURE
UNIVERSITY OF ALEXANDRIA

The peripheral position of the circus as symbol in *Hard Times* is indicative of the Victorian utilitarian attitude to literature and art in general, which are seen as an ephemeral form of entertainment like that of the circus. By endowing this symbol of the circus with the power of fancy and imagination which sensitise and humanise the feelings and rejuvenate life, Dickens is restoring art to its rightful position, not on the fringes, but closely interwoven with every aspect of life at all stages and on all levels. Fancy and the imagination and their concomitants are presented, not so much as a solution to the social and economic problems of the age, as positive forces that are essential to human life, if it is to be deserving of the name. Not only do they enrich by sensitising the feelings, but by bringing colour and joy into life, which no one needed more than the Victorians in their drab existence. Caught in the grip of utilitarianism, life in Victorian England had grown more and more sombre in the opinion of John Ruskin who, comparing it with the Dark Ages, says :

They were, on the contrary, the bright ages; ours are the dark ones. I do not mean metaphysically, but literally. They were the ages of gold: ours are the ages of umber. This is partly mere mistake in us; we build brown brick walls, and wear brown coats, because we have been blunderingly taught to do so, and go on doing so mechanically. There is, however, also some cause for the change in our own tempers. On the whole, these are much *sadder* ages than the early ones; not sadder in a noble and deep way, but in a dim wearied way, the way of ennui, and jaded intellect, and uncomfortableness of soul and body. The Middle Ages had their wars dashed with blood: but ours is sprinkled with dust. Their life was inwoven with white and purple: ours is one seamless stuff of brown. Not that we are without apparent festivity, but festivity

He went to work in this preparatory lesson, not unlike Morgiana in the Forty Thieves : looking into all the vessels ranged before him, one after another, to see what they contained. Say, good McChoakumchild : when from thy boiling store thou shalt fill each jar brim full by - and - by, dost thou think that thou wilt always kill outright the robber Fancy lurking within - or sometimes only maim him and distort him ! (Book i ch. II) .

This story - telling element adapted to the topic at hand, not only reiterates the theme of fancy which is sustained through the imagery, but it shows in actual practice here how Dickens's own ever fertile imagination can turn a dry abstract idea into something light, playful, humorous and concrete, without minimising the grimness and seriousness of the whole situation.

Similarly, Dickens's imagination plays around with the idea of "facts" which is concretised through the dominant image of the machine. This he explores from different aspects related to the contemporary scene, until the image, emerging in all its destructiveness, comes to life as a multi - dimensional symbol, pregnant with meaning on the general human level, as well as on the particular contemporary level. This image of the machine, as both fact and symbol, has such a hypnotic effect on the reader, as it appears to have had on Dickens himself, that everything in the novel is seen, one way or another, to revolve around that soulless weight which has taken on all life around it. Nothing is so dead that Dickens's imagination cannot bring it to life on the page.

Hard Times is the greatest tribute Dickens could have paid to his own imagination, nurtured in him as a child on story - telling, and which sustained him, in different ways, throughout his life. The work is equally a tribute to his vocation as storyteller and novelist and the vital role literature and the imagination can play in life, provided they are not relegated to the periphery of our existence

This quality of lightness is sensed in the fanciful fairy tale element which is as pervasive in the novel as the hard heavy "fact" imagery. It appears in scattered fairy tale references introduced for purposes of irony: the Coketwon mills are seen at night as "fairy tale palaces" which they, in fact, are, for the rich industrialists, if not for the workers; Mrs. Sparsit is the bank "fairy" or "dragon", Bounderby is the "giant" in the red brick castle, who sees his mother as "an old woman who seems to have been flying into town on a broomstick." This fairy tale element is more closely interwoven in the situation of the helpless innocent children caught in the clutches of the "murdering" giant adults, and finally rescued by the good fairy Sissy. The irony, however, is that this is, unfortunately, not a fairy tale which ends happily, but a story based on hard facts, which draws to a close on a sad note, pointing ambiguously to an uncertain future. This denudes Sissy more of her fairy touch and magic, which makes her even less weighty as a character, but adds to the power of the fact-ridden world with which she has to contend.

Nevertheless, in this "masterpiece of irony", as F. R. Leavis describes *Hard Times*, the more bound to fact the characters, the more they seem to require expression through the imagination. This is true of Mrs. Sparsit who is "not a poetical woman," and yet is obsessed with a poetic image of "a mighty staircase with a dark pit of shame and ruin at the bottom," and of Bounderby and his life story of the poor boy who makes it to the top, a tale of unadulterated fiction. This obviously answers to a human need in the driest and hardest of characters. The imagination, in the different forms it takes, thus becomes a common denominator of our humanity, bringing about some kind of balance in the life of harsh "facts".

Nowhere in *Hard Times* is the balance between "fact and "fancy" more precarious than in the schoolroom, where the children are dangerously poised between the two. The situation of the hapless children and its doubtful outcome are presented through images from the story of 'Ali Baba and the Forty Thieves'. Here the most unimaginative McChoakumchild, who sets out to destroy all "fancy" in the children, is ironically presented in terms of the fanciful stories of *The Arabian Nights*:

There is also a wide variety of characterisation, if we take the range of characters from the working class, to the middle class, to the circus group. The method of presenting character differs according to the degree of life that each character embodies and to the intensity of Dickens's satire. And his success depends on how far the nature of the character itself provides Dickens with the opportunity to exercise his genius of the grotesque. It is with the fixed menacing robotlike middle class characters confronting and bullying the malleable children, forced to go against their true nature as they are in the process of being programmed, that Dickens is at his best. Nowhere is this characterisation of the human robot more appropriate than in *Hard Times*, where it is reinforced with the equally menacing machinery which has taken on a life of its own. The ironic reversal of roles between the humans and the machine, expressed in the characterisation, sums up the thesis of the novel. On the other hand, when Gradgrind shows signs of development of feeling and change towards a three-dimensional character, he seems to disappear off the page. He loses his solidity and our interest in him wanes. This is equally true of Louisa, portrayed as a far more complex character than the others, but convincing in her masklike rigidity, implying an inner conflict, rather than in the change of feeling that comes about with her painful experience.

It always seems to be the hardness and evil that Dickens portrays best, as they provide material for his satire and irony, and his power of concrete expression and imagery. This explains why Dickens's touch is less sure with Sissy and her circus background. Few critics have felt the adequacy of this character as an embodiment of the positive values of life, when compared to the portrayal of Bounderby and Gradgrind who represent its negative values. We hardly feel her presence, which is, after all, meant to be transforming the lives of others in a quiet mysterious way, and one tends to remember her more through her evil counters, as one remembers Oliver through Fagin. To present the intangible elusive values and qualities of life embodied in Sissy - Fancy, the imagination, goodness, charity, love - requires a light touch, different from the technique of heavy emphasis and repetition used to reflect the oppressiveness of a mechanised life.

weakened with the realisation that "the muddle" is not easy to sort out. And he now leaves the choice to us as to what the quality of our lives is to be .

This hasty formal ending reflects the formal aspect of the novel as a whole. *Hard Times* is a *roman à thèse* which shows a concentration and control uncharacteristic of Dickens's earlier sprawling works. Plot, character, setting and dialogue are cut down to the bare minimum, with every detail carefully worked out to serve Dickens's vision of life, as it is and as it should be. Much of the impact of the work is due to a tautness that one associates with poetry rather than prose, and with dreams, particularly nightmares. It is ironical that such a novel, traced with almost mathematical precision, is one of Dickens's most poetic works, and should be read as a dramatic poem, rather than a realistic novel.

Dickens's three - sided vision of life in *Hard Times* is presented as in a triptych, each panel with its quality of life, seen through its setting, characters, action, movement, rhythm, texture, atmosphere, and the imagery that binds all together. The quality of each is assessed through its relation to the dehumanising machine and the humanising circus. Within this formalised framework of the novel, life is portrayed as either static or monotonously repetitive, in the process of becoming static, or naturally lively with a spontaneous flow of the feelings. These are gradations in the quality of life, worked out in concrete terms of either a mechanical or a human existence.

In presenting this three - sided vision of life, Dickens employs different techniques, introducing variety even within the same literary device. One such example is the typical Dickensian use of repetition which, coupled with changing rhythms, achieves much more than mere emphasis. The melancholy mechanical repetitiveness of working class life in Coketown becomes nervous and almost hysterical, to reflect the state of mind of the obsessed Gradgrind ruled by an *idée fixe*, thus producing a fraying of the reader's as well as the children's nerves. Here the mere change in tempo suggests a different quality of life .

In spite of the range of Sissy's influence, however, the novel does not end on a facile conciliatory note. The odds against life are very great, and the damage to the lives of Tom and Louisa has already been done. Bounderby and Mrs. Sparsit, although deflated artistically through Dickens's satirical irony, will never change, Bitzer is well on the road to becoming a fitting disciple of Bounderby's, and Stephen Blackpool, sucked into the black hole of Coketown in life, finds release only in death. All the characters, with the exception of Sissy and Sleary, are left to live out their days in loneliness, some chastened, others unrepentant. Only Sissy is seen at the end to be leading a full life as mother and wife, while Sleary, that choruslike character, finds contentment in his philosophy and self-fulfilment in his humanity.

The novel ends in a formal manner and on a melancholic note, didactically repeating the message of the work as a whole, which is now left to Louisa to apply: never despising "innocent and pretty fancy."

trying to know her humbler fellow-creatures, and to beautify their lives of machinery and reality with these imaginative graces and delights, without which the heart of infancy will wither up, the sturdiest physical machine will be morally stark dead, and the plethoric moral propriety figures on its wall the Writing on the Wall, black and red.

There is no mistaking the moral here: unless fancy and imagination are allowed to play their natural role, nurturing the finer feelings and implanting a higher morality, the fountain of life will dry up and the machine will take over. Dickens ends by addressing the reader rhetorically in a way that we have become used to in his novels. "Dear reader!" he says, "It rests with you and me, whether in our two fields of action, similar things shall be, or not. Let them be!" This open ending leaves the future uncharted, for the old easy faith that Dickens had in the power of the individual to bring about change in society has

Sissy is the true child of the circus. There is a wholeness about her well integrated personality which makes her unique in the novel. As such she serves both as a vehicle through which the positive values of the circus are carried into the middle and working class groups, and a touchstone which shows what is tragically lacking in their lives. Like Bounderby, she leaves her mark on the lives of most of the characters. Sissy's influence, however, is affected through a hardly perceptible gift of sympathetic imagination; Bounderby's, on the other hand, is of an immediate blighting effect, brought about through an absence of feeling and the imagination. The two characters have little contact, and Sissy is mercifully left untainted by his withering influence. The characters who are susceptible to her, such as all the members of the Gradgrind family - even Tom notices her - are those who show promise of change. This is true of Louisa at the beginning of the novel when she listens sympathetically to Sissy's sad story of her father, and of Gradgrind, who takes Sissy into his home when her father leaves her. This act of kindness proves to be Gradgrind's salvation, as he is amply repaid when Sissy saves his daughter from ruin and his son from prison. "It is always you, my child," Gradgrind says to her gratefully. But even before that, and in spite of his failure to teach her anything, he recognises her value as a human being: "You are an affectionate, earnest, good young woman," he says to her, "and we must make that do." His crucial discovery that "there is a wisdom of the head, and that there is a wisdom of the heart," is made through Sissy. And his own softening and mellowing, that follow upon his pain and suffering, are also seen as the change quietly brought about in his home by Sissy: "that some change may have been slowly working about (him) in this house, by mere love and gratitude; that what the head had left undone and could not do, the heart may have been doing slowly." Sissy is the one complete human being in the novel, suffering no inner rift of conflict and, in allowing her feelings to flow, she helps others towards completeness. Her influence reaches out even to the working class. For it is Sissy who discovers Stephen lying almost dead down the old Hell Shaft, thus clearing him of guilt and restoring at least his good name, if not his life.

This is the mysterious enigmatic side of human nature that cannot be explained by mere "facts", but can be nurtured and sensitised by the imagination and by direct contact with the vital springs of life.

In the physical agility of the circus performers, men, women, children and animals alike, there is the vitality of life as in their very disorder and itineracy there is its spontaneity and freedom. The circus people do not live within the confines of society and its inhuman laws, but freely on the fringes. There are no stone walls for them, no hard facts, only the gentle circular movement of the ring which binds, as the machine severs. The circus performers live in a state of harmony and interdependence, joyfully expressed through the movement and coordination of the whole body (unlike the workers who use only their hands, and the children their minds), symbolised in the human pyramid they form in the ring. Their animals are real live creatures well integrated into circus life. The menacing animal imagery of the snakes and elephants of Coketown has no place here, where all exist side by side, each performing his role in perfect harmony. Thus, at the age of two, the circus children learn to ride so well that they almost become part of the horse. Likewise, Merrylegs, the dog, is as much of a character and performer as any of the circus men and women, and is far more human than Bounderby, Mrs. Sparsit or Bitzer. Such an integrated life, unlike that of Coketown, allows for individuality, as we see in the case of Sleary, portrayed as a Dickensian eccentric and grotesque: "he is a stout man ... with one fixed eye and one loose eye, a voice (if it can be called so) like the efforts of a broken old pair of bellows, a flabby surface, and a muddled head which was never sober and never drunk." This is human individuality with its weaknesses, as compared with the inhuman self assuredness of Gradgrind and the hardness of Bounderby. The circus presents a world of variety, movement, vitality and fluidity, bound together by its sheer humanity. It is the symbol of natural life and all that contributes to its enrichment and joy, not excluding some of its sordidness, disorder and pain.

power in the ring. Gradgrind disapprovingly calls Sissy's hope of her father's return "fantastic", and Bounderby, true to nature, seeking to put an end to this "wanton waste of time" at one fell swoop, blurts out the brutal fact to the broken - hearted girl :

' Let the girl understand the fact ' , he says, ' Let her take it from me, if you like, who have been run away from, myself [which is not a fact] . Here, what's your name ! Your father has absconded - deserted you - and you musn't expect to see him again as long as you live . (Book i ch. VI).

The warm - hearted circus people who care as little for "fact" as Sissy does, see nothing but cruelty in Bounderby's "strong common - sense" : "the men muttered 'shame ! ' and the women ' Brute ! ' "

Sissy's feelings, disinterested loyal and constant, are an unknown quantity that cannot be explained. She is capable of the same instinctive love as the dog Merrylegs, who remains faithfully with Jupe, his master, until he dies, then blindly finds his way back to the circus, in some mysterious way, to tell Sissy of her father's death. Having carried out his mission, Merrylegs also dies. From both Sissy and the dog, we learn two things which Sleazy points out :

' One, that there is a love in the world, not all self-interest, after all, but something very different; t'other, ~~that~~ it hath a way of its own of calculating or not calculating, which somehow or another is at least as hard to give a name to, as the way of the dog is ! (Book iii ch. IX).

the fairies ... and the dwarf, and the hunchback and the genies." Sissy is brought up, not on an "ology", but on "that other thing needful," prohibited to the Gradgrind children. What Gradgrind calls "idle imagination" has not been quashed, but nurtured in the child. When her father is downcast, she reads him stories "to cheer his courage." "They were wrong books," Dickens ironically makes her say, "but we didn't know there was any harm in them." This, of course, is before her Gradgrind school days. These stories gave both father and daughter the sustenance they had given Dickens himself during his hard times as a child. "And often and often at night," she goes on to say, emphasising the value of these readings, "he used to forget all his troubles in wondering whether the Sultan would let the lady go on with the story, or would have her head cut off before it was finished," an unmistakable reference here to *The Arabian Nights*. This topic of story - telling and imaginative literature might seem an unlikely one in a novel on industrial England and utilitarianism. And yet it recurs, and its importance is emphasised when Gradgrind is made to "wonder", for once in his life, about the workers of Coketown taking to and finding comfort in Defoe and Goldsmith, "mere fables," as he calls them. This theme of imaginative writing is supported by the ever - present image of the circus itself which may be seen as a symbol of disinterested art whose only motive is to bring joy into the lives of people, and which serves as a counterbalance to the profit - making "dark satanic mills " of Coketown.

It is significant that in the context of Sissy's account of the readings to her father, there emerges the image of a human relationship that has no equivalent in the middle class group. This is a relationship between father and daughter, that is not only built upon warm human feelings but is cemented with a shared experience of the imagination; it is the exact opposite of the cold distant relationship between Louisa and her father whose shared dry facts and utilitarianism only serve to keep them apart. Facts have nothing to do with Sissy's relationship to her father which is kept alive with dreams and hopes, long after Jupe has dropped out of her life, wishing to relieve her of the responsibility of a father who has lost his entertaining

his factual answer : " The circulation, Sir . . . couldn't be carried on without one. No man, sir, acquainted with the facts established by Harvey, relating to the circulation of the blood, can doubt that I have a heart." Bitzer, like Gradgrind, cannot understand metaphorical language, particularly when it relates to the feelings. Everything for him is self-interest, and he goes on to explain the principle of utilitarianism : " I am sure you know that the whole social system is a question of self-interest. What you must always appeal to, is a person's self-interest." When Gradgrind offers Bitzer money, it turns out that he has already carefully weighed the profit and loss of such an offer and has come to the conclusion : "to compound a felony even on very high terms indeed, would not be as safe and good for me as my improved prospects in the Bank." Gradgrind makes a final appeal to Bitzer to disregard his present self-interest and to show some gratitude for the "pains bestowed" upon him at school. Again his answer comes in terms of his schooling having been a bargain struck and a bargain ended. He even sees himself, as we ourselves come to see him, as a marketable commodity to be sold at the greatest profit. " I don't deny," he says, "that my schooling was cheap. But that comes right, sir. I was made in the cheapest market, and have to dispose of myself in the dearest " (Book iii ch. viii). This is indeed Carlyle's "cash-nexus" with a vengeance, where "every inch of the existence of mankind from birth to death," according to the Gradgrind philosophy, "was to be a bargain across a counter." Bitzer, this cold-blooded subhuman creature, is the perfect model of utilitarianism, the type that promises to develop into an even more callous and repulsive Bounderby.

Gradgrind's greatest failure is with Sissy, the circus child, who is as impervious to his system as Bitzer is susceptible to it. Gradgrind's failure is the triumph of life itself and all that has gone to nurture it in its early stages. By the time Sissy joins the Gradgrind school, she has already had an upbringing that will stand her in good stead for the rest of her life, guaranteeing her incorruptible childlike innocence. Her fancy and imagination have developed naturally during her formative years. The "happiest ... of all the happy times" she had with her father, were those when she read to him "about

her to marry Bounderby for his own advancement. His life becomes one of degeneracy and ultimately crime. Tom sketchily drawn in general terms and cursorily presented as the "whelp", does not have the power to move the reader as Louisa does. Nevertheless, he contributes to the ironic turn that the plot takes, when this "model child" seeks refuge among the much despised circus people who save him from arrest. Here he appears in the disguise of a circus clown :

In a preposterous coat, like a beadle's, with cuffs and flaps exaggerated to an unspeakable extent; in an immense waistcoat, knee - breeches, buckled shoes, and a mad cocked hat; with nothing fitting him, and everything of coarse material, moth - eaten, and full of holes; with seams in his black face where fear and heat had started through the greasy composition daubed all over it . (Book III (ch. V).

This grotesque appearance, like that of a monkey dressed up, makes a mockery of the father's rational philosophy, which is now being thrown back in his face in this tragicomic shape. The image in this final scene, complements that of Louisa at her father's feet : the one sardonic, the other melodramatic, and both living examples of the failure of the Gradgrind system.

The perfect triumph of the system is Bitzer, the cold bloodless boy, whose "skin was so unwholesomely deficient in the natural tinge, that he looked as though, if he were cut, he would bleed white. " He is the one child in the novel who absorbs the system without the least resistance to it. But Gradgrind's success, like his failure, rebounds on him, for it is Bitzer who, in his own self interest (he wants Tom's job in the Bank), is determined to track down Tom and bring him to justice for robbing Bounderby's bank. As a much chastened Gradgrind pleads with Bitzer for Tom's safety, his own hard philosophy raises its ugly head at him; when the broken - down father asks Bitzer, "have you a heart," Bitzer promptly gives

which she had learnt as a child. She rapidly sums up the situation, as if she were working out in her computer - like head a mathematical problem that yields only one possible correct answer : " Mr Bounderby ... asks me to marry him. The question I have to ask myself is, shall I marry him ? This is my father, is it not ? ... to accept his proposal." Finally, in a symbolic gesture, the whole of Louisa's worried life - past, present and future - is revealed as "she closed her hand, as if upon a solid object, and slowly opened it as though she were releasing dust or ash." And with her engagement, that "solid object," which is nothing but "dust and ash," becomes a substitute for that intangible human feeling of love :

Love was made on these occasions in the form of bracelets : and , on all occasions during the period of betrothal, took a manufacturing aspect. Dresses were made, jewellery was made, cakes and gloves were made, settlements were made, and an extensive assortment of facts did appropriate honour to the contract. The business was all fact from first to last. (Book i ch. XVI).

Thus Louisa moves from her father's world of facts to her husband's.

The crisis comes when Harthouse, a calculating politician from London, himself bored with life, promises her a release from this fact - ridden existence. She balances precariously on the edge of adultery, but finally escapes to her father's home where she, "the pride of his heart and the triumph of his system," collapses and lies "an insensible heap at his feet." In this melodramatic scene, Louisa becomes a living symbol of the failure of the Gradgrind educational system and a victim of its utilitarian philosophy.

This failure is further apparent in the psychologically sound development of Tom into a self - seeking heartless young man who exploits his sister's love for him by inducing

is the insurmountable barrier that stands between him and his daughter, preventing her from appealing to him. This scene, saturated with irony and replete with implication and reticence which powerfully suggests the hidden feelings of pride and shame smouldering in Louisa's breast, of which the father is altogether unaware, is one of the most memorable in the novel. Here, the short cryptic sentences, expressive of the dry philosophy upon which Louisa has been brought up, convey the tragic success of Gradgrind's system, which is also responsible for the annulment of the human relationship between him and his daughter as it appears in this chapter, ironically entitled "Father and Daughter". For the first and last time, Louisa uses the word "love" which has no place in her father's vocabulary and which, for all his understanding, might well have been a foreign word. In a dialogue, where "father" is emphatically repeated, partly cynically and accusingly, and partly appealingly, Louisa, young enough to be Bounderby's daughter, inquires about the nature of her relationship to him as suitor and future husband. The "stern room, with a deadly statistical clock in it, which measured every second with a beat like a rap upon a coffin - lid , " and " the high chimneys and the long tracks of smoke looming in the heavy distance gloomily, " which serve as background to the hollow dialogue, are ominous. They threaten Louisa, as Bounderby's future wife, with a meaningless existence of unrelieved monotony, which she can foresee, having already experienced a similar bleakness as a child. The feelings she has had to hide in childhood, she now continues to keep under control as an adult. The proud victim of a lifetime of suppressed feelings, she appears hard and cold, and can only hint metaphorically at the fire that burns within her. As she turns to the chimneys of the Coketown works, we see the parallel that Dickens draws between the dry soulless lives of the children and those of the workers, and the danger that lies beneath the surface in both cases. "There seems to be nothing there, but languid and monotonous smoke," says Louisa, "yet when the night comes, fire bursts out." Such metaphorical language, however, is beyond Gradgrind's understanding, who cannot "see the application of the remark." With this complete breakdown of communication, Louisa gives her consent in the mechanical formula of question and answer

"mere" fables, and fictional works of such writers as Defoe and Goldsmith. It is clear, from this tendency in older people to read non factual writings, that such a trait is a natural and essential part of human nature that cannot be eradicated, unless the child is caught at an early age and all "nonsense" knocked out of him. Even Gradgrind himself, we are told, never ceased to wonder "at this eccentric sum, and he never could make out how it yielded this unaccountable product." This mystery is obviously a "sum" that he was incapable of solving simply because living creatures are not reducible to figures and facts.

The inadequacy and, what is more, the grave danger of Gradgrind's utilitarian system, are exposed, through the plot, in the unhappy lives of Louisa and Tom as adults, and in the pain that their father experiences on their account, as he realises his own failure, both as father and educationalist. This realisation, however, is a gradual process and, because of its centrality to the main thesis of the novel, is highlighted through two vividly dramatic scenes (Book i, ch. xv and Book ii ch. xii). These are related to Louisa's loveless marriage - before she has entered into it and after it has broken down. They serve to show the change that takes place in father and daughter and in their relationship to one another, such change as demands a fuller sense of character and a subtler presentation than we are used to in Dickens's earlier novels.

Mr. Gradgrind, we learn, right from the beginning of the novel, is not, in spite of his dry utilitarian philosophy, altogether "hard"; "he was an affectionate father, after his manner, but he would probably have described himself as an eminently practical father." This explains the hidden unease he feels when he approaches his daughter on the subject of Bounderby's proposal of marriage. He is obviously delighted at her rational response and final acceptance of the offer which demonstrates, in practical terms, the success of his educational system. At the same time, his own embarrassment and hesitation on telling her of the proposal, coupled with his surprise at the lack of show of feeling on her part, reveal that Gradgrind is not without feeling. He does not seem to be altogether certain of the wisdom of this marriage, although he has no doubt about its practicality. But it is this practicality that

the natural growth of organic life, points ironically at the unnatural development of the children subjected to Gradgrind's "fact forcing" education. The school that had taught them that flowers should not be represented on carpets, birds or butterflies painted on crockery, or horses on walls, stifled their fancy. "You mustn't fancy" McChoakumchild cries out to Sissy, "That's it ! You are never to fancy." And when Louisa and Tom are discovered trying to catch a glimpse of "but a hoof of the graceful equestrian Tyrolean flower - act," they are treated as if caught red-handed in a criminal act. This, Gradgrind considers a vulgar curiosity which has its rise in "idle imagination," "a very bad thing for anybody." The children are strictly prohibited from "wondering," and in a chapter entitled "Never Wonder", the order is repeated several times, in the same way that "fact" is repeated elsewhere. Gradgrind's boast is that with his "mechanical art and mystery of educating reason," he guarantees that no "babe just able to walk," brought under his tutelage, will ever "wonder." This is true of his own children as a result, not only of their education, but of their strict upbringing at home, where they are taught no nonsensical nursery rhymes that might have nourished their fancy :

No little Grdgrind had ever seen a face in the moon. No little Grdgrind had ever associated a low in a B&O with that person's body. In contrast, I was familiar with that old man. I knew very well who was waving his hand. I think I had never before of these color films, and had only been introduced to a low as a pair of iron rods terminating and draped with several strands. (Book 1, p. 11)

Gradgrind has consistently been very careful with his children and has kept them away from any hint of "fancy."

Grown ups, however, who had not had the "fortune" of being exposed to the Gradgrindian system, persisted in wondering about the incalculable and intangible : "human passions, human hopes and fears, triumphs and defeats, the cares and joys and sorrows, the lives and deaths, of common men and women," this being brought on by their reading of

powers." Sissy is incapable of thinking of people in terms of figures and statistics. For her the prosperity of a nation lies not in the amount of wealth it has, but in how it is distributed, and in whether any of it is hers. Her greatest failure is in her inability, "after eight weeks of induction into the elements of political economy," to answer correctly the question on the principle of that science, her answer being : " to do unto others as I would that they should do unto me " (Book i ch. ix). Sissy proves impervious to the Gradgrind educational system and fails to learn anything through it. What is more, she becomes "low-spirited, but no wiser."

It is the effect that this kind of dry mechanical instruction has on the children, their lack of spirit and their stunted development, that lies at the heart of the novel, the children themselves - Louisa, Tom, Sissy and Bitzer - being central to the work.

Like the workers, the children experience no joy in life. As with Stephen Blackpool, so with Tom and Louisa, they are old before their time, and suffer from the same world-weariness. "I am sick of my life ... I hate it altogether," says Tom. And he refers to Sissy who is beginning to show the ill effects that this enforced education is having upon her: "Arcady she's getting as pale as wax, and as heavy as - I am." Louisa expresses the same weariness when she and her brother are caught by the father peeping in at the back of the circus booth at "Sleary's Horse-riding," striving to get a glimpse of the "hidden glories of the place" - a hint at the fun they are missing: when the father asks Louisa why he had found them in "this degraded position," the following dialogue ensues : "I was tired, father, I have been tired a long time." "Tired of what," asked the astonished father . "I don't know of what - of everything, I think". (Book i ch. iii). It is as though life were being drained out of her.

There is a serious lack in the children's lives, something unnatural that will take its toll with the development of the plot, showing the collapse of Gradgrind's mechanistic educational system. This is ironically suggested in the titles chosen for the three Books of the novel : "Sowing", "Reaping", "Garnering". Apart from the cautionary note in these titles, their reference to

father calls her. Gradgrind significantly refuses to use the diminutive, because he will not see her as she really is, that is as a child. Worse still, she is not even human, merely one of the many "little pitchers ... who were to be filled so full of facts," one of the "inclined plane of vessels ... arranged in order, ready to have imperial gallons of facts poured into them until they were full to the brim." How does one recognise one "pitcher" or "vessel" from another? Added to the fact that the children are denuded of their personality and seen as lifeless objects, is the futility of the type of education they are receiving which, in turn, teaches them to see any form of life as made up of a collection of facts. When the child Bitzer defines a horse as "Quadruped. Graminivorous. Forty teeth, namely twenty four grinders, four eye-teeth, and twelve incisive. Sheds coat in the spring; in marshy countries sheds hoofs too. Hoofs hard, but requiring to be shod with iron. Age known by marks in the mouth," one is none the wiser as to what a horse is. It is clear that living things lose the essential quality of life once they are atomised and torn apart in this manner. The "horsiness" of the horse is lost in this listing of its factual details, so that it is no longer recognisable. The irony here is that Gradgrind then turns to Sissy, the circus child who has lived with horses all her life, and says: "now girl number twenty ... you know what a horse is" (Book i ch. ii). Dickens leaves the reader to gauge the child's bewilderment, as she blushes deeply.

Sissy, whose mother was a dancer and father a circus clown, is unique among the children at the Gradgrind school. Brought up among the circus people and their animals, her early background has been entirely different from that of the middle class Gradgrind children who, "as soon as they could run alone ... had been made to run to the lecture room." She has known the free activity of the body among the agile circus performers and their horses, and the fulfillment in bringing joy to others through simple entertainment motivated by no self interest. When Sissy goes to the Gradgrind school at her father's request, she proves a complete failure in Mr. Gradgrind's eyes, who says to her: "You are extremely deficient with your facts. Your acquaintance with figures is very limited. You are altogether backward and below the mark ... I can only suppose that the circumstances of your early life were too unfavourable to the development of your reasoning

substitute for the tender young imaginations that were to be stormed away. " Here the hard machine is clearly set against the tender imagination.

The same hardness appears in the portrayal of Mr. Gradgrind whose surroundings and physical attributes are an indication of his stonelike impenetrability. His home is called "Stone Lodge" and his body reveals a hard angularity, occasionally relieved by cavities of darkness : he had a "square wall of a forehead, which had its eyebrows for its base, while his eyes found commodious cellarage in the dark caves, overshadowed by the wall" ; the mouth was "wide, thin and hardset", and the voice was "inflexible, dry, and dictatorial. " The rest of the body is angular and resistant : Dickens refers to his "obstinate carriage, square coat, square legs, square shoulders." This man of facts has his feet firmly planted on the ground, and there is no way of moving him. There is a certainty about him that reflects the certainty that two plus two equals four. And "with a rule and a pair of scales, and the multiplication table in his pocket" he is "ready to weigh and measure any parcel of human nature." Life for him is "a mere question of figures, a case of simple arithmetic, "and the human being is weighable in such terms. In a mechanical world of certainty, where two plus two cannot but equal four, there is no room for aberration or individuality. This is, indeed, a fixed dead world.

Gradgrind's utilitarian philosophy is rather crudely underlined by the fact that he has called two of his sons after well known British economists : Adam Smith, the exponent of *laissez-faire*, and Malthus, who believed that war and disease were a way of killing off the excess population who would otherwise starve to death in a capitalist society. The inhuman attitude to life embodied in the cut - throat economics of *laissez-faire* and the population theory of Malthus, is reflected in Gradgrind's utilitarian educational system, where the children are brought up on dry facts, and are themselves treated as soulless figures. Sissy, the circus child, is addressed by Gradgrind as : "Girl number twenty, and "squarely pointing with his square forefinger", he fails to recognise her : "I don't know that girl. Who is that girl ? " he asks. Even when he finally puts a name to her, it is Cecilia and not Sissy, as her

This repetition of the word "Facts" with monotonous regularity establishes a heavy beat not unlike that of the Coketown machinery with its pistons moving up and down. Sometimes the beat becomes more rapid and emphatic as if the mad "elephant" has run amuck :

' Fact, fact, fact! ' said the gentleman.
And 'Fact, fact, fact!' replied Thomas Gradgrind. 'You are to be in all things regulated and governed, ' said the gentleman, 'by fact. We hope to have, before long, a board of fact, composed of commissioners of fact, who will force the people to be a people of fact, and of nothing but fact ! ' (Book i ch. II)

Gradgrind maintains that only facts can form the "minds of reasoning animals. " Such a belief reveals the distorted view he has of the nature of humans and particularly of children. Just as for Bounderby the workers are mere "hands," so for Gradgrind the children are mere "reason". Even if this were true of grown ups, which it is not, it is certainly not true of children. But Gradgrind is incapable of distinguishing between a child and an adult, and one of the drawbacks of his system of education is that the child is never allowed to be a child. Louisa makes this clear when she says to her father : " you have been so careful of me that I have never dreamt a child's dream. You have dealt so wisely with me, father, from my cradle to this hour, that I never had a child's belief or a child's fear. " In his answer, Gradgrind boastfully confirms what Louisa has indicted : " It has always been my object, " he says, " to educate you, as that you might, while still in your early youth, be ... almost any age. " The way to achieve this is through "fact forcing", for "fact" is " the one thing needful. " The violence done to the child in the process is clearly suggested in the image of Mr. Gradgrind as a "kind of cannon loaded to the muzzle with facts, and prepared to blow them [the children] clean out of the regions of childhood at one discharge." The idea of violence is further coupled with the image of the mechanical substitute for the imagination : " Gradgrind seemed a galvinising apparatus, too, charged with a grim mechanical

forcing " that leads to the deterioration of his mental as well as his physical health , until he finally dies . Such a method of cramming which forced children to memorise facts , had , it was obvious to Dickens , little to do with true education . Despite Dickens's criticism of the system , however , the school in *Dombey and Son* inspires a great deal of Dickensian fun and humour . In *Hard Times* , on the other hand , the satire on the Gradgrind system of education leaves little room for the mirth and exuberance of the early Dickens , for this is a system that robs the children of the very feeling of life itself .

The names of McChoakumchild and Gradgrind are appropriate to a method of education that chokes the child with information that is rammed down its throat , and keeps it at the grindstone learning by rote meaningless definitions and dry facts . There is little difference between the school and the factory , each functioning within a system of mass production , whether of goods , information or humans . The teachers , no less than the children they teach , are mass produced : McChoakumchild and " some one hundred and forty other schoolmasters had been lately turned out at the same time , in the same factory , on the same principles , like so many pianoforte legs . " All these masters " had been put through an immense variety of paces and had answered volumes of head-breaking questions . " Trained in this uniform manner , they inevitably set out to educate the children in a similar way . Dickens's comment on the McChoakumchild training and teaching is : " If he had only learned a little less , how infinitely better he might have taught much more ! " But no amount of forced information would satisfy Thomas Gradgrind , formerly of " the wholesale hardware trade , " the man of " facts and calculations , " who himself appears almost as an impenetrable robot , as he goes about repeating what he expects of children's education :

Now, what I want is , Facts. Teach these boys and girls nothing but Facts. Facts alone are wanted in life. Plant nothing else, and root out everything else. You can only form the minds of reasoning animals upon Facts ... stick to Facts , Sir !

theory of human nature , and to the children brought up on this theory . Mrs . Gradgrind's family life has been so ruled by her husband's " ologies " that she degenerates , fades away and dies . On her deathbed she mentions something , " not an ology at all , " that her husband has missed or forgotten and that she too has consequently missed , and the absence of which has made her life one of pain . When her daughter Louisa asks her if she is in pain , she is unable to actually locate any as a physical fact , but says : " I think there's a pain in the room , but I couldn't positively say that I have got it . " The pain , in fact , is that of her whole married life , brought about by the dry Gradgrind philosophy that has inevitably found its way from the Gradgrind school into the home . Life in Stone Lodge goes on " monotonously round a piece of machinery " , the same as in the factory and the school .

" Is it possible , I wonder , " Dickens asks in the novel , " that there was any analogy between the case of the Coketown population and the case of the little Gradgrinds ? " The answer is " yes " , for both are the product of an age dominated by the machine and its consequent mechanistic view of life . Gradgrind's intellectual system is the counterpart of Bounderby's political economy . In both cases the process of dehumanisation is seen at work , with the children becoming mere " vessels " or " pitchers " to be filled with " facts " , as the workers are " hands " or tools to produce facts in the form of goods and wealth . With such an attitude to human nature , the quality of life is impaired , and not least when it involves the child at a tender age .

Dickens's never-wavering interest in the child as the most vulnerable element in society , was bound to direct his attention to the educational system of his day . In his novels , where some twenty eight schools appear , he shows a genuine concern about conditions in schools and the inadequacies of education . In *Nicholas Nickleby* he exposes the appalling physical conditions in Dotheboys and the horrors that Smike undergoes at the hands of Squeers , the inhuman schoolmaster . In *Danby and Son* , the mental suffering of the child at Dr. Blimper's establishment occupies a large part of the novel : young Paul , only six years old , is the victim of a " system of

The "tough little bird" might well be Louisa, whose marriage to Bounderby Mrs. Sparsit would like to see ruined. Fortunately Mrs. Sparsit is only an ineffectual old woman, no matter how witchlike she may appear, and she does not wield the actual power of her master in society. Her sphere of influence is narrow and she functions within the family, dangerous though that may be, as we see when she manoeuvres to get Louisa involved in an affair with Harthouse. The reader is finally relieved to discover that Louisa's fall, in the form of her descent of a "Giant staircase," takes place only in Mrs. Sparsit's dark twisted mind, which is counteracted by the positive disinterested action of Sissy who saves Louisa from an almost certain fate. But no matter how ineffectual Mrs. Sparsit is in her grasping self interest, she is portrayed as a "witch", a female counterpart of Mr. Bounderby the "ogre."

Mrs. Gradgrind, that "little, thin, white, pink-eyed bundle of shawls, of surpassing feebleness, mental and bodily," is a foil to Bounderby in exactly the opposite way from Mrs. Sparsit. In the case of the Barnaby-Sparsit alliance each boosts the egoism of the other to his or her own personal advantage. They are, in fact, a perfect match for one another. Mrs. Gradgrind, on the other hand, offers little or no challenge to Bounderby who "invariably stunned her by some weighty piece of fact tumbling on her", every time she "showed a symptom of coming to life." In the comic scene between these two characters, Mr. Bounderby takes up "a commanding position from which to subdue Mrs. Gradgrind." "And whenever she ventures a solicitous remark, as she listens to his boastful lying account of his life struggle from early poverty to great wealth, he squashes her completely. Here, Bounderby's egoism, which allows for no one else's existence but his own, is exposed even in the flatness of Mrs. Gradgrind's character portrayal which ultimately vanishes into the "transparency of a small female figure" (Book i ch. iv).

Mrs. Gradgrind, however, is a far more serious victim of her husband's because of the intimate and more permanent nature of their relationship. As wife she has lived in close proximity to a husband who believed in a crude mechanistic

Coketown pollutes all that comes in contact with it . The irony of this character , however , who insists on his " never suppressing the facts of his life , " is that the story he proclaims , of having raised himself from an abandoned babe in "an egg box " to a wealthy manufacturer and banker , is a hoax . The only " fact " about his life , apart from his greed and wealth , which he accuses the workers of coveting , is his name on the brass plate and the hard metallic quality that emanates from it . It is not , then , by mere coincidence that the character of Bounderby and his machinery provide the hard core of the novel where the epithet " hard " figures prominently in the title .

Bounderby is flanked on either side by two perfect foils : Mrs . Sparsit and Mrs . Gradgrind , two women characters immediately recognisable as examples of typical Dickensian satirical humour . Mrs . Sparsit is a female Bounderby who embodies the same hardness , and ruthless self interest as her employer does . She is his housekeeper and guardian of his wealth : the " Bank Fairy " as she sees herself , and " the Bank Dragon , keeping watch over the treasures of the mine , " as the townspeople more appropriately call her . As a woman of supposed gentility , no less dubious than Bounderby's humble origin , she serves to inflate his self-importance by flattering him to his face , but goes about insulting his portrait in secret - such is the power of money and the snobbery of a society based on that power . It is , however , Mrs . Sparsit's cruelty and rapaciousness in her wish to protect her selfish interests , Mr . Bounderby being one of them , that Dickens underlines . As he draws her heavy eyebrows and hooked nose , the image of a bird of prey emerges :

Mr. Bounderby sat looking at her , as with the points of a stiff , sharp pair of scissors , she picked out holes for some inscrutable ornamental purpose , in a piece of cambric . An operation which , taken in connexion with the bushy eyebrows and the Roman nose , suggested with some liveliness the idea of a hawk engaged upon the eyes of a tough little bird . (Book i ch . xvi)

we leave the more sentimental generalised image of the working class group and turn to the world of vivid individualised characters .

Bounderby , the loud unfeeling braggart and liar , dominates *Hard Times* in no less uncertain terms than his own Coketown machinery . Alongside the machine , the main tangible " fact " in *Hard Times* , Bounderby is the next inescapable " fact " . In appearance , speech and behaviour he embodies the utilitarian principles of a competitive materialistic economic system based on self interest . As he boasts , in an inverted snobbery , of the humble origin from which he professes to have risen , he exposes Victorian " rugged individualism " in its most vulgar and aggressive form . His greed for power and material gain that blinds him to all but his own self interest , leave no room for human feeling , not even for his mother who , in spite of her son's riches , is altogether rejected by him . " An inflated balloon , " as Dickens describes him because of his boasting , Bounderby , nevertheless , has a solid presence which is impossible to ignore . And although he is not constantly on the scene , he has a finger in every pie , and , therefore , a significant role in the plot . He owns the Coketown factory and bank , is master of the workers , employer of Tom Gradgrind and husband of Louisa his sister . His pervasiveness is like the oil and smoke of Coketown that find their way into every corner , clinging to human and non-human alike . The image of the " inflated balloon " characterises his inflated , unfeeling boasting , but not the " solid presence " of his character which others , as he speaks , throw out of his way . However , the inflated image of the balloon is counteracted by an image of hardness to reflect his materialism and utilitarianism . This appears , as David Lodge points out , in the use of the keyword " metallic " : Bounderby is first presented as " a big , loud , powerful , metallic figure " , the " metallic " quality being then repeated in " that brassy speaking trumpet of a voice . " The name Bounderby (a particularly felicitous choice on Dickens's part) appears everywhere : on his front door , at the entrance of his bank , and always on a " brazen plate , and a round brazen door-handle underneath it , like a brazen full stop . " There is no getting away from this abrasive character whose ubiquity rudely invades the senses , just as

to adorn their lives so much in need of ornament ; or , in the day of your triumph , when romance is utterly driven out of their souls , and they and a bare existence stand face to face , reality will take a wolfish turn " (Book II ch . VI) . The word "ornament " may not be an altogether happy choice here , for the fancies and affections , as Dickens never tires of repeating , are the very nourishment of life . There is , however , no mistaking the warning and the note of urgency contained in the call . Even when Dickens comes down to the bare minimum of entertainment and the simple joys of life , he finds them lacking : " the craving ... for some physical relief - some relaxation , encouraging good humour and good spirits , and giving them a vent - some recognised holiday , though it were but for an honest dance to a stirring band of music " (Book I ch . V) . None of this is satisfied . The whole of society , including the church , Dickens felt , was in league in its inhuman austerity against the working class . Sunday , the one day of the week when the workers might have been allowed to break away from the deadly routine of their lives during the rest of the week , was a day of even greater oppressiveness . In strict adherence to the Victorian Sunday everything , all the shops , all the places of entertainment , even the museums were closed . When the workers did seek relief in drink and low entertainment , as were available , they were branded as immoral and " a bad lot altogether . "

This inhuman face of society is embodied in the character of Josiah Bounderby , the banker and mill owner , who sees his workers as " restless " , never satisfied and totally ungrateful . As he describes them living " upon the best " : mocha coffee , fresh butter and the prime parts of meat , doing " the pleasantest work there is , " and " the lightest work there is , " and " the best work there is , " we enter into a different sphere in the novel , that of the wealthy middle class who see life in terms of " turkey carpets , " " turtle soup and venison " and " gold " spoons . Bounderby , who spans the insurmountable distance between the working and middle class groups in the novel , is a Jonsonian type who , together with his two foils , Mrs . Gradgrind and Mrs . Sparsit , is an example of Dickens's genius for satire through characterisation . With him

loves and likens , wi'out memories and inclinations , wi'out souls to weary and souls to hope ... " (Book ii ch . v) . By refusing to be just " hands " the workers are , in fact , an embarrassment to their masters . The workers , Dickens ironically remarks , are " a race who would have found more favour with some people , if providence had seen fit to make them only hands , or , like the lower creatures of the seashore , only hands and stomachs . "

Dickens sees the problem of the working class essentially in its human dimensions . For him the worker is neither a " hand " nor a machine , and to see him in that light and to treat him accordingly , is to do violence to life , dehumanising exploiter as well as exploited . Man is not a solid hard fact that can be weighed and measured . There is a mystery about him that must be respected , as Dickens explains in the following passage which is central to the novel :

It is known , to the force of a single pound weight , what the engine will do ; but , not all the calculators of the National Debt can tell me the capacity for good or evil , for love or hatred , for patriotism or dis - content , for the decomposition of virtue into vice , or the reverse , at any single moment in the soul of one of these its quiet servants , with the composed faces and the regulated actions . There is no mystery in it { the machine } there is an unfathomable mystery in the meanest of them , for ever . (Book i ch . XI)

If only for practical reasons , the incalculable and unmeasurable should not be ignored . Dickens was sufficiently aware of the non material needs of man to understand that the regimentation of the workers ' lives required an outlet which , if not provided , might well lead to disaster . Greatly disturbed like many of his contemporaries , by the threat of industrial unrest , Dickens was quick to realise that there is a side of man's nature that demands release from the deadly monotony and regularity of a machine-like existence . Thus , both for the individual's mental health and for the stability of society , and " while there is yet time , " Dickens calls for the cultivation in the poor of " the utmost graces of the fancies and affections ,

Stephen Blackpool, already old and bowed at the age of forty, his estranged drunken wife who reappears at intervals to rob him of his peace of mind and remind him that there is no escape from his hard life, and the factory owner, a cold, calculating, unfeeling, and unscrupulous man, who is the cause of the suffering and death of the workers. The novel is a study in the lives of the working class, and it is a study in the lives of the working class. The novel is a study in the lives of the working class, and it is a study in the lives of the working class. The novel is a study in the lives of the working class, and it is a study in the lives of the working class.

None of these working class characters is individualised in typical Dickensian fashion. In the shadow of the machine there is no room for individuality and none for humorous satire, which explains the tendency to sentimentalise, or at least to idealise Stephen and Rachael. When the workers are referred to in the mass, they are understandably presented as mere shadowy faceless figures, whose existence we are aware of only through the clattering of their clogs upon the pavements, or the sight of their shawled bodies as they emerge from the factory. These are the Victorian counterparts of Eliot's *Waste Land* crowd, the many whom death "had undone." Even Stephen Blackpool, the leading working class character, is equally shadowy, as he is presented in general terms untypical of Dickens. He is forty years of age; he "looked older, but he had had a hard life ... A rather stooping man, with a knitted brow, a pondering expression of face, and a hard-looking head sufficiently capacious, on which his iron grey hair lay long and trim." We see him as an honest person capable of love and tenderness but passive and unfulfilled, a victim type. The one memorable thing about him is his repetitive comment on the situation, echoing Dickens's own apolitical thoughts: "It's 'aw a muddle."

Although Stephen Blackpool is not a successful portrait of a working class character embodying crucial working class issues, his encounter with Bounderby brings out the theme of the class struggle between capital and labour. Here he strikes the note of resentment at the treatment of the worker as a machine, rather than a unique human being with a soul: in Stephen's words, "ratin' em as so much power, and reg'latin' em as if they was figures in a soom, or machines; without

No temperature made the melancholy mad elephants more mad or more sane . Their wearisome heads went up and down at the same rate , in hot weather and cold , wet weather and dry , fair weather and foul . The measured motion of their shadows on the wall , was the substitute Coketown had to show for the shadows of rustling woods .

(Book ii ch . I)

The natural rhythm of life , suggested in the nature imagery , has been violated , and in its place is a dead mechanical rhythm . This rhythm is repeated in all aspects of life in Coketown , where everything is of " one interminable uniformity " : the streets , the houses , the public buildings and the very lives of the workers . Nowhere else in Dickens does his use of the repetition of words and the flat rhythm of the sentences convey so emphatically the meaninglessness of life without colour and variety , and the dead weight of time that hangs over it : Coketown

contained several large streets all very like one another , inhabited by people equally like one another , who all went in and out at the same time , with the same sound upon the same pavements , to do the same work , and to whom every day was the same as yesterday and tomorrow , and every year the counterpart for the last and the next . (Book i ch . v)

This is the world of the machine where everything , not excluding humans , is mass produced .

It is not the poverty of the working class that Dickens is concerned with in *Hard Times* , but the unrelieved drabness of their lives which promises no change till death brings release . Their empty joyless existence is captured in the tired tones of Stephen Blackpool's voice , the heavy rhythm of his interminable sentences with the repetition of " and " at every pause , as if summed up his life and that of his fellow workers . The rhythm is broken only with the mention of death :

' Look how we live , an ' , wheer we live , an ' in what numbers , an ' by what chances , and wi ' what sameness ; and look how the mills is awlus a-goin ' , and how they never work us no higher to any dis'ant object - ' ceptin awlus , Death . ' (Book ii ch . V)

male ; and " fact , fact , fact , everywhere in the immaterial " : the inhabitants and all things living . However , the one object that strikes a reader as being alive , if only because of its constant motion , and the power it wields over the life around it , is the steam - engine , whose piston " worked monotonously up and down , like the head of an elephant in a state of melancholy madness . " The soulless machine , well polished and shining , takes on a life of its own , impossible to ignore , as it appears against the surrounding darkness . It invades the senses with an aggressiveness that is constantly calling attention to its overbearing presence , very much like the loud Mr Boudierby with his metallic voice and inflated appearance . There is the " crashing , smashing , tearing piece of mechanism " and there are " the factories , looming heavy in the black wet night - their tall chimneys rising up into the air like the competing towers of Babel " (Book i ch . v) . The pollution of the machine seeps into the skin as well , when , on a hot summer day " the whole town seemed to be frying in oil . There was a stifling smell of hot oil everywhere . The steam-engines shone with it , the dresses of the ' hands ' were soiled with it , the mills throughout the many storeys oozed and trickled it " (Book ii ch . I) . The haze of smoke that emerges from the mills , enveloping the town , sinks even deeper , leaving its taint on the minds and souls of the Coketown inhabitants . Stephen Blackpool's name is not idly chosen . His life , like that of his fellow workers , is engulfed , from birth to death , in this darkness . Coketown , " impervious to the sun's rays , " is a place benighted : it

lay shrouded in a haze of its own ... you could only know the town was there , because you knew there could have been no such sulky blotch upon the prospect without a town . A blur of soot and smoke ... a dense formless jumble , with streets of cross light in it , that showed nothing but masses of darkness in it . (Book ii ch . I)

Menacing as the darkness is , there is something even more menacing : the monotonous persistent rhythm of the machine , beating time as the lives of the Coketown inhabitants waste away :

What he requires for children , in the way of fancy and imagination , expressed in a letter to Angela Burdett-Coutts: "a little more fancy among children and a little less fact (*Letters from Charles Dickens to Angela Burdett - Coutts , 1841- 1865* , ed . Edgar Johnson , 1953 , p 235) , " he requires of the broad spectrum of characters in *Hard Times*.

" More fancy ... less fact , " as Harvy Stone says (*Dickens and the Invisible World* 1979 , p. 16) , might stand as an epigraph for this novel .

.

" They wanted facts , Facts . They demanded facts from him , as if facts could explain anything ! " This is what passes through the mind of Conrad's Lord Jim at the official inquiry into his jumping off what he " imagined " was a sinking ship . Nobody could have agreed with Lord Jim more than Dickens that there is more to life than just hard dry facts . *Hard Times* is a moral fable that deals with the consequences of seeing human life within the narrow framework of " facts " to the exclusion of the far-ranging imagination and all that it stands for in Dickens .

The one inescapable tangible fact in *Hard Times* is the machine . The setting of the novel is an industrial town of the North of England which Dickens appropriately names Coketown . Like the fog in *Bleak House* and the prison in *Little Dorrit* , the machines of the Coketown cotton mills dominate *Hard Times* both literally and symbolically . They are the fact that explains the thwarted lives of both working and middle class characters , adults and children alike . Of the three groups of characters in the novel : the Stephen Blackpool working class group , the Bounderby - Gradgrind middle class group , and the Sissy Jupe circus group including the dog Mer-rylegs , only the third is outside the sphere of the machine . This itinerant group remains on the periphery of the town and , therefore , out of reach of the clutches of the machine .

Coketown with its machinery is described as a " triumph of fact " : " fact , fact , fact everywhere in the material aspect of the town " : the buildings , the streets and all things inani-

telling in his *Autobiographical Fragment* and *David Copperfield* is the fact that he mentions it at all . So crushed was Dickens by the humiliating warehouse experience that it is surprising that he should have recorded what might seem to be so trivial a matter as story - telling . No doubt this made him the centre of attraction and helped him regain some of his wounded pride . But more important , is the actual sustenance that this living world of the imagination provided him with . It was a relief from the drudgery of the work and the " miserable blank " (*Autobiographical Fragment* , Forster) of the dreary hours he spent alone in his prison-like room . In *David Copperfield* this magical power of story - telling is again recognised as it helps reinstate David to respectability , after he arrives at the school in disgrace for having bitten Mr. Murdstone. Telling part of a story each morning and each night , David manages to survive , like Scheherezade , through this power that holds people enthralled .

For Dickens , the imagination was no less important to adults than it was to children . This he makes clear in *Bleak House* , published immediately before *Hard Times* . Through the stunted lives of the Smallweeds , he gives a concrete example of the harmful effects of the neglect of the imagination for several generations in one family : who " had strengthened themselves in their practical character , discarded all amusement , discountenanced all story books , fairy tales , fictions . " Dickens who feared , above all , the effect of the machine in his day and the degeneracy of men into machines , believed the stimulation of the imagination might prevent that from happening . " In these times , " he says , (*Speeches* , April 1857) " when we have torn so many leaves out of our dear old nursery books , I hold it to be more than ever essential ... that the imagination , with all its innumerable graces and charities , should be tenderly nourished . " This , Dickens proclaims , is what he intends to do in *Household Words* :

No mere utilitarian spirit , no iron binding of the mind to grim realities , will give a harsh tone to *Household Words* . In the bosoms of the young and old , of the well-to-do and the poor , we would tenderly cherish that light of Fancy which is inherent in the human breast .

As soon as Dickens learnt to read , he found himself no less absorbed as a reader than he had been as a listener . He devoured such imaginative works , closely related to fairy stories , as *Gulliver's Travels* and *Robinson Crusoe* , a large number of eighteenth century novels , *Aesop's Fables* , *Tales of the Genie* and *The Arabian Nights* . This last work must have had , by far , the greatest impact on the boy's imagination . Here was a work that had nothing to do with a didactic purpose , but one which transported the reader to exotic lands of strange customs . This was unadulterated entertainment , pure and simple , which nourished the child's imagination and developed his sense of wonder .

Without these readings and his visits to the theatre and pantomime (he saw Grimaldi , the great pantomime clown , at the age of seven) , life would have been weary for this rather sickly child who , for weeks and sometimes months , had to refrain from the strenuous activities of childhood . While other children played , Dickens would sit reading on his bed " as if for life , " transported into a world of the imagination . For him , reading , as he put it , was " my only and my constant comfort . " This was equally true of the bleak London days of his childhood , when books were his only solace : " I should have been perfectly miserable , I have no doubt , " he writes in *David Copperfield* , " but for the old books . They were my comfort . " When he had to sell them and enter into the dull routine of work in the blacking factory , he feared that all he " had learnt , and thought , and delighted in , and raised { his } fancy and his emulation up by , was passing away from [him] , never to be brought back any more " (Forster , *Life of Charles Dickens* Book i ch . II) . During this dark period of his life , Dickens recognised the transfiguring power of the imagination : its enrichment of life and its ability to make tolerable its realities , or " facts , " as he calls them in *Hard Times* . It was through the exercise of his imagination that he survived the traumatic warehouse experience . This took the form of story - telling with which he entertained the men and boys in the blacking warehouse bringing them , no less than himself , relief from the monotony of their lives .

What is significant about Dickens's accounts of his story-

For Dickens, the child who does not believe implicitly in all the fairy tales - in the existence of ogres, fairies, giants and dwarfs, has "a maimed child-mind." "God gave not fancy to the child," he says, "that men should stamp its blossoms down into the loose soil of intellect." (*Household Words* 7 September 1850).

In children's literature, however, no less than in formal education, the child's needs in the eighteenth and early nineteenth centuries, were ignored. Such literature consisted mainly of moral tales, religious tracts, didactic verses and edifying fables, dull in style as well as in content. The ages of reason and industrialism had no place for fancy and its fairy tales, folk tales, stories of wonder, romance and adventure. The rich imaginative English heritage with its world of enchantment and magic was barred from the nursery, which set out to train children to behave logically and rationally and to control impulse and passion. Dickens never ceased denouncing, in his novels, such deadly literature which deliberately turned its back on the sensibilities of the child, to say nothing of the terror those tracts roused in him.

Dickens himself was much more fortunate than the average Victorian child in his early childhood experience, which explains the importance he attributes to fancy and the imagination in life. Even before he was able to read, he had thrilled to a world of fantasy as he listened wide-eyed, in his Chatham days, to two virtuosi tellers of fairy tales: Mary Weller, the young nursemaid who was herself only a child of twelve or thirteen, and his grandmother. Added to her story-telling, which included weird accounts of country superstitions and gruesome tales of horror, Mary Weller had a gift of dramatisation, which made the stories all the more vivid, as she encouraged the Dickens children in her care to enact the stories with her. Thus, Dickens was not merely an enthralled listener, but an active participator in this strange world of imagination. This, no doubt, took deep root in his being, and was later to appear, not merely in the form of his highly imaginative literature, but also in an understanding and appreciation of the vital role that imagination and fancy can and should be allowed to play in life.

ever asking what he was actually capable of learning : as Sissy Jupe puts it , " I have thought sometimes ... that perhaps I tried to learn too much . " True education , as Rousseau understood it , was simply the opportunity given to the child for the development of his original nature , without forcing him to learn anything that went against that nature . Only then could he develop into a happy fulfilled human being , capable of bringing happiness to others , very much as Sissy Jupe is in *Hard Times*.

Dickens , himself one of the most imaginative of English novelists , was quick to recognise that an essential aspect of the original nature of the child is his imagination , also referred to in *Hard Times* as " fancy " or " wonder " . This is associated with fairy tales , story - telling of all kinds and even entertainment in general . In an article entitled ' The School of Fairies ' in *Household Words* (30 June 1855) Dickens shows how vital fancy is to the child and the growth of his mind . It is the food upon which the mind is nourished , and we deny it at our peril :

The fancy of a child is - for the first six or seven years at least , of childhood - by a great deal the broadest channel through which knowledge and wisdom can be poured into the mind . The flower comes before the fruit , in man as in the tree , and in each case the fruit is developed from the flower ... The mind has its own natural way of growing , as the body has , and at each stage of growth it asks for its own class of food . We might ... it is to ... for any child . Just as ... which would help their perfect bodily development , essential to it . So ... the bread ; but ... heavy on the stomach . fairy tales (monstrous delusion) make the mind idle and too languid for other work . The truth being , in the last case , that they make the mind active , and indisposed for other work that does not give it enough exercise .

his mental breakdown at the age of twenty one, and his subsequent conversion . As he reviews his early manhood he sees himself as a perfect example of the popular concept of a Benthamite as " a reasoning machine . " Deprived of the feelings , undervalued by his father for whom logic and analysis were all important , Mill had worked his intellect to breaking point . Only with his breakdown does he realise the danger of this one-sided existence dependent on the mind . Eventually he comes to see the analytic habit upon which he had been brought up as " a perpetual worm at the root both of the passions and of the virtues , " undermining " all desires and all pleasures . " The turning point for Mill came with his reading of Wordsworth , whose poetry had a healing effect on him in his state of dejection and deep depression . After long years dominated by the dry intellect divorced from the heart , Wordsworth taught Mill the cultivation of the feelings . The poetry with its powerful expression of " states of feeling and of thought coloured by feeling under the excitement of beauty " (*Autobiography* p. 125) brought Mill back to mental health .

Had *Hard Times* appeared twenty years after , rather than twenty years before the publication of Mill's *Autobiography* , one might have concluded that Dickens had been inspired by Mill's account of his education , the stunting effect it had on him and the discovery of the healing power of poetry . In fact , the whole thesis on child education in *Hard Times* is close to the story of Mill's experience . That there is no direct influence is a credit to Dickens's deep insight into the child's needs in his early formative years , an insight which is far from typical of the age , as witness the education of Mill . In the eighteenth century Rousseau had insisted in *Emile* (1762) , his educational treatise , that education should take , as its primary concern , the peculiar nature of the child which is essentially different from that of the adult . The trouble with the attitude to the child until well into the Victorian age , however , was that it required him to be an adult before he had enjoyed being a child . This had a particularly harmful effect when it came to a form of education that expected the child to learn an excessive amount of information by rote , without

worthy of Dickensian satire . And Dickens took up the challenge in *Hard Times* .

This dry utilitarian philosophy , based on facts and figures and self interest , which was readily accepted by the industrialists of nineteenth century England , was bound to find an echo in the schoolroom , where the ideas which prevail can only spring from the society in which it functions . As in industry , so in education , utilitarianism claimed its victims .

One of the most famous of these wrote of his experience in his *Autobiography* (1873) . John Stuart Mill , the nineteenth century thinker , was brought up by an unimaginative father and disciple of Bentham's . The rigid upbringing of Mill , which required constant study from the age of three , allowed for no feeling or play of the imagination . Like the Gradgrind children , he was treated by his father as though he were an empty vessel ready to have the greatest amount of knowledge poured into him . Mill learnt Greek when he was three ; by the age of eight he had read Herodotus , Xenophon , and some of Plato's dialogues ; at twelve he was studying Aristotle's logic , and at thirteen he was doing history , political economy and mathematics . Although Mill's studies were of a superior order to the young Gradgrinds ' fact - ridden education , and did not exclude literature , the amount of intellectual work required of the child was unnatural . Like most education at the time , it did not take into account the nature of the child and his needs . The lack of spontaneity and feeling in Mill's education , and also in the home , inevitably left their mark on him in later life . This is reflected in his *Autobiography* which Carlyle considered dull and dry , the product of a machine-like mind :

It is wholly the life of a logic-chopping engine ,
little more of human in it than if it had been done by
a thing of mechanised iron . *Autobiography of a steam
engine ...* (Froude , *Life in London* , vol . ii , p. 420)

Probably the most interesting part of the *Autobiography* and the most relevant to *Hard Times* is Mill's description of

the loss of the "sense of wonder" and, for Carlyle, "the man who cannot wonder," like the Gradgrindian utilitarian, "were he President of innumerable Royal Societies ... is but a pair of Spectacles behind which is no Eye." (*Sartor Resartus* Book i ch. 10). There is much more to life than mere factual mechanical existence, the idea of which Carlyle altogether rejected: "I, for my share," he says, "declare the world to be no machine! I say that it does *not* go by the wheel-and-pinion, motives, self interests, cheques, balances; that there is something far other in it than the clank of spinning jennies and parliamentary majorities; and, on the whole, that it is not a machine at all." (*Heroes and Hero Worship*, lecture v). Here, Carlyle is thinking not so much of the Newtonian concept of the world, but of the utilitarian philosophy of Victorian England, based on the ethic of self interest and the cash-nexus, which reduced life to the calculable and the profitable. This is the dry Benthamite philosophy that Dickens satirises in *Hard Times* by exposing it, through the bleak lives of the Gradgrind children, as a killer of joy and a destroyer of life.

Bentham had argued that self interest would in the long run lead to the general good. And just as Adam Smith had maintained, with his doctrine of *laissez-faire*, that every trader was the best judge of his own profit, so Bentham had likewise pointed out that every man was the best judge of his happiness. Each individual, therefore, should be given the entire freedom to pursue his own happiness and his own profit. And the best society for Bentham was the one that ultimately arrived at "the greatest happiness for the greatest number." What is so striking about this doctrine is not merely that it is based on the principle of self interest as motivation, but that it puts forth the belief that human life and the feelings, are reducible to a mathematical figure. For Bentham, pleasure and pain are measurable and happiness is calculable. He even managed to work out an elaborate calculus of pains and pleasures equal in all men, listing fourteen simple pains, which are then subdivided and detailed. No one loved the world of fact more than Bentham, unless it is Mr. Gradgrind for whom all is cut and dry reason, with no place for Carlyle's "wonder" or Dickens's imagination and fancy. This is a travesty of life

industrialism and its utilitarian philosophy, and the manner in which they have changed the quality of life, morally and spiritually as well as physically.

Dickens's critique of utilitarian ethics and Manchester business theories is brilliant, as compared with the less successful treatment of specifically industrial issues. The parts in the novel related to Stephen Blackpool caught in the conflict between workers and master in no way deal with the problem at its roots - as Mrs. Gaskell does in her industrial novels - and in their sentimentality are the least memorable in the novel. The other parts, on the other hand, with Bounderby the banker and manufacturer, Mrs. Sparsit his foil, and the Gradgrinds, particularly the children, carry the greater weight of the novel, and reveal Dickens at his most powerful as satirist. In spite of this imbalance, the two sides of the issue are inextricably linked: the state of things, whether in relation to the working or the middle class, is the outcome of the same ruthless system which drains the life out of the human being so that he is hardly recognisable as human, but rather more like a machine.

It is significant that Dickens dedicated *Hard Times* to Thomas Carlyle, one of the leading Victorian thinkers who distrusted the materialism of the machine age. From Dickens's letter to Carlyle asking for permission to dedicate the novel to him, it is obvious that he knew Carlyle's works well and shared his views on the England of their day: "I know it (*Hard Times*) contains nothing which you do not think with me," Dickens writes, "for no man knows your books better than I." Carlyle, who no doubt inspired Dickens, railed in prophetic style in his writings against conditions in industrial England and the dehumanisation of life. The fault, however, as he saw it, did not lie in the machine itself, but in the materialism that had emerged with it, particularly in the economic principles which laid the foundation of the new society based on the power of industry. Carlyle traced the evil back to the eighteenth century with its worship of reason. The Newtonian concept of a world following predetermined and immutable laws, a machine-like well ordered world functioning with the precision of a clock, was to him unacceptable. This meant

chael), thus antagonising his own fellow workers . And in spite of Dickens's sympathy for the plight of the working class, he presents Slackbridge , the trade union leader , as a demagogue. Dickens , in fact , contradicts in *Hard Times* what he maintains elsewhere in his speeches and articles , making it difficult for the critic to judge his political stance . Harriet Martineau , who had many differences with Dickens on this account, ended by dismissing him as no political economist . Referring to what she considered to be his " irresponsible sentimentality " in his portrayal of Stephen Blackpool , she says :

Nobody wants to make Mr. Dickens a Political Economist; but there are many who wish he would abstain from a set of difficult subjects, on which all true sentiment must be underlain by a sort of knowledge which he has not .

(*Autobiography* , 1855 , 2 : 378)

Nor would Dickens have wanted to be labelled a political economist , and least of all one of the type represented by Harriet Martineau , who belongs to the very school of political economy which he satirises so bitterly in *Hard Times* . This novel , therefore , is not a carefully thought out political tract , and Dickens himself would have been the first to admit that he had no political aptitude . His genius lay elsewhere , as one writer says :

We don't blame him for not being a great politician. It would be almost miraculous if a man with such rare power of individualizing as he is endowed with, should possess also the power of habitually considering questions in their most comprehensive and abstract bearing .(*Blackwood's Magazine* , April 1857)

Dickens's deep reverence for each individual life , expressed through his " power of individualizing , " lies at the heart of *Hard Times* . Against human life he sets the machine and the machine made society of his day . *Hard Times* is not merely about the life of the working class that is crushed by the machine , but even more about the life of the middle class dehumanised through a theory of political economy based on the principle of self interest . It is an indictment of

havoc with the lives of people , as it brought wealth to the few and suffering to the many . This , however , is not true of Dickens's attitude in the early years of the fifties , when he shared the enthusiasm of many of his contemporaries for the new industrial power of England . His faith in the progress of mankind is expressed in his first number of *Household Words* (30 March 1850) where he writes in glowing terms of the "mightier inventions of this age , " and of the " privilege of living in this summer-dawn of time . " A year later his optimism remains unimpaired , as he refers to the movement of society in the right direction " towards some superior condition ... politically , morally , intellectually , and religiously " (*Household Words* 12 July 1851) . Even as late as 1853 (*Speeches* , 160 : Birmingham) he is full of praise for the "beautiful order and regularity " in factories and workshops , and the great " consideration " for the work people . This , however , changes in *Hard Times* where a puzzled sense of muddle and an overwhelming meaninglessness hang over Coketown and its inhabitants . Mr. Rouncewell , the enlightened humane iron master of *Bleak House* is superseded by the heartless Josiah Bounderby of *Hard Times* , the former representing the bright side of capitalism , the latter its ugly side . Mr. Rouncewell points to a better future as he takes over from a decaying feudal class . Bounderby , on the other hand , in his embodiment of the materialism and ruthless individualism of the new industrial society , exposes a bleak present and points to an even bleaker future . One may well ask where Dickens's optimism and faith in progress had vanished to .

An artist is not necessarily required to be consistent when it comes to politics or political economy . Much has been said about the confusion of Dickens's ideas , the naivete of his politics , and the lack of understanding of the economics of his age and of the bitter conflict that was developing between capital and labour . He was capable of admitting , for example , that the workers had as perfect a right " to combine as the combined masters " had , and yet he would not allow Stephen Blackpool , the sympathetic working class character in *Hard Times* , to join the trade union (no plausible explanation is given except some vague promise he has made to Ra-

leave in their wake a path of waste and destruction . The promise suggested in " the strong purposes not yet achieved " dissolves into a nightmare of overwhelming darkness and death the minute the engine is associated with human life . Dickens's social awareness and deep sympathy for the underprivileged in their physical wretchedness comes to the fore , and the miserable surroundings of the urban poor are exposed as the railway engine shrieks " tearing on resistless to the goal... its way , still like the way of Death , is strewn with ashes thickly . Everything around is blackened ." The lanes are muddy , the houses are tumbling down and within them is " deformity of mind and body ." (ch . xx)

A particularly striking description of industrial England appears in *The Old Curiosity Shop* , which is all the more terrifying as it is seen through the innocent eyes of Little Nell , the child heroine . Here England's Black Country is presented as a vision of hell with workers like " demons among the flame and smoke " feeding the furnaces amidst the roar of beating hammers , " the hissing of red hot metal plunged in water , " and the glow of great sheets of steel . All toil in unbearable heat , while the exhausted lie upon " heaps of coal and ashes " (ch . xlv) . This infernal setting with its contrasts of light and darkness against which we see the superhuman activity of its workers , has both its fascination and horror for Dickens . For a while the workers appear Olympian in their physical strength as they survive these satanic conditions . But the darkness soon overtakes all . The coal dust and factory smoke of the " wrathful monsters " with their " never ceasing black vomit , " destroy " all things living or inanimate , shutting out the face of day , and closing in on all these horrors with a dense dark cloud . " The image deteriorates from the sublimity of hell with its " giant " slaves to a soulless world of machinery devoid of life . Only

strange engines spun and writhed like tortured creatures ;
clanking their iron chains , shrieking in their rapid whirl
from time to time as though in torment unendurable , and
making the ground tremble with their agonies . (ch . XLV)

Dickens's graphic description of this unnatural sinister life of the machine might imply that he would have had the clock put back , rejecting this new force that was playing

individual his humanity . Ruskin , thus , considered *Hard Times* Dickens's greatest novel , and Shaw pronounced it the work of the mature Dickens who no longer presented the evils of society sporadically , but exposed them as inextricably interrelated, all being symptoms of the same economic system . Shaw ('Introduction to *Hard Times* ' , 1912) , in his revolutionary ardour , saw in this novel an author

rising up against civilisation itself as a disease , and declaring that it is not our disorder but our order that is horrible .

He then goes on to explain :

Here you will find no more villains and heroes , but only oppressors and victims driven by a huge machinery which grinds to pieces the people it should nourish and enoble .

The image of the machinery which dominates *Hard Times* , overshadowing the lives of its characters , working and middle class alike , is evidence of the all-embracing nature of Dickens's vision of contemporary England as presented in this work . One may deduce how comprehensive it is from Dickens's account of how the idea of the novel laid hold of him "by the throat in a very violent manner " (*Letters* , 2 : 602) .

Although the idea appears to have come to him in a flash, Dickens had long before been aware of the upheaval that the spread of industry was causing in nineteenth century England. This is apparent in the recurrent image in *Dombey and Son* of the railway engine which , like the later Coketown machinery, is endowed with a monster - like life of its own both terrifying and fascinating in its power . In *Dombey and Son* Dickens shows the railway engines tearing up and transforming the face of London . His attitude to these creatures however , is ambivalent , varying from admiration for the "conquering engines ... advancing smoothly to their journey's end , and gliding like tame dragons ... bubbling and trembling ... making the walls quake , as if they were dilating with the secret knowledge of great powers yet unsuspected in them , and strong purposes not yet achieved " (ch . x v) , to terror from their menacing relentless movement forward , as they

DICKENS ' S *HARD TIMES*

A PLEA FOR THE IMAGINATION

Hard Times , which first began appearing in weekly instalments on 1 April, 1854 is one of Dickens's later novels of maturity. Like *A Tale of Two Cities* and *Great Expectations* it shows a compactness uncharacteristic either of his earlier picaresque novels or of his later monumental works such as *Little Dorrit* and *Our Mutual Friend* . Dickens, who was used to writing his novels in the form of monthly instalments, found the weekly parts difficult to cope with at first. For one who was accustomed to plenty of elbow room in his presentation of a large gallery of characters and the development of intricate plots, the brevity required, through lack of space in *Household Words* , made Dickens feel uncomfortable when he started writing . He complained of the " difficulty of space " which he described as " crushing " . Nevertheless , the completed work , for long regarded by Dickens's critics as inferior to his other novels , was finally acknowledged by F . R . Leavis as a little masterpiece of fiction :

In the books and essays on Dickens , so far as I know them, it is passed over as a very minor thing , too slight and insignificant to distract us for more than a sentence or two from the works worth critical attention . Yet, if I am right , of all Dickens's works it is the one that has all the strength of his genius , together with a strength no other of them can show - that of a completely conscious work of art.

(*Hard Times* ' An Analytic Note ' *The Great Tradition* ,
p.227)

Although critics were slow to recognise the literary value of *Hard Times* , and many dismissed it as intensely bleak and lacking in the early exuberant Dickensian humour , discerning critics , such as John Ruskin and Bernard Shaw , saw in the novel that came close to their own radical ideas a remarkable culmination of Dickens's earlier attacks on the social and economic ills of the age . They were quick to appreciate it as a severe indictment of the underlying principles - social and economic - of an industrial civilisation that was denying the